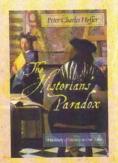




The Historian's Paradox The Study of History in Our Time



هذا الكتاب يترجم إلى العربية للمرة الأولى، ويتناول موضوعًا مهمًا يتعلق بالفكر التاريخي المعاصر، وبدراسة التاريخ وتدريسه في الجامعات والمدارس الأمريكية، وهو حافل بالمعلومات المفيدة في هذا المجال، تلك التي توقفنا على بعض الجوانب المتعلقة بالتاريخ، وكيفية النشر في المجلات التاريخية التي تصدرها الجمعية التاريخية الأمريكية وغيرها. كما يرسم لنا صورة للنشر في دور النشر أو مطابع الجامعات في أمريكا، وحالات الغش والانتحال الشهيرة في تاريخ الجامعات الأمريكية، فضلاً عن كيفية تحول البحث التاريخي إلى نوع من "البرنس" في كثير من الحالات كما يخبرنا المؤلف.

تناقضات المؤرخين

دراسة التاريخ في زماننا

المركز القومى للترجمة

تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كامينيا صبحى

- العدد: 2192
- تناقضات المؤرخين: دراسة التاريخ في زماننا
 - بيتر تشارلز هوفر
 - قاسم عبده قاسم
 - اللغة: الإنجليزية
 - الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

THE HISTORIAN'S PARADOX:

The Study of History in Our Time

By: Peter Charles Hoffer

Copyright © 2008 by New York University Press Arabic Translation © 2013, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقّوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة شارع الجبلاية بالأويرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

تناقضات المؤرخين

دراسة التاريخ في زماننا

تــــاليف: بيتــر تــشارلز هــوفر ترجمة وتقـديم: قاســم عبــده قاســم



بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكنب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

هوفر، بيتر تشارلز.

تتاقضات المؤرخين: دراسة التاريخ في زمننا∕ تأليف: بيتر تشارلز هوفر،

ترجمة ونقديم: قاسم عبده قاسم؛ ط ١ – القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣

٣٤٨ ص ، ٢٤ سم

١ - التاريخ

(أ) قاسم، قاسم عبده (مُترجم ومُقدم)

(ب) العنوان

9 . 4,4

رقم الإيداع ٨٩٦٨ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: 1 - 089 – 216 - 977 - 978 - 978 - 1.S.B.N - 978 - 977 - 216 طبع بالهيئة العامة لشنون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	نقديم
17	مقدمة
33	١– سيكون منطقيا أن نفترض
	هل يمكننا حقا أن نعرف الماضي؟ ربما نستطيع. كل شيء عن
	الحقائق والاستنباط والتعليل.
71	٢ – ما الخطأ في هذه المجادلة؟
	يستغل المؤرخون الحقائق لخوض المجادلات. هذه المجادلات تكون
	عنيدة أحيانا ولكن يمكن للمؤرخين أن يتعلموا أن يعملوا بشكل أفضل .
103	٣ – المؤرخون والسؤال المشحون
	المؤرخون ليسوا فوق طرح السؤال والأسئلة القريبة منه، أي الأسئلة
	الفرضية والبلاغية، فذلك جزء مهم من التحليل التاريخي وتدريس
	التاريخ.
125	٤ – سبب الانتباه
	التعليل التاريخي بالكلمات وبالأرقام جزء حيوى من دراستنا، ومن
	أية فلسفة للتاريخ.
159	٥ – أحدنا يكذب
	ولم لا؟ المؤرخون يكذبون، وبعض كتب التاريخ كلها أكاذيب
	للإيجار أو الكسب، ولكن الكذب جزء من الثاريخ أيضيا يمكن تحويله

	إلى استخدام مفيد.
191	٦ – سياسات التاريخ والتاريخ في السياسة
	للمؤرخين شئونهم السياسية الخاصة كما أن السياسيين يستغلون
	التاريخ طوال الوقت. لقاء فراش بين غرباء ودرس لكل منهما.
227	٧ – المؤرخون في السوق
	المؤرخون ليسوا مجرد باحثين أو مدرسين. إنهم باعة أرصفة
	ومروجو بضائع. ما معنى ذلك بالنسبة لفلسفة الناريخ؟ لنطرح
	السؤال في مباراة النظرية.
257	٨ – اللايقينيات
	هل كلمات المؤرخين أشياء أيضا؟ هل يمكن للمؤرخين أن يجدوا
	نماذج في خضم فوضى البراهين؟ هل يمكن أن يكون هناك تاريخ
	حقيقي، أم أن التاريخ سيكون على الدوام نسبيا حسب الزمان
	و المكان بالنسبة لمن يدرسونه؟
283	٩ – المؤرخون يواجهون مشكلة الشر
	أقدم المعضلات التاريخية وأكثرها إزعاجا. والمشكلة التي يمكن
	للمؤرخين وحدهم أن يحلوها.
307	خاتمة: جسر إلى الماضى
313	مسرد المصطلحات الصعبة
	جميع المصطلحات الواردة في النص مشروحة مرة أخرى.
327	مقالة بيليو حر افية مختصر ة حدا

تقديم المترجم

التاريخ، علم صاحب الإنسان في رحلته المستمرة في رحاب الــزمن منذ طفولة العقل البشرى، الذي حاول السعى وراء المعرفة منــذ عــصر الأسطورة حتى عصر العلم وتكنولوجيا المعرفة والمعلومات. كان التــاريخ جنينا في رحم الأسطورة حينما قــام الإنــسان الأول بابتــداع الأســطورة لترقيع النقص في ذاكرته، لأنه لم يكن يعرف كيف يكتب أو يسجل ما مــر عليه من أحداث.

ومن رحم الأسطورة خرج التاريخ – علما ورفيقا – يسعى مع الإنسان في رحلته الأبدية باحثا، وفاحصا، ومتسائلا في محاولة لأن يفهم الإنسان، ويفهمه، قصته في هذا الكون وما تحمله من مغزى، ومهمته في رحلة الحياة على سطح هذا الكوكب. ومثلما تطور الإنسان في مختلف جوانب حياته وسعيه في الكون، منذ كان تحت رحمة الطبيعة ونزواتها تماما، حتى استطاع اكتشاف الكثير من حقائق حياته وحقائق الكون الذي يحيا في كنف بفضل العلم واكتشافاته وتطبيقاته، تطور التاريخ حتى صار علما متعدد المشارب، كثير الوجوه والجوانب، له الكثير من الفروع والتخصصات التي تخصص لها الأقسام في مراكز البحوث المختلفة والجامعات، في بلاد الدنيا على اتساع أرجائها وتنوع بلدانها.

وفى "تاريخ التاريخ" مر هذا العلم، الذى يقوم على ثلاثية الإنسان والزمان والمكان، بتطورات عدة فى تاريخ الأمم والثقافات المختلفة: من الأسطورة حتى العلم. ولم تكن تلك التطورات والمراحل المختلفة التى مر بها

التاريخ واحدة أو موازية زمنيا في جميع ثقافات البشر وحضاراتهم بطبيعة الحال. فقد بدأ التاريخ ربيبا للحكام الذين كانوا في كثير من الثقافات القديمة يعتبرون من نسل الآلهة، أو أعضاء في حكومات الآلهة على أقل تقدير. ثـم بدأ التاريخ ينزل من سماوات الآلهة وعليائها إلى أرض البشر وفعالهم؛ ولكنه بقى في الغالب الأعم تاريخ الحكام والساسة والقادة: يمسشى في ركابهم، ويعيش على حكاياتهم وأسرارهم، يسعى وراء مؤامراتهم ومغامراتهم حتيى ظن البعض من در اسى التاريخ أن "التاريخ سياسة الماضي وأن الماضي تاريخ المستقبل" ونسوا أنه قصمة الإنسان في الكون: يسجل أعماله، ويقدر رفعته، ويحيى نجاحاته، ويدون كل ما يتصل به من رفعة وضعة، من ر انتصار وانكسار، ويحاول أن يفهم سر الحياة الاجتماعية وقوانينها، وحقائق الصراع بين البشر والتعاون فيما بينهم أيضا. وكان حتما مقضيا، مع التطورات التي ألمت بحياة الناس في المجتمعات المختلفة، أن يهتم التاريخ والمؤرخون بالبشر في حياتهم اليومية والاجتماعية بشتى جوانيها السسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية... وما إلى ذلك. فظهرت الفروع المختلفة للدر اسات التاريخية، وتكونت المدارس المتنوعة في الفكر التاريخي، وكان النراث العربي الإسلامي، في عصور السيادة الإسلامية، ثـم التراث الأوربي منذ القرن الثامن عشر فصاعدا، من أهم القواعد التي قام عليها الفكر التاريخي الإنساني لاسيما بعد تطور الاتصال والمواصلات الذي جعل العالم كله متقاربا وقريبا من بعضه في كل شيء، ولم يكن الفكر التاريخي استثناء في ذلك بطبيعة الحال.

وفى أثناء هذه الرحلة الطويلة تعددت فروع البحث التاريخى والدراسات التاريخية، ونشأت مدارس، وتبلورت فلسفات التاريخ المختلفة فى ثقافات الشعوب والأمم المختلفة تروج لفكرة التاريخ فى هذه الحضارة أو تلك من ناحية وتحاول فهم القوانين الحاكمة لحركة الإنسان في الكون من ناحية أخرى. وصار التاريخ جزءا مهما من ثقافة الإنسان في الأمم المتقدمة. وصارت معرفة تاريخ الأمة مقياسا لمدى رقى الفرد من أبنائها. ولذلك السبب كان التاريخ باستمرار هدفا للمحتلين والغرباء والطغاة الذين رأوا فيه باستمرار عدوا لا يلين ولا يقهر ؛ فحاولوا تغييبه عن الشعوب أو حاولوا تغييب الشعوب عنه.

ومن ناحية أخرى، كان لابد لعلم التاريخ نفسه أن يتطور بالشكل الذى يلبى حاجة الأمم والأفراد إليه، ولم يعد التاريخ رهين قاعات الدرس فسى المدارس والجامعات، أو صفحات الكتب والمجلات، أو المناقسات فسى الندوات والمؤتمرات. وخرج إلى الناس مسموعا على أثير الإذاعة على شكل دروس ومسلسلات درامية تمزج بين الحقيقة والخيال، ثم وجد فى السينما وأفلامها حظه الأوفر بما تتمتع به السينما من إمكانات تبعث التاريخ حيا أمام جمهور الناس الذين زادتهم الأفلام التاريخية شوقا لمعرفة التاريخ، وعلى شاشات ذلك الساحر والعجيب (التليفزيون) دخل التاريخ البيوت، ومخادع النوم، وصار وجبة ميسورة التناول: سواء على شكل الدراما التاريخية التى تثبت الإحصائيات أن الإقبال عليها كبير. وبات بالإمكان أن يعيش الناس صورا من الماضى أو قريبة منه فى أضعف الأحوال، ومع وجود الكمبيوتر وشبكة الإنترنت صار بوسع من يريد أن يجد التاريخ بالشكل الذي يرغب فيه أن يجده: مقروءا، أو مسموعا، أو مرئيا؛ فى صورة عملية أو درامية وتمثيلية.

وقد ظهرت كتب كثيرة لا تتناول الحوادث التاريخية، أو الظواهر التاريخية، وإنما تتناول علم التاريخ نفسه من حيث تطور منهج البحث

التاريخي، وأساليبه، أو من حيث طرق البحث التاريخي، أو تاريخ الكتابـة التاريخية، وإذا كان ابن خلدون يرتبط بالفكر التاريخي العربي بسبب فلسفة التاريخ التي ضمنتها مقدمته الشهيرة، فإن التراث التاريخي في الثقافة العربية الإسلامية يحفل بالعديد من المؤرخين الحقيقيين الذين طوروا علم التاريخ ووضعوا كتبا مهمة في تاريخ التاريخ وفلسفته: مثل الطبري، والمستعودي، والمقريزي، وابن إياس وغيرهم من الذين طوروا هذا العلم ورفعوا مكانته في تاريخ الفكر الإنساني عامة. ومن ناحية أخرى، شهد الفكر الغربي اللذي بدأ ينفض عن نفسه غبار العصور الوسطى تطور ات جليلة ومهمة، وأخذ يطور نفسه منذ القرن الثامن عشر في مجال المعرفة التاريخية، حتى وصل إلى درجة صار فيها الفكر المرجعي في عالم المؤرخين اليوم. بيد أن ذلك يصدق بدرجة كبيرة على شرق المحيط الأطلنطى؛ أي أوربا، ولكن ظلل الشك تحوم حول مدى صدقه فيما يتعلق بأمريكا. ويبدو أن ضحالة التاريخ الأمريكي نفسه السبب في ذلك: فليس هناك عمق في التجربة التاريخية (الهيجلية، الماركسية، وأرنولد توبني، وشبنجلر... وغيرها). ومع أن هناك عددا كبيرا من المشتغلين بالتاريخ في الولايات المتحدة الأمريكية ينتشرون في جامعاتها العديدة ومراكر البحوث بها، فإن نتاجهم الفكري، وليس التطبيقي، لا يزال بعيدا عن منافسة التراث الأوربي في مجال الفكر التاريخي.

وهذا الكتاب الذى يترجم إلى اللغة العربية للمرة الأولى تحت عنوان اتناقضات المؤرخين - دراسة التاريخ في زماننا" يتناول موضوعا مهما يتعلق بالفكر التاريخي المعاصر ودراسة التاريخ وتدريسه في الجماعة والمدارس في الولايات الأمريكية. والكتاب حافل بالمعلومات المفيدة في هذا المجال، والتي توقفنا على بعض الجوانب المتعلقة به، وكيفية النشر في

المجلات التاريخية التى تصدرها الجمعية التاريخية الأمريكية وغيرها، كما يرسم لنا صورة للنشر فى دور النشر أو مطابع الجامعات فى أمريكا، وحالات الغش والانتحال الشهيرة فى تاريخ الجامعات الأمريكية، فضلا عن كيفية تحول البحث التاريخى إلى نوع من "البيزنس" فى كثير من الحالات، كما يخبرنا المؤلف.

ويتناول الكتاب بعض الأمور الفكرية المهمة في البحث التاريخي؛ ولكن المؤلف اختار أن يعالجه بطريقة تبدو غريبة على هذه النوعية من الكتابة في علم التاريخ. ذلك أنه تناول عددا من الموضوعات على طريقة الصحافة وبعناوين مشابهة لها (ويلفت النظر أنه مغرم تماما بالكتب التي فازت بالجوائز) فقد بدأ المؤلف كلامه في الفصل الأول مثلا، على أساس أن التاريخ مستحيل من وجهة نظره: وهو يقصد باستحالة التاريخ هنا أننا لا يمكن أن نعود القهقرى في رحاب الزمان لكي نشاهد التاريخ مرة أخرى، أو لكي نراه ماثلا بالشكل الذي يمكننا من دراسته. وهو كلام حقيقي إلى درجة كبيرة، ولكن الطريقة التي تناول بها الكتاب تدعو إلى التأمل وتثير الدهشة إلى حد ما. حقيقة أن الماضى قد ولى و لا سبيل إلى استعادته، أو الذهاب إليه، بيد أن البحث التاريخي لا يسعى للعودة إلى الماضي بقدر ما يسعى إلى استرداد أقرب صورة، لجزء من هذا الماضى، من ذمـة الزمـان مـستعينا بمنهجه ووسائل البحث التي يعمل بها الباحثون والمؤرخون لكي يحاولوا رسم صورة أقرب ما تكون إلى ذلك الماضى، ولسنا هنا بصدد استعراض كل الأفكار التي يطرحها المؤلف في طيات صفحات هذا الكتاب بطبيعة الحال، ولكن هذه الأفكار تستوجب الالتفات حقا، وتستحق مناقشة واعية.

و إذا كنا نشبه التاريخ في أحد معانيه بأنه مثل النهر الذي يجرى من منبعه إلى مصبه، حاملا معه كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة من الحياة

البشرية في هذا الكون منذ بداية الوجود الإنساني حتى اليوم، فإن معنى هذا أننا لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن ندرس التاريخ البشرى كله مرة واحدة تحت أى ظرف من الظروف، ومهما كانت أعداد المؤخين الهذين يقومون بمثل هذه الدراسة المفترضة. ذلك أن دراسة التاريخ أشبه بدراسه المياه التي يحملها النهر: فليس من المتصور، أو من المعقول، أن يتم تقريغ مياه النهر في إناء كبير لدراسة خصائصها، وإنما تؤخذ عينة من هذه المياه من مناطق مختلفة لدراسة خصائصها. وبالمثل، تتم دراسة التاريخ عن طريق "العينات". ويعني هذا في التحليل الأخير أن دراسة التاريخ ليست مستحيلة لأننا لا يمكن أن نعود إلى الماضي كما يقول المؤلف؛ وإنما تستم مستحيلة لأننا لا يمكن أن نعود إلى الماضي كما يقول المؤلف؛ وإنما تستم دراسة التاريخ بالمناهج التي تطورت واستقرت طوال الفترة التي يمكن أن نسميها "تاريخ التاريخ". ويحاول المؤلف أن يناقش مسألة قتلت بحثا وكأنه يبدأ من البداية دون أن يكون هناك تراث سابق في المعرفة التاريخية يبدأ منه وبضيف عليه!!

تتناول فصول هذا الكتاب التي تصل إلى تسعة فـصول عـددا مـن القضايا التي يزعم المؤلف أنه يسعى من خلال مناقشتها للوصول إلى "فلسفة تاريخ زماننا" على حد تعبيره، ومن يقرأ الكتاب فسوف يكتشف بـسهولة أن الكتاب يناقش غالبا قضايا في الممارسة اليومية التي يمكنه أن يتخذ منه أمثلة على ما يريد الوصول إليه من ناحية، وأن الأمثلة التي يسوقها تـشير إلـي قضايا محلية نظرتها المحاكم الأمريكية: مثل حـق الإجهاض، والتفرقة قضايا محلية نواحداث ومواقف الحرب الأهلية الأمريكية من ناحية أخرى، وهي أمثلة لا يمكن بحال من الأحوال أن تساعد المؤلف، أو أن تقدم الـسند لأي فلسفة تاريخ في أي زمان ومكان بسبب محدوديتها، وبسبب انحـسارها

داخل ثوب التاريخ الأمريكي الضيق. وعلى الرغم من أن الكتاب مليء بالمعلومات المتفرقة عن أمور وأبحاث مهمة في التاريخ الأمريكي (وهو كله تاريخ معاصر على أية حال)، فإن الهدف الذي حدده المؤلف لكتابه ونفسه يبدو بعيدا للغاية، لأن المؤلف محبوس داخل تجربته المحدودة، وكذلك داخل تاريخ بالده فقط.

يناقش الكتاب قضية الكذب في الكتابة التاريخية، وفي رأيه أن الكذب ضرورى أحيانا بسبب عدم القدرة على الوصول إلى الحقيقة كاملة!! وينسى أو يتناسى، أن المؤرخ مقيد بمنهج البحث التاريخي: وفي الأمثلة التي يقدمها يخلط كثيرا بين الكذب على لسان السياسيين والزعماء وبين البحث التاريخي، والكتاب يناقش قضايا عديدة في مجال سعيه للبحث عن "قلسفة تاريخ مناسبة لزماننا"، وهو ما أظن أنه لم يوفق في الوصول إليه.

أما عن الترجمة فهى مهمة لا يعرف مشاقها، ومتعتها، سوى مسن يكابدها، وفي هذا الكتاب حاولت قدر طاقتى أن أضع النص في لغة عربيسة سليمة مع الاحتفاظ تماما بالمعنى الذي يقصده المؤلف. وفي بعض نقاط الاختلاف مع النص رأيت أنه من واجبى تجاه القارئ العربي أن أوضح موقفى في هوامش الكتاب، وفي أحيان أخرى، وضعت تفسيرات لبعض الكلمات والمصطلحات التي جاءت في سياق النص. ولم أر فائدة من ترجمة "المقالة الببليوجرافية المختصرة جدا" التي كتبها المؤلف في نهاية الكتاب، لأنها لا يمكن قراءتها بشكل مفيد للقارئ العربى؛ فليست هنا هوامش في الكتاب كله تحيلنا إليه تلك المقالة، كما أنها نتناول موضوعات ببليوجرافية خالصة، كما أن المؤلف ابتكر فيها شكلاً خاصنا به، وليم تستقر عليه الدراسات التاريخية التي تقوم على أسس راسخة نتيجة خبرة تاريخية طويلة.

على أية حال، فإننى لا أريد أن أوجه القارئ العربى الكريم نحو موقف مسبق من الكتاب الذى أراه يستحق القراءة لأسباب كثيرة، ومن ناحية أخرى فإن الكتاب – على الرغم من حجمه الصغير نسبيا – كان رحلة غير مريحة في جوانب متعددة حاول المؤلف سبر أغوارها ووفق أحيانا، ولم يوفق في أحيان أخرى، فهل يجدني القارئ موفقا في الترجمة العربية. أرجو ذلك، والله والموفق والمستعان.

دکتور/ قاسم عبده قاسم مدینة ۲ أکتوبر – دیسمبر ۲۰۱۱م

المؤرخ. ثرثرة على نطاق واسع

- أمبروزبييرس (١٩١١م)

المشكلة الحاسمة التي يجب علاجها هي: ما الذي يمكن أن تكون عليه فلسفة التاريخ الحقيقية؟.

- جاك ماريتين (١٩٥٧م)

فى جزء كبير تعتمد مزاعم المؤرخين بالجدية، والأصالة والموضوعية، على قدرهم فى إقناع أندادهم أنحسم تجنسوا السفسطة والحداع والأنجذاب إلى العواطف التى تسرتبط عادة بالبلاغة.

-هایدن هوایت (۱۹۷۳م)

ولكننى يجب أن أكون واضحا لدى أولئك الله قلم تصدمهم خفة المناقشات وحماقتها من حيث إن مناقشتى ليست الأولى في هذا الصدد، لكنها من النوع نفسه الله كان كبار الكتاب يمارسونه غالبا.

إراسموس، في مديح الحماقة (١٥٠٩)

مقدمة

كيف لنا أن نعرف ما حدث فى الماضى بالضبط؟ لا يمكننا أن نعـود القهقرى فى رحاب الزمن، وحتى المؤرخين الذين يعدون بأنه فى وقت ما فى المستقبل سيكون المؤرخون قد جمعوا من الحقائق ما يكفى لفهم كيف كان الحال " أنذاك " بصورة يقينية مثل المؤرخ الألمانى فيلهلم دلتـاى William الذى اعترف أن " تفسير الروابط التاريخية... لا يمكـن أن يبـرر نفسه بواسطة براهين لا خلاف عليها إذا واجهت الشك التاريخي " أنى لنا أن نعرف أنك أصبت عين الصواب؟

فهل من الحماقة، إذن، أن نبحث في التاريخ ونكتبه؟ وهل هي حماقة أكبر أن نقترح أصلا نظرية عن كيف أن التاريخ ممكن؟ لو كان ذلك كذلك، فإن لهذه الحماقة فوائدها. لقد كان ديابيديريوس إراسموس Desideriu فإن لهذه الحماقة فوائدها. لقد كان ديابيديريوس إراسموس أكثر الرجال تعليما في عصر النهضة. وقد قام بزيارة للعالم الإنجليزي توماس مور، الذي كان ندا لإراسموس في ذكائه وفكره، وقد مكنته فطنته من تقدير قيمة السخرية اللطيفة عند إراسموس. وألف إراسموس مقالة باهرة بعنوان: " في مديح الحماقة (1509) الماعني الذين كانوا الحماقة (1509) الماعني الذين كانوا يتباهون بسعة علمهم مثلما يتباهون بأروابهم الأكاديمية. ولكنه يطلب العفو في آخر هذا الدليل الحاد مثل شفرة الموسى على أساس أنه ليس بوسعنا معرفة الماضي، فقد استغل "الحرية التي كانت متاحة دائما للرجال ذوى معرفة الماضي، فقد استغل "الحرية التي كانت متاحة دائما للرجال ذوى

من السهل أن نهدم فكرة المعرفة التاريخية من أساسها، ولكن من المستحيل تقويض أهمية المعرفة التاريخية. فمن ذا الذي بمكنه أن بعرف الماضى الذي انقضى إلى الأبد، ومن ذا الذي يستطيع أن يتجاهل الماضي الموجود معنا دائما؟ في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، صار التاريخ النقطة المحورية في النضال الوطني هنا وفي الخارج على السواء، وأصبح بمثابة نقطة مركزية في حروب الثقافة المنتشرة شديدة التعصب. وقد تطابقت الانقسامات السياسية الأمريكية مع الانقسامات التقافية حول الـشذوذ الجنسي، والدين، والعلم، والحقوق التناسلية. وصارت كلمة لبير اليي liberal وكلمة محافظ conservative تعنى الموقف الذي يتخذه الشخص حيال الفن والنعليم والاقتصاد ودور الحكومة في حياتنا. فقد صار الحرم الجامعي الذي كان ملاذا للخطاب المدنى يوما ما، معسكرات مسلحة لأن هيئة التدريس والإدارة والطلاب يجادلون حول خطاب الكراهية، والحرية الأكاديمية والفعل الإيجابي. وفي الأيام الأخيرة التي انتشر فيها العارفون بوسائل الاتصال الحديثة والمدونون المجهولون الذبن يتبارون من أجل التاريخ، زادت قيمــة امتلاك ناصية التاريخ في الوقت نفسه الذي زادت ثقتنا في التاريخ بوصفه طريقة لمعرفة فترات التدهور.

وهكذا، تطرح المعرفة التاريخية نوعا من التناقض - ذلك أنها كلما تطلبت المزيد، قلت إمكانية الاعتماد عليها، وربما يجب علينا فقط أن نتقبل التناقض القائل بأننا نحن المؤرخين لا يمكن أن نعرف ما نعلن أننا نعرف. ومهما يكن الأمر، فإن التناقض مصدر بهجة للشخص المتعلم، إذ إنه يوطر المزاج ويلهم التساؤل، ولهذا السبب حبذ جلبرت W. S. Gilbert محوامرات الانقلاب رأسا على عقب - الألغاز المنطقية - في أوبريتاته: مثل المنطقيات اللامنطقية في أوبريت The Mikado. ففيها يوضع كوكو في السجن بسبب

تعدیه الخطیر فی عملیة التصفیة، وهی جریمة عقوبتها الموت، ولکنه یعین فی منصب الجلاد الأکبر. ولکی یقوم بوظیفته، فلا بد له من أن یقطع رأسه هو أو لا – وهو عمل لا یرغب فی القیام به حتی لو کان یمکنه ذلك. والتناقض یکمن فی لی الزمان والمکان بشکل لا منطقی – إنه عالم غیر حقیقی بالفعل ولکنه قریب جدا إلی عالمنا بحیث یمکننا فهمه وتقدیره. شانه شأن التاریخ.

ولكى نوفق بين ما ينطوى عليه هذا التتاقض – أن التاريخ مستحيل ولكنه ضرورى – فإننى أقترح فلسفة تاريخ عملية تصلح لزماننا. والمشروع بمثابة حفل وداع جامعى بالنسبة لى. فإننى وأنا اقترب من نهاية مسيرتى النشطة فى التعليم، أجد أن الحكمة التى تلقيتها من أساتنتي، قد تعرزت بتفاعلى مع ما يقرب من أربعة أجيال من الطلاب والرملاء. وفي هذه المسيرة الزمنية، كنت أقوم، بشكل أو آخر، بتدريس " المناهج التاريخية "كما كتبت عن المناهج فى الكتب المدرسية وفى مقالات مطولة. وقد آن الأوان لكى أنسج الخيوط سويا فى ثوب واحد. وبطبيعة الحال ليس هناك مقاس واحد يصلح للجميع، وتعكس الصفحات التالية الآراء الشخصية والنظرات السياسية التى لم يكن جميع القراء يشاركوننى فيها، ولن يستغرق الأمر وقتا طويلا عند الذين اكتسبوا الحساسية السياسية حتى يكتشفوا موقفى.

لقد استكشفت " الجانب المظلم " من الممارسة التاريخية في كتابي الموسوم

(Past Imperfect: Facts, Fiction and Fraud in American History 2004)

وإننى لممتن لناشرى Public Affairs وكلايف بريدل Pilic Affairs محرر كتبى فى دار النشر لأنهما سمحا لى باستخدام أجزاء من ذلك الكتاب

مرة أخرى. وآمل أن تكمل المقالات كل منها الأخرى، وتفتح باب الأمل لجيل جديد من المؤرخين وقراء التاريخ. سنة ١٩٨٨م أنهى بيتر نوفيك مقدمة كتابه The Noble Dream بقوله: "إن هدف الكتاب أن يستفز رفاقى من المؤرخين، ويحفزهم إلى مزيد من الوعى الذاتى بطبيعة عملنا " و "أن أقدم لأولئك الذين هم خارج المهنة التاريخية فهما أرحب لما نقوم به ". إنه هدف نبيل بالتأكيد. ويمكننى أن أضيف بتواضع أن هدف كتاب " تناقض المؤرخين أن يوسع مدى هذا المشروع.

أخيرا وليس آخرا، أريد أن أشكر الناس الذين تحلوا باللطف والكياسة بحيث تحملوا عبء قراءة المسودات الأولى لهذا الكتاب وعلقوا عليه-ستيفن آلن، وفيرلى تشيس، وهول، وديريك كريسوف، ومارلى وسرمان، وتوم هويجهام، وميشيل وينشيب، والحاضرين فى الدورة الدراسية لهيئة التدريس فى قسم التاريخ بجامعة جورجيا الذين قرأوا المقدمة والفصل السابع وانتقدوهما. وقد رأى اثنان فى مطبعة جامعة نيويورك فى الكتاب قيمة بعد الانتهاء منه، وهما ديبورا جيرشنوفيتز، وهى زميلة مؤرخة ومحررة رئيسية فى المطبعة، وإيريك زينر رئيس المحررين بالمطبعة هو الذى شكل النسخة النهائية بحماسة وروح طيبة. وأشكر المدرسين الباحثين اللذان طلبت منهما المطبعة تحكيم المخطوط وهما، بيتر أونوف وكلير بوتر، اللذين أدخلا على الكتاب تحسينا أساسيا بفضل تعليقاتهما. وقد نالتني البركة لأن لدى شريكة حياة وولدين يحبون التاريخ ويكتبون فيه، ولهم أهدى هذا الكتاب: ناتلى هول، ووليام جيمس هوفر، ولويس هوفر.

مقدمة

لماذا يكون التاريخ مستحيلا ولكنه ضرورى بالقدر نفسه؟ "إننى الآن وقد بلغت من الكبر عتيا يتحول الجانب الأكثر سحرا ليكون شيئا لا هو دراسة للتاريخ ولا هو التاريخ نفسه... وإنما هو دراسة تاريخ الدراسة التاريخية"

كارل بيكر ١٩٣٣

فى مرحلة باكرة من مسيرتى العملية فى تدريس التاريخ على مستوى الكلية، منذ ما يقرب من أربعين سنة، وجدت نفسى أحاضر وأكتب بنقة وليجابية، عن شىء لم أستطع قط أن أعرفه حق المعرفة، محاولا أن أجعل تلاميذى وقرائى يقومون برحلة القهقرى إلى زمان ومكان لم أذهب أنا إليهما قط، وأطلب منهم أن يصدقوا ما قلته وما كتبته عن ذلك الزمان وذلك المكان. وكنت أعزز كتاباتى وتدريسى باقتباسات هائلة من علماء كبار كانوا بدورهم قد انشغلوا بهذه المهمة المستحيلة. ونحن نسمى هذه الممارسة التخيل التاريخى، كما لو أن هذه التسمية السحرية تجعلنا قادرين على تحقيق المهمة المستحيلة، وفى الوقت نفسه، كنت أعرف أنه إذا كانت رحلة القهقرى التى فوم بها فى رحاب الزمان والمكان رحلة مستحيلة، فإنها مع هذا رحلة ضرورية، لأن السؤال يطرح نفسه: ماذا يكون الناس بلا تاريخ؟ إنهم غير موجودين؛ لأنه لا شعب بلا تاريخ. إن المؤرخين يعيدون ما هو ميت إلى

الحياة – ومن المؤكد أن هذا هو الأمر الأكثر استحالة بين جميع مساعينا، بيد أنه الأكثر إنسانية. فبدون التاريخ لا تكون هناك هوية لأى شعب، ولن يكون له حاضر ولا مستقبل.

ربما كان على أن أعرف بشكل أفضل، فمن ذا الذي يمثلك ناصية موضوع يتراجع في غيبة الماضى بشكل دائم وأبدي؟ لقد كتب أوسكار هاندلين، في تقدير أمين وجذاب أن مهمة التاريخ صنع الحياة، أي معرفة الماضى التي تشبه معرفة الطريق إلى قمة جبل ما: "نحن نعرف الآن أننا لن نصل القمة في رحلة واحدة فقط، ولا يمكننا في الواقع أن نتأكد من موقع القمة، أو حتى إذا ما كانت موجودة في الحقيقة على الإطلاق، ولأن الوادي الذي نعيش فيه ليس مرتفعا بالقدر الذي يكفى للكشف عن تعقيدات سلاسل الجبال المحيطة بنا".

ولم تكن النظريات المسهبة عن التاريخ ومناهج البحث التاريخي التي ظهرت في ستينيات القرن العشرين وما بعدها لتساعد في هذا الصدد. كما أن استعارة نظريات العلم الاجتماعي، أو الوسائل الأدبية، لم تستطع أن توصلنا إلى اليقين، أو حتى تقدم لنا الوعد باليقين في المعرفة التاريخية، وهو ما كان يسعى إليه هاندلين. وكما كتب آلين ميجيل Allen Migill في مقدمة مقالته المعنونة.

(Historical Knowledge Historical Error 2007) ليس قصدى أن أقدم نظرية فى الكتابة التاريخية، لأننى لا أظن أنه يمكن طرح نظرية مفردة، سواء كانت عن الكتابة التاريخية عموما أو عن المعرفة التاريخية. وعلى أية حال، لا يمكن تقديم نظرية تحظى بقبول الجميع ". فماذا إذن؟

منذ قرن مضى كان المؤرخون - وجمهورهم - يواجهون مشكلة صعفيرة حول مفهوم أن التاريخ ممكن. فقد كان علما. وقد حاضر المؤرخ

الفرنسى فوستل دى كولانج أمام زملائه فى سنة ١٨٦٢م قائلا: "التاريخ شىء أكبر من تمضية الوقت... إنه لا يبحث فقط لإرضاء فضولنا أو لسد الثغرات فى ذاكرتنا، فالتاريخ هو، ويجب أن يكون، علما ". وقد أوضح معاصره الألمانى ليوبولد فون رانكه الأمر بشكل أبسط عندما وجه طلاب إلى أن يحكوا عن الماضى "كما حدث بالضبط ". أما بيورى، الذى كان أستاذا للتاريخ بجامعة كمبردج، فقد علم تلاميذه بعد ذلك بأربعين سنة ما مؤداه "لم يعد تفضلا أن نصر على أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل ". لقد كانت المكتبة والسجلات بمثابة المعامل، وكان من الممكن استخدام الأدلة التاريخية التى تم اختبارها وتقديمها بموضوعية لإثبات الفروض المطروحة عن الماضى أو نفيها. والحقيقة أن أول غرفة خصصت للسيمنار فى جامعة هوبكنز سنة ١٨٨٠م كانت مصممة على شكل معمل.

استمرت اللهفة للوصول إلى الحقيقة، وحسبما كتب المؤرخ العملاق البريطانى التون فى كتاب (The Practice of History 1967) أن "ألفة المؤرخ الفطرية مع الأدلة ينتج عنها إحساس مفيد وضرورى يتعدى الحدود الصارمة للأدلة، بل إن التخمينات تحمل بصمة الحقيقة لأنها تناسب حقيقة الموقف ". أما المؤرخون المحترفون العارفون "فإن القاعدة التى يستندون اليها تقوم على فهم الخبراء لما يمكن أن يحدث، وما حدث بالفعل". ويمكننا أن نثق في هذا لأن التون يؤكد لنا أن "مبادئ المؤرخين وممارساتهم فى مجال البحث التاريخي" سوف تأتى بالحقيقة.

ولكن مثل هذه المزاعم عن البحث التاريخي المنطقي والموضوعي، سواء كانت قائمة على المشابهة مع العلم أو الإيمان البسيط بالخبرة، لا يمكن أن تكتسى الجدارة بدون بعض الشك في أنها كافية بحد ذاتها. وعلى أية حال، فإن هذه المزاعم تؤسس سلطة المؤرخ على شيء ليس أكبر من سلطة

المؤرخ. بيد أن المؤرخ شخص يعيش في رحاب الزمان والمكان، وهو ليس مراقبا موضوعيا. بل إن المرء يمكن أن يترجم مقولة فون رائكه المشهيرة ليكون معناها أن المؤرخين "أرادوا "أن يبينوا الماضى كما حدث بالضبط، وليس أنهم استطاعوا تحقيق هذا. فما الذي حال دونهم وذلك؟ الحقيقة أن المؤرخ فاعل تاريخي، وحسبما قال كارل بيكر أمام الجمعية التاريخية في سنة ١٩٣١م: "يجب إذن أن يكون واضحا أن معايشة التاريخ أي السلسلة المثالية من الحوادث التي نؤكد عليها ونحفظها في الذاكرة، بما أنها وثيقة الصلة بما نفعله وما نأمل في أن نفعله، لا يمكن أن تكون هي السلسلة نفسها بالنسبة للجميع في الوقت نفسه، أو هي نفسها بالنسبة لجيل ما وجيل آخر غيره... إذ يخضع كل منا لحدود الزمان والمكان ". باختصار، إن "حقيقة غيره... إذ يخضع كل منا لحدود الزمان والمكان ". باختصار، إن "حقيقة الموقف "يمكن أن تكون من لدنا أكثر من ارتباطها بالأدلة والبراهين.

كان بيكر واحدا من النسبيين، وهو يخبرنا أننا جزء من التاريخ الذى نكتبه ونقوم بتدريسه. فلا يمكن أن ننزل باختياراتنا للموضوع، واختيار الأدلة وترتيبها، وتأكيداتنا وفروضنا الدقيقة، لأن تكون علما، فبالنسبة لتعليمنا والعالم من حولنا، يحكى لنا تاريخنا قصنتا الخاصة كما يحكى لنا قصص الأزمنة الماضية. إن كل رجل يكون مؤرخا في كل مرة يقرأ فيها فواتير الكهرباء. وعلى أية حال، فإن الصيغة التي وضعها بيكر قاعدة لفلسفة التاريخ يشوبها الشك، مثل إيمان إلتون بالخبرة. ففي أغلب الأحيان لا يمكن أن نعول على أي رجل بوصفه قادرا على كشف الحقيقة أو على وزنها. ذلك أن آمال كل رجل ومخاوفه، وانحيازاته ومواطن العمى لديه، وتوقعاته، تشكل جميعا الكيفية التي يقرأ بها فاتورة الكهرباء والمشهد التمثيلي القصير أن آمال كل رجل ومخاوفه، وانحيازاته ومواطن العمى لديه، وتوقعاته، تشكل جميعا الكيفية التي يقرأ بها فاتورة الكهرباء والمشهد التمثيلي القصير الذي يحمل عنوان "الببغاء الميت dead parrot وقدمه Python The Monty بيسين ويواجه فيه صاحب محل حيوانات أليفة وطيور داجنة زبونا غامضا، يبين

الزبون: مرحبا، أريد أن أسجل شكوى... أريد أن أشكو بسبب هذا البناء الذى اشتريته منذ أقل من نصف ساعة مضت من هذا المحل نفسه.

صاحب المحل: آه، نعم أأ، الأزرق النرويجي... ما، ما... ما العيب فيه؟

الزبون: سأقول لك ما العيب فيه يا بني، إنه ميت، هـذا هـو العيـب الذي فيه.

صاحب المحل: لا، لا... إنه يستريح.

الزبون: انظر يا صاحبي، إننى أعرف الببغاء الميت حين أراه، وأنا الآن أنظر إلى ببغاء ميت... اختبار، اختبار، اختبار هذا هو منبهك يدق الساعة التاسعة... والآن هذا ما أسميه ببغاء ميت.

صاحب المحل: لا، إنه دائخ.

الزبون: دائخ؟

صاحب المحل: نعم، أنت دوخته، عندما كان على وشك الاستيقاظ، إن الببغاوات النرويجية الزرقاء تدوخ بسهولة.

وإذا كان التاريخ ذاكرة كل امرئ، فليست هناك إذن طريقة لقياس إمكانية الاعتماد عليه. وبما أن الذاكرة عرضة للخطأ والاختراع، فهل ينبغى للتاريخ أن يكون كذلك؟ لقد تملص بيكر من مقولة " إن التاريخ الذي يكتب المؤرخون، شأنه شأن التاريخ الذي يصوغ أسلوبه أي فرد، يكون خلطة توفيقية بين الحقيقة والخيال، وهو ما نميزه عادة على أنه " حقيقة " و "تفسير". وقد أوضح المؤرخ الثقافي هايدن هوايت المسألة بمزيد من الفظاظة. إذ يرى هوايت أن صناعة التاريخ تشبه الحيل التي يمارسها رجال الأدب على

جمهورهم طوال الوقت. والتاريخ دائما دعاية أو تحليق فى الخيال. لك أن تتصور أن التاريخ كله كان "تصوريا ومجازيا "، أنّى له أن يكون شيئا آخر عدا ذلك عندما تكون معرفة الماضى نفسها تصويرا للكلام؟

لا يمكن أن نخلص إلى أن صنع التاريخ هو ذلك النوع من الحماقة التى حذر منها إراسموس فى كتابه "مديح الحماقة "، وهم ذاتى ضار برهن دائما على أنه لا يمكن الاعتماد عليه، لأننا نحتاج التاريخ – التاريخ الصحيح، المفيد – احتياجا كبيرا للغاية، هذا هو تناقض المؤرخين، واقترح أن بوسعنا أن نضع نوعا من فلسفة التاريخ تكون فعالة وذات صلة. وسوف أمزج فى هذا الكتاب بين الحكايات التاريخية، والقليل من الفلسفة الشعبية، وبعض المبادئ المنطقية الأساسية لإنتاج خطة لمثل هذه الفلسفة للتاريخ. وهذه مواصفاتى لهذه الخطة: يجب أن تتوافق فلسفة التاريخ فى زماننا مع خيال الناس العاديين، على حين لا تتخلى عن المتطلبات الصحيحة للتعمق التحليي، والعمق السردي، ويجب أن تبدى ترحيبا بالتواضع يعترف بشرعية والحب. وينبغى أن تنطوى على شعور مناسب بالتواضع يعترف بشرعية التناقض، والسخرية، و عدم اليقين، ويكون بها مكان للإيمان (على الرغم من النتاقض، والسخرورة أن يكون الإيمان بدبانة منظمة). إنها خطـة طويلـة – ولكن انظر فى الفكرة التى تطرحها بعد الانتهاء منها.

إذا نجحنا، سوف تساعدنا فلسفة التاريخ التي لدينا على الفعل، والقراءة، وعلى تدريس التاريخ بثقة، بيد أن تلك الثقة لن تستقر على أى زعم هنا بوجود اليقين الفلسفي، وكما افتتح فيلسوف بارز مقالته الحديثة عن الموضوع: " إذا أخذنا في اعتبارنا تعدد الأصوات داخل فلسفة التاريخ، فمن الصعب أن نجد مدخلا واحدا للحقل الذي يناسب هذه المقاربات كلها. والحقيقة أنه من قبيل التضليل أن نتصور أننا نشير إلى تراث فلسفي مفرد

عندما نستنجد بعبارة " فلسفة التاريخ ". إذ إن خيوط البحث المحددة هنا نادرا ما يدخل كل منها في حوار مع الآخر ". ونحن نقول آمين على هذا.

ولكن إذا لم يكن الفلاسفة قادرين على تحديد معنى مصطلحهم، فلماذا يجب على المؤرخين إعادة التفكير في فلسفة التاريخ – أي فلسفة تاريخ هي؟ (بما في ذلك المناقشات الواردة في هذا الكتاب) – إن المؤرخين يختلفون بشأن ما يجب على الفلاسفة أن يقولوه عن التاريخ. وحسبما قال المورخ ريتشارد إيفانز ناعيا: "إن موضوع فلسفة التاريخ... نظرى للغاية، وبعيد تماما عن المشكلات الفعلية التي يجربها المؤرخون العاملون " بحيث إنا الدينا ما كان يبدو حوار طرشان في أغلب الأحوال ". بين المورخين والفلاسفة.

إجابتى أن فلسفة التاريخ مهمة جدا للمؤرخين بحيث لا يمكن تركها للفلاسفة. فكر فى المصطلح نفسه – الفلسفة معناها حب الحكمة، إذن يجب أن يكون معنى فلسفة التاريخ حب المعرفة التاريخية. فمن ذا الذى يحبها أكثر من المؤرخين؟ الحقيقة، كما قال المؤرخ تشارلز بيرد لسامعيه فى الجتماع للجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٣٣ م: " إن الفيلسوف الذى يمثلك القليل من المعرفة أو لا يعرف التاريخ على الإطلاق، يتظاهر أحيانا بأنه يكشف السر الداخلى للتاريخ، ولكن المؤرخ ينقلب عليه ويكشف سر الفيلسوف، بقدر ما يمكن للجميع كشفه، بأن يضعه فى علاقة مع حركة الأفكار والاهتمامات التى يقف فيها أو يطفو فوقها، بأن يضفى على مشروعه ما يناسبه من النسبية". وإذا كانت الفلسفة تنتمى إلى مجال التاريخ الفكري، فلا يمكن لفلسفة التاريخ أن تنتمى للفلسفة.

و لأننا لا نستطيع أن نعرف يقينا المعرفة التاريخية من الفلسفة فنحن لا نستطيع العودة إلى عصر التاريخ العلمي الذي كان عصر إرضاء الـذات

ولدينا كل ما نحتاج إليه أى فلسفة التاريخ المتينة والواقعية التى تناسب زماننا. ويجب أن نتحدث إلى كل من ينضم إلى مشروعنا - أى نحن جميعا الذين نكتب التاريخ وندرسه. وتعريف تلك الفلسفة هنا سيكون سابقا لأوانه فهذا الكتاب برمته عبارة عن تعريف، ولكن ثمة نقطة بداية طيبة تتمثل فى الجهد الأخير لمارك بلوش، المؤرخ الفرنسى الذى عاش فى القرن العشرين لكى يشرح ما الذى كان يفعله ولماذا.

لم يكن هناك أحد أكثر شكا في الفلسفات القديمة للتاريخ العلمي من مارك بلوش، وقد ولد سنة ١٨٨٦م في " جيل دريفوس " الذي حذر اليهود المتعلمين من أنهم كانوا يلقون تسامحا بالكاد في فرنسا فقط، ومع هذا كان بلوش يحب بلاده حبا جارفا، وكان متخصصا في تاريخ العصور الوسطى، وكان هو المؤسس المشارك لمدرسة الحوليات Annales في التاريخ الاجتماعي، كما كان مؤرخا محترفا صاحب إنجازات، ولكن بلوش لم يكن أكثر من كاتب ملطخ بالحبر، وكان بطلا نال الكثير من التقدير في الحرب العالمية الثانية، العالمية الأولى ومحاربا في صفوف المقاومة في الحرب العالمية الثانية، وقبض عليه النازيون في سنة ١٩٤٤م وأعدموه، وحتى وهو يتفادى فرق الموت ويراو غهم لم يلق قلمه أبدا، وكان في حافظة أوراقه عندما قبض عليه النازيون جزء من كتاب نشر فيما بعد تحت عنوان حرفة المؤرخ (The Historian's Craft 1953).

وقد سلم بلوش باستحالة التاريخ في كتابه الموسوم "حرفة المؤرخ ". ذلك أن الزمن " استمرارية " يعرض " التغير المستمر ". وأساس حرفة المؤرخ أن يقفز فوق التغيرات، لكي يدخل عالم الماضي مرة أخرى. وهو لا يحتاج إلى فلسفة تاريخ لكي يفعل هذا. وقد اعترض بلوش على فكرة علم التاريخ: " الرأى عندى أن فكرة أن الماضي كما هو يمكن أن يكون هدف

العلم فكرة سخيفة ". وقد طرح كتاب " حرفة المؤرخ " بدلا من ذلك توصية للمؤرخ العامل، بأن التاريخ يتطلب منا الربط بين در اسة الموتى ودر است الأحياء... أى در اسة ما هو أكثر شمو لا وأقل حصرا، والأكثر شحنا بطاقة الذكريات الحافزة في مسعى يتعدى حدود العمر ". فالتاريخ هو الجسر الذي الذي يجب أن نبنيه ليمند من الماضى إلى الحاضر، أو على حد تعبير إدوارد كار في كتابه 1962 (What is History: "التاريخ حوار بلا نهاية بسين الماضى والحاضر.

مرة أخرى، لماذا نحتاج إلى فلسفة تاريخ جديدة؟ أو لكي نتوخي الدقة، لماذا نحتاج إليها الآن؟ في سنة ١٩٧٤م، عندما كان هناك الكثير من الاضطراب داخل مهنة التاريخ، كان هناك المؤرخون القدامي المعترضون على الاستعارة من نماذج العلم الاجتماعي والمناهج الكمية، والمحافظون الخائفون من أن يكون مؤرخو " اليسار الجديد " على وشك أن يهدموا البيت، و هم يتحدثون بصوت عال عن الخطأ الكامن في التاريخ. ومن بين هـؤلاء كان جاك بارزون، الذي كان واحدا يجسد نمطهم، وأعلن قلقه من أن " الملاحظة الإمبريقية تشير أيضا إلى أن التاريخ مريض، يلفظ أنفاسه الأخيرة، ميت. وسواء نظر المرء إلى الأعداد المسجلة في مقررات التاريخ الدراسية أو اتجاه أقسام التاريخ أو نظر بشغف وهيام إلى الإحصائيين الجسورين، أو شعبية التاريخ المتدهورة بين عامة القراء... فمن الواضع أن مكانعة التاريخ البارزة التي كانت في القرن التاسع عشر لم تعد كما كانت. إذ إن الحس التاريخي لدى الجماهير الحديثة ضعيف أو لا وجود له ". بيد أن هذا النذير كان في غير محله، حسبما برهنت الأحداث، فالتاريخ اليوم موضوع مزدهر، يقبل عليه المزيد والمزيد من الطلاب، وتصدر فيه المزيد والمزيد من الكتب، كما يحظى بشعبية أكثر من أى وقت مضى.

بيد أن أوقات الازدهار جلبت معها مشكلات فريدة في بابها. فلم يعد من الواضح ما التاريخ الذي نكتبه وندرسه، وكيف لنا نحن الدنين نكتبه وندرسه أن نتوافق مع استغلاله، هل يجب أن يكون التاريخ احتفالا بالرجال العظام وأفعالهم ليكون إلهاما وطنيا للأجيال الجديدة؟ هل ينبغي للتاريخ أن يذكرنا بالوعود التي قطعناها على أنفسنا وحنثنا فيها، أو لم نكن نقصد الوفاء بها، تجاه من هم الأضعف بيننا؟ هل للتاريخ أن يصير موضوعا فنيا للغاية بالنسبة لحفنة من الخبراء، ويكون مكتوبا بلغة لا يمكن لسواهم فهمها؟ هل للتاريخ أن يستسلم لمروجي البضائع الذين لا يعبأون باستشارة أحدث البحوث ويحكون القصص القديمة نفسها في كتب ذات أغلفة جديدة؟

كيف يمكننا إذن أن نبنى جسرا إلى الماضى (إذا سلمنا بالانطلاق من الجسر" تعبير مجازى عن المنهج) يربط المناهج السليمة بالأذواق الجديدة فى التاريخ? ونبدأ بفلسفة التاريخ لزماننا بمقولة إن التاريخ جدلى دائما، ومهما كانت فلسفة التاريخ الخاصة بنا، سواء كنا نفضل السرد أو التحليل، فإن الكتابة التاريخية المقنعة هى دائما كتابة جدلية. وأية فلسفة تاريخ تبدأ بهذه المقدمة المنطقية يجب أن تهتم، جزئيا على الأقل، بالمسائل المنطقية وهو المطلب الذى يجعل الجدل التاريخي معقولا، وخاليا من المغالطة، ومدعوما بالأدلة المناسبة التي تصمد أمام النقد. وهكذا، بالمنطق والقرابة البلاغية نبدأ هذا الكتاب. نحن إذن نستكشف كيف أن فلسفة التاريخ بوصفها جدلا يمكن أن تصل إلى السؤال المثقل، والاصطناع الخيالي، والروابط الخفية التي نسميها السببية، وعندئذ يمكن أن نختبر الفلسفة في والروابط الخفية التي نسميها السببية، وعندئذ يمكن أن نختبر الفلسفة في والمواب السياسي، وفي السوق، وفي مجالات الأدب والنقد اللغوي، وأخيرا، وربما الأكثر أهمية، نحن نزن فلسفتنا للتاريخ في مقابل الزعم بأن القصد الأسمى لأي تاريخ هو الحكم الأخلاقي.

وكل من الفصول التالية عبارة عن مقالة قائمة بذاتها تدور حول موضوع واحد، بيد أنها جميعا محطات في طريق رحلة لمعرفة كيف يمكن لفلسفة التاريخ لدى المؤرخين العاملين أن تساعدنا في فهم الأسئلة الأساسية عن الحياة الإنسانية. وكل مقالة أصعب قليلا من سابقتها، لأن كلا منها مبنية على ما سبقها، وكل منها تقربنا قليلا إلى ذلك الشاطئ البعيد الذي يغلف الضباب والذي نسميه الماضي. وعلى امتداد الطريق، ولتمضية الوقت، سوف نتشارك القصص لنرى ما الدروس التي يمكن أن نستخلصها منها. لقد علمنا إراسموس أن المزاج الإنساني معلم عظيم، وسوف نتوقف في رحلتسا لكي نتعلم من أساتذة المزاح والفكاهة.

سيكون منطقيا أن نفترض...

يشعر المؤرخون أنهم فى أمان عندما يتعاملون مع الحقائق. نحن نتحدث عن "الحقائق الثابتة "وعن" الحقائق الباردة "وعن" ألا نكون قادرين على الوصول الى الحقائق "وعن ضرورة بناء سردنا على" أساس سليم من الحقيقة ".. ولكن الحقيقة البسيطة تتقلب لتكون حقيقة غير بسيطة بالمرة، ولكن... تعميم بسيط لألف حقيقة وحقيقة... بيان... تأكيد... جدل.

کارل بیکر (۱۹۲۱م)

"الحقائق فقط"، هذا ما قاله محقق الشرطة السيرجنت جوى فرايداى للشهود. بيد أن الشهود تركوا الملاحظات الرئيسية، وأخطاوا الوجوه، وأعطوا للانطباعات العابرة وزن الحقائق. وكان على المحققين أن يستخرجوا الشظايا والقطع ويقوموا بتجميعها في قضية واهية. لقد كانت رواية " الشبكة " خيالا، لأن الشرطة فيها كانت تمسك دائما بالرجل المطلوب، فهل سيكون المؤرخون محظوظين بالقدر نفسه، إذ إننا جميعا محققين، بيد أن مفاتيح القضية عندنا لها طريقتها في الاختفاء أمام ناظرينا.

إذ ما الحقيقة التاريخية؟ كما تكشف بربارة شابيرو في كتابها (Culture of Fact: England 1550-1720 2000)

عن مفهوم الحقيقة التاريخية، فتقول إنها بيان حقيقى عن الماضى الجدير بالتصديق، وهى نفسها تطور تاريخي. وبالتدريج فقط أدان المؤرخون في بواكير العصر الحديث الخيال، والأسطورة، والسلفية والبلاغة، وحبذوا عدم الانحياز، ووزن الأدلة، والخبرة البحثية.

عند نهاية القرن التاسع عشر، كان بوسع المؤرخين أن يفخروا بمجالهم ويزهوا بإنجازاتهم بوصفهم أساتذة الحقيقة الراسخة. وعلى حد تعبير جيمس فورد رودس أمام الجمعية التاريخية الأمريكية في سنة ١٨٩٩م: " هل كان هناك من قبل مثل هذا الوقت المواتى لكتابة التاريخ طوال السنوات الأربعين الماضية؛ لقد انتشر الحس التاريخي بين العموم، وتحسنت مناهج تدريس التاريخ بحيث يمكن أن نسميها مناهج علمية. بل إننا نتحدث عن الممارسـة في المعمل مثل عالم الكيمياء وعالم الفيزياء ". لقد اعتبر الرجال من أمثال رودس الحقائق الواردة في رواياتهم حقائق ثابتة راسخة تبدأ بها أية رواية تاريخية عن الماضي. إذ كانت الوثائق، والخطابات، واليوميات، والأعمال الفنية، والصحف، وغيرها مما نجا من عوادي الماضي، مصدر هذه الحقائق، ومن مجموعها بنى المؤرخون سردياتهم، يقول رودس مرة أخرى: "إن السجايا الضرورية لأى مؤرخ هي المثابرة، والدقة، وحب الحقيقة، وعدم التحيز و الاستيعاب الكامل لمادته بالاختيار الحذر والتأمل وقتا طويلا". ولــو أن هناك مثل هذه الحقائق الراسخة، لأمكن للمؤرخ أن يشيد منها روايات كاملة. إنها ستصل إلى الحقيقة مباشرة على الدوام. ولن يكون التاريخ ممكنا فحسب، وإنما سيكون سهلا.

ولكن حتى عندما أسس هذا الجيل الأول روابطه المهنية، وسعى إلى حفظ مجموعات الوثائق، وقدم لطلاب الجامعة العاديين وطلاب الدكتوراه التوجيهات والإرشادات التى نتج عنها جيل جديد من المؤرخين، تعرض مفهوم عدم الحط من قيمة الحقائق التاريخية للنقد. إذ إن الباحثين الأصغر سنا، الذين افتتنوا بكل العلوم الاجتماعية التى كانت تبزغ إلى جانب علم التاريخ، كانوا يتساعلون: هل يمكن التحكم فى الحقائق المنفردة أن يفسر تماما روح عصر ما؟ وهل يمكن للمؤرخ أن يضع من الحقائق ما يكفى لتغطية كل تنويعات الفعل والفاعلين؟ لقد اتفقوا على أن الحقائق ليست قوالب من الطوب، أو أية مواد بناء أخرى، فى متناول اليد، لأن المرء يمكن دائما أن يتساءل عن المصادر وعما إذا كانت أمينة وحقيقية ويمكن الاعتماد عليها.

لقد ابتعد جيمس هارفى روبنسون بهذه الفكرة التقدمية عن اليقينية عندما قال لجمهوره فى الاجتماع السنوى للجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٢٩م: "لقد قمنا باكتشاف جوهرى للغاية، التمييز بين المصادر الأولية والمصادر الثانوية. لقد استنشقنا الأريج العطر لروايات شهود العيان والوثائق الأصلية والرواية الرسمية. لقد وصلنا أخيرا إلى قاع الأشياء... ولكن بينمنا ننظر خلفنا عبر ثلاثين سنة مضت، نجد أن المؤرخين ربما كانوا أكثر تحذلقا والتزاما بالدفاع. إنهم الآن متواضعون تماما "لقد صار التحليل، بدلا من السرد، الشغل الشاغل بالنسبة للمؤرخين.

ولعب التاريخ نفسه دورا في تحفيز الشك المتزايد لدى المؤرخين بــشأن الحقائق. ففي الحرب العالمية الأولى، انضم مؤرخون أمريكيون بــارزون إلــي القوات المسلحة في لجنة للإعلام العام لكي يلووا عنق الماضي ويشكلوه بحيــث يتواءم مع مع إسهامنا في الحرب ضد ألمانيا. وكان رئيس هذه اللجنة صــحفيا هو جورج كريل الذي تذكر في سنة ١٩٢٠م " أن هدفها كــان غــرس إيمــان

عاطفى بعدالة القضية الأمريكية التى كان هدفها أن يلتحم الشعب الأمريكى فسى كتلة بيضاء ساخنة تميزها الأخوة والإخلاص والشجاعة والعزم الذى لا يخبو وبعد الحرب، تساءل المؤرخون إذا ما كانوا ضحية مكر وخداع من جانب حكومتهم في توجههم الأسمى باعتبارهم باحثين. فقد صارت المناهج الدراسية التاريخية أشد في نقد الذات. بل إن الوثائق القانونية باتت تخضع لنظرة ثانية ونظرة ثالثة. فهل كان كانبو المسودات على علم بما يجرى؟ وهل أفسد انحيازهم فهمهم للأحداث، أم كان هذا الانحياز سببا للكنب؟

لقد صارت الحقيقة الراسخة محل جدل صغير تم بناؤه من قطع صغيرة من الأدلة التى انتقاها المؤرخون ورتبوها. لقد كان الاختيار والترتيب، والتأكيد والجدل من عمل المؤرخين، وليس من عمل الوثائق. وسواء كان التاريخ قصة، أو تحليلا، أو تأليفا فقد كان أبعد عن أن يكون ما حدث بالضبط "، وصار ما يظن المؤرخون أنه قد حدث. لقد أصبحت رواية المؤرخ مجادلة كبيرة تقوم على أساس عدد من المجادلات الصغيرة.

هل تكون العقلانية سبيل الإنقاذ؟

إذا ما وضعنا في اعتبارنا أننا لا نستطيع بعد الآن أن نقنع بأننا مجرد بنائين فكريين يرصون قوالب الطوب الفكري؛ نضع حقيقة فوق حقيقة ونحشو الفجوات باقتباسات من الصادر الأولية التي تتحدث عن نفسها، فهل يمكن للمؤرخين أن يستجيبوا إزاء الحالة المعضلة بزعم أن السببية عندهم تربط الماضي بالحاضر؟ أم أن للتاريخ نفسه أسبابه التي يمكن للمؤرخ العقلاني أن يكتشفها؟ إن معظم الباحثين في التاريخ يتشاطرون الإيمان بأن العقلانية في الجدل أمر طيب في حد ذاته. وتبدو فلسفة التاريخ، التي تتخذ من قوة التعليل لدى المؤرخ أساسا لها، أمرا معقو لا للغاية.

هذا الإيمان بالعقلانية له جذوره في الثقافة الغربية، بداية من أفلاطون نفسه، بل إن أسرار الروح المرواغة يمكن أن - حقا يمكن فقط - تتكسشف بالعقل. وحسبما قال سقراط عن الروح في نهاية "جمهورية أفلاطون ": إن خلودها يتجلى من خلال المجادلة السابقة، وهناك براهين أخرى كثيرة، ولكن أن تبدو الروح على حقيقتها وليس كما نتخيلها نحن، أمر يفسده الاتصال بالجسد وغيره من عوامل البؤس، يجب أن نتأملها بعيون العقل في نقائها الأصلى وبعدها سيتكشف جمالها وعدالتها كما أن كل الأشياء التي وصفناها سوف تنجلي بقدر أكبر من الوضوح ".

وليس التاريخ في حال من الارتقاء الدائم. فقد كان سقراط الحقيقى أبعد كثيرا عن أن ينال إعجاب رفاقه من شخصيات الحوار: إذ كان مزعجا لجيرانه، لا يبالى بما عليه من التزامات منزلية، وزئر نساء، مثيرا للحرب طلبا للغنائم والأسلاب، وكان كلما زاد في خطبه الحماسية التي يلقيها على رفاقه الآثينيين، زاد غضبهم، وعندما حوكم بتهمة الخيانة، قال لهم بوقاحة إن عليهم أن يبرئوه، وعندما أدين وطلب منه مغادرة المدينة، ساقه منطقه إلى الانتحار بدلا من ذلك. فقد أدى به الاستدلال المنطقي الجامد إلى أن يموت ميتة بلا جدارة.

ولكن كما يذكرنا تشارلز بيرد، فإن التعليل ليس عنصرا سائدا في التاريخ، مثل الصياغات الواردة في "جمهورية أفلاطون ". وإنما العقل بناء تقافي، ونتاج جانبي للرغبة والأدب الإنساني. ولا غرو، إذن، أن حبنا للعقل له تاريخ، وأن التاريخ ملهم شأنه شأن التجربة. والأسوأ من هذا، رغم أنه لم يكن في حسبان المؤرخين، أن مفهوم العقل نفسه حافل بالتناقضات.

وقد كتب أرسطو أول مقالة رسمية عن استخدام السببية في وقت ما حول سنة ٣٥٠ ق. م. وعلى الرغم من أنه معروف أكثر بأنه كتب في

السياسة والشعر، فإن كتبه الستة عن الأورجانون (مبادئ البحث العلمي) اقترحت سلسلة من المصطلحات وقوانين المنطق ما نزال مستخدمة. كما أنه المبتكر الأصلى لمصطلحات الاستنباط والاستقراء. وقانونه الأول هو قانون الهوية: أن A هى دائما A. فليس ثمية مكيان للتنبذب، وليست هناك مصطلحات متحولة فى غمار المجادلة. وقانون أرسطو الثانى هيو قانون التناقض: A ليست أبدا غير A.

هذه المجموعة البسيطة من الناحية الحدسية تدخل في نطاق المتاعب عندما تصير A مركبة ومحملة بالقيمة: وبعبارة أخرى، عندما يصير الرمز المجرد شيئا حيا في عالم الأشياء الحقيقية الذي يحكمه التنافس غالبا. ويجب على المؤرخين أن يختاروا الكلمات لوصف الأشياء. هـذا الاختيار ليس اعتباطيا ولا يمليه أي من قوانين المنطق. فمتى يكون الشخص الوطني متمردا؟ عشية اندلاع الثورة الأمريكية، كان المتمردون (أو الوطنيون) يسمون الموالين حزب التورى Tories ويشيرون إلى أنفسهم باسم حزب الهويج Whigs وقد استخدم هذان المصطلحان من قبل في إنجلترا القرن السابع عشر. إذ كان التورى مدافعا عن سلطة الملوك المطلقة حسبما يقول الهويج، كما كان الهويج متمردا حسبما يقول التسورى. وعندما يختار المؤرخون بين هذين المصطلحين لوصف أي من الجانبين المضادين في سنة المؤرخون بين هذين المصطلحين لوصف أي من الجانبين المضادين في سنة المؤرخون بين هذين المصطلحين لوصف أي من الوقوف فوقه. ونكرر،

^(*) التورى Tory اسم كان يطلق على عضو حزب سياسى محافظ مؤيد للتاج البريطاني، معاد للإصلاح والتغيير (حزب المحافظين اليوم)، وقد انتقل المصطلح في أيام الثورة الأمريكية ليطلق على الذين يؤيدون حكومة الاستعمار البريطاني الذي كان يسيطر على الولايات الثلاث عشرة عشية الحرب الأمريكية قبل الاستقلال. أما الهويج Whig فكان الاسم الذي يدل على أعضاء حزب الإصلاح والتغيير في بريطانيا (حزب الأحرار فيما بعد) وقد أطلق بالتبعية على الثوار الأمريكيين (المترجم).

يعرف المؤرخون أن الكلمات في البيانات التي يدلون بها، تماما مثل الكلمات التي كانت ترد في البيانات التي كان الناس يدلون بها في الماضي، لا تعتمد في معناها على منطق البيان نفسه، وإنما تعتمد على المعانى التي يضفيها الناس الحقيقيون في الزمن الحقيقي على الكلمات.

كان ثالث قوانين أرسطو هو قانون الوسط المستبعد: A إما حقيقى وإما مزيف: ولا يمكن الجمع بين الاثنين. وفي قصة Fiddle on the Roof الحافلة بالإثارة الغنية عن الحياة اليهودية في روسيا سنحت الفرصة لتيفاى بائع الحليب للموافقة على شيء ما يقوله أحد أقاربه. وقد ناقض زبون ثان ما قاله الزبون الأول، فوافق تيفاى الرجل الثاني، وعندما يقول رجل ثالث لتيفاى إنه لا يمكن أن يكون كل من الزبونين على حق في الوقت نفسه، يتفق معه تيفاى الخير من قوانين أرسطو الشهيرة.

أو هل تدحضها؟ وتلتوى A داخل اللغز: فقد كان تيفاي، الدى كان شخصية خيالية من خلق شالوم أليشيم، في مكان خيالي كان يبدو حقيقيا بالنسبة للجمهور الأمريكي مثل أية قصة شعبية مكتوبة بلغة البيديش. ولكن الحقيقة كانت مختلفة قليلا. فقد كان اسم شالوم أليشيم عبارة عن كلمة عبرية معناها " السلام عليكم "؛ وهو الاسم المستعار لشالوم رابينوفيتز، وهو باحث يهودي وكاتب روسي. وعندما نشرت القصة القصيرة " تيفاي وبناته " كان قد انتقل بالفعل إلى الولايات المتحدة. وكانت الأعراف الأدبية، لا الداكرة الشعبية، هي التي توجه قلمه. فما هو الدرس؟ إن العقل ينحني بفعل جذب الثقافة مثلما ينحني الضوء عندما يمر من خلال الماء.

و هكذا، لا غرابة أن نعلم أنه فيما بين عصر أرسطو والعصر الحديث، كانت للعقل ومنطقه المصطنع تقلباته صعودا و هبوطا. ويكشف تاريخ المنطق

أنه كان متضمنا فى المقررات الدراسية بجامعات العصور الوسطى. ولم تتبدد كتابات أرسطو فى العصور المظلمة من التاريخ الأوربى هباء، بخلاف مؤلفات كتاب كلاسيكيين آخرين، وقد اعتمد الفلاسفة على أفكار أرسطو للدفاع عن حياة العقل ووجود الرب. وفى الوقت نفسه، جادل الفلاسفة المدرسيون بلا طائل حول ما إذا كان المنطق مصطنعا أو مرتبطا بالحقيقة بالضبط.

بالنسبة للاهوتيين – الفلاسفة، من أمثال الدومينيكاني توماس أكويناس (توما الأكويني)، كان القصد الكلى للعقل أن يبرهن على وجود الرب. وكان لدى أكويناس برهان استنباطي بسيط على وجود الرب في كتابه المسمى (Summa Theologica 1273): "فعلى الرغم من أن المعرفة الكاملة بالسبب لا يمكن تحصيلها من النتائج غير الكافية، فإنه يتبدى لنا من أي نتيجة أن السبب موجود بالفعل، حسبما قيل. وهكذا يمكن البرهنة على وجود السرب من أعماله، على الرغم من أننا لا يمكن بهذه الطريقة أن نعرفه معرفة تامة تتوافق مع جوهره "كان التفكير المنطقي عند أكويناس مؤداه أن العالم من حوله (ومن حولنا) يجب أن يكون النتيجة الناتجة عن أسباب بعينها، لأن لكل المسببات أسبابها. وإذا ما استطعنا اقتفاء الخط عودة إلى السبب الأول (العلة الأولى)، لأمكننا الحصول على برهان من الرب، إذ ماذا يمكن أن تكون العلة الأولى غير هذا.

مثل هذه " الأسباب النهائية "، حسبما كانتسمى آنذاك، تضع التاريخ فى نموذج طولى مرتب للغاية: الخليقة، الزمن على الأرض، ويوم الدينونة. كان هذا نموذجا منطقيا، عقلانيا، إجباريا، بيد أنه لم يكن كذلك بالنسبة لتوماس باينى. إذ جاء فى كتابه (Age of Reason 1795) " إن أكبر المشرور إشارة للكراهية، وأشد ضروب القسوة هولا، وأفظع حالات البؤس، التى لحقت

بالجنس البشرى، تضرب بجذورها فيما يسمى الوحي، أو الديانة الـسماوية. فقد كانت أحط ضروب العقائد ضد الألوهية، وأكثرها تحطيما للأخلاق، ولسلام الإنسان وسعادته، التى استشرت منذ بداية الوجود الإنسانى ". كان هذا تلخيصا للتاريخ يختلف تماما عن الملخص الذى وضعه توماس أكويناس وكان بالغ القسوة على المذهب الكاثوليكي، ولكن باينى كان يومن أنذاك بالحقوق العالمية والمساواة بين الرجال والنساء وهي مفاهيم لا أصل لها في تاريخ الديانة الكاثوليكية، وإنما في تاريخ الثورة الإنجليزية والثورة الأمريكية الأحدث زمنا.

وإذا ما نحينا الصورة التى وضعها باينى جانبا، فقد عدل المؤرخون اللاحقون عنوانه لكى يصف امتداح العقل الذى كان روحيا تطهريا بدرجة ما فى مؤلفات فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكان الفيلسوف البارز بين هؤلاء المفكرين هو رينيه ديكارت، الفيلسوف الفرنسى وعالم الرياضيات الذى باتت مقولته " أنا أفكر، إذن أنا موجود " ترنيمة الرجل العقلاني، وفى كتابه Discourse on Mind الصادر سنة ١٦٣٣م كتب ديكارت عن القواعد الثلاث التى وضعها للتفكير الصافي، وهى تبدو موجهة للمؤرخين مباشرة:

" إننى لا أتقبل شيئا قط على أنه حقيقة ما لم أعرف بوضوح أنه كذلك بالفعل، ومعنى هذا أن أتجنب بحرص الاندفاع والانحياز، وألا أضع فى آرائى شيئا ما لا يطرح نفسه على عقلى بقدر من الوضوح والتمايز يمنعنى من الشك فيه... كما أننى أقسم كل صعوبة من الصعوبات التى ينبغى على فحصها إلى أجزاء كثيرة قدر الإمكان وحسبما يتطلب الشكل الأفضل لحلها... وأوجه أفكارى فى نظام بحيث أبدأ بأبسط الأهداف، وأسهلها فى معرفتها، بحيث أصعد رويدا رويدا كما لو كنت أسير بخطوات وئيدة نحو المعرفة الأكثر تعقيدا ".

يمكن للمرء أن ينظر كثيرا ولا يجد تقديما للجدل التاريخي أفضل من اعتباره تعليلا عمليا، ولكن عندما طبق ديكارت نفسه القواعد التي وضعها، فإنها عرضت نفسها في الثوب المناسب لزمانه، لا لزماننا. وبعبارة أخرى، فإن ما تتم قراءته معزولا باعتباره تعليلا سليما بالنسبة للمؤرخين، يتحول في سياق بقية الكلمات إلى تبرير للعقيدة التقليدية. فقد كان الواجب، مثلا، أن يكون أصل الفكر هو الرب ذلك أننا: "عندما نتأمل فكرة الرب التي ولدنا بها، نرى أنه خالد، عليم بكل شيء، قادر على كل شيء، وهو مصدر كل الخير والحق، خالق كل شيء، وأخيرا فهو المالك في ذاته لكل شيء ". وبما أن ديكارت لديه العقل فلا بد أن يجد الرب. إن المفهوم العقلاني للذهن قد أدى مباشرة إلى العودة لتوماس أكويناس. ومن سوء حظ المؤرخين في العصر الحديث، مع رغبتهم في توظيف ديكارت، أن منطق التاريخ يستند على فكرة أن الرب يبدو بعيد المنال قليلا.

أما مفكر إنجلترا جون لوك فلم يكن مؤرخا، ولكنه مثل ديكارت قدم ما يبدو في التجريد معادلة صالحة للسببية التاريخية. وعنده أن التجربة والعقل يعملان سويا. وكما كتب في (١٩٦٠) Essay Concerning Human (١٩٦٠) يعتمد الجزء الأكبر من معرفتنا على الاستنباطات والأفكار الوسيطة. وفي ثلك الحالات التي نحبذ فيها وضع التوافق محل المعرفة، ونأخذ الفروض على أنها حقيقة، دون أن نكون متأكدين أنها كذلك بالفعل، إنما نكون بحاجة إلى أن نكتشف، ونقحص، ونقارن الأرضية التي تقوم عليها وتطبيقها بشكل سليم، لكي نكتشف اليقين في إحداها، والإمكانية في الأخرى، وتطبيقها بشكل سليم، لكي نكتشف اليقين في إحداها، والإمكانية في الأخرى، الضرورية التي لا يشوبها الشك بين كل الأفكار والبراهين وتربطها ببعضها الضرورية التي لا يشوبها الشك بين كل الأفكار والبراهين وتربطها ببعضها

البعض، في كل خطوة من خطوات إنتاج المعرفة؛ فإنه يستوعب بالمثل الرابطة المحتملة التي قد تربط الأفكار والبراهين كلها الواحدة بالأخرى ".

كانت نظرية لوك المعرفية نظرية تتسرب إلى الخلايا – أى إننا نربط فكرة ما بما يليها. ذلك أن الاتساق والتناسب يقاس بقدرتنا على التعليل. وتؤكد لنا مجددا أن ما نشعر به فى العالم من حولنا إنما هو تقديم حقيقى لهذا العالم. ويستخدم المؤرخون المفهوم نفسه لكى ينتقلوا من حادث إلى الحادث الذى يليه فى السرد، أو ينتقلون من نقطة إلى النقطة التالية لها فى تحليلهم. ولكن ليس هناك فى تأكيد لوك على وجود ملكة التعليل فى كل منا ما يبرهن على أن هناك مثل هذه الملكة.

وقد كتب لوك في رحاب أول عصر عظيم للعلم في أوربا الغربية، عندما أسست إنجلترا وفرنسا أكاديميات ملكية لكى ترعى البحث العلمي والتجربة. إذ كان هناك إيمان بالمنهج العلمي يرقى إلى مستوى الإيمان بالعقل، كما كانت الاستدلالات المنطقية من التجارب العلمية بالنسبة للوك " براهين على كل منها الآخر في كل خطوة من خطوات العرض العلمي " وقد تمكنت الدراسات التاريخية التي استلهمت أفكار لوك من تحرير نفسها مسن أصفاد المذهب الديني لتؤكد على العنصر الإنساني في الأحداث. وكان الطريق مفتوحاً أمام عصر جديد من الكتابة التاريخية كان المؤرخون غير العاطفيين يؤكدون فيه على الأفعال الإنسانية والدوافع الإنسانية وقوانين التاريخ الراسخة. وهي الطريقة نفسها التي كان إسحق نيوتن قد اكتشف بها التاريخ الراسخة. وهي الطريقة نفسها التي كان إسحق نيوتن قد اكتشف بها أيمانا بالأشباح. إذ ما هو العقل بعيدا عن وظائف المخ البشري؟ هل يطفو في مادة أثيرية داخل كل مخ؟ ومن ذا الذي رآه من قبل؟ وقاسه؟ ولكي نقول للمؤرخين أن يستخدموا قوة العقل لديهم على طريقة لوك يعني أننا نطلب المؤرخين أن يستخدموا قوة العقل لديهم على طريقة لوك يعني أننا نظلب اللهارخين أن يستخدموا قوة العقل لديهم على طريقة لوك يعني أننا نظلب المؤرخين أن يستخدموا قوة العقل لديهم على طريقة لوك يعني أننا نظلب

منهم ببساطة أن يفكروا في عملهم؛ وهو أمر غامض بحيث لا يصلح جزءا من فلسفة التاريخ.

كان كتاب إدوارد جيبون العقلانية. إذ إن جيبون كان يـشاطر (Empire1776-1788) خلاصة التواريخ العقلانية. إذ إن جيبون كان يـشاطر لوك الاعتقاد بأن التاريخ محكوم بالعقل، وأن العقل الإنساني يمكن أن يمير بوضوح الأسباب التي تكشف عنها الأحداث. أما تفسيره لدور الـدين فـي سقوط الإمبراطورية الرومانية فهو تفسير كلاسيكي (اتباعي):

"بما أن السعادة في الحياة الأخرى هي الهدف العظيم للدين، فقد نسمع دونما دهشة أو إحساس بالفضيحة، أن تقديم المسيحية، أو إساءة استغلال المسيحية على الأقل، كان له بعض الأثر على اضمحلال الإمبراطوريسة الرومانية وسقوطها. فقد نجح بعض القساوسة في التبشير بمذاهب المصبر والتخاذل؛ وتم تثبيط الفضائل النشطة في المجتمع؛ ودفنت البقايا الأخيرة من الروح العسكرية في رواق أحد الأديرة... ذلك أن الإيمان، والغيرة، والفضول، والعواطف الأكثر دنيوية من الطموح، هي التي أججت شعلة الخلاف اللاهوتي؛ وكانت الكنيسة، بل والدولة، مشتتة بفعل الفرقاء الدينيين، الذين كانت صراعاتهم دموية أحيانا، ولدودة دائما".

لقد ظن جيبون أن هذا المنعطف الذي اتخذته الأحداث مفيد في زمانه "إن واجب الشخص الوطنى أن يفضل مجد بلاده ويرقى اهتمامه الحصرى بهذا المجد: ولكن ربما يكون مسموحا للفيلسوف أن يوسع نطاق آرائه" و"التأملات نفسها سوف توضح أسباب سقوط هذه الإمبراطورية العظيمة، وسوف تفسر الأسباب المحتملة لأمننا حقا." والواقع أن جيبون كان يطبق مفهوم لوك عن قوى التعليل العقلى لدى المؤرخ لكى يكشف ما حدث فى الماضى ويفسره. لقد كان العقلانيون يفهمون أن التاريخ يقدم دروسا مفتوحة فى البحث العقلاني.

ولكن، ماذا لو أن الدروس لم تطبق، أو طبقت بطريقة مختلفة تماما لدى كل مجموعة من مجموعات المؤرخين المختلفة؟ كان هذا بالضبط ما حدث سنة ١٧٧٦م أول سنة بنشر فيها جيبون تاريخه. كانت إنجلترا تمتلك إمير اطورية احتفى بها جيبون، ولكن الدروس التي كان لجيبون أن يعيها من اضمحلال الإمبر اطورية الرومانية ويطبقها على أملاك إنجلترا الشاسعة لم تتجح في تفادى الاستقلال الأمريكي وأخفقت في تفسيره. وبدلا من ذلك رأى التُّوريون الأمريكيون من أمثال دافيد رامزي، وميرسي أوتيس وارين، وجون مارشال في تاريخ العلاقات الأنجلو - أمريكية قبل سنة ٧٧٦م نوعا آخر من الحتمية. وحسب قول جورج واشنطن الذي اقتبسه مارشال ووافق عليه: " إن الخسارة المؤكدة والمطلقة لحرياتنا، سوف تنتج عن الطاعة و الإذعان للمر اسيم البرلمانية. ولن ينقذ الحرية الأمريكية سوى المقاومة الرجواية وحدها، والجهد البطولي فقط. وهذا ما حدث فعلا. لقد برهن التاريخ على أن الأمة الجديدة تختلف عن أية أمة أخرى وجدت من قبل -وهو افتراض ينطوى هلى مديح الذات كما يحمل تناقضا دالا في الوقت. نفسه. ولو أن قوانين التاريخ هي هي نفسها في كل مكان وكانست (حسبما يرى لوك وجيبون) مفتوحة أمام البحث الإنساني، لكانست جميسع الأمسم خاضعة لها، بما في ذلك الولايات المتحدة. فكيف أمكن أن تكون فريدة؟

فى الوقت نفسه عندما كتب المدافعون الأمريكيون عن الشورة حول حتمية الاستقلال، وصلاحية الجهود البطولية التى بذلت من أجل تحقيقه، استنتج المؤرخون غير الموالين للثورة الأمريكية أن التمرد كان نتيجة سلسلة من الحماقات المدهشة على الجانب البريطاني ومؤامرة من المهيجين الغو غائيين الذين لا ضمير لهم على الجانب الأمريكي – وهو ما لا يصلح دليلا على أن التاريخ أملى انتصار الثوريين، وقد كتب بيتر أوليفر، كبير

قضاة المحكمة العليا في ماساشوستس والذي كان لاجئا مواليا في إنجائرا أنذاك، روايته الخاصة لما جرى في كتاب يحمل عنوان:

(1781 ، Origins and Progress of the American Rebellion) وكانت فقراته الختامية تعارض ما كتبه مارشال معارضة النقيض للنقيض. فبالنسبة للوقاحة" المتمردين الذي نشروا هذا القدر الكبير من الحقائق المزيفة على العالم " قد حزلت أمريكا، وتاريخها رأسا على عقب. " بلد جميل... يفيض باللبن والعسل، قد انقلب إلى برية جرداء عليها بصمات ويللت الحرب، والمجاعة والوباء ". لقد أدت الأحداث التاريخية نفسها إلى روايات تاريخية تختلف اختلافا شديدا، وهو نتاج لا يرجح أن يعزز الإيمان المساذج في عقلانية التاريخ أو المؤرخين الذين يكتبون في ذلك الموضوع

وقد تناولت أعظم مقالة كتبها جورج هيجل في المنطق في بدايات القرن التاسع عشر تلك المشكلة، وقد كانت بعنوان: Science of Logic القرن التاسع عشر تلك المشكلة، وقد كانت بعنوان الملازمة لطبيعة التاريخ. إذ إن الكائن المحدد متناقض بالفطرة. "الكينونة المباشرة غير المحددة، هني في حقيقتها شيء ولا تزيد عن لا شيء... وما هو في حقيقته لا هو وجود ولا هو لا شيء. ولكن له كينونة - لا تمر ولكنها مرت فاللاشيء، فقد مضي اللاشيء إلى الكينونة. وقد لا يبدو أن هذه المعادلة المغلقة ستكون مفيدة لفلسفة التاريخ، ولكن هذا بالضبط ما أوصل هيجل فلسفة التاريخ إليه.

اعتقد هيجل أن العقل لم يكن فقط عملية مفتوحة أمامنا ولكنه حضور العالم. وهكذا فإن للتاريخ أسبابه، التى يمكن لقوة المؤرخ العقلية أن تفهمها، وكما كتب في محاضراته عن فلسفة التاريخ:

"إن هدف الباحث المحقق أن يحقق نظرة ما الشعب أو بلد، أو للعالم، أى ما نسميه التاريخ العالمى باختصار، وفى هذه الحال تكون النقطة الرئيسية تجميع المادة التاريخية. فالمؤرخ يتناول مهمته بروحه هو؛ وهي روح متمايزة عن روح العنصر الذى يجب أن يتناوله. وهناك اعتبار غايسة فى الأهمية، يتمثل فى المبادئ التى يشير الكاتب إليها، والتوجه ودوافع الأحداث والفعال التى يكتب عنها، وما يحدد شكل حكايته "،

لقد سبق هيجل كارل بيكر – إن الكتابة التاريخية الفعلية سوف تكون ذاتية قائمة على أهداف المؤلفين ودوافعهم. وهكذا لابد للوطنيين والموالين أن يختلفوا، مثلما يجب أن يكون التاريخ الذى كتبه المؤرخون الألمان مختلف بالضرورة عن التاريخ الذى يكتبه المؤرخون الإنجليز، والذى يكتبه المؤرخون الفرنسيون.

فماذا إذن عن التاريخ العالمي الذي غايته الكشف عن العقل! " إنه تاريخ يتطلع إلى اختيار فترات طويلة من الزمان، أو أن يكون عالميا، ويجب حقا أن يسبق محاولة تقديم الأمثلة الفردية عن الماضي، كما هو حاصل بالفعل. وينبغي اختصار صور الماضي من خلال التجريد، ولا ينطوي هذا على مجرد حذف الأحداث والأفعال فحسب، وإنما كل ما تتضمنه الحقيقة مما نظن أنه التلخيص الأفضل للأحداث ". وهكذا، يجب على التاريخ أن ينحني للفلسفة، أن ينحني المحدد المعروف للمجرد، والواقع المعاش للمتخيل. لأن التاريخ نفسه كان قد برهن لهيجل أن " الشعوب والحكومات لم تتعلم شيئا على الإطلاق من التاريخ، أو تتصرف وفق مبادئ مستنبطة منه.

إذ إن كل فترة تدخل ضمن هذه الظروف الخاصة وتبدو الأمور واضحة متمايزة عن غيرها، ولا يمكن تنظيمها سوى وفق اعتباراتها الخاصة فقط ". وعندما أوشك المؤرخون على امتلاك فلسفة تاريخ تمنحهم القوة للجمع بين العقل والخبرة والتجربة، جاء هيجل ليخطفها ويعطيها للفلاسفة.

إن المفهوم الجوهري للتاريخ العالمي حسب هيجل بلتقي في نقطية واحدة. إذ تتمزق كافة الفروق بين تواريخ الأمم وتذوى على مر الزمان عندما يصل كل منها إلى نقطة الاستقرار النهائية وحدها. أما نقطة الاستقرار النهائية نفسها - سواء كانت ديموقر اطية، مثلا، أو دولة علمانية، حسبما كتب فرنسيس فوكوياما متفائلا في كتابه End of History في سنة ١٩٩٢ م -فهى مسألة تخضع للتأمل والتفكير، بلا ريب. ولكن عندما وضع فوكوياما نقطة التقاء هذه، اعترف أنها تناقض " لكي تنفع الديموقر اطية، فإن المواطنين بحاجة إلى تطوير الفخر اللاعقلاني بمؤسساتهم الديموقر اطية، وعليهم أيضا أن يطوروا ما أسماه توكيفيل فن الارتباط الذي يقوم على الارتباط الفخور بالجماعات الصغيرة ". وهكذا يتطلب الاتجاه العالمي للتاريخ وجود عملية ذات خصائص محددة تماما. وعلى الناس أن يجدو ا الرضى فيما هو فريد ومتمايز للوصول إلى الهدف المشترك. وبغض النظر عن التنازل الذى قدمه فوكوياما، فإن المراقب الشكاك قد يرى تشابهات قوية بين رؤيته العلمانية القوية والفكرة اليهودية - المسيحية عن تاريخ طولى ينتهي بالأيام الأخيرة القريبة من يوم الدينونة، عندما يوزن الناس جميعا بالميزان نفسه وبالمعايير نفسها.

كذلك أيضا، تقود اللهفة للوصول إلى تاريخ عالمى إلى نهاية أخرى قاطعة للبحث عن طريق للخروج من الاستحالة. وإذا كان تاريخ القرن العشرين قد علمنا شيئا، فهو أن نقاط التلاقى مثل حتمية التقدم وأن الرابطة

بين التكنولوجيا والحضارة ليست قائمة على أساس نوع من العقلانية الأفلاطونية المطلقة. ولا هى تتفق مع روح العقل التى سماها هيجل "الروح المرشدة داخليا للأحداث والأفعال التى تحتل صفحات حوليات أمة من الأمم". وبدلا من ذلك، يمكن أن تؤدى إلى دمار شامل؛ أى اللاعقلانية المطلقة.

ولكن المؤرخين، العاملين منهم على الأقل، ان ينالهم الإحباط، و لا ينبغى لهم أن يحبطوا، من جراء اكتشاف أن العقل لا يمكن أن يوفر الأساس لفلسفة التاريخ. والسبب في ذلك، كما كتب الشاعر والكاتب بابلو نيرودا في السوناتة ١٧ من كتابه المسمى مائة سوناتة للحب One Hundred Love أشياء بعينها معتمة Sonnets 1959 أن المؤرخين يحبون التاريخ " مثلما تحب أشياء بعينها معتمة إسرا فيما بين الظل والروح /... مثل النبات الذي لم يزهر أبدا / ولكنه يحمل في ذاته ضوء الأزهار المخبوءة " فنحن نحب الماضيي " دون أن نعرف كيف، أو متى، أو من أين ". وبالنسبة لنا وبالنسبة لفلسفة التاريخ التي تصلح لزماننا، العقل ليس شيئا موجودا، سواء في داخلنا أو في الخارج، ولكنه تعبير مجازي يدل على الذهن الباحث المستفسر. فالعقبل يطالبنا أن نبحث من جديد.

وإذا لم يلمع العقل فى ثنايا التاريخ، وإذا لم تستطع دراسة التاريخ أن تقدم ما يكفى من الأسباب لحل المنازعات المهمة بالنسبة لنا، فربما يمكن للعقل والمنطق الغربى أن ينقذ التاريخ من استحالته.

منطق للمؤرخين:

الله منطق Oxford Unabridged Dictionary يقرر قاموس والمحتودة من الكلمة اليونانية التي تعنى " الاستدلال " و " الجدل الصوري"

والاستدلال هو كيفية استخدام الأدلة لإثبات نقطة ما أو البرهنة على فرض ما، أما الجدل فهو بناء مكون من بيانات والمقدمات المنطقية، والفروض المطروحة لتدعيم استنتاج ما. والتحليل التاريخي يعمل بأسلوب مشابه. إذ إننا نبدأ بالأدلة التي نشكلها في بيانات تدعم سويا استنتاجا ما. وتنطبق قواعد المنطق التي تصلح لكل المجالات على البحث التاريخي أيضا.

وحتى أبسط البيانات يمكن أن تخضع للتعقيدات المنطقية. ويرجع هذا الله أن لغتنا ليست نظاما مغلقا، فهى تختلف عن المنطق. خذ مــثلا الأمــر الوارد فى المرسوم المعروف باســم Education Act of ونصه: "سوف ينظر إلى التاريخ الأمريكي على أنه حقيقي، ولــيس مركبا، وسوف ينظر إليه باعتباره قابلا للمعرفة، والتــدريس، والاختبار، وسوف يتم تعريفه بوصفه عملية خلق أمة جديدة قائمة بدرجة كبيـرة علــى المبادئ العالمية المقررة فى إعلان الاستقلال " إن هذا أمر مباشــر تمامــا ومحير للغاية. لأن الجزء الأخير ليس حقيقة ولكنه بناء، وربما يكون قــابلا للتدريس وقابلا للاختبار، ولكنه ليس قابلا للمعرفــة إلا إذا كــان حقيقيـا، وحقيقته تقبل التأكيد ولكنها ليست موضع إثبات، لأن الحقيقة ثابتــة بــذاتها. وهكذا، يتناقض إثبات أن التاريخ حقيقى مع بقية سياق نص المرسوم.

وتحت الإرشادات التى وضعت فى القرن التاسع عشر لتحليل النصوص، والمسماة ب " الهرمنتيقا "، التى وضعت لوزن الحقيقة الفعلية فى عبارات الكتاب المقدس، يفترض أن نحدد قصد الناس الذين كتبوا القاعدة لكى نفهم معنى الجملة الواردة فى المرسوم. وكا وصفت المحكمة العليا في أوريجين هذا النهج فى قضية ستراناهان ضد ماير سنة ٠٠٠٠ م كان الهدف " فهم الكلمات فى ضوء الطريقة التى كان لابد من فهم الكلمات بها وكيفية استخدام أولئك الذين كتبوا نص الوثيقة للغة " وبحسب قرار الجمعية التاريخية الأمريكية الذى تم تمريره فى ٧ يناير ٢٠٠٧م، " إن لغة المسمودة

الأصلية يشير إلى أن من كتبوا الوثيقة لديهم زاد قليل من المعرفة المباشرة بالتاريخ كما كانت ممارسته فى العالم الحديث ". وقد استنتجت الجمعية أن المشرعين الذين صوتوا على المرسوم أرادوا أن يزيلوا الجوانب المحرجة من تدريس التاريخ فى المدارس الثانوية. احتفل وخلد النكرى، ولكن لا تنقد. هكذا ينبغى على المرء أن يقرأ نص المرسوم وهو يعرف أن قصده منع أى جهد من التفكير النقدي.

يخبرنا المنطق الصورى (أو المنطق الافتراضي) كيف يمكن البيانات البسيطة أن تدخل سويا في مجادلات صحيحة من الناحية المنطقية. وفي القائمة التالية، تمثل p بيانا أو المقدمة المنطقية التي يقوم عليها الجدل، وتمثل p بيانا أخر، على حين تمثل r بيانا ثالثا. وهم معا يشكلون فرضا. ومعنى then " تدل ضمنا على حقيقة ".

إذا كانت q تدل على حقيقة و q حقيقية، فإن q حقيقية أيضا. إذا كان جورج واشنطن قد انتخب رئيسا للجمهورية في سنة ١٧٨٨م، إذن فقد كان أول رئيس لنا في ظل الدستور الفيدرالي، فقد انتخب رئيسا للجمهورية في سنة ١٧٨٨م، وهو ما يعنى أنه كان أول رئيس لنا. لاحظ أن علينا أن نعرف أن الدستور كان قد تم إقراره عند وقت انتخاب الرئيس. هناك دائما حقائق في خلفية التاريخ، تشكل ما يسميه المؤرخون " السياق" الدي يجب افتراض وجوده لكي تكون أية مجادلة منطقية بسيطة مجادلة حقيقية.

وإذا كانت p تدل ضمنا على حقيقة p، وإذا كانت p تدل ضمنا على حقيقة r وكانت p حقيقية، فإن r تكون حقيقية أيضا. أى إذا كان جون آدامز قد انتخب بعد واشنطن مباشرة، إذن فقد كان آدامز رئيسنا التاني. جون آدامز الذي كان نائب الرئيس واشنطن، انتخب رئيسا سنة ١٧٩٦. ثم يتبع ذلك أن جيفرسون كان رئيسنا الثالث.

وإذا كانت p و p حقيقية، إذن فكل منهما حقيقية. وكان كل من واشنطن و آدامز من الفيدر اليين. وتبع ذلك أن آدامز كان فيدر اليا وواشنطن كان فيدر اليا.

والتعبيران " p أو p و " p و p و " p أو p " و " p و p أو p " و " p and q " و " p and q " و " p and q " و التعبيران " p and q " و التحويل، وهو قانون حقيقى فى التوالى، وفى الرياضيات، هذا هو قانون التحويل، وهو قانون حقيقى فى الجمع و الضرب، و لا يهم أى نظام لتسلسل الحقائق هو الذى يؤخذ به، على الرغم من أننا فى التاريخ نفضل النظام الزمنى التتابعي، وهناك المزيد من الرغم من أننا فى التاريخ نفضل النظام الزمنى جعلها تتناسب سويا بشكل بديع، القواعد المعقدة بصورة مطردة، والتى يمكن جعلها تتناسب سويا بشكل بديع، لأن المنطق هو ما يسمى نمط مغلق أو استنباطى من العلم.

ومرات كثيرة، يتم التأكيد على مجادلة منطقية صورية فى وسط نص تاريخى طويل – مقالة بحثية فى مجلة تاريخية، أو ورقة مقدمة لمؤتمر، أو كتاب، أو تقديم لمجموعة. وتحيك المجادلة المصادر الأولية سويا – الأدلة – فى كل مقنع، وهو يعلم ويكتب التقارير، ويراجه ويستشير، والأكثر شيوعا من هذه الأتماط الصورية هو التعليل من بيان عام؛ التعليل من أدلة غير كافية، التعليل من التشابه؛ والجدل على طريقة " لو – فإن ".

الاستنباط والاستدلال:

إن التعليل من قاعدة عامة لحادثة خاصة تغطيها تلك القاعدة مثال على العملية المنطقية المسماة "الاستنباط". وفي الاستنباط، إذا كانت المقدمة المنطقية، أو القاعدة، حقيقية، لا بد أن تكون الأمثلة عليها حقيقية أيضا. وفي التاريخ يمكن أن تكون هناك قواعد عامة نستطيع استنباط بيانات خاصة منها. ولكن، كما رأينا، في التاريخ تكون كل القواعد العامة، باستثناء أكثرها وضوحا، مفتوحة أمام التساؤلات. ومع هذا، فمن القاعدة التي تقول إن الناس

جميعا يموتون، وهي قاعدة عامة، يمكننا أن نستنبط أن نابليون مات، ومن ثم مات جميع أفراد جيشه الكبير.

ومع هذا، يمكن أن تؤدى المقدمات الأقل عمومية فــى مــداها إلــى الاستنباطات. على سبيل المثال، يمكن أن نقترح على سبيل المقدمة العامة أن الحروب الدينية تؤدى إلى مذابح رهيبة. وإذا كان هذا صحيحا، وهناك حرب دينية بعينها، فسوف تشوبها المذابح. ومن المؤكد أن هذا يبدو صحيحا فــى الحملات الصليبية التى شنتها القوى المسيحية لفرض السيطرة على الأرض المقدسة، وفي حروب الدين بأوربا أثناء حركة الإصلاح البروتستانتي.

ويمكن للمرء أن يجد أمثلة معاكسة. فإذا وجدنا حربا دينية لـم ينـتج عنها مذابح، فربما نشك في حقيقة المقدمة المنطقية. ولو كانت الحرب الأهلية الإنجليزية سنة ١٦٤٢ - ١٦٤٧ م تعد حربا دينية، تضع كنيسة إنجلترا ضد حشد من المنشقين البيوريتان، فإن قصص المذابح القليلة نسبيا التي أفرزها القتال (باستثناء أيرلندا) كانت لابد أن تشير إلى أن القاعدة العامة خاطئـة. وبطبيعة الحال، فإن على المؤرخ الذي يريد الدفاع عن القاعدة العامـة أن يقول إن الحرب الأهلية الإنجليزية كانـت حقـا صـراعا داخـل نطاق الأرستقراطية، أو كانت خصومة من هذا القبيل، أكثر منهـا حربـا دينيـة حقيقية.

المشكلة، إذن، أن نرسخ حقيقة القاعدة العامة شم نبرهن على أن الحادثة الخاصة تتناسب مع هذه القاعدة العامة. بيد أن التاريخ لا ينسب نفسه لمثل هذه القواعد العامة إذا استثنينا القواعد العامة تماما ("كل الناس يموتون"، مثلا) بالدرجة التي تجعلها غير ذات فائدة في تفسير أي شيء. كما أن المؤرخين لا يوافقون على الأوصاف الخاصة للأحداث حتى ولو سلمنا بأن للقاعدة العامة قدرا من المشروعية.

لو كان التاريخ علما استنباطيا فقط، فلن يكون من السهل صياغة فلسفة تاريخ. وقد كتب جون أوبرى، وهو كاتب سير إنجليزى عاش في القرن السابع عشر، عن الفيلسوف السياسى الشهير، والمؤرخ وعالم الرياضيات الذى علم نفسه بنفسه، توماس هوبس،: "كان عمره أربعين سنة قبل أن يبدأ النظر في الهندسة، وهو الأمر الذي حدث بالصدفة، فقد كان في مكتبة أحد الفضلاء ووجد كتاب العناصر الإقليديس "Euclid's Elements" مفتوحا، وكان الفرض السابع والأربعون في الكتاب الأول. وقرأ الفرض وقيال: "بحق السماء!! هذا مستحيل " وهكذا قرأ عرضا له أحاله إلى برهان، أحاله بدوره إلى فرض آخر قرأه أيضا... وهكذا اقتنع في النهاية بتلك الحقيقة. وهذا ما جعله يحب الهندسة ".

أشهر مؤلفات هوبز (1651 Leviathan م)، مكرس للبرهنة عن طريق الاستنباط على أن الطاعة المطلقة لسلطة مطلقة هى الحصاد المنطقى الوحيد للحكومة القائمة على أساس رضا المحكومين:

" من مؤسسة الكومنولث هذه خرجت جميع حقوق أولئك الذين أسبغت عليهم السلطة السيادية بموافقة الناس أجمعين... ومن ثم فإن أولئك الذال الخاضعين لأحد الملوك لا يمكنهم أن يسقطوا الملكية بدون رحيله، ليعودوا إلى فوضى الجموع غير المتحدة؛ ولا يقدرون على نقل السلطة ممن يحملها الى رجل آخر، أو جماعة أخرى من الناس لأنهم ملزمون، رجلا رجلا، بأن يكون معروفا أنه يمتلك كل ما هو موجود بالفعل في حاكمهم وأنه سوف يصلح للعمل ويناسبه ".

وباختصار، ما إن يتفق الشعب على تولية ملك ما، فلا عودة للـوراء، ولا مكان للانشقاق، ولا سبيل للحد من سلطات الملك – كانت هذه شــجاعة

من هوبز عندما كتب هذا، والشجاعة الأكبر أنه قام بنشره في غمار شورة كان المنتصرون فيها قد قطعوا رأس الملك الحاكم. وإيمان هوبز المطلق بقدرته على الاستنباط هو الذي منحه الشجاعة للجدل حول التاريخ بالشكل الذي فعله، ولكنه كان فظا بحيث نشره في باريس وليس في إنجلترا لكي يضمن سلامته.

وقد طرحت "النزعة التاريخية "، فلسفة التاريخ الكاملة التى تجسد الطبيعة الاستنباطية للبحث التاريخي، مع بداية القرن العشرين وعدا بأن التاريخ، شأنه شأن جميع العلوم، يمكنه أن يعرف، وأن يفسر، ويتنبأ. وكانت النزعة التاريخية، كما لخصها كارل بوبر في سنة ١٩٥٧ م، "النظرية التي سوف يغيرها المجتمع بالضرورة ولكن على مسار محدد سلفا لا يمكن أن يتغير، ومن خلال مراحل حددتها من قبل الضرورة الحتمية ".

وقد أدان كتاب بوبر (Poverty of Historicism 1957) أولئك الدنين ظنوا أن سببا وحيدا يحسم التاريخ برمته، " إن النزعة التاريخية تعلمنا أن أية محاولة لتبديل التغيرات الوشيكة إنما هي محاولة عبثية؛ فثمة تتويعة خاصة من القدرية، وهي قدرية بالنظر إلى اتجاهات التاريخ، كما كانت ". وبالنسبة له، كانت نهاية مثل هذه العقلانية المنغلقة متناقضة بذاتها، " وبما أن الكثير جدا تم في وقت ما [في الماضي]، فإنه يستحيل أن نقول أي مقياس معين هو المسئول عن أي النتائج؛ أو بدلا من ذلك، فإننا إذا نسينا فعلا نتيجة بعينها لمقياس بعينه، فإن هذا لا يمكن أن يحدث سوى على أساس من بعض المعرفة النظرية المكتسبة من السؤال "

وعلى الرغم من أن بوبر كان فيلسوفا، فإن هدمه للتاريخ الاستنباطى كان ذا رنة مألوفة بالنسبة للمؤرخين، وربما كان هذا بسبب خطاب تـشارلز

بيرد الرئاسى الشهير سنة ١٩٣٣ م أمام الجمعية التاريخية الأمريكية السذى هدم النزعة التاريخية بطريقة مماثلة: "إن الفكر المعاصر حول التاريخ، يتنصل بالتالى من المفهوم الذى كان سائدا بين رجال المدارس فى أثناء الشطر الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين وهو مفهوم يقول بإمكانية وصف الماضى كما كان بالفعل، وهو مفهوم يشبه إلى حد ما وصف المهندس لآلة واحدة. لقد كات المعادلة نفسها مرحلة عابرة فى تاريخ الفكر حول الماضى ".

واستنباط قواعد صلبة وسريعة من التاريخ طريقة ناجعة لتجاهل تعقيدات التاريخ. فعلى سبيل المثال، عندما استمعت المحكمة العليا في الو لايات المتحدة إلى القضايا القانونية في القضية التي كان NAACP قد رفعها ضد الفصل العنصرى في المدارس الابتدائية بإشراف الدولة، ضمت هذه القضايا سويا، ونظرت فيها تحت عنوان قضية براون ضد هيئة التعليم (١٩٥٤ م)، ووجدت بالإجماع أنه" في مجال التعليم العام لا محل لعقيدة " منفصلين لكن متساوين". إذ إن التسهيلات التعليمية المنفصلة ليست متساوية بطبيعتها. ومن ثم، فإننا نتمسك بأن المدعين وغيرهم يقفون بصورة متماثلة من أجل الذين رفعت الدعوى من أجلهم، وحرموا، بسبب الفصل العنصرى المشكو منه، من الحماية المتساوية بالقوانين التي تضمنها التعديل الرابع ". كيف توصلت المحكمة إلى ذلك القرار؟ قال الناقدون إن المحكمة تحركت بفعل المناقشات الخارجة عن نطاق القانون؛ وعلى سبيل المثال، هناك أدلـة على أن الأطفال السود كانوا يظنون أن الدمى البيـضاء جيدة وأن الـدمى السوداء سيئة. ولكن المحكمة لم تعتمد على اكتشافات علم النفس الاجتماعي. وبدلا من ذلك انطلقت المحكمة من الفقرة الخاصة بالحماية المتساوية في التعديل الرابع من الدستور الأمريكي. وتتطلب هذه الفقرة من الولايات المتحدة، التى تقدم تسيلات التعليم العام، أن تقدم لجميع المواطنين " الفرصة للتعليم. ومثل هذه الفرصة التى تعهدت الولاية بتوفيرها، حق يجب أن يتاح للجميع على قدم المساواة ".

وتكمن مشكلة هذا التطبيق المحكم في الاستنباط التاريخي اعتمادا على تعليل الحوادث يحيث استطاعت المحكمة أن تختار بهذه السهولة فئة أخرى من القانون؛ وأن تقرأ صيغة الأمر في هذه الفئة بشكل مختلف، أو تستنبط منها نتائج مختلفة. وفي القضية التي قلبتها هيئة براون للتعليم رأسا على عقب ضمنيا، وجد بليسي فيرجسون (١٨٩٦) قاضي المحكمة العليا في الو لإيات المتحدة أن هدف التعديل الرابع عشر كان بلا شك فرض المساواة المطلقة للعنصرين أمام القانون، ولكن بطبيعة الأمور لم يكن ممكنا أن يكون القصد منه القضاء على التمييز القائم على أساس اللون، أو أن تفرض المساواة الاجتماعية، التي تختلف عن المساواة السياسية، أو مزيجا من الاثنتين وفق شروط غير مرضية لأي منهما ". وأي قانون يحدد أين يجلس شخص ما، من لون معين، في قطار يمر عبر لويزيانا، لا يكبح بهذا شخصا من لون آخر، أو يؤذيه، أو ينوه عنه بأى شكل. " نحن نظن أن الفصل الإجباري بين العناصر، كما هو مطبق على التجارة الداخلية في الولاية، لا ينتقص من الامتيازات أو الحصانة للرجل الملون، أو يحرمه من ممتلكاته يدون العملية القانونية المناسبة، و لا يحرمه من الحماية المتساوية التي تكفلها القو انين، و بعبارة أخرى، كانت قوة التعليل الاستنباطية هنا بلاغة ولم تكن تاريخا.

وتنبهنا إشارات بدء الكلام أو الكتابة إلى أن هناك عملية استنباط سوف تحدث. وعندما نسمع أو نقرأ كلمات من قبيل: وهكذا، ومن شم، وبالتالى، ويستتبع هذا أن فسوف يعقب هذا فورا عملية استنباط (أو زعم بالاستنباط).

لاحظ أن استنتاجى أن هذا ليس استنباطا بالمرة ولكنه نوع من المجادلة المنطقية، أو استدلال من الخبرة. والتعليل من الأدلة للوصول إلى استنتاج من الأدلة كلها سمى استقراء أو استدلال. ويشير مجمل الأدلة إلى الاستنتاج ولكنه لا يضمن أنه كذلك. ويعتمد المؤرخون على الاستدلال لتفسير الأحداث.

يمكن للاستدلال أن يوفر الدوافع. لقد أخر الجنرال لونجستريت الهجمة الفيدر الية على سميتري ريدج في ثالث أيام معركة جتيسبرج إلى ما بعد الظهر، وفي ذلك الوقت كانت قوات الاتحاد قد عززت موقعها. ولم يكن يحبذ هجوم المواجهة ولا يمكننا أن نستنبط الأسباب التي دعته لذلك، ولكن بإمكاننا أن نستدل عليها مما نعرفه عنه وعن الوضع الذي كان عليه أن يتخذ قراره فيه. فلم يكن مع الهجوم مواجهة، وكان يعرف بشكل صحيح تماما أن الهجوم الكثيف للمشاة على أرض مفتوحة مساحتها حوالي ميل ضد موقع حصين سيؤدى إلى مذبحة في صفوف المهاجمين على الأرجح. وكان قد رأى ذلك بأم عينيه عندما هاجمت القوات الفيدرالية المواقع الكونفدرالية في فريدريكسبورج. كان يأمل أن يؤدى قصف المدفعية الذي أمر به إلى تنظيف الساحة من العدو، ولم يستكمل هذا القصف تماما حتى الثانية بعد الظهر. وربما كان يأمل أيضا أن يستجيب قائده الميداني، روبرت لي، ويسمح للونجستريت بالمناورة حول موقع الاتحاد. وضاعت آماله سدى كما كانبت هزيمة جيشه علامة النهاية لعمليات الهجوم الكونفدر الية في المسرح الشرقي للعمليات في الحرب الأهلية الأمريكية. وبعد الحرب اشتبك لونج ستريت والمدافعون عن " لى " في حرب كلمات، فقد كان كل جانب يلوم الجانب الآخر على الهزيمة، ويستقرئ ما هو أسوأ عن دوافع الجانب الآخر.

وفى بعض الأحيان يكون على المؤرخين أن يستدلوا على اتجاه ما فى مجموعة من الأحداث اعتمادا على مجموعة غير كاملة من المعلومات. وإذا كانت المعلومات التى يدرسها المؤرخ قاصدا ضمن مجموعة أكبر من المعلومات – مثلا، كل حالة عاشرة فى سجل إحصائى – يكون المؤرخ هنا فى سبيل تقديم عينات، وفى المناهج الإحصائية السليمة يجب أن تكون العينة ممثلة للمجموعة (أى تم اختيارها بحيث تكون خصائصها متناسبة بسشكل مباشر مع خصائص المجموعة كلها)، أو تكون عينة عشوائية حقا (أى تم اختيارها بحيث تكون متحررة من كل انحياز إحصائى ومن انحياز المضمون على السواء). ويجب أن تعكس الاتجاهات التى يحددها المؤرخون فى العينة ممثلة للاتجاهات الموجودة فى الكل.

ويمكن أن يكون تقديم العينات أساس الاستدلال السليم، بيد أن هنات أمثلة تاريخية كثيرة عن مغالطات اختيار العينات، أو عملية اختيار العينات التي تبوء بالفشل. فعندما يستدل أصحاب الاستبيانات من عينات قليلة للغاية أو من عينات مرصوصة سويا عن توزيع الآراء في البلاد بأسرها، يجب أن تكون لديهم عينات تمثيلية تماما. وكانت أكثر غلطة تسببت في الفرح الشديد في تصميم عملية اختيار العينات هي تلك التي جاءت في استبيان تتبأ بفوز المرشح الجمهوري للرئاسة آلف لاندون على المرشح الديموقراطي فرانكلين ديلانو روزفيلت ١٩٣٩م. فقد فاز روزفلت بأغلبية ساحقة، فقد اختار أصحاب الاستبيان أن يرسلوا استبياناتهم إلى أناس كانوا قد سجلوا سياراتهم ولم يدركوا أن تلك لم تكن حقا عينة ممثلة للأمريكيين في أسوأ ساوات الركود الاقتصادي بالنسبة للأمريكيين.

ويمكن أن تتكرر عملية اختيار العينات لزيادة قدر المصداقية فيها، ولكن المؤرخين يواجهون مشكلة خاصة في الاستدلال لا تواجهها الدراسات الاجتماعية الأخرى. وتقوم أفضل أنواع الاستدلال على أساس التجارب التي يمكن تكرارها وتكون نتائجها واضحة لكل المراقبين. بيد أن الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست متاحة بحيث يمكن استخدامها في تجارب متكررة. ويمكننا أن نكتب ما نشاء من الكتب عن نهوب الحرب الأهلية الأمريكية، ولكننا لا نستطيع أن نعيد خلق هذه الحرب في العالم الحقيقي كما كان سنة ١٨٦٠ م. وهذا هو السبب في أن تفسيرات نهوب الحرب الأهلية تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا المغاية، وكلما زادت لدينا الأدلة، كلما زادت التفاصيل في الرواية، ولكن زيادة الأدلة الباقية لا يزيد من الأدلة، كلما زادت التفاصيل في الرواية، ولكن زيادة الأدلة الباقية لا يزيد من الأدلة استدلالنا تلقائيا. فنحن نعرف قدرا من الأحداث التي أحاطت بقرار الرئيس هاري ترومان بإسقاط القنبلة الذرية على اليابان أكبر كثيرا مما نعرفه عن قرار لنكولن بإعادة تزويد فورت سومتر، بيد أن الجدل حول قرار ترومان يفوق كثيرا الجدل حول قرار لنكولن.

وفى بعض الأحيان يطلق على من يعتمدون على الاستدلال من مجموعات الأدلة اسم الإمبريقيين، والمؤرخون إمبريقيون (تجريبيون)، ولا يمكننا أن نكون غير هذا، فنحن دائما نحاول أن نستدل على الدوافع والسببية من الأدلة الدالة على الفعل الإنساني والفكر الإنساني، إن مصادر دراسة الماضى – أى الوثائق الباقية، مثلا – لا تتحدث إلينا، ذلك أن علينا أن نقوم باستدلال علمى من الشطايا والقطع، ولكى نفعل هذا، فإننا غالبا ما نقوم بالتعليل اعتمادا على التشابه، هل هذا الحدث مثل حدث آخر درسناه؟ هل هذه القضية القانونية مشابهة لقضية أخرى سابقة؟

فى التفكير بالتشابه نشتبك فى تدريب منطقي، فنقارن حدثا، أو شخصا، أو موضوعالا نعرفه بموضوع آخر نعرفه على أساس خصائص مشتركة بعينها. وجميعا لمشابهات عبارة عن مقارنات (على الرغم من أنه

ليست كل المقارنات مشابهات). فالتشابه مقارنة جيدة. والتشابه الضعيف ليس حقا تشابها بالمرة، على الرغم من أن له المظهر الخارجي نفسه.

والتعليل بالمشابهة، على الرغم من أنه خطير أحيانا، مثل جميع أشكال المقارنة، ضرورة نفسية. إذ كيف يمكن لنا أن نمضى قدما عندما نواجه موقفا جديدا؟ الإجابة أننا نحاول أن نقارن بينه وبين أحداث أخرى واجهناها فعلا. ونحن نفكر " هذا يذكرنا بـ...". وكلما عرفنا المزيد عـن الحـدث الجديد والحدث السابق، أو كلما فهمناهما بـشكل أفـضل، كان بوسعنا أن نرسم التشابهات بقدر أكبرمن الدقة، ونكون أكثر نجاحا في التعامل مـع الجديد.

ولكن بعض التشابهات، مثل بعض التعميمات، بها دافع خفى وهمى لا تقوم على الرغبة فى تبسيط ما يجب عمله، وإنما تقوم على ما يحاول الشخص الذى يصنع المشابهة الدفاع عنه. فى سنة ١٩٠٧ م، وفى رسالة تمجد الإمبريالية الأوربية فى إفريقيا، جادل جاك هوبسون بأنه " لا يمكن أن يكون هناك حق طبيعى فطرى فى أمة ترفض التعليم الإجبارى الذى سوف يرفعها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة بين الأمم ". ولم يكن التشبيه بمراحل النضج توضيحيا فقط ولكنه قدم الدليل على أن الرعايا الأفارقة بتعليم الطفل قد يبدو سليما للوهلة الأولى. فليس للأطفال أن يكون لهم رأى فى تعليمهم، تماما مثل الشعوب الجاهلة التى لا تعيش " فى البلاد الغربية البيضاء " وهى شعوب لا ينبغى أن يكون لها صوت فى مسألة فرض التمدين عليها، على حد قول هوبسون. وتتطلب معرفة متى تكون المستابهة التى يقوم بها المؤرخ قوية ومتى تكون ضعيفة ما هو أكثر من المنطق. الني يقوم بها المؤرخ قوية ومتى تكون ضعيفة ما هو أكثر من المنطق.

الذى يساعد بدوره فى معرفة متى تكون المقارنة مبررة، إحدى سجايا المؤرخ الجيد.

لو - إذن:

نحن على ألفة بصيغ " لو - إذن " في التعليل من خلال رحلتنا القصيرة عبر المنطق الافتراضي - " لو p إذن p ". ومنطق " لو - إذن " شائع للغاية ولكنه أحيانا يتسلل متخفيا. خذ مثلا " المربع A له أربعة أضلاع ". يبدو هذا مثل تعريف ويكون حقيقيا كتعريف. ولكن البيان الذي نحصل عليه في العالم الحقيقي غالبا ما يأخذ شكل " لو كان هذا السمكل الهندسي مربعا، إذن فله أربعة جوانب ". تلك هي الجملة السشرطية " لو - إذن ". يمكن أن تتحول إلى نقيضها: " لو أن هذا الشكل له أربعة أضلاع إذن يجب أن يكون مربعا "، ويمكن للجملة أن تتخذ شكل النفي، بحيث تتغير إلى عكسها " لو أنه ليس مربعا، إذن فليست له أربعة أضلاع ".

لاحظ أن التناقض والعكس في فرض حقيقي ربما لا يكون حقيقيا. فالشكل ربما تكون له أربعة أضلاع ولا يكون مربعا، كما قد يكون شكل ليس مربعا له أربعة أضلاع. وذلك لا يمنع الناس، بمن فيهم الذين يعرفون أكثر من غيرهم، من المجادلة من النقيض للنقيض. فقد كان بعض المؤرخين في أثناء الحرب العالمية الثانية مقتنعين بأن الرئيس فرانكلين روزفلت قد تجاهل عمدا الإشارات التحذيرية من أن اليابان كانت تستعد لهجوم مباغت على بيرل هاربور. ووفقا لهذه المقولة، يكون قد أراد دخول الحرب وكان يحتاج إلى مبرر درامي للتغلب على الرغبة الشعبية في الحياد. وقد أدى "يوم العار " في بيرل هاربور إلى موافقة الكونجرس على إعلان الحرب، ولكن الجدل " في بيرل هاربور إلى موافقة الكونجرس على إعلان الحرب، ولكن الجدل

على أساس أنه لو لا بيرل هاربور لما كنا دخلنا الحرب إنما هو جدل من موقع النقيض.

يستخدم المؤرخون صورة واهية من " لو - إنن " طوال الوقت وفي كتابي عن الكتابة التاريخية Past Imperfect كان رأيي: "إذا كانت تلك الأخطاء [التي يرتكبها المؤلف عندما لا يكشف عن مصادره]، بما فيها الانتحال والسرقة العلمية، يكون المؤلف مسئولا، لأن اسمه موجود على العمل المنشور". وليس هذا دليلا منطقيا من قبيل "لو - إذن"، إنما هو عرف أسلوبي استخدمته لتحديد المسئولية الأخلاقية. وثمة شكل آخر من هذا العرف يتمثل في طريقة " لو - إذن " للتعريف (لو اقتبس المؤلف كلمات من كاتب آخر دون أن يشير إلى الاقتباس، فإنه يكون مدانا إذن بالانتحال والسرقة العلمية ".

فى صيغة " لو - إذن " قد تكون المقدمة المنطقية حقيقية ولكن الاستنتاج قد لا يكون متماشيا معها، ويسمى هذا الخطأ الشائع فى المنطق " اللاتناسب "، وفى رواية لورنس شتيرن الموسومة Tristrum Shandy التى يدور موضوعها حول اللامنطق فى الحياة، يتجلى اللاتناسب مبكرا، فهي مجموعة تعيسة من الأفكار التى لا تجمعها علاقة فى الطبيعة، وهناك صيغة معاصرة من هذا فى عبارة " إنهم إرهابيون شرق أوسطيون، فلا بد إذن أنهم ينتمون إلى تنظيم القاعدة ". وربما تكون المقدمة المنطقية والاستنتاج صحيحين، بيد أنه لا يمكن إثبات الاستنتاج النهائى من المقدمة، إذ إن هناك وسطا مفقودا يجب إعلانه حتى تستقيم الحقيقة، وهو بالتحديد " عبارة " جميع الإرهابيين فى الشرق الأوسط ينتمون إلى القاعدة ".

منافسو التعليل التاريخي:

إن التفوق في المنطق الصوري، وهو نظام مغلق، يبعث شعورا بالاطمئنان، شأنه شأن أي نظام فكري آخر، بيد أن التفوق في نظام مغلق لا

يضم العالم في داخل نظام فكرى ما. وبالمثل، سوف يساعد التفوق في المنطق المجادلات في إطارها التاريخي ولكن المنطق نفسه لا يمكن أن يرسخ الحقيقة أو الزيف الموجود في المقدمات المنطقية. وبقدر ما قد يكون تصنيفنا للموضوعات والعلاقات في التاريخ دقيقا ومرضيا ،فإن المنطق نفسه لا يمس الماضي سوى بقدر ما نسمح للعالم الحقيقي أن يكون مصدر معلومات تعليلنا المنطقي.

ولأنه يمكن الاحتفاظ بالمجادلة المنطقية في خدمة سادة آخرين غير التاريخ، ولأن الذاكرة التاريخية مرنة أينة، فقد يواجه التعليل التاريخي منافسين محتملين في التراث الغربي: السسحر والعقائد الدينية الجامدة (الدوجما). وكلاهما، بحسب طريقة كل منهما، صارم وقهري (لمن يؤمنون بالسحر أو بالعقائد الجامدة) ومرض تماما مثل الفكر التاريخي، ولكل منهما منطقه الخاص.

ويزعم السحر القدرة على الوصول إلى الحقائق المطلقة مسن خسلال وسائل لا خلاف عليها. تلك الوسائل – التعاويذ السحرية، المعرفة السسرية، والتوسل بقوى خفية – تضرب طبعا بجذورها في تربة التاريخ. فقد كسان السحر أحيانا يعلمهم من شخص ما تعلمه هو من شخص آخر، وهكذا دواليك حتى يعودوا القهقرى إلى ماض غامض وسحري. وقد وجد المؤرخون أن التفكير السحرى جزء من كل هو الثقافة المسجلة، فقد كانت للسحر وظيفة تقافية حيوية. وقديما لم يكن السحر يفسر أسرار العالم فحسب، ولكن التعاويذ التى كان السحرة والكهنة يقومون بها كانت تجعل العالم يدور، إذ كان يمكن للساحر أن يكون أهم شخص في القرية بأسرها لأنهم كانوا يظنون أنه يشفى المرضى، ويساعد المحاصيل على النمو، ويجعل الصيد وفيرا.

وكشفت الدراسات الحديثة التى أوردها بندكت كارى فى صحيفة النيويورك تايمز بتاريخ ٢٤ بناير ٢٠٠٧ م أن الناس يتقبلون المئات من "طقوسهم الصغيرة " اليومية باعتبارها أمورا " لاعقلانية " ومع ذلك فانهم يثابرون عليها. وهم يعرفون أن العلم الحديث قد بدد قوة السحر وجاء بدلا منها بتفسيرات مادية وبيولوجية وكيميائية. ومع هذا يثابر الناس على اللمس والقول وتصور وجود القوى السحرية. ويشير علماء البيولوجيا وعلم النفس إلى أن العقل هو ذلك التفكير السحرى المركب فى أجسادنا إلى أن العقل قوى خاصة ترفع من الروح المعنوية للناس فى مواقف تحمل تهديدا وتساعد على الحد من المخاوف اليومية وتفادى الاكتئاب

ويعرف المؤرخون أن التسمية نوع من السحر الذي يجمع سويا حاجاتنا الجسدية والاجتماعية. ففي أثناء كتاب عن النار في أمريكا بعنوان Seven Fires علمت " أننا نسمي نيران خاصة بأسماء آثمة، كما لو أن التسمية تمكننا من تخفيف وطأة الرعب الذي تحطمه التسمية... نحن نعترف بقوة الحريق الكبير بأن نسميه حريقا كبيرا مثل "حريق شيكاغو الكبيير "سنة ١٨٦١ م. ما الذي تفعله تسمية الحرائق؟ أنها تحولها إلى ظاهرة طبيعية مخيفة إلى حدث إنساني يسهل التحكم فيه. وللسبب نفسه، فإن إعادة تسمية التاريخ باسم آخر في سبعينيات القرن العشرين لبت حاجة كثيرين في المهنة وخارجها ممن طالبوا بحق النساء المشروع في أن يكون لهن مكان في الحوليات.

ويمكن لسحر التسمية أن يدخل فى طيات التاريخ السياسي. فعندما أراد كريستوفر كولومبس أن يدعى ملكية إسبانيا لجنزر الأنتيل في البحر الأناريبي، بدأ يسمى الجزر بأسماء إسبانية وهذه هي الأسماء التي تظهر الآن

على الخرائط. لقد سمى السكان الهنود Indios وهى الكلمة الإسبانية الدالسة على سكان "جزر الهند " (فقد ظن أنه وصل إلى حافة جزر التوابل الهندية في الشرق)، وهو مصطلح آخر قيض له أن يستمر. واختفت أسماء التاينو، ومعها جمهرة سكان التاينو. وقد سجل التاريخ الإمبراطورية الإسبانية، وإسبانيا الرئيسية، وإسباني الجديدة، والمكسيك، وهو الاسم الذي أطلقت شعوب المكسيك Mexica لبلادها، وقد تبناه الإسبان الدنين غروا السبلاد ليستمر باقيا حتى الآن. وهكذا أيضا، رتب هرنان كورتيس لضباطه عملية الزاوج من بنات نخبة الإزتك بحيث يضمن استمرار الحكم الإساني مسن خلال تسمية الأميرات الإزتكيات بأسماء إسبانية.

والنظام الفكرى الثانى الذى يتحدى التاريخ بمنطقه الخاص هو العقيدة الجامدة. وكلمة دوجما dogma مشتقة من الكلمة اليونانية الدالة على الرأى أو الاعتقاد الذى نتمسك به فى قوة لا تسمح بالخروج عليه. والعقيدة الجوهرية الجامدة نوع من التعليل الذى تتخذ تأكيداته شكلا فى داخل صندوق النزعــة التقليدية المنغلق. ويحشر المدافعون عن بعض العقائد الجوهريــة الجامــدة قراءات من التاريخ فى سياق دفاعهم. كما أن بعض كتب القـانون الكنــسى المرتبطة بالعقائد الدينية جزء من التاريخ فى حقيقة أمرهـا، وجــزء مـن الكوزمولوجى، وجزء من الإرشاد الخاص بالطقوس. والكتاب المقدس واحد حسبما جادل المؤرخون: فقد كتب فى زمــن تــاريخي، بواسـطة فــاعلين تاريخيين حقيقين، متضمنا أحداثا تاريخية سابقة. ولكن الكتاب المقدس نفسه بمكن تفسيره خارج نطاق الزمان والمكان التاريخيين تماما، وذلك باعتبــاره نظاما مغلقا من المفاهيم والتطبيقات.

ورفض الإجماع أو الاعتراف بالخطأ نوع من التصلب، ويدين الفكر المستنير التصلب في العقيدة والتطرف zealotry، الذي نشتق منه كلمة غيور zealous هو التصلب المتطرف في الفعل. وكان المتطرفون الأصليون طائفة من غلاة اليهود الذين رفضوا قبول الوجود الروماني في فليسطين، كما كرهوا اليهود الآخرين الذين لم يكونوا على نفس درجة تسددهم، وبدأوا حركة تمرد ضد الحكام الرومان في فلسطين في القرن الأول الميلادي. وعندما تم الإيقاع بهم في قلعة مسعدة (الماسادا) فوق قمة الجبال، قتلوا النساء والأطفال ثم قتلوا أنفسهم ورفضوا الاستسلام.

وغالبا ما ترتدى العقيدة الجوهرية الجامدة ثوب الأخلاق. وهو ما يعنى أن يطبق منطقها على مواقف أخلاقية فعلية. وقد أدان أنصار تحرير العبيد الرق قبل الحرب الأهلية الأمريكية باعتباره شرا أخلاقيا مطلقا. وبدورهم أدان المثقفون الجنوبيون أنصار تحرير العبيد بوصفهم متطرفين كما أدانوا معاداة الرق باعتبارها نوعا من التصلب المتطرف.

وقد زعم كل من الجانبين أن العقل حليفهم عندما اعتبر كل منهما الجانب الآخر العدو الأخلاقى. وقد حلت الحرب الأهلية المسألة عندما لم تستطع المبارزة بالمواقف المنطقية أن تحله.

وقد اعتمد المتنازعون في الجدل حول الرق أساسا على مقدمات منطقية مختلفة. فبالنسبة لأنصار إلغاء الرق، كان إنكار حقوق الإناسان الأساسية، بما فيها التمتع بثمار عمله، خطأ. ولم يكن ذلك موقفا منطقيا بحد ذاته ولكنه موقف يضرب بجذوره في مجموعة من القيم والمثل. كذلك لم يكن موقفهم متسقا كله، لأن بعض أنصار إلغاء الرق كانوا يعارضون منح العبيد المحررين حقوقا أساسية أخرى من حقوق الإنسان: مثل الحق في

اختيار شركاء الزواج من عناصر عرقية مختلفة، وحق التصويت، وحق الختيار شركاء الزواج من عناصر عرقية مختلفة، وحق الإنسان كلها تولى المناصب. أما بالنسبة للمدافعين عن الرق، فكانت حقوق الإنسان كلها تتناسب " مع مكانة الفرد في المجتمع ". وسواء بالدونية البيولوجية التي لا يمكن تغييرها أو بالإذلال الاجتماعي الذي لم يكن بوسعهم تبديله، لم يكن يمكن تغييرها أو بالإذلال الاجتماعي الذي لم يكن هذا موقفا قائما، لاعلى المنطق، وإنما على الحقائق الاجتماعية والنفسية لى " الموقف الخاص " الذي اتخذه الجنوبيون البيض.

ويكشف التاريخ عن أن العقيدة الجوهرية الجامدة والتطرف لهما قوة باقية يجب أن يعترف بها حتى الذين ينتقدونهم، والراحة التى يوفرها للمرء كونه مؤمنا حقيقيا ليست مستمدة من المنطق الكامن فى العقائد الجامدة، ولكنها مستمدة من مكاسبها النفسية. ذلك أن الاعتقاد المتصلب يقلل من التنافر الإدراكي، والقلق العقلى الذى يوجد عندما نواجه انطباعات شعورية، أو معلومات، أو أفكارا لا تتناسب مع إطارنا الإدراكي الموجود. وعلى حد تعبير عالم النفس الاجتماعي ليون فستينجر" إن وجود التنافر يؤدي إلى ظهور الضغوط لتقليل التنافر أو التخلص منه ".

قدم فستينجر هذا المصطلح للطلاب الذين كانوا يدرسون علم السنفس الإدراكي سنة ١٩٥٧ م في مسار واحدة من أهم التجارب وأكثرها إثارة في ذلك المجال. وكان قد سأل، من بين أسئلة أخرى، كيف يمكن لطائفة ألفية (أي تؤمن بنهاية العالم في نهاية الألف الثانية بعد المسيح) في ولايسة نيويورك أن تلمس الحقيقة عندما لم ينته العالم في الموعد الذي كانوا قد تنبأوا به. هل انفرط عقدهم؟ هل أطاحوا برؤسائهم؟ لم يحدث شيء من هذا — فقد راجعوا حساباتهم ببساطة ليكتشفوا أن هناك خطاً ما — إذ كان المفترض أن ينتهي العالم في وقت لاحق في ذلك العام. إنهم لا يبدأون الشك

فى فروضهم الأساسية سوى عندما تخفق النبوءات بصورة متكررة. لقد كانت نظرية فستينجر عن التنافر الإدراكي مثالا كلاسيكيا.

إن فلسفة تاريخ تصلح للعصر الحديث يجب أن تسير بمحاذاة الأسراب العديدة من التفكير السحرى أو التمني ودوامات العقيدة الجوهرية الجامدة. إنها زيف التعليل المنطقى والقطب المضاد لجمع الحقائق. وليس ذلك بالأمر الهين كما قد يبدو. إذ إن هناك منظمات بعينها و" معاهد " تدعى لنفسها مـــا ليس فيها، فتضع نفسها داخل الحرم الجامعي. (على الرغم من أنها غالبا ما تكون منفصلة عن الكلية)، أو يصورون أنفسهم على أنها مراكز تفكير مستقلة توظف المؤرخين باعتبارهم باحثين مقيمين أو تتعهد بالإنفاق علي المشروعات التاريخية لأهداف تتصل بالتحزب والعصبية. وهناك معهد من هذا النوع طور أغراضه على أنها دراسة " الحريسة، والديموقر اطيسة والرأسمالية " ومعاهد أخرى تعقد مؤتمرات عن " مبادئ تأسيس أمريك ". وفي مقابلة جرت في ١٦ مارس٢٠٠٧ م مع الصحفي روبرت كريناك بمجلة مؤرخة التعليم العالى "Chronicle of Higher Education" شرح مدير المركز الموجود في جامعة كوجيت باسم Center for Freedom and Western Civilization أهدافه بقوله " هذه هي المشكلة العامة المر تبطــة بــالتوازن الإيديولوجي داخل الحرم الجامعي، لديك جدل حول الحرب في العرراق، والجميع ضد هذه الحرب، ولا أحد في هيئة التدريس سيأخذ موقفا مؤيدا للحرب، كيف يمكن أن تعلم الطلاب إذا لم يكونوا قد تحدثوا قط إلى واحد من الأنجيليين، أو شخص في الجيش، أو أحد مناهضي الإجهاض؟ كل هـؤلاء الناس ليسوا موجودين بالمرة بين أعضاء هيئة التدريس بالكلية ".

ولنفترض أن المفهوم هو أن التاريخ الجيد نتاج لمناقشة بين اثنين على طرفي نقيض، شيء أشبه بطرفين في قضية قانونية، ومن ثم يجب علي

كليهما التواجد في المحكمة لطرح القضية، فماذا لو أنه لم يكن هناك مـورخ يمكن أن يمثل أحد الطرفين؟ منطقيا، قد يستنتج المرء أن مثل هذا الموقف ليست له مصداقية بحثية – ولكنه ليس كذلك إذا ما كان واحد فقط يشك فـي ذلك الرأى، إذن، فإن القراءات السحرية أو العقائديـة للأحـداث الجاريـة والتطبيق الانتقائي للغاية، أو التطبيق الخاص للحكايات التاريخية من أجـل دعم سياسات معينة، هي التي تنتزع الخطاب التاريخي العقلاني.

إن استحالة التاريخ لا يخفف منها ربط التاريخ بالعقل أو بالمنطق، ويجب أن يكونوا ولكن المؤرخين لا يمكنهم العمل بدون العقل والمنطق، ويجب أن يكونوا قادرين على الجدل اعتمادا على الاستدلال واختيار القطع المناسبة من الأدلة، التي قد لا تكون هي نفسها جسرا فوق الفجوة المستحيلة بين الحاضر والماضي، ولكنها تقدم مقاربة ثابتة وراسخة تصلح أساسا يربط ما بين الحاضر والماضي، ونحن بحاجة إلى أن نفترض أن المنطق التعليلي سوف يكون بمثابة المرحلة التي تمند من الجسر إلى الشاطئ، وإلا فلن يمكنا أن نخيل المسافة كلها.

ما الخطأ في هذه المجادلة؟

المشكلات التاريخية لا تطرح نفسها كتمارين منطقية مرتبة يجب حل كل معضلة تاريخية على حدة، وبشكل كلى غالبا وبمناهج خاصة بهذه المعضلة. ويمضى معظم المؤرخين في تحيد المقدات والنتائج بوضوح وليس حسب قواعد المنطق.

ألان نيفيتز (١٩٣٩ م)

إذا لم تكن هناك فائدة فى الالتزام بالعقل ومعرفة القواعد المنطقية أكثر من البدء فى بناء المسافة بين الحاضر والماضى، فإن هذا يطمئننا أن بوسعنا أن نضفى المعنى على ما بقى من الماضى، وفى سنة ١٩٣٨ م أوصانا ألان نيفيتز أن نثق فى رشدنا فى مجادلاتنا التاريخية، بيد أن الرشد يقع فريسة الأخطاء المنطقية الشائعة.

ولست أول من يرى أن المغالطات المنطقية ترتبط بالتاريخ الذى يتخذ شكل المجادلة. ففى سنة ١٩٧٠م، نشر المؤرخ دافيد هاكيت كتابه الذى يحمل عنوان Historians' Fallacies، والذى كان سردا قاسيا يفتقر إلى الكياسة لتلك

المغالطات المنطقية التى قام بها مؤرخون مشهورون. وقد أزعج فيشر أن " أعمال كثير من المؤرخين المحترفين تشوبها فكرة معادية للعقل استحوذت عليهم – فانحازوا بشدة ضد المنهج، والمنطق، والعلم. .. والحقيقة أن المؤرخين ... يتخبطون فى الأخطاء وهم يقومون بعملهم دونما إحساس كاف بالغرض أو بالإجراء الذى يتخذونه ".

لقد اعتبر فيشر أن كل المغالطات المنطقية عبارة عن" انحرافات خاطئة". إذ إنها مضللة وتسىء التفسير، وخاطئة. والتحدى الذى يطرحه فى وجوهنا، بأن نتجنب المغالطات المنطقية، سوف يجعل البحث التاريخي ودروس التاريخ – جديرا بمزيد من الثقة. بيد أن الكتالوج الذى وضعه فيشر للزلل والمزالق التى تؤدى بمعظم المؤرخين فى المغالطة المنطقية – بل إنه اتهم "مؤرخا موهوبا عظيما " اسمه ألان نيفيتز فى قسم من كتاب عن المغالطات المنطقية بأنه ينزلق " فى الأدلة غير المرتبطة بالموضوع " – هذا الكتالوج لم يشرح لماذا كان أمثال هؤلاء المؤرخين الممتازين مدانين بارتكاب مثل هذه الأخطاء الأولية. وإذا ما قلبنا مجادلة فيشر رأسا على عقب، يمكن للمرء أن يسأل: إذا كان أفراد النخبة فى المهنة مدانين بارتكاب مشروع، بديلا، لأنماط بعينها من المغالطات المنطقية فى السرد والتحليل التاريخي؟

ويسلم المؤرخون بالدور الذي لعبه التفكير القائم على المغالطات المنطقية في الماضى، ووفقا للمؤرخ الدبلوماسي إرنست ماي، فإن المشابهة مع التهدئة التي تمت في ميونخ قبل الحرب العالمية الثانية قادت هاري ترومان إلى سوء فهم أبعاد الحرب الأهلية في كوريا مما جعل حلها النهائي أصعب كثيرا، وكما أخبر الكونجرس في ١٩ يوليو ١٩٥٠م: "إن الأحداث

الأخيرة التي وقعت في ثلاثينيات القرن العشرين، عندما أدى العدوان الذى لم يعارضه أحد إلى المزيد من العدوان، ثم أدى في نهاية المطاف إلى الحرب، ما تزال ماثلة في أذهاننا ". وثمة مغالطة منطقية أخرى، فقد كان افتراض أن كل الصراعات التي تضم قوى شيوعية لا بد أن تكون جزءا من الحرب الباردة تعميما كاسحا جعل من حرب وطنية أحد الاعتداءات الشيوعية، مما جعل الرئيس جون كينيدى والرئيس ليندون جونسون يوسع التزام أمريكا تجاه إدارة فاسدة وغير شعبية في جنوب فيتنام، فقد قرر جونسون أمام الكونجرس في ٥ أغسطس سنة ١٩٦٤ م: " هذه ليست مجرد حرب أدغال، وإنما نضال من أجل الحرية على كل جبهات النشاط الإنساني، والقصد من مساعدتنا لفيتنام الجنوبية ولاوس على وجه خاص أن نعينها على دفع العدوان وتقوية استقلالها ".

هل يمكن أن تكون المغالطة المنطقية صحيحة؟ إن غريزتنا العقليسة تخبرنا أن هذا لا يمكن أن يحدث، بيد أن المغالطات المنطقية يمكن أن تكون تعليمية، خاصة عندما تكون محاولات أمينسة لتلخيص كم هائل من المعلومات، والحدود بين ضغط التفكير والمغالطة المنطقية ليست حائطا عاليا وإنما هي أشبه بغشاء رقيق يمكن النفاذ منه، وبعض المجادلات تقترب من المغالطة المنطقية ولكنها تتحول إلى مساعدات معينة بل وضرورية التفكيس الرائق، ولا يمكن للمؤرخين أن يمضوا في عملهم بدون هذه المجادلات الشبيهة بالمغالطات المنطقية.

شبه المغالطة المنطقية:

نحن بحاجة إلى التمييز بين المغالطات المنطقية غير الصورية التي أسميها شبه المغالطات، والمغالطات المنطقية الصورية. فالأولى عبارة عن

أنماط من الجدل الذى يباعد مابين ساقيه على الخط الفاصل بين ما هو مقبول وما هو غير مقبول في الكتابة التاريخية. وتتضمن شبه المغالطات المنطقية: التعميم المتسرع، والتنميط والمجادلة من موقع السلطة، والمغالطة المنطقية " إما، أو "، والمجادلات القائمة على أساس التشابهات الضعيفة أو الخاطئة، والتعميم الكاسح، واستجداء السؤال.

ولنبدأ بالتعميم المتسرع، في أية نقطة من النزمن يصبح التعميم المتسرع هو التخمين العلمي؟ هل كان على المؤرخين أن ينتظروا حتى تكون الأدلة كلها موجودة قبل القيام بأى تعميم؟ لو أنهم فعلوا هذا لما كتبوا كلمة واحدة. وكما كتب إدوارد هالليت كار في ?What is History يجبب على المؤرخين الذين يريدون نشر أى شيء أن يبدأوا الكتابة قبل الانتهاء من جمع المادة. وقد صرح قائلا: "بالنسبة لى فبمجرد أن أحصل على عدد قليل مما اعتبره المصادر الرئيسية، تصبح الرغبة قوية للغاية وأبدأ الكتابة ". ولن تتوفر الأدلة كلها أبدا لأنه لا يمكن الحصول على الأدلة كلها فهناك الكثير منها ضاع إلى الأبد، بل إن الشطر الصغير الذي بقى منها تشوبه العيوب والنواقص. وقد عرفت مؤرخين أكاديميين قرروا أنهم لن يكتبوا كلمة قبل استيفاء الأدلة كلها. والنتيجة: أنهم يجدون أنمن المستحيل تقريبا أن ينجزوا ورقة بحثية يقدمونها. وإذ يفشلون في النشر فإنهم يهلكون.

لقد طور المؤرخون المحترفون المناهج كثيرا لتحسين التخمينات التى لا تسندها الأدلة، ولكنهم إذا ما أرادوا النشر فى حياتهم، فإن عليهم القيام ببعض التعميمات البسيطة؛ بسيطة ولكنها متسرعة. ونحن نتيه عجبا بأنفسنا إذا كان البحث عميقا. ولكن الحقيقة أننا نقفز إلى الاستنتاجات طوال الوقت، وفى بعض الأوقات تكون غير كافية، على حين تكون مقبولة في أحيان أخرى. وهناك مثالان سوف يوضحان ما أعنيه. في المثال الأول، كان

المؤرخ دانيل بورستين متسرعا بأكثر مما ينبغى. ففى كتابه الفائز بجائزة Bancraft Prize و الذي يحمل عنوان:

(العبيد على أنهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة، وقد جادل بورستين بأن يمكل عابر على أنهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة، وقد جادل بورستين بأن الرق "كان يميل إلى تدمير ثقافة العبد الإفريقية، ويعريه من تراثه عندما وضعه في العالم الجديد ". والأسوأ من هذا، في أمريكا، أن المهاجر الأفريقي كان رجلا بلا عائلة. .. ومن بين التأثيرات اللاإسانية للرق، لم يكن هناك ما هو أعمق من إعاقة الأمومة وتحويلها ". لقد كان بورستين قد عمم بتسرع مفرط، لأن الأفارقة قد جلبوا بالفعل الأساليب الإفريقية إلى أمريكا، كما أن العبيد أعادوا بناء عائلاتهم فيها، على الرغم من أن القانون لم يعترف بها غالبا. هذه التعميمات المتسرعة لم تحظ بالقبول.

وإذا كانت هناك مخاطرة في التعميم المتسرع، فإن التفكير النمطى فعل متهور. ذلك أن التصنيف الذي يشبه رعشة الركبة للآخرين الذين يختلفون عنا والذيلا نرى فيه الفردية ولكننا نجعله تنميطا متسسرعا لمجموعة تسم تعريفها تعريفا هزيلا في عجالة، يتركنا فريسة لانحيازاتنا الخاصة. وبينما يمكن الدفاع عن بعض التنميط بوصفه اختصارا، فإننا غالبا ما نستنتج أن "هم " أدنى منا، وخطيرون، وأغراب، وثمة تعليق من جانب قاضى المحكمة العليا في الولايات المتحدة هوجو بلاك بعد الحرب العالمية الثانية بأنه في العليا في الولايات المتحدة هوجو بلاك بعد الحرب العالمية الثانية بأنه في أثناء الحرب "كان الناس يخافون عن حق من اليابانيين... فهم جميعا يبدون متشابهين أمام الشخص غير الياباني "، وقد عكس هذا التعليق موقفه المتطرف، وشاركه هذا الرأى في احتمال عدم ولاء كل أمريكي ياباني عاش على الساحل الغربي، الكونجرس والرئيس فرانكلين روز فيلت الذي أمسر بترحيل الأمريكيين اليابانيين من الساحل الغربي " وإعادة توطينهم " فسي "

معسكرات تجميع ". ولو كانت السلطات قد نظرت بقدر أكبر من الحرص الى مائتى سنة تقريبا من تجربة الأمريكيين اليابانيين، لوجدوا قوما ذوى وطنية عميقة.

سقط المؤرخون في هذا الفخ. والمثال الكلاسيكي على هذا هو المؤرخ الأمريكي الشهير فرنسيس باركمان الذي عاش في القرن التاسع عشر، في المورة الكاريكاتورية التي رسمها للهنود في America الصورة الكاريكاتورية التي رسمها للهنود في النفس التعميم الكاسح والتنميط الخالص، في وصفه: " إن التحكم في النفس المعروف تماما، والذي يرجع أصله إلى شكل من أشكال الكبرياء، يغطي الطبيعة الوحشية للإنسان بقناع أو نقابعلي الرغم من أنه قناع رفيع. .. وعلى الرغم من أن الهندي أجوف، متباه، شرس، فإنه يتحمل الإساءة والسخرية بصبر مدهش ". وهو ما يعني أن الهنود جميعا على هذه الشاكلة، ولم يغير وصول الأوربيين فيهم شيئا، لأنها حضارة تجمدت في الزمن. إنه لتنميط ظالم حقا.

ويضرب التنميط الذي وضعه باركمان بجذوره في الانحيازات الطبقية والثقافية. وكما وضعها هنري لودج، وهو براهماني آخر من بوسطون، في خطبة له سنة ١٨٩ م: "إن الناس من كل جنس يمتلكون رصيدا لا يمكن تدميره من الأفكار، والتقاليد، والعواطف، وحالات الفكر، وتراث في اللاوعي جاءهم من أسلافهم، وليست للمجادلة عليه أي تأثير ". ووراء كل نمط توجد بشكل حاد فسيفساء أقل تمايزا من الافتراضات القائمة عن الناس وأساليبهم في الحياة. والمؤرخون اليوم تنتابهم قشعريرة من جراء حشر باركمان بسهولة لكل الهنود في فئة متوحشة وغادرة، وإزاء عنصرية لودج المكشوفة، ولكن الحقيقة أن لدينا خرائطنا المعرفية الخاصة التي شكلتها التجربة والتقاليد والتطلعات التي تؤثر على كيفية تعريفنا الشخصيات الآخرين.

ويمكن أن يكون التنميط الذي نقوم به متحذلقا إلى حد كبير. ففي دفاعه عن الرأسمالية الغربية، أطلق المؤرخ دافيد لانديس قذيفة على " الفاشلين " في السباق من أجل الثروة محتفيا بمهارات الرابحين: " من العمل بمعدات وتقنيات متواضعة، وإن كانت بارعة، صرنا نحن السادة الغربيين أساتذة الألات العظيمة والقوى الخفية. وإذا ما نحينا السحر والخرافات جانبا، فإننا قد عبرنا من المحاولة والتجربة الذكية إلى قدر كبير ومتزايد من المعرفة العلمية التي تولد فيضا من التطبيقات المفيدة " كان الأفراد الحديثون الأقل ارتباطا بأصنام العلم والتحسن المادي يخدعون أنفسهم. " وأولئك النين ينفصلون عن العالم المادي الغني ليجدوا التجديد الروحي في الطبيعة ربما يتركون ساعاتهم وراءهم ولكن... إنهم عادة يعرفون ما يكفي للحصول على يتركون ساعاتهم وراءهم ولكن... إنهم عادة يعرفون ما يكفي للحصول على المساعدة الطبية عند الحاجة إليها ". وفي هامش بكتابه يتحدث لانديس إلى القارئ مباشرة: " إنني أتذكر أن الخرافات والسحر لم تمست، وقد يجدادل البعض بأن العقيدة الدينية جزء من هذه الحزمة. ولا شك في هذا، لأننا فانون وضعفاء، نبحث عن الراحة حيث ينبغي أن تكون " – إنه تنميط غايسة في وضعفاء، نبحث عن الراحة حيث ينبغي أن تكون " – إنه تنميط غايسة في التعقيد لكل أولئك الفانين الذي لم يروا العالم من خلال نظارات لانديس.

ومن السهل تماما أن نحدد التتميط الشرير وندينه في كتاب من كتب التاريخ اليوم، وإن لم يكن بمثل هذه السهولة في السنوات الفائتة. والأمر ليس كذلك بالنسبة لمجادلة مزيفة تقوم على لماذا، ومتى (أو إذا). ذلك أن المجادلة التي يقوم بها عالم حجة لها شعبتان، وهما على عكس نهايات المدراة، تنطبق كل منهما على الأخرى. الشعبة الأولى تقول إنني على حق لأننى حجة في الموضوع (سلطة). خذ مثلا، المجادلة من موقع السلطة في الأوساط الأكاديمية. فعلى الرغم مما قد تقوله أي من الكليات والجامعات في الولايات المتحدة اليوم عن استقلالية هيئة التدريس، فإن السلطة في الجامعات من أعلى لأسفل. فالأمناء يقولون لرئيس الجامعة ما الذي ينبغي عمله؛ ورئيس

الجامعة يخبر العمداء؛ وهم يقولون لرؤساء الأقسام. والآن، في أي موضوع محدد، قد يقول أي عضو من أعضاء هيئة التدريس أن من حقه أن يستمعوا له ويأخذوا برأيه لأنه حجة في الموضوع. هذا عندما تتقاطع المشعبتان. وهناك مثال آخر: عندما يصوت أعضاء هيئة التدريس لترقية أحد الزملاء، يصوت الأساتذة لترقية الأساتذة المساعدين، وكلاهما يصوت لترقية المدرسين. ذلك أن السلطة والمرتبة العلمية تتوافقان. ولكن أي واحد على الفة باجتماعات الأقسام أو مجلس الكلية يعرف أن السلطة تأتي من الخبرة، وليس من المرتبة الرسمية. وثمة مثال ثالث: الباحثون الذين يبحثون عن ناشر لمخطوطاتهم يعلمون أن هناك تراتبية في دور النشر، انشر في واحدة من مطابع جامعات القمة، وسوف يكتسي الكتاب ومؤلف سلطة. وانشر في مطبعة أقل مرتبة، فسيكون الكتاب ذا سلطة أقل. وسوف يعاني المؤلف

وبالنسبة لأولئك الذين خارج النطاق الأكاديمي (وكذلك بعض الذين داخله) ربما تستند السلطة إلى تراتبية المؤسسات. إذ إن منشورات مؤسسة مثل:

The Chronicle of Higher 'US News and World Report وغيرها من المنشورات، عبارة عن مدارس في التنظيم التراتبي. وفي كليات القمة يتحدث أعضاء هيئة التدريس بسلطة أكبر من أعضاء هيئة التدريس في الكليات الأدنى مرتبة، أو على الأقل تفضل وسائل الإعلام أن تقتبس كلام أعضاء هيئة التدريس في كليات القمة. ويقول الباحثون السبباب الذين يبحثون عن وظائف إن المؤسسة العلمية التي تمنح الدرجات العلمية هي أهم ميزة أولية – أو عيب – يحسب لطالب الوظيفة في المقابلات. ويظهر ترتيب برامج تدريب الخريجين الأعلى رتبة سنويا في مجلة ويظهر ترتيب برامج تدريب الخريجين الأعلى مصدر القلق الجميع ومصدر

عذاب لتلك البرامج التى تنزل فى الترتيب. وقد دعى تحالف فضفاض من كليات وجامعات القمة، احتجاجا على ذلك، إلى فرض حظر على المعلومات لتلك المجلة.

وإذا ما تضافرت الخبرة والموقع الرسمى سويا فإنها تضفى المصداقية على مجادلة السلطة. بيد أن الأمريكيين يترددون أحيانا فى التسليم بسلطة الخبراء عندما يتعلق الأمر بالتاريخ. ولو أن كل رجل هـو مـوّرخ نفسه، لكانت الذاكرة مقياس التاريخ، ومن ثم، فإن طبيب الأسنان وعامل توصيل الطلبات لديهما مما يقولانه عن التاريخ ما يـضاهى مـا لـدى المـوّرخين المحترفين. وفى المناقشة حول مستويات التاريخ الـوطنى فـى المـدارس العامة، لعبت كل من تنويعتى مجادلة السلطة دورا حاسما. وفى سنة ١٩٨٨م قام الوقف المسمى The National Endowment for the Humanities معهد بجامعة كاليفورنيا، فى لوس أنجليس، لكتابة مناهج نموذجية لتـدريس التاريخ فى المدارس من الصف، الخامس إلى الصف الثانى عشر. وقد جمع المعهد نخبة من الخبراء فى التدريس والباحثين لإعداد مستويات التـاريخ الوطني. وإذ عملوا تحت قيادة المؤرخ جارى ناش، فإنهم فى الواقع قـاموا بمجادلة من موقع السلطة؛ نحن الخبراء، ونعرف الرواية الأكثر دقة والأشمل بمجادلة من موقع السلطة؛ نحن الخبراء، ونعرف الرواية الأكثر دقة والأشمل فائدة فى التاريخ للطلاب.

وقد شرح ناش ما ظن أنه الاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه المعايير: "
والرأى القائل إن التاريخ مع الناس رأى لا يناسب المجتمع الديموقراطي،
الذي يفترض فيه أن تكون المواطنة النشطة جوهرية للحفاظ على الحرية،
فحسب، بل إنه أيضا الرأى الأكثر دقة ". وقد دخلت الجمعية التاريخية
الأمريكية أيضا في الموضوع، وجادلت بأن معايير تاريخ العالم يجب أن
تتخلي عن النموذج المركزي الأوربي وتعطي وقتا مساويا لمراكز

الحضارات الأخرى فى العالم. وعندما نشر "المركز الوطنى للتاريخ فى المدارس "، بعد ست سنوات وعدد كبير من اجتماعات اللجنة، والمسودات، والمراجعات، ثم المزيد من المراجعات، المعايير والخطط النموذجية للدروس، سقطت السماء فوق رءوسهم.

كان ذلك يوم الذروة في " الحروب الثقافية " عندما قـــام الليبراليــون والمحافظون بكتابة مقالات يردون بها على بعضهم البعض "من" الذي يجب أن يقوم بتعليم " ماذا " في المدارس والكليات الأمريكية. وبدلا من الاحتفاء بما كان الرجال العظماء قد أنجزوه، اتخذت معايير التاريخ الــوطني رؤيــة أكثر نقدية عن الماضى الأمريكي، وهي الرؤية التي كانت دعامة " التاريخ الجديد " في السنينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهي رؤية شارك فيها كثير من المؤرخين البارزين، وقد صوت السناتور في الولايات المتحدة يوم ١٨ يناير ١٩٩٥ م، بنسبة ٩٩ إلى واحد، بأن المعايير ليست مقبولة لأن الخبراء قد وجهوها الوجهة الخطأ وعلى حد تعبير السناتور الجمهوري سليد جورتون من واشنطون: " إذا كانت وزارة التعليم، ووقف الإنسانيات، أو أية وكالة فيدراية أخرى، تقدم الميزانيات لتطوير المعايير... فإن من يتلقى مثل هذه الميزانيات يجب أن يكون لديه احترام وافر الإسهامات الحضارة الغربية، وتاريخ الولايات المتحدة، وأفكارها، ومؤسساتها، لزيادة الحرية والرخاء في جميع أنحاء العالم". وفي خارج الكونجرس، كان الهجــوم علــي المعـايير والخبرة، أشد وطأة ووقاحة. فقد تباهى المعلق الإذاعي المعروف ذو النزعة السياسية المحافظة، روش ليمباج، بأنه لم يكن خبيرا وأنه لهذا السبب نفسه كان يعرف أكثر من جميع الأساتذة سويا. وأن أي سائق حافلة أو طبيب أسنان يمكنه أن يعمل بطريق أفضل منهم، حسب رأيه.

ومن بواعث السخرية أن بعضا من أقسى النقاد في وسائل الإعلام لمعايير التاريخ الوطني قالوا ما يعني أن للتاريخ سلطته الخاصة. فعبارات مثل " التاريخ يخبرنا " و " التاريخ يعلمنا " و "درس التاريخ هو " هي ما يردده هؤلاء الذين عينوا أنفسهم علماء جهابذة، ويدعون أن من يرفض الاستماع إليهم هم الحمقي والمتصلبون في آرائهم. ومن قبيل الإحسان يمكن للمرء أن يضع مصطلحا لهذا الشكل من مجادلة السلطة يصفه بأنه شكل ساذج من أشكال الموضوعية التاريخية، ولكن المزاعم من هذا النوع غالبا ما تكون لها جذور في الموضوعية السياسية. فعلى سبيل المثال، جذب نيوت جبنجريش الأنظار لروايته عن بيرل هاربور بقوله: " باعتبارى مدرسا سابقا للتاريخ، فإننى استعد للمستقبل بدراسة الماضي، ولهذا فنحن على يقين أننا ننقل من خلال القصيص المروية في بيرل هاربور بعض الدروس المهمة الأمريكا اليوم " كان ذلك الدرس سياسيا: " الحقيقة الأكثر رسوخا عن ذلك المصباح المشئوم في هاواي سنة ١٩٤١ م أن شيئا يبدو أنه بقي دون أن نتعلم منه -في الروح الأمريكية. ذلك أن هناك حكايات كثيرة عن البطولة التي تجلت في ذلك الصباح وليست هناك حكايات عن الجبن " وما يزال الدرس جيدا: " فكروا في هذا، لقد شهدنا الشيء نفسه بالضبط في ٩/١١ ". وقد استثار جينجريش ما سبق أن قاله لودج من أن هناك " مخزونا لا يمكن تدمير ه من الأفكار "، واستثار روح الشعب الفطرية وما يرتبط بها من القدرة على التغلب على أي تحد. لقد أعطى التاريخ نفسه لجينجريش سلطة الاحتفال بالبطولة الأمريكية.

وقد أثار نقاد معايير التاريخ الوطنى الرأى العام عندما اتهموا الخبراء بأنهم يقومون بمغالطات منطقية جدلية من موقع السلطة. ولكن تاريخ المهنة التاريخية يظهر التطور المعاكس – أى التحول من الهواة إلى الموهوبين في القرن التاسع عشر إلى المحترفين ذوى الجدارة في زماننا. ومعظم التاريخ يكتبه الآن الحاصلون على درجة الدكتوراه في أحسن الجامعات. والدراسة صمارمة، ولا يجتازها كل من يلتحقون بها. بل إن الأفضل بينهم يجد صعوبة في الحصول على عمل في إحدى الكليات أو الجامعات، إذ إن المنافسة تلهب سوق العمل، ومن ثم فإن على المدرسين الجامعيين، إذا مسا وجدوا أية فرصة، أن يقبلوا تحديات مقابلات الحصول على الوظيفة. ويقرأ المحكمون الخارجيون ما نشره المرشح للوظيفة. وتزن اللجان والمجالس الداخلية الجازات المرشح في مجال البحوث. وفي معظم الكليات والجامعات، يحتاج المتقدم للوظيفة إلى نشر كتاب في دار نشر طيبة السمعة، ويحصل على مراجعات وعروض جيدة لكتابه، ويكون له مشروع رئيسي جديد يعمل فيه مراجعات وعروض جيدة لكتابه، ويكون له مشروع رئيسي جديد يعمل فيه لكي يحصل على الوظيفة. والأمر برمته مخيف ولكن عندما يتم تخطى هذه والنهاية هي التي تصنع الفرق كله.

وثمة شكل آخر من الجدل يقوم على أساس الخبرة هو ما نسميه جاذبية السلطة. والتسمية اللاتينية لها argument ad verecudiam. والمشكلة بالنسبة للمؤرخين هى نفسها المشكلة التى تواجه كل امرئ. ولا تتفق السلطات دائما، والمحكمة العليا فى الولايات المتحدة إحدى هذه السلطات. فبعد سنتين معذبتين من الجدل السقفاهي، والمسؤتمرات، والمسودات والمراجعات، أصدرت المحكمة حكما فى قضية " روى ضد ويد " سنة ١٩٧٣ م. وكتب القاضى هارى بلاكمون عن نفسه وعن ستة من رفاقه أن لروى الحق فى " الخصوصية " وأن هذا الحق يتضمن حق الإجهاض فى مراحل الحمل الأولى، وانضم القاضى وليم دوجلاس إلى بلاكمون فى رأيه وأضاف قائلا

فى موافقته: "إن حرية الاختيار فى القرارات الأساسية فى حياة المرء فيما يتعلق بالزواج والطلاق، وإنجاب الأطفال، والحمل وتعليم الأطفال وتربيتهم" أمور يحميها الدستور الذى هو المصدر الأساسى للسلطة فى أمريكا: "والمرأة حرة فى اتخاذ القرارات المتعلقة بحمل طفلغير مرغوب فيه ". وعلى كل ولاية تحرم قوانينها الإجهاض أن تلقى بتلك القوانين فى النفايات.

ولكن القاضى بايرون هوايت والقاضى وليم رينوكويست اختلفا مع هذا الرأى وعارضاه بشدة. وشرح القاضى رينوكويست سبب اعتراضه بقوله: "أجد صعوبة في الوصول لاستنتاج، أن الحق في "الخصوصية" يدخل ضمن هذه القضية، إذ إن تكساس، حسبما يقضى القانون هنا، تمنع الإجهاض الطبي على يد طبيب لمدعية مثل روي، والاتفاق الذي تنتج عنه عملية مثل هذه ليس اتفاقا "خاصا "بحسب الاستخدام العادى للكلمة". ولقد كشفت تعليقات القاضى هوايت عداء شخصيا أشد ضد الإجهاض: "في قلب الجدل حول هذه القضية توجد تلك الحالات من الحمل الذي لا يمثل أي خطر على حياة الأم أو صحتها، بأية صورة، ولكنها مع هذا حالات حمل غير مرغوب فيها لسبب أو لآخر – المواءمة، التخطيط الأسري، الجوانب الاقتصادية، عدم حب الأطفال، الحرج من عدم الشرعية... إلخ – إن الدعوى العامة التي أمامنا هي أنه يحق لأية امرأة، ولأي من هذه الأسباب، أو دونما سبب على الإجهاض حسب طلبها إذا ما استطاعت أن تجد طبيبا على استعداد للقيام بالعملية".

وأصدر The National Conference of Catholic Bishops عندما صدر قرار المحكمة بيانا رسميا يقول نصه: " لا يمكن أن يكون هناك أى قبول أخلاقى للقرار الصادر حديثا من المحكمة العليا في الولايات المتحدة،

والذى يقضى بإضفاء الشرعية على الإجهاض... يجب على الكاثوليك أن يتبعوا السلطة الأعلى كما يفسرها آباء الكنيسة، لا سلطة المحكمة ". لقد كانت تلك سلطة ضد سلطة، ويستمر النزاع لأن السلطتين لا يمكن أن تتفقا.

ويمكن للمرء أن يجد أمثلة أقل عاطفية في كل باب من أبواب " بريد المحرر " في كل مجلة من المجلات التاريخية العلمية. فالباحث الذي لقص كتابه مراجعة تخلو من المجاملة سوف يجادل بأنه يعرف أكثر من الذي قام بالمراجعة وأنه كان من الواجب أن يلقى قدرا كر من الاحترام، وعبارة " ألم يكن حريا بالمراجع الذي يعرض للكتاب أن يقدم للقراء نظرة كلية على محتويات الكتاب؟ " عبارة تتواتر كثيرا في الخطابات التي يتلقاها محررو عروض الكتب، وربما يرمى المؤلف الغاضب، أو من يعرض الكتاب بطريقة صحيحة، خصمه بنقص الخبرة أو انعدام المؤهلات. ففي إحدى المرات رمى المراجع مؤلف الكتاب بأنه " ميال إلى القتال بشراسة ومع هذا فهو مشوش "، وقد رد المؤلف بقوله إن خصمه قد وصمه بما ليس فيه وأنه أخفق في تقديم ما يدعم هجومه.

وبعض مواقع الإنترنت لبعض الباحثين مكرسة للحط من شأن خصومهم اعتمادا على السلطة. ففي أحد هذه المواقع، يدين أستاذ كبير في القانون ويمارس الكتابة في التاريخ " الأكاذيب الفاضحة " التي قالها أو كتبها " البروفسور فلان ". والبروفسور فلان هذا مدرس في العلوم السياسية يكتب أيضا في التاريخ، وقد رد ردا من النوع نفسه: " إن البروفسور علان قد شن حملة شعواء من الذم والقدح " ضد البروفسور فلان. وقد تنضمنت الحملة التي شنها " علان " خطابات أرسلها إلى ناشر كتاب البروفسور "فلان"، وإلى حاكم الولاية التي يمارس فيها الناشر عمله طالبا تغييرات في الكتاب، ثم أرسل بعد سنة خطابات إلى الجامعة التي يعمل بها المدرس الجامعي يسبه

ويطلب من زملائه حرمانه من وظيفته. وعلى الرغم من أن الجامعة أنكرت بحرارة أن خطابات المهاجم كان لها أثر على قرارها، فإنها أنهت خدمة المدرس الشاب. وتستمر المعركة على الإنترنت بين الخصوم. أما الذي يجعل هذه الاتهامات والردود عليها ترتفع فوق مستوى الجامعة فهو أن كلا الأستاذين يزعمان أنهما خبيران في موضوعهما المشترك: تاريخ إسرائيل التي قامت منذ زمن قريب. وفي غمرة التنافس بين سلطة وسلطة أخرى كتب كل منهما الكتب للرد على الآخر بلا مواربة.

وفى صورة أخرى من صور شبه المغالطة المنطقية هذه، هناك اثنان أو أكثر مشتبكان فى نزاع حول ما إذا كانت العبارات حقيقية، ولذا فإنهم يسعون إلى السلطة لكى تحل النزاع، وفى حلقة نقاش بحثية غالبا ما تتخذ المجادلات حول أعمال الباحثين الآخرين شكلا مماثلا، مع وجود أفراد يمتدحون أو يذمون البحث على أساس جاذبية سلطة المؤلفين، وهناك اثنان من حلقات نقاش التاريخ هذه (السيمنارات) وكلاهما فى جامعة بارزة، نالتهما الفضيحة بسبب التنابذ بالألفاظ. وفى إحداهما، يتطابق النزاع مع تقسيم سياسى بين اثنين من الباحثين الكبار فى التاريخ الأمريكى فى القرن التاسع عشر، وفى السيمنار، وهو إنجليزى خبير فى تاريخ إنجلترا القرن السابع عشر، النمط الأكاديمى الإنجليزى فى خبير فى تاريخ إنجلترا القرن السابع عشر، النمط الأكاديمى الإنجليزى فى سوى شبه مغالطة منطقية. ففى أية حالة خاصة، إذا كانت السلطة جيدة، فلابد للمجادلة من موقع السلطة أن تكون ذات وزن، على السرغم من أن السلطة قد تكون على خطأ.

وفى المغالطة المنطقية على أساس " إما، أو " يكون كل شيء إما أبيض أو أسود، طيبا أو سيئا، حقيقيا أو زائفا. وتؤكد المغالطة المنطقية "

إما، أو " أنه إذا كانت هناك مقدمة منطقية غير حقيقة، فلابد أن يكون عكسها كذلك، وبمفهوم المنطق الصوري، تكون "P" حقيقية أو تكون "p" حقيقية، واكن في العالم وإن كانت "p" غير حقيقية، ولكن في العالم الحقيقي، ربما تكون كل من "p" و "p" غير حقيقية، أو ربما تكون كانتاهما حقيقيتين، أو قد لا تكون هناك علاقة بين "p" و "p" على الإطلاق، ولا تسلم تعقيدات التاريخ نفسها طواعية لمثل هذه الأحكام المرهقة.

وعندما اتفق المؤرخون على إعداد ملخص ليكون بمثابة "واسطة تحليل" في قضية وبستر ضد "خدمات الصحة الإنجابية " (١٩٨٩ م) لمساندة حق النساء في الإجهاض، كانوا يظنون أن تقريرا مفصلا عن دقائق قانون الإجهاض في الماضى سوف سيحل النزاع. وقد أخبر المحامون الكاتب الرئيسي للتقرير أن التعقيد غير مطلوب وبدلا من ذلك، يجب أن يقدم التقرير دليلا واضحا أحادي الجانب على أن النساء في أمريكا القرن التاسع عشر كان لهن الحق في الإجهاض، ولم يؤد الملخص الذي قدموه إلى إنهاء النزاع، واستمرت المواجهة بين مؤيدي الإجهاض ومعارضيه. وإذا كانت مثل هذه المعارضة بين الأبيض والأسود حقيقية اليوم بشكل واضح، فإن السبب في ذلك يرجع فقط إلى أن المدافعين على كلا الجانبين يدفعون في الموضوع بمجموعة من الغنات الأخلاقية، وينبغي على المؤرخين أن يكونوا على حذر من مثل هذه التجاوزات العالمية، ويجب أن تكون فلسفة التاريخ كذلك.

وثمة بعد نفسى فى المغالطة المنطقية القائمة على قاعدة إما، أو " والتى تروق للمؤرخين فى أساليبهم الثلقائية، ويصدق هذا بصفة خاصة على كاتبى السير والتراجم الشخصية، فالسيرة التى كتبها روبرت كارو عن حياة مخطط المدن روزبرت روبرت موسى صورة لاذعة لشخص مصاب بجنون العظمة فالفقر أت الأخيرة من كتاب:

Power Broken: Robert Moses and the Fall of New York

الذى نشره سنة ١٩٧٤ م، فقرات من الصعب نسيانها: "لقد تـوفرت لديه ذات مرة الكتائب التى يقودها والتى تمكنـه مـن اسـتعراض قدرتـه الإدارية؛ ولم يعد لديه الآن سوى سكرتيرته وسائقه اللذين يتصرف معهما على هذا النحو. كان الرجل فظا، خشنا ومتغطرسا فى الحديث معهما وعنهما ... وقد توارى اسمه من العناوين الرئيسية فى مدينة نيويورك منذ زمن بعيد ... وفى حياته الخاصة كانت أحاديثه تتناول باستمرار موضوعا واحـدا - نكران الجميل الذى يلاقيه من العامة تجاه رجـل عظـيم... فلماذا كانوا جاحدين؟ ".

لقد كان الكتاب الذي وضعه كارو عن موسى سلبيا يفتقر إلى الرحمة. ولكن كارو كان استثناء في هذا. إذ إن معظم كتاب التراجم الشخصية يقعون في غرام موضوعاتهم فقد كتب دافيد ماكوللوف سيرتين فازتا بجائزة بوليتزر عن هاري ترومان وجون أدامز، ويتألق كل من الرجلين في تقديره. ويحكى عن آدامز مقابلة قال فيها: " أن تجد شخصا يتولى أعلى المناصب السياسية عندنا ويفعل ما يظن أنه الصواب، بغض النظر عما قد يعنيه بالنسبة لموقعه السياسي – وبالنسبة لي فإن ذلك موضوع جذاب... الحرمان من متع الحياة واتساع نطاق أسفاره والمخاطر التي خاضها في حياته. وحقيقة أن هذا الرجل لم يتقاعس قط عن تلبية نداء الخدمة، بصرف النظر عن مصالحه الخاصة أو وسائل تأمين عائلته ".

كان التفكير بطريقة " إما، أو " وراء بعض أفدح الأخطاء التي ارتكبها قادتنا في تاريخنا. فقد كان الجنرال فيليب شريدان، مثلا، انعكاسا لعملية نزع ممتلكات الأهالي الأصليين حتى من كانوا منهم حلفاء أو أصدقاء، أو تقبلوا الطريقة الأوربية في الحياة، على الرغم من أن الهنود الوحيدين الطيبين

الذين عرفهم كانوا الموتى منهم فقط، وكانت اللافتات التى تعلىن "لىيس مطلوبا أيرلنديين "، فى إعلانات الوظائف فى أمريكا قبل الحرب الأهلية، لا تنبذ الأيرلنديين فحسب، وإنما كانت تحرض الجار على جاره، والجماعة العرقية ضد جماعة عرقية أخرى. كان شعار مقاتلى الحرب الباردة فى أثناء "الفزع الأحمر "هو "إما أن تكون وطنيا أو متعاطفا مع الشيوعية "، وهو الشعار الذى ساد فى خمسينيات القرن العشرين وكلف الكثير من الناس الجيدين مستقبلهم وسمعتهم.

وتستند أحكام " إما، أو " على شبه مغالطة منطقية أخرى طلبا للمساندة. هذه هي المغالطة المنطقية القائمة على التعميم الكاسح، أو باللاتينية dicto simpliciter. وفي كُتابه الكلاسيكي الكاسيح بعنوان 1938 يفتتح بول جونسون الفصل المسمى The Collective Seventies بتعميم كاسح بقوله: " إن الفوضى الاقتصادية تسبق الفوضى العسكرية في الحرب ". ولا يمكن للمرء أن يجادل في هذا، لأن الحرب فعلا تجئ عقب فترة من الارتباك الاقتصادي. إلا أنها أيضا تعقب فترات النمو والتوسع الاقت صادى (فمثلا، أدى التوسع الاقتصادي في أوربا إلى الحسروب الاستعمارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر مباشرة). ويحدث أيضا ألا يؤدي الركود الاقتصادي إلى الحرب، لأنه لم تكن هناك حرب في أعقاب الركود الاقتصادي والكساد الذي ساد أمريكا في ثمانينيات القرن العشرين، ففي كتاب الراحل دافيد هالبر ستام المدهش والمثير (The Fifties 1993) يبدأ فصل عن بناء ضواحى المدن بقوله: "بينما كان المزيد والمزيد من الناس ينتقلون إلى الضواحى، برزت الحاجة إلى أماكن جديدة وطرق جديدة للتسوق - وظهرت الحاجة أيضا إلى أشياء جديدة تشترى لملء هذه الآلاف الجديدة من المنازل الجديدة... وكان مقدرا للتسوق والشراء أن يستأثر ا بمعظم وقت الأمر يكيين".

حقا، ولكن التعميم الكاسح يخفى حقيقة أنه منذ اللحظة التى جلب فيها التجار الأوربيون بضائعهم من الأوانى الحديدية والمسابح الزجاجية إلى أمريكا، صار التسوق هواية الأمريكيين لتمضية الوقت وأصبح مركز التسوق في الضاحية بديلا لسوق القرية الذي كان يقام في مفترق الطرق من قبل، وأصبح وكيل الإعلانات خليفة البائع المتجول في المناطق النائية، باختصار لم يوجد شيء جديد حقا في خمسينيات القرن العشرين يتعلق باللنزعة الاستهلاكية. لقد أضلنا التعميم الكاسح.

ولكن قبل أن نقرر عدم الثقة في أي كتاب يتناول موضوعا كبيرا (ويجب قبل أن تكون لدينا بعض التعميمات الكاسحة) فإننا بحاجة إلى فهم مدى ضرورته ومدى شعبيته. فإذا كان هناك تعميم كاسح يميل إلى تجاهل سياق بعينه، بما في ذلك الأحداث السابقة، في غمرة الجهد لربط الكثير من القطع والأجزاء الصغيرة سويا، فمن الممكن أيضا جمع الخيوط العديدة لقصة ما سويا في كل يفرض نفسه. وكما قال برنارد بايلين، وهو أحد مورخي أمريكا البارزين، أمام المؤتمر السنوى للجمعية التاريخية الأمريكية سنة المريكا البارزين، أمام المؤتمر السنوى للجمعية التاريخية لم يخدم في إلقاء الضوء على الموضوعات المركزية في الكتابة التاريخية لم يخدم في إلقاء الضوء على الموضوعات المركزية في التاريخ الغربي وإنما أسهم في حجبها... وكتابة مثل هذه السرديات الأساسية – التي يحكمها إحساس بالحركة خلل الزمان، وضم الدراسات الفنية، المكرسة لبيان كيف أن العالم الحالي قد تشكل عندما ظهر في ماض مختلف تماما ومن ثم ركز على التحولات الحاسمة من الماضي صوب الحاضر – تبدو لي تحديا كبيرا يواجه البحث التاريخي الحديث".

وبطريقة أقل في مداه نعتمد على التعليل بقصور الأدلة للوصول السي القرارت. ولا يعتبر التعليل بالقصور وغياب الأدلة برهانا ولا دليلا. فالحقيقة

أنه مجرد معيار تقديرى للطول من النوع الذى يستخدمه النجارون. ولأن بعضنا قد يمتلكون أصابع كبيرة والبعض الآخر أصابعهم قصيرة فإن القياس بالشبر (على طريقة النجارين) ليس قياسا دقيقا. ومن ثم، فإن أى استنتاج قد يكون مبنيا على التقريب والتقدير الظنى، ولكن كما هو الحال في التعميم المنسرع، نحن نحتاج إلى القياس بالشبر أو التعليل بالقصور. ونحن نسمى هذا في الأوساط الأكاديمية مستويات، وأحيانا، عندما نضع الدرجات في امتحان كتابة مقال، يكون صعبا أن نفعل ما هو أكثر من التعميم. وعندما كان على القاضى بوتر ستيوارت في المحكمة العليا بالولايات المتحدة الأمريكية أن يحدد الأدب المكشوف في قصية جاكوبللي ضد أوهيو الأمريكية أن يحدد الأدب المكشوف في قصية جاكوبللي ضد أوهيو عندما أراه ". وباستخدام قاعدة القياس التقريبي، وجدت المحكمة أن الفيلم عندما أراه ". وباستخدام قاعدة القياس التقريبي، وجدت المحكمة أن الفيلم الفرنسي The Lovers ليس منافيا للآداب العامة.

ومثلما يحتاج المؤرخ إلى التعميم، فإنه يحتاج إلى قواعد القياس التقريبي. ولا يكمن الخطر في قاعدة القياس التقريبي نفسها وإنما في كيفية تشكيلنا لهذه القاعدة. لقد كانت القاعدة التقريبية القائلة " لا تثق في أحد فوق سن الثلاثين " القاعدة الوحيدة للمرشدين الروحيين للثقافة المصادة في ستينيات القرن العشرين. وأصبحت هذه القاعدة مسألة مطروحة للنقاش عندما تجاوز المروجون لها سن اللاعودة. ذلك أن قواعد القياس التقريبي لا توضع في عجالة أو بدافع من الغضب. فقد كان جميع الإرهابيين في ١١ سيتمبر ١٠٠١ م من العرب الذين كانوا قد أمضوا ردحا من الزمن في الولايات المتحدة. وقفز كثير من الأمريكيين إلى استنتاج أن كل العرب الأمريكيين الي استنتاج أن كل العرب الأمريكيين قد ساعدوا إرهابيون محتملون. وربما تكون هناك خلايا إرهابية نائمة أخرى بين جماعات العرب الأمريكيين، وربما كان بعض العرب الأمريكيين قد ساعدوا

الإرهابيين أو تعاطفوا معهم، بيد أن ذلك لا يمكن أن يؤدى منطقيا إلى الشك فى جميع العرب الأمريكيين، أكثر مما يعنى تفجير مدينة أوكلاهوما على أيدى تيموتى ماكفيج وحلفائه فى حركة الميليشيا، وهم جميعا من الأنجلوس، أن كل الأنجلوس أعضاء فى منظمات إرهابية محلية.

إن قواعد القياس التقريبي التاريخية الجيدة تأتي من تمكن المؤرخ من مادته. فعلى سبيل المثال، عندما كان المؤرخ ويلسون كوتيس مضطرا إلى تحديد عدد الرجال الذين شاركوا في أحداث شغب حدث بين الإنجليز في القرن السابع عشر، قبل بحساب الحد الأدنى، وتكانت قاعدة القياس التقريبي عنده أنه في مثل هذه المناسبات تميل الحسابات صوب الهيستيرية أو تتجه نحو المبالغة، وقاعدة القياس النسبي هذه يمكن تطبيقها على أحداث عنيفة أخرى – مثلا في تقدير عدد القتلى في إحدى المعارك.

خذ، مثلا، الخسائر الرهيبة التى لحقت بجيش البوتوماك فى معركة كولد هاربور فى ٣ يونيو ١٨٦٤ م، وقد حكى الجنرال جرانت فيما بعد قائلا: " فى اليوم الثالث من يونيو هاجمنا مواقع العدو مرة أخرى على أمل طرده من موقعه، وفى هذه المحاولة كانت خسائرنا فادحة، على حين كانت خسائر العدو، حسبما اعتقد، خفيفة نسبيا. لقد كان الهجوم العام الوحيد الذى قام به الرابيدان على جيمس ولم يلحق بالعدو خسائر تعوض خسائرنا. ولن أكون صادقا إذا ما قلت إن الهجمات السابقة حققت انتصارات لجيوشنا، أو أنها أنجزت ما كنت آمله منها، ولكنها أوقعت بالعدو خسائر قاسية، أدت فى النهاية إلى القضاء على التمرد تماما".

لم يقدم جرانت تقريرا عن عدد القتلى والجرحى والمفقودين بالضبط، فكم كان عددهم؟ وقد كرر جيمس ماكفيرسون، أبرز مؤرخى الحرب الأهلية، العدد المعتاد: " هاجم جرانت وميدى فى ٣ يونيو. وفى سلسلة من هجمات

المواجهة، تم ذبح الفيدراليين، وتكبدوا ما يقرب من سبعة آلاف قتيل مقارنة بخسائر الكونفدراليين التي بلغت ألفا وخمسمائة. وقد ندم جرانت دائما على إصدار الأوامر بالهجوم على كولد هاربور "وينزل جوردون رى في الصدار الأوامر بالهجوم على كولد هاربور "وينزل جوريح ومفقود في ٣. يونيو بكولد هاربور، وربما كان هناك ألفان آخران سقطوا في معركة أخرى قريبة. وبسبب ظروف المعركة لا يمكن معرفة العدد الدقيق أبدا. فأى تقدير منها ربما كان الأكثر دقة؟ إذا ما استخدمنا قاعدة القياس التقريبي (القياس بالشبر) التي وضعها كونيس، سيختار المرء التقدير الأكثر تحفظا، لأن بعض الرجال الذين يحسبون من بين القتلى أو المفقودين يمكن أن يعودوا إلى وحداتهم بعد عدة أيام من المعركة.

بيد أن قواعد القياس التقريبي، والتقديرات القائمة على أساسها، يمكن أن تكون مضللة بشكل سيئ إذا كان من يقوم بالتقدير منحازا أو له مصطحة ما في النتيجة. وفي واحدة من أشهر حالات استخدام القياس التقريبي أصر القائد الميداني في فيتنام، الجنرال وليم ويستمور لاند، مرؤوسيه أن يبلغوا "إحصاء الجثث" عن قتلي الفييت كونج والفيتناميين الشماليين بعد كل معركة. فقد صار النصر في المعركة يقاس بعدد جثث القتلي. ولكن لأن الأعداء الفيتناميين يحملون جثث موتاهم وجرحاهم من أرض المعركة، كان لابد أن تكون هذه الأعداد مجرد تقديرات. ولأن قادة الميدان كانوا يريدون إدخال السرور على رؤسائهم، ولأن القائد كان يريد أن يبين للأمريكيين أنه يمكن كسب الحرب، إذ كان هناك دافع خفي يدفعهم لزيادة الأعداد، فقد بدت قاعدة القياس التقريبي لكثير من معارضي الحرب دليلا على عدم جدارة العسكريين بالثقة.

وقد تذكرت باتريشيا سولليفان، المحررة في جريدة الواشنطون بوست في عمودها الجنرال ويستمور لاند نتيجة هذا الجدل: " في سنة ١٩٨٢ م، رفع الجنرال ويستمور لاند، قضية ضد شبكة السي بي إس، وقد أغضبه فيلم وثائقي لقناة CBS عنوانه "The Uncounted Enemy: A Vietnam Deception "، وطلب تعويضا قدره مائة وعشرون مليون دولار. وكان البرنامج الذي استغرق تسعين دقيقة قد اتهم ويستمور لاند بأنه كان يدير " مؤامرة " لكي " يكبت المثقفين المعارضين ويغير موقفهم من العدو " وذلك بالتقليل من قوة العدو سنة ١٩٦٧م وسنة ١٩٦٨م لكي يخدع الأمريكيين ويجعلهم يظنون أننا في سبيلنا لأن نكسب الحرب. وتمت تسوية القصية بين ويستمور لاند في سبيلنا لأن نكسب الحرب. وتمت تسوية القصية بين ويستمور لاند تقريرها، بيد أن حساب عدد الجثث كان قد بات مرادفا القاعدة قياس تقريبي سيئة.

والتشبيهات شكل من أشكال المقارنة، ويجب على المورخين القيام بمقارنات. فبدون المقارنات سيكون التاريخ سردا بلا تفكير للأسماء، والتواريخ، والأماكن. ذلك أن التشبيه يساعد المؤرخ على المقارنة والمقابلة. ولا تتمثل المشكلات التى يواجهها المؤرخون لتجنب التشبيهات الضعيفة فى التعليل القائم على التشبيهات نفسها، وإنما تتمثل فى تجاهل الحقائق المتعلقة بها. وتنطوى إنذارت التشبيهات الضعيفة على اللغة المفرطة (تأمل كلمات وصيغ أفعل التفضيل مثل: أحسن، أسوأ، معظم، أقلل)، وقفرات الزمان والمكان، ورفاق الفراش الغرباء (أى مقارنة شخص عادى تماما بطريقة غير مناسبة بهتلر، أو ستالين، أو أتيلا زعيم الهون، أو المسيح الدجال).

ومع هذا، يمكن للتشبيه الضعيف أن يصنع علاقة ارتباط قوية. تأمل التشبيه المذهل الذي ساقه الناشط المعادى للشذوذ الجنسي بول كريمون: "إن

الشذوذ الجنسى شهوة معدية لها عواقب شخصية واجتماعية، أنها مثل كلب يتذوق طعم الدم بعد أن يقتل ضحيته الأولى، فيريد الحصول على مزيد من الضحايا بعد ذلك وهو يتضور جوعا ". هذه التشبيه غير منصف بالنسبة للكلاب وللشواذ جنسيا على السواء. فمن ناحية النسبة المئوية نجد أن من يتملكهم النهم الجنسى بين الشواذ من الرجال والنساء أقل من أقرانهم العاديين في المجموعة العمرية نفسها. كما أن معظم الكلاب الأليفة لا يجذبها طعم الدم بعد أول عملية قتل تقوم بها، ولا تبحث عن ضحايا من أى نوع. أما الكلاب البرية فلديها هذه الشهوة منذ ولادتها.

والكلمات المفاتيح في التشبيه هي "is to " و "as ". وكانت الصيغ القديمة في اختبار الاستعداد الطبيعي عند المدرسين تحدد ملامح التشبيهات مع is to بنقطتين فوق بعضهما (:) و as بنقطتين مزدوجتين فوق بعضهما (::)، مثل :

"man :skin :: beaver: pelt" ويرفض بعض المؤرخين فكرة مثل هذه التشبيهات في التاريخ، لأنه لا توجد حادثتان متشابهتان. فالتاريخ لا يعيد نفسه. ويحب مستخدمو الإنترنت الإشارة إلى أن الشخصيات العامة يكونون أحيانا أغبياء أو مخادعين باستخدام التشبيهات التاريخية الضعيفة أو الوقحة. ومع هذا فإن المشابهة التاريخية المفيدة لا تتطلب ازدواجية متقنة. إنها ببساطة تبحث عن وجوه التشابه وتحددها.

وبعض الأحداث والحركات في التاريخ تشبه إحداها الأخرى بالقدر الذي يجعل المنافسة مفيدة. والبعض الآخر ليس كذلك، ومهمة المورخ أن يميز الحدث عن غيره، وقد قارن توماس بايني وغيره من الراديكاليين بين الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية، وجاءت المقارنات متقلة بالأخطاء – فقد كانت هناك الكثير من الاختلافات بين الثورتين بحيث لا يمكن القيام سوى

بمقارنة سطحية للغاية. حقا كان هناك "اضطراب ثورى "، مثلما لاحظ الراحل بالمر في السنوات التلاثين الأخيرة من القرن الثامن عشر، و"أفكار قديمة معينة، أو كلمات وعبارات قديمة، استخدمت في تطبيقات جديدة، ومعنى أكثر اتساعا وأشد إلحاحا".

جاءت الثورة الصناعية إلى الولايات المتحدة متأخرة نصف قرن بعد أن كانت قد بدأت تغير بشكل شامل وعميق رأس المال والعمل في بريطانيا العظمى. بيد أن هناك تشابهات بعينها موجودة بين الحدثين، وبالعمل عليها يمكن للمرء أن يخرج بروابط يصعب أن نراها في مكان آخر. فعلى سبيل المثال، ظهر في كل من الثورتين نوع من " الاقتصاد الأخلاقي " بشكل واضح، وفي كل منهما تراجعت مكانة الحرفيين والصناع وتأثروا بفرص العمل في المصانع واحتجوا ضد الظلم الذي مارسته طبقة الملك. وقد علمتهم هذه الاحتجاجات تأسيس أول منظمات عمالية. وبدون التشابه بين إنجلترا وأمريكا، والتي تعمق فهمنا للثوابت الأخلاقية للحركة العمالية، وبدون الاستمال المسمى Knights of Labor، وغيره من اتحادات العمال الأمريكية في القرن التاسع عشر كانوا ينظرون وغيره من اتحادات العمال الأمريكية في القرن التاسع عشر كانوا ينظرون

والتعليل الدائرى والذى يعرف أيضا باستجداء السوال، (أى تفسير الماء بعد الجهد بالماء) لا يفيد على هذا النحو. ففى هذه المغالطة المنطقية، إما أن يقرر المرء أن ما يحاول إثباته أمر مثبت، أو يفترض الاستنتاج قبل البرهنة عليه. فإذا كان المرء يحاول ببساطة تعريف مصطلح ما، أو فكرة ما، فلا يمكن للمرء أن يستخدم المصطلح أو الفكرة نفسها فى التعريف. ومن الناحية المنطقية، لا يمكن للمرء أن يقول إن " الدائرة شكل دائرى ". وبالطريقة نفسها، لا ينبغى للمرء أن يفترض حقيقة ما يحاول البرهنة عليها.

وقد زعم الجنوبيون المدافعون عن الرق قبل الحرب الأهلية أن الأمريكيين الأفارقة كانوا لائقين للعمل الزراعى الشاق بشكل خاص. وقد قدموا القليل من الأدلة الفعلية على هذا التعميم الكاسح في مغالطة منطقية مؤداها أن الأمريكيين الأفارقة الذين يعملون من مطلع الشمس حتى غروبها في مزارع الدخان، والقطن، وقصب السكر، والأرز، كانوا لائقين لهذا العمل وإلا ما قاموا به. في هذا المثال، كما في أمثلة كثيرة غيرهمن التعليل الدائري، يكون لدى الشخص الذي يقوم بالمغالطة المنطقية دافع خفي. وهنا، كان الدافع تبرير الرق.

واستجداء السؤال يمكن أن يقلل من قيمة الأسئلة المركبة والمتنافسة وينزل بها إلى مستوى المساواة التبسيطية، وحتى محكمتنا العليا وقعت فسى هذا الفخ. ففى قضية بليسى ضد فيرجسون (١٨٩٦ م) قررت المحكمة أن ولاية لويزيانا يمكن أن تشرف على الفصل العنصرى فى القطارات التى تمر عبر أراضيها. وبينما كان هذا يبدو انتهاكا مباشرا للمادة الثالثة عشرة والمادة الرابعة عشرة من الدستور بالنسبة لجون مارشال هارلان، صاحب الرأى المخالف الوحيد، كان بقية القضاة على قناعة بأن الفصل العنصرى مع المساواة فى التسهيلات إعمال للمرسوم القضائي بالتعديلات التى أدخلت على الدستور. ولكن ماذا لو اعترض السود المرغمون على الركوب فى عربات القطار التى خصصت لعزلهم باعتبار أن مثل هذه التفرقة علمة على الدونية؟ لقد وجد القاضى هنرى براون طريقة منطقية للرد على شكوى الضحية: " إن الدولة حرة فى أن تتصرف وفقا للعادات والتقاليد الراسخة، وتراث الشعب، بالنظر إلى تحسين وسائل الراحة لهم، والحفاظ على السلام العمومى والنظام الجيد. ونحن إذا حكمنا بهذا المعيار، لا يمكن أن نقول إن العمومى والنظام الجيد. ونحن إذا حكمنا بهذا المعيار، لا يمكن أن نقول إن القانون الذى يمنح السلطة، أو حتى يتطلب القصل بين عنصرين فى وسائل القانون الذى يمنح السلطة، أو حتى يتطلب القصل بين عنصرين فى وسائل العمومى والنظام الجيد. ونحن إذا حكمنا بهذا المعيار، لا يمكن أن نقول إن

النقل العامة، قانون غير معقول. "والواقع أن مثل هذه التفرقة المنغصة كانت كريهة ومنفرة "لسبب وحيد هو أن الجنس الملون يختار أن يضع ذلك البناء فوقها ". إن تعليل الشيء بنفسه قد منح تصريح المحكمة العليا الفرصة للتغطية على خمسين سنة من الفصل العنصري تحت إشراف الدولة.

أخطاء المنطق الصورى

نأتى بعد ذلك إلى مغالطات المنطق الصورى أو أخطائه، وهى صور من العبارات التى تنتهك قواعد التعليل الافتراضي. وأريد أن أميز هذه المغالطات عن شبه المغالطات. إنها أخطاء فى المنطق ليس لها غرض مفيد فى الأفعال التاريخية. والتوائم فى هذه المجموعة من المغالطات المنطقية تنكر السابقة وتؤكد اللاحقة. وتتمثل بعض أخطاء المنطق الصورى الأخرى فى مغالطة التعريف الزائد ومغالطة الشك.

وفى المغالطة المنطقية التى تقوم على إنكار السابقة، يكون التعليل على النحو التالى: " إذا كان الثلج يتساقط، فهناك ثلج على الأرض. إنها لا تمطر ثلجا. ومن، ثم، ليس هناك ثلج على الأرض ". كنت أقوم بتدريس التاريخ سنة واحدة في حرم جامعة نوتردام الذي يغطيه الثلج، بنوتردام في ولاية إنديانا. وكان الطلاب، وهيئة التدريس والآباء مدهشين، ولكن المناخ كان فظيعا. ففي تلك السنة بلغ سمك طبقة الجليد ١٩٢ بوصة. وكان النلج يتساقط في بعض الأيام، وفي أيام أخر لا يحدث ذلك. ولكن الجليد كان على الأرض من نوفمبر إلى إبريل، وأنت ببساطة لا تستطيع أن تحدد ما إذا كان الجليد اللاصق على الأرض من الجليد المتساقط في وقتها أم لا.

وفى المغالطة القائمة على تأكيد اللاحق، نقلب ببساطة قطبى المغالطة المنطقية القائلة " إذا كانت السماء تسقط ثلجا، فسيكون هناك جليد على

الأرض. هناك جليد على الأرض، ومن ثم لابد أن تكون هناك ثلوج تتساقط ". ليس إذا كان الثلج قد سقط أمس ولم يذب. ليس فى نوتردام بإنديانا. وكل ما هو ضرورى لجعل التوأم الشرير مجادلة استنباطية صالحة، أن نعيد ترتيب العبارات " عندما يهطل الثلج، يكون هناك جليد على الأرض. إن الثلج يتساقط، ومن ثم هناك جليد على الأرض ". لاحظ أنه فى هذا، كما فى المنطق الصورى كله، ما يهم هى العلاقة المزعومة بين العبارات، وليست حقيقتها.

في بعض الأحيان يؤدى تأكيد التالى إلى سياسة عامة سيئة. ففي عملية البحث في الصور تتوقف الشرطة لتفحص مجموعات بعينها، لأنه وفقا للصورة الثابتة، يكون من الأرجح أنهم هم الذين يرتكبون الجرائم. وعندما تحدث القاضى بمحكمة الاستئناف الفيدرالية، ريتشارد بوسنر (وهو واحد من ألمع أعضاء المحكمة الفيدرالية، كما أنه مؤلف غزير الإنتاج، وأستاذ للقانون، ومفكر عام)، عن التصوير قال إنه: "يمكن أن يتخذ شكل البحث الكثير غير المتناسب عن السيارات التي يقودها الهسبانو لأنهم يشكلون نسبة لا تتماشى مع أعداد من يقودون وهم سكارى "، لأنه يتم توقيفهم وتفتيشهم بصورة لا تتناسب مع أعدادهم. كما أن توقيف مجموعة أخرى يسسهل تصويرها قد ينتج عنه عدم التناسب نفسه. والنتيجة أن تنشأ العداوة بين الشرطة وجماعات الأمريكيين الناطقين بالإسبانية بسبب المنطق الخاطئ.

وتمضى المقدمة المنطقية الزائفة فى التعريف كما يلى : إذا كان الروائى الشهير " جورج اليوت " هو حقا " مارى أن اليفانز "، وكان " جورج اليوت " هو الذى كتب روايتى:

The Mill on the Floss و Silas Marner إذن فإن "مارى أن إيفانز" قد كتبت الروايتين (وهي حقيقة بالقياس المنطقي) والحقيقة أن "جورج إليوت"

كان الاسم المستعار الذى كتبت به "مارى آن إيفانز". ويمكنك باستمرار أن تستبدل الأشياء بصورة منطقية إذا ما كانت منطابقة مع أحدها الآخر. ولكنك إذا حاولت هذا مع أشياء أو أسماء أو أناس ليسوا متطابقين، فإنك تقوم عندئذ بمغالطة منطقية. ولهذا إذا قلت إن مؤلف Tom Sawer هو مارك توين، والقارئ يعرف أن الكتاب مكتوب بشكل جيد، فإنك لا يمكن أن تستمر منطقيا في القول إن القارئ يعتقد أن مارك توين كان كاتبا جيدا. ذلك أن مارك توين والكتاب ليسا شيئا واحدا. وسيكون رأى القارئ عن الكتاب، وليس عن المؤلف. فربما يكون قد أعجبه الكتاب حتى اكتشف أن توين هو ذلك الوغد الذي كتبه.

آخر أخطاء المنطق الصورى يتمثل في التفاف طفيف على كل المغالطات المنطقية الأخرى. إنها لمغالطة منطقية أن تجادل بأن شيئا لا يمكن أن يكون حقيقيا إذا ما كانت المجادلة من أجله مجادلة خاطئة وهي المغالطة المنطقية عند الشكاكين. إذ إن الاستنتاج يمكن أن يكون حقيقيا على الرغم من عدم منطقية الفرض. وأفضل حالة معروفة عن هذا هي آخر نظرية رياضية وضعها بيير دى فيرمات، الذى كان محاميا فرنسيا وبارعافي الرياضيات عاش في القرن السابع عشر، وقد كتب على هامش نص إغريقي قديم في الرياضيات أنه وجد دليلا جيدا لحل إحدى النظريات الرياضية، ولكنه كتب أن هامش الكتاب كان ضيقا للغاية بحيث لم يتمكن من الرياضية، ولكنه كتب أن هامش الكتاب كان ضيقا للغاية بحيث لم يتمكن من وضع البرهنة، وعلى مدى الثلاثمائة وخمسين سنة التالية عمل علماء الرياضيات من أجل إيجاد البرهنة، بادئين من البدايات الزائفة (وكثير من النهايات الزائفة).

و لأن براهينهم باتت منقوصة أو خاطئة، فإن هذا لم يكن يعنى أن فيرمات كان مخطئا. وفي سنة ١٩٩٤ م، وجد أندرو واينز الحل أخيرا. وكما

هو الحال فى جميع الألغاز، يوجد حل لعقدة اللغز. وكان على وايلز أن يستخدم الكثير من العمليات الرياضية المعقدة للغاية، والتى لم يكن معظمها موجودا عندما كتب فيرمات ملاحظاته على هامش الكتاب. ومن الممكن تماما أن حل فيرمات الذكى لم يكن شيئا سوى أولى المحاولات العديدة جرت قبل العمل الذى قام به وايلز.

هناك الكثير جدا مما لا نعرفه عن أنفسنا وعن العالم من حولنا، وهو كثير جدا لدرجة أننا نتعلم كل يوم أننا لا يجب أن نترك البدايات الزائفة والمقدمات الخاطئة التى تتحرف بشوقنا لمعرفة المزيد. خد مثلا قصية الكارثة، وهى النظرية القائلة بأن تاريخ الأرض كان يتميز بسلسلة من الأحداث قصيرة المدى لكنها مرعبة فى أزمنة ما قبل التاريخ. وحسبما أشار إيمانويل فليكوفكس فى خمسينيات القرن العشرين، فإن فكرة أن شيئا سقط من حرب فضائية كان القوة الأولى وراء التغير الجيولوجى والبيولوجى على الأرض، قد بانت محل استهانة العلماء، بل إنها كانت ممنوعة في قوائم القراءة بالكليات. وبدلا من ذلك بات من المفترض أن التطور الجيولوجى والبيولوجى والبيولوجى والبيولوجى والبيولوجى القراءة بالكليات. وبدلا من ذلك بات من المفترض أن التطور الجيولودى والبيولوجى والبيولوجى كان عملية تدريجية – وهذا هو معنى النطور.

وفى مثال عن المغالطة المنطقية للشكاكين، قوض غضب العلماء من رؤية فيلكوفكس للموضوع من استعدادهم للقبول بإمكانية سقوط أشياء من الفضاء ربما تكون قد اصطدمت بكوكبنا وكانت لها عواقب هائلة. وقد أثبتت الدراسات الأحدث أنه كانت هناك ثلاث حوداث كارثية جسيمة على الأقل، قصيرة المدى للغاية، وفجائية، في ماضينا، وتسببت كل منها في موت جميع الكائنات الحية تقريبا. وإحدى هذه الحوادث ربما كانت بتأثير شهاب أو مذنب منذ خمسة وستين مليون سنة. ذلك الصدام الذي أنهى فترة الديناصورات الطويلة، وفتح الطريق أمام تطور الثدييات، وأدى في النهاية إلى وجودنا نحن البشر.

ليس هناك مكان لمغالطات المنطق الصورى في التعليل التاريخي. إنها الرمال المتحركة تحت أساسات الجسر الذي نحتاجه ليأخذنا القهقرى في الزمن إلى الماضي. فالمجادلات التي ستبنى عليها سوف تـــذروها الرياح وتكتسحها مياه المد. بيد أن شبه المغالطات جزء من الوصف والتــصوير التاريخي، وبوسعنا أن نحدها وندينها، إذا ما اخترنا ذلك بسهولة. ولكننا لا يمكن أن نخلص أنفسنا منها. ذلك أن وجودها المستمر فــي كتابتنا وفــي يمكن أن نخروه إلى خطأ فينا، أو بصورة أدق، بسبب فائدتها لنا.

فما الفائدة التي يمكن أن توجد في شبه المغالطات للخطاب العقلاني؟ وما فائدتها في جدل يقوم على البرهنة والمنطق؟ حسنا، تذكر أن فعل التاريخ يقوم على أساس الزعم المستحيل بقدرتنا على معرفة ما لا نعرف. وكل الاختصارات، والقفزات والالتواءات التي تتسم بها شبه المغالطات، إذا كنا نعرف ما نحن فاعلوه، تقربنا أكثر إلى موضع لا يمكن الوصول إليه قط بالوسائل المنطقية الصارمة. إنها الرمال التي نصبها في الدعامات التي سوف يرسو الجسر عليها.

وقد ألقى جروشو ماركس نكتة توضح تماما كيف تصصبح المغالطة المنطقية ممارسة شائعة فى دراسة التاريخ وقد تساعد فى تأطير فلسفة تاريخ لزماننا، ذهب رجل إلى عيادة طبيب نفسى وقال له: "دكتور هل لك أن تساعد شقيق زوجتي؛ إنه يظن نفسه دجاجة" فأجاب الطبيب: "ولماذا لا تدخلونه المستشفى؟" ورد عليه الرجل: "يا دكتور نحن لا نستطيع؛ لأننا تحتاج البيض"، ولأننا لا يمكن أن نقارب هدفنا سوى بالتقريب يجب أن نكون قادرين على إدارة الأمور بحيث نملاً الفراغات بالتقديرات، بل بالاختراع المحسوب جيدا، فالمؤرخون يحتاجون البيض.

المؤرخون والسؤال المشحون

ما الغرب؟ ماذا كان يعنى فى الحياة الأمريكية؟ إن الوصول إلى إجابة لهذا السؤال يعنى أن نفهم أهم ملامح الولايات المتحدة... إن مشكلة الغرب ليست سوى مشكلة التطور الأمريكي، وإن نظرة على خريطة الولايات المتحدة تكشف هذه الحقيقة.

فردریك جاکسون تیرنر (۱۹٤٥)

ثمة مغالطة منطقية تكيد للمؤرخين، وتبدو معاندة لهم، وتستحق أن نخصص لها فصلا في هذا الكتاب. تلك هي المغالطة المنطقية التي أسميها مغالطة السؤال المشحون، وهي تسمية خاطئة لأنه ليس سؤالا على الإطلاق، وإنما هي عبارة تتخفي في هيئة سؤال، وتكون إجابته مسئولية من يطرحه، ما لم يكن المرء مثل فردريك جاكسون تيرنر، هو مؤلف السؤال، ومن شم، فإن إجابته تبعث التاريخ حيا، فهل يمكن لمثل هذه الوسيلة المراوغة أن تكون جزءا مشروعا في فلسفة تاريخ تصلح لزماننا؟ نعم.

لقد غيرت الأسئلة المشحونة تاريخنا. فعندما فاز إبراهام لنكولن في انتخابات الرئاسة سنة ١٨٦٠، دعا المتشددون في كارولينا الجنوبية السي

اجتماع للاتفاق على الانفصال. لقد سألوا أنفسهم السؤال المشحون. ماذا لو أن الحزب الجمهورى الذى فاز حديثا "أعلن أن الجنوب سوف يستبعد من الأراضى العامة، وأن المحاكم الكلية سوف تصير جزئية، وأنه لابد من شن الحرب على الرق حتى يختفى تماما من الولايات المتحدة؟ "حسنا، عندها سيكون على كارولينا الجنوبية الخروج من الاتحاد. وعند هذه النقطة أعلن المندوبون جميعا موافقتهم على الانفصال، حتى مع أن سؤالهم لم يتلق إجابة سوى تصرفهم المتهور.

سأل المؤرخون أنفسهم أسئلة مستحونة، أسئلة كانوا يعرفون إجاباتها، (أو يظنون أنهم يعرفونها). وفي مقالة شهيرة بمجلة إجاباتها، (أو يظنون أنهم يعرفونها). وفي مقالة شهيرة بمجلة The Mississipi Historical Review الرجال الذين تربوا في خضم الحرب الأهلية كانوا جيلا أحمق يسوقه طموحه الخاص، وطمعه، وعاطفته. فماذا لو أن رومانسية الحرب الأهلية تخلت عن مكانها لمصطلحات من قبيل " المذابح البشرية " أو " القتل المنظم " – هل كان المؤرخون سيفكرون في الحرب نفسها؟ باعتبار أنها "حرب بلا ضرورة" و"صراع قمعي"، هل كان جيل سنة ، ١٨٥ م مضللا بحيث يدخل في أتونها المهلك؟ إنه لسؤال مشحون بقوة، وكان راندل يعرف إجابته – لقد كانت الحرب الأهلية تبديدا بلا داع للأرواح والممتلكات، ومن ثم فإن الرجال الذين تعثروا فيها كانوا قد ضلوا طريقهم.

ولكن ليس كل سؤال مشحون يمكن للمؤرخين طرحه. وإذا كانت بعض الأسئلة المشحونة موجهة إلينا بقصد شرير، ونحن لا نستطيع أن نجيب عليها بغير أن نحرج أنفسنا، فإن هناك آخرين من طبعهم أن يحركونا للفعل، كما أن البعض الآخر يستخدمونها باعتبارها وسيلة تعليمية لطيفة. بل إن البعض يكشفون لنا عن أوجه القصور في قدراتنا المعرفية، وهي أداة مفيدة في صياغة فلسفة التاريخ. ومن أقارب السؤال المشحون – المداعبة المرحة، والقصة المليئة بتفاصيل تافهة تتنهى فجأة نهاية مضحكة (والتسى تعرف بحكاية الكلب الأشعث)، ولعبة الكلمات – تتحول إلى كلمات سخرية لا منطقية. وربما تكون السخرية أهم موضوع في التاريخ. والواقع، أن السخرية تربط الأحداث التاريخية بدراسة التاريخ بطريقة حيوية.

شحن السؤال:

كان السؤال المشحون الكلاسيكى يحمل إجابته فى داخله، إجابة يعرفها السائل بالفعل، إذ كان الانفصاليون فى كارولينا الجنوبية ومؤرخو الحرب الأهلية يعرفون إجابات أسئلتهم، أو كانوا يظنون أنهم يعرفونها. فإذا ما طرح عليك سؤال من هذا القبيل فربما تعرف أنه لا توجد إجابة صبحيحة عليه، ولكنك تضع نفسك فى موقف فظيع إذا ما حاولت تجنبه.

ويمكن للأسئلة المشحونة أن تكون مدمرة بين يدى محاور ماهر. وإذا ما وجهت هذه الأسئلة إلى أحد المرشحين السياسيين، فإنها يمكن أن تحدد نتيجة الانتخابات. والأمثلة التاريخية على ذلك وافرة. فقى بداية الجدل الرئاسي الذي دار آنذاك بين نائب الرئيس جورج دبليو بوسوش وحاكم ماساتشوستس ميخائيل دوكاكيس، سنة ١٩٨٨ م، سأل المحاور دوكاكيس: "أيها الحاكم، إذا تعرضت السيدة كيتي دوكاكيس (زوجة الحاكم المرشح) للاغتصاب ثم قتلت، فهل ستحبذ الموت للقاتل؟ "كان هذا سؤالا مشحونا، من ناحية لأنه كان شخصيا للغاية، ومن ناحية أخرى لأن دوكاكيس كان معروفا بأنه ضد عقوبة الإعدام. والحقيقة أنه كان يتعرض لهجوم في ذلك الوقت لأنه كان ناعما بشأن عقوبة الإعدام. وقد أجاب بأمانة: "لا، لست... وأظن أنك تعرف أنني عارضت عقوبة الإعدام طوال حياتي. إنني لا أرى أي دليل

على أنها عقوبة رادعة، وأظن أن هناك طرقا أفضل وأكثر فاعلية للتعامل مع الجريمة العنيفة ". وقد خسر دوكاكيس الانتخابات بسبب موقفه من الجريمة، الذي لعب دورا رئيسيا في خسارته، وفقا لنتائج التصويت.

والأسئلة التى تسألها إدارة الهجرة فى الولايات المتحدة للمواطنين المستقبليين جذابة ومباشرة – كم فرعا للحكومة الفيدرالية، كم نجمة على العلم، من هو الرئيس، وما أشبه ذلك من الأسئلة. وليست هناك بلاد أخرى لا تريد أن تمنح الجنسية لمجموعة بعينها تتصرف على هذا النحو. خذ مثلا الأسئلة المطلوب إجابتها من مسلم يطلب الجنسية الألمانية من ولاية بادن – فورتمبرج، حسبما جاء فى تقرير للنيويورك تايمز فى ٢٥ يناير ٢٠٠٦ م الموقفك من التصريح الذى يقول إن على الزوجة أن تتبع زوجها، وأنه يستطيع ضربها إذا لم تكن مطيعة؟ "ما رأيك فى الوالدين اللذين يفرضان الزواج بالإكراه على أبنائهما؟ هل تظن أن مثل هذه الزيجات تتوافق مع الكرامة الإنسانية؟ "وعندما تعلم أن هذه الأسئلة لا توجه سوى للمسلمين، وأن بعض المسلمين الواعين لا يشاركون الألمان المثل العليا والقيم الواردة فى الدستور الألماني أو الدسائير الأوربية عن حريه المصرأة، يبدو شدن الأسئلة واضحا بينا. فالإجابات الصحيحة – أى الإجابات التى تبين أن المنقدم بالطلب ليس مسلما محافظا – هى التى كان الموظفون فى بادن – المتقدم بالطلب ليس مسلما محافظا – هى التى كان الموظفون فى بادن – فورتمبرج يريدونها.

وربما كانت مثل هذه الأسئلة المشحونة تسمم البئر أو تنطوى على الإدانة بالارتباط. وفي تسميم البئر ينطوى السؤال ضمنا على أن الجانب الآخر، أو الشخص الآخر، مدان أخلاقيا أو معيب فكريا وبذلك لا يمكن أن يؤخذ موقفه بقيمته الظاهرية. بيد أن الأسئلة نفسها لا تخلو من منطق. بل إن قوتها مستمدة من خلطها بين المنطق و اللامنطق.

وربما يكون أصل مصطلح "تسميم البئر" واحدا من مصطلحات ما يسمى "افتراءات الدم " التى صيغت ضد اليهود فى أوربا العصور الوسطى، فقد اتهم اليهود بتسميم الآبار بالمدن التى كانوا يعيشون فيها بدم الأطفال المسيحيين، وحسبما يستخدم المصطلح اليوم، يخلق السؤال المشحون عن "تسميم البئر" عدم الثقة ويفترض سوء النية، لدرجة أنه عندما يحاول ضحاياه أن يشرحوا أنفسهم تكون العقول قد أوصدت بالفعل ضدهم، وعلى سبيل المثال، إذا ما أراد المرء أن يسمم البئر ضد الليبراليين فى سياق جدل وطنى حول الشئون السياسية، فقد يتساءل، مع الكاتبة المحافظة آن كولتر: "ألا يكره جميع الليبراليين أمريكا؟ " أو يتساءل مع كاتب العمود ميشيل ماكلين، إذا أراد أن يوجه لطمة لوسائل الإعلام الليبرالية، فيكتب مثلا: "يا من تديرون الأخبار التى يبثها التليفزيون ويا محررى الصحف العنين تتصرفون وكأنكم تعانون الحساسية ضد الأحمر والأبيض والأزرق، هل تخططون لمقاطعة الاحتفال بيوم الرابع من يوليو أيضا؟ ". هذه الأسئلة المشحونة تسمم البئر.

وكما في المثال السابق، يمكن لسؤال تسميم البئر أن ينمو على حافة الكذب والافتراء. وحسيما كتب فيليب روث في كتابه Operation Shylock يكون طرح الأسئلة المشحونة المسممة عندما تبدأ " الحملة الهامسة التي يمكن وقفها، والشائعات التي يستحيل تفنيدها، والتلويث الذي لن نتخلص منه قط، والقصيص الكاذبة والمفتراة للتقليل من مؤهلاتك المهنية، والتقارير المشينة، ووصمك بالخداع في تصرفاتك، وادعاء شذوذك العقلي المستوه، ووجود الهجائين الغاضبين الذين يدينون إخفاقاتك الأخلاقية، وأخطاءك، فضلا عن خصائص شخصيتك الخاطئة ".

والإدانة بالارتباط محاولة عمدية للحط من شأن أى شخص أو تلويث سمعته بالقول، مثلا، إنه شخص منحل أخلاقيا وبشع، إنه يستمن الأسللة

بتعريفات مزيفة وتشبيهات واهية، أو تأكيدات لا برهان عليها. وقد ارتكب المؤرخون مثل هذا النوع من الجدل. ففى حرب الكلمات التى نشبت فيما بين المؤرخين حول دولة إسرائيل، كان ما فعله جميع الأطراف هو الإدانة بالارتباط. هل يدين أحدهم إسرائيل بسبب سوء معاملتها للفل سطينيين؟ إذن، لابد أن يكون هذا الشخص نازيا، أو معاديا للسامية على الأقل. هل يدافع أحدهم عن إسرائيل؟ لابد، إذن، أن يكون نازيا، أو عنصريا على الأقل. إن هناك رايات حمراء معينة تميز الجدل القائم على الإدانة بالارتباط مع حادثة تاريخية ما، إن " هذه مطاردة للساحرات " تربط ما بين اتهام ما ومحاكمات السحرة التى تخلو من المصداقية، مثلا. وفي صيغة أحدث لهذا، إذا اتخذ المرء موقفا " بدافع من الموضوعية " فلا بد أن يكون على خطاً لأن الموضوع المطروح قد تم تفنيده – الإدانة بالارتباط، ليست ارتباطا بشخص أو حركة، وإنما هي ارتباط بمجموعة من الكلمات.

إذا كنت تريد الإطاحة بالأساتذة الراديكاليين في الكليات الأمريكية، مثلا، فلا تقارنهم بغيرهم من الراديكاليين في التاريخ الأمريكي من أمتال توماس بايني، ومرجريت فوللر، ووليم لويد جاريسون، وسوزان أنطوني، ويوجين ديبس، ودوبوا، وريتا ماى براون (وهؤلاء قليل من كثير) مقارنة واضحة، أو تضعهم في سياق التاريخ الطويل للراديكالية داخل الجامعة. وأستاذ هذا النوع من المجادلات التي تقوم على الإدانة بالارتباط، هو دافيد هوروفيتز، الذي كان من قبل ناشطا راديكاليا وهو طالب، ولكنه ثاب الآن إلى رشده حسبما يقول.

لقد قدم هوروفيتز صيغة من خطوتين للإدانة بالارتباط لكى ينال من مارابل أستاذ التاريخ بالجامعة. فقد أدان مارابل بسبب ارتباطه بصحبته التى حافظ عليها، وأدان الصحبة بالارتباط. كانت تلك أبلغ أشكال الإدانة بالأسئلة

المشحونة التى تجلت واضحة على صفحة هوروفيتز فى الإنترنت. فقد زعم أن طاقم مارابل المنحوس عبارة عن هيئة عنصرية تغص بالمرارة " تضم هودريك بل، وكاثلين كليفر البلطجية غير التائبة منذ سنينيات القرن العشرين، وهى الأن ضمن هيئة التدريس بمدرسة القانون في إيمورى، وميخائيل إيريك دايسون، الذى كرس سيمناره عن "المفكرين الدينيين العظام" على مدى فصل دراسى كامل للنثر الديني الذى كتبه توباك شاكور، و "كاتبة مقالات تافهة ماركسية وأستاذة جامعية "هى أنجيلا ديفيز، التى كانت عضوة في اللجنة نفسها " اللجنة العامة للحزب الشيوعى نفسه " التى كان مارابل عضوا بها، وأخيرا وليس آخرا، " كاره اليهود "، والذى يكتب الشعر أحيانا، البروفيسور أميرى بركة من نيوجيرسى، ثم يأتى السؤال المشحون: "كيف أمكن للجامعة أن توظف فردا بمثل هذه الشخصية المريبة، وله مثل هذه الأراء الوقحة، وأن ترفعه لمثل هذه الشخصية المريبة، وله مثل هذه الأراء الوقحة، وأن ترفعه لمثل هذه المناصب العليا...؟ "

لاحظ أن هوروفيتز لم بلق نظرة على إنجازات الخمسة الخطرين، أو يجلس ليتكلم معهم حول آرائهم، إنه لم يقم بواجباته المنزلية في الدراسة التاريخية حول أفكارهم، وبدلا من ذلك شحن ظهر سفينته بالارتباطات مثل ارتباط دايسون مع توباك شاكور، ويتمثل اللامنطق في الارتباط هنا في أن دايسون غشاش لأنه يدرس عن المجرمين، وأن مارابل غيشاش لأنه مديق لدايسون، وبينما يمكن أن تكون نقطة المبالغة والإدانة عند هوروفيتز منطقية تماما بالمصطلحات التجارية - لكي يبيع كتابه الذي يحمل عنوان مثال كامل على الإدانة بالارتباط التي تمتطى ظهر سؤال مشحون يقول "كيف كانت القراءة المركبة للمصالح السياسية والبحوث الأكاديمية متفشية في كيف كانت القراءة المركبة للمصالح السياسية والبحوث الأكاديمية متفشية في رحاب الجامعات أو قاعات الدراسة بالكليات؟ ".

وقد حكى أستاذ القانون جيوفرى ستون الخبير في تاريخ التعديل الدستورى الأول، عن مثال من الأمثلة المشحونة عن الأحداث التاريخية الحديثة. ففى محكمة شيكاغو يوم ٢٤ ديسمبر سنة ٢٠٠٤م: "كنت مدعوا للظهور على شاشة التليفزيون في برنامج The O'Reilly Factot لمناقشة سؤال: هل يمكن لأمريكي يريد أن تخسر الولايات المتحدة الحرب في العراق أن يكون وطنيا؟ " لقد حل سؤال مشحون محل سؤال مشحون آخر.

وكما هو الحال في قيام هوروفيتز بنهش أعراض الأساتذة، وهجوم أوليرى الذي لا يقل عنفا على الخصوم المناوئين لحرب العراق، تتعامل الإدانة بالارتباط مع مجموعة يخشى بأسها بالطريقة نفسها التي تتعامل بها مع شخص مكروه. وفي أثناء الفترة المكارثية في التاريخ الأمريكي، عند بداية خمسينيات القرن العشرين، وصلت الإدانة بالارتباط إلى نروتها. فقد افتتح النائب الجمهوري عن ولاية ويسكونسين، جوزيف مكارثي، حملت الصليبية ضد العدو الأحمر، بخطبة في هويلنج، غرب فرجينيا، يوم آفبراير سنة ، ١٩٥ م. وجاءت اللحظة البلاغية الحاسمة على شكل سوال مشحون تماما: "أيها السيدات والسادة، هل يمكن أن يكون هناك أحد الليلة أعمى لدرجة أن يقول إن الحرب ليست... بين الشيوعية والمسيحية؟ " وكل من انتقد بحث مكارثي عن الشيوعيين في الحكومة، والتعليم والفنون، اتهمه من انتقد بحث مكارثي عن الشيوعيين في الحكومة، والتعليم والفنون، اتهمه بالتعاطف مع الشيوعية، أو بأنه أحمر pinko في خدمة الاتحاد السوفييتي.

وعلى الرغم من ظلمه لكثير ممن كانوا يدافعون ببساطة عن مفهوم الكلام الحر والحرية الفكرية ولم تكن لهم علاقة بالاتحاد المسوفييتي أو تعاطف معه، فإن استخدام مكارثي الفعال للإدانة بالارتباط دفع الكثير من خصومه إلى الاختباء ودفع بعضهم إلى الانتحار – مثل فيليب لويب، المذي كانت ارتباطاته وتعاطفه ذات الميول اليسارية مع الحرب الشيوعي في

ثلاثينيات القرن العشرين قد جعلت منه هدفا للرعب الأحمر. وقد كلفه ذلك دور جاك جولدبرج الذى كان يلعبه فى البرنامج التليفزيون المحبوب Goldbergs The، وعندما لم يستطع فى سنة ١٩٥٥ م أن يحصل على وظيفة فى التمثيل لأنه كان ضمن " القائمة السوداء " أقدم على الانتحار.

فى يوم ٩ يونيو ١٩٥٤ م قلب المحامى جوزيف وولش الطاولة على مكارثى فى برنامج تليفزيونى شهير عن النفوذ الشيوعى فى جيش الولايات المتحدة. ففى غمرة دفاعه عن واحد من صغار المحامين فى مؤسسة وولش كان مكارثى قد لوث سمعته، وتولى وولش الدفاع عنه، سأل الدفاع: "لقد فعلت ما فيه الكفاية. أليس لديك أى إحساس بالرأفة يا سيدى بعد كل هذا الوقت الطويل؟ ألم يتبق لك أى إحساس يا للياقة؟ "ولم يمنع هذا مكارثى من الكلم، وإنما استمر فى خطبته المليئة بالاستطرادات، وهو لا يدرك أن سؤالين مشحونين قد انفجرا للتو فى وجهه.

الأسئلة المشحونة المفيدة:

كان لسؤال وولش المشحون الذي وجهه إلى مكارثي مردود مفيد - فقد ألزم البلطجي مكانه. وليس كل سؤال مشحون أفعى كامنة تنتظر أن تلاغ لدغتها. إذ يمكن للسؤال المشحون أن يكون وديا، بل يمكن أن يكون مجاملة أو عرضا بالمساندة في صورة سؤال. ويجد المرء هذه الأسئلة الودية في الحشد السياسي المكتوب، حيث يتم طرح الاستبيانات التي تم اختيارها مسبقا على شكل أسئلة مشحونة ودية. وحسب رواية الأسوشيتدبرس في ٢٣ يناير سنة ٢٠٠٦ م فإن " الرئيس جورج دبليو بوش قال على سبيل الممازحة في الأسبوع الماضي في إستيرلنج بعد أن قامت امرأة لتقول إنها فخورة به: "من الأمور الجيدة دائما أن يكون لديك عملاء مدسوسون داخل كل جمهور". حتى

المؤتمر الصحفى الذى يفترض أن يكون تلقائيا يمكن أن يكون به بعض "المؤيدين " الذين يطرحون أسئلة مشحونة مؤيدة. وفي أحد المؤتمرات الصحفية، سأل جيمس جوكيرت الرئيس كيف استطاع أن يتعامل مع الديموقر اطيين "الذين يبدو أنهم انفصلوا عن الحقيقة ". ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي كان جوكيرت يقدم فيها عرضا لتأييد الرئيس عن طريق شدن سؤال ودي.

وتتمثل فضيلة السؤال البلاغي في أنه أمين مع نفسه. وعندما تطرح سؤالا بلاغيا، فإنك تشير على نحو ما إلى أنه ليس مطلوبا، أو ضروريا، الإجابة على السؤال. ويمكن أن يكون اتهاما للذات: "لماذا أنا على هذا القدر من الغباء؟ " ويمكن أن يكون شكلا ممتدا من التعجب أو الاستجابة العاطفية: "لماذا يحدث لى هذا طوال الوقت؟ " ويمكن أن يكون دعوة لقاض أو واحد من المستمعين (كيف يمكن أن تتين شخصا له مثل هذا الوجه البرىء؟)، أو وسيلة أدبية (هل أقارن بينك وبين يوم من أيام الصيف؟) ويمكن، ساخرة أحيانا، ومميتة أحيانا أخرى. ففي فيلم Bugsy، يسأل رجل العصابات ساخرة أحيانا، ومميتة أحيانا أخرى. ففي فيلم وعشه: "هل ظننت أنك يمكن أن بنيامين سييجل، قبل أن يقتل موظفا كان قد غشه: "هل ظننت أنك يمكن أن تخدعني؟ ". وقد يبدأ السؤال البلاغي استفسارا عن موضوع كان المرء يظن من قبل أنه غير مهم. فعلى سبيل المثال، افتتح الناقد المتخصص في العمارة بصحيفة نيويورك تايمز، نيكولاي أوروسوف، موضوعا في فبراير سسنة بصحيفة نيويورك تايمز، نيكولاي أوروسوف، موضوعا في فبراير سسنة بصحيفة نيويورك تايمز، نيكولاي أوروسوف، موضوعا في فبراير سسنة بصحيفة نيويورة الإسبانية المعاصرة؟ "من الذي كان يعرف؟

لقد كانت بلاغته الاستهلالية وسيلة تعليمية. فالبلاغة تمزج ما بين الجدل المنطقى والخيال الأدبي. فقد كان بوئيئيوس يحمل في ذهنه ما هو

أكثر من الفلسفة عندما كتب النص التأسيسي للبلاغة في العصور الوسطى "
سلوى الفلسفة "في القرن السادس(). فقد كان العالم الروماني في أوربا قد
انهار، تاركا التعليم الروماني في حال من الترنح والسقوط. ووجد رجل
الأدب في الفلسفة ملجأ ضد العنف الذي ساد في تلك الأيام: "إن قائدنا،
العقل، قد جمع قواته في قلعته، على حين كان العدو منهمكا في نهب متاع لا
قيمة له. وبينما استولوا على الأشياء عديمة القيمة بالمرة كنا نضحك عليهم
من أعلى، ولا تزعجنا عصبة المغيرين المجانين كلها، ونحن نحتمي بتلك
المتاريس التي لا يستطيع الحمقي المشاغبون الاستيلاء عليها". إن التاريخ
يجثم بوطأته على أكتاف الرجال المتعلمين في زمن بوئيثيوس بحيث لم

ولكن المراقب الأكثر عزلة لم يكن بوسعه العمل دون طرح أسئلة بلاغية: "كيف يمكن أيضا أن تكون العناية الإلهية أفضل من رأى الإنسان، إذا كان الرب، مثل البشر، يرى أن للأشياء غير المؤكدة نتائج غير مؤكدة؟ "يجب أن يكون كل شيء مؤكدا عند الرب، هذا هو الاعتقاد الذي ينزل بمسار التاريخ إلى مستوى إجابة السؤال البلاغي. " إن نظام الكون، الذي يمضى قدما بمتوالياته الحتمية، يسبب هذا التوافق الزمني بين الأسباب. وينبعث هذا النظام نفسه من مصدره، أي العناية الإلهية، ليضع كل الأشياء في زمانها ومكانها المناسبين ".

^(*) بوئيئيوس، فيلسوف كان في خدمة الملك ثيودريك صاحب مملكة الأوستروقوط في الطاليا، وكانت هذه الفرقة من القوط تدين بالمسيحية على المذهب الأريوسي، وقد اتهم بوئيثيوس فيما عرف باسم المؤامرة الكاثوليكية ". وفي أثناء فترة سيجنه أليف كتاب سلوى الفلسفة، الذي وصف فيه عجلة الحظ في الحياة بأنها مثل عجلة بيد امرأة لعوب تدحرجها كيفما شاءت بحيث تتغير مصائر البشر ما بين الصعود والهبوط. وقد لقى بوئيثيوس حنفه في نهاية الأمر عندما أمر الملك القوطى ثيودوريك ب إعدامه (المترجم)

في سنة ٣٩٩ ق. م. تمت محاكمة سقر اط الأثيني وأدين بالإساءة إلى الآلهة والدولة وحكم عليه بالنفى أو الإعدام، وكان من بين الأسياب أنه استخدم الأساليب البلاغية مثل السؤال البلاغي. ففي محاكمته كلها اعتمد سقراط على المناهج الجدلية نفسها التي كان يعتمد عليها طوال حياته فيلسوفا، حسبما جاء في كتاب أفلاطون Apologia وهي كلمة تعني باليونانية الشرح). وقد بدأت التبادلات الفلسفية التي يفترض أن سقراط كان بتبادلها مع الطلاب، والمستهزئين، بل وعابري السببل، عندما أخذ سقر اط يطرح سلسلة من الأسئلة التي قادت من يجيبون عليه تجاه الإجابة الصحيحة أو الإجابة المحرجة. وفي أثناء محاكمته، سأل نفسه هذه الأسئلة: " انني أجرو أيها الأثينيون على القول بأن أحدكم قد يجيب بقوله: لماذا هذا يا سقر اط، وما أصل هذه الاتهامات الموجهة اللك؟ لابد أنك كنت تفعل شيئا ادا؟ كل هذه الشهرة العطيمة والكلام العظيم عنك لم يكن ليظهر لو كنت مثل الرجال الآخرين: أخبرنا، إذن، لم يحدث هذا، لأننا سوف نندم إذا تسرعنا في الحكم عليك ". لقد كان السؤال البلاغي دعوة سقراط لنفسه لتقديم روابته الخاصة للقصة: " لقد اكتشفت أن الرجال الأعظم شهرة هم الأكثر حماقة؛ وأن بعض الرجال الأدنى مكانة هم الأكثر حكمة والأفصل فعلل. سوف أحكى لكم عن جو لاتي وعن أعمال هر قليوس حسيما أسميها ". بيد أن السؤال البلاغي، وإجابات سقراط عليه، لم تكن كافية لتنقذه من عداء الجمهور تجاهه بسبب هدمه الأصنام الفكرية طوال حياته.

إن السؤال البلاغى عبارة عن رواية تاريخية قد تجعلنا نعى إخفاقاتنا الأخلاقية وقد حكى توماس جبفرسون قصته الحقيقية: على حدود ولاية فرجينيا سنة ١٧٧٤ م، اشتبك اثنان من هنود الشاونى فى قتال مع اثنين من البيض وقتلاهما. وقررت عصابة من منظمة القصاص فى فرجينيا، وقد

ألهبهم الغضب ضد الهنود جميعا، أن ينتقموا من أى هندى تقع عليه عيونهم. وعند منحنى النهر أكمنوا كمينا لمجموعة صغيرة من النساء والأطفال كانوا يسافرون فى قارب ولم يكونوا متورطين فى الحادثة السابقة؛ والواقع أنهم كانوا من عائلة الزعيم الهندى لوجان، الذى كان صديقا للبيض وحليفا لهم، وكان قد ساعد على إقرار السلم على الحدود. كان لوجان خطيبا مفوها فى تراث سكان أمريكا الأصليين الذى يحتفى بالكلام الراقى فى المناسبات العامة، على شكل سلسلة من الأسئلة المشحونة للتعبير عن حزنه: "إننى أطلب من أى رجل أبيض أن يقول إذا كان قد دخل مرة بيتا وهو جوعان ولم يعطه أهل البيت اللحم، وإذا جاء بردانا وعريانا ولم يعطوه الكسوة؟ ... من يحزن من أجل لوجان؟ لا أحد ".

لقد باتت الخطبة الرائعة التى ألقاها لوجان أمام ممثل الحاكم الملكى لفرجينيا، اللورد دونمورى سنة ١٧٧٤ م قطعة كلاسيكية من الخطابة. وسمعها جيفرسون من دونمورى الذى كان قد نسخها فى مفكرة، ثم نقلها بعد ذلك فى كتابه الذى يحمل عنوان

State of Virginia (1785) Notes on the.

ولقد كان جيفرسون، شأنه شأن كثير من رفاقه في جيل المؤسسين، قارئا نهما للتاريخ. إذ كانوا يعتقدون أن التاريخ يعلم دروسا حيوية في قيادة الدولة. وكان جيفرسون قلقا من أن التاريخ الحقيقي لجيله لن يكتب أبدا وقس سأل أصدقاءه بعد أن تقاعد واعتزل الحياة السياسية: " ترى ماذا سيكون عن ماضينا؟ " وكان هذا سؤالا بلاغيا. وسأله أحد الشكاكين سنة ١٧٩٧ م ماذا لو كان لوجان قد تكلم بالحقيقة، وأجاب جيفرسون: " إذا وجدت أن لوجان كان على حق في اتهاماته، فسوف أبرئ ساحة... زعيم جلبت له موهبته وسوء حظه احترام العالم وتعازيه ". لقد كان اهتمام جيفرسون العميق

بالتاريخ الثورى ورده على من انتقد حكايته عن لوجان قد صيغ على شكل أسئلة بلاغية.

وثمة نتويعة على السؤال البلاغي نتمثل في السؤال الذي يطرح ما هو معروف أنه عكس الحقيقة. هذا السؤال المعاكس سؤال مشحون يفتح الطريق للاستفسار. وقد يكون السؤال المعاكس سؤالا مشحونا للغاية، لاسيما عندما يقوم شخص غير متعلم بالخوض في أسئلة تاريخية معاكسة. ففي يـوم ٢٩ يناير ستة ٢٠٠٦ م، سأل عالم الوراثة الملحد الشهير ريتشارد داوكيز، فـي يناير ستة المحرر بمجلة Philadelphia Inquirer هل الدين أصل الشر؟ ". كـان كلمة المحرر بمجلة المستونا، ولم تكن الإجابة عليه ممكنـة سـوى بواسطة هذا سؤالا معاكسا مشحونا، ولم تكن الإجابة عليه ممكنـة سـوى بواسطة التاريخ. وكان قد كتب سنة ٢٠٠٣ م: " إن فكرتي الأساسية ليست أن الدين نفسه الدافع إلى الحرب، والاغتيالات، والهجمات الإرهابية، ولكن أن الـدين هو اللافتة الرئيسية التي يمكن بها تعريف " هم " في مواجهة " نحن " بشكل مطلق ".

وهناك أمثلة معاكسة أخرى أقل شحنا تواجهنا، حتى وإن كان واضحا أنها تعاكس الحقيقة وتناقضها. فعلى سبيل المثال، كيف يتأتى للمؤرخ أن يقيم الفرض القائل بأنه لولا الهجرة من الريف لتدهورت المدن التى أنشئت في بواكير العصر الحديث؟ إن السؤال المشحون هو " ما الاستنتاج الآخر الذي يمكن أن نصل إليه؟ " الحقيقة أن المدن مثل لندن في القرن السابع عشر كانت مستنقعات للأمراض؛ والحقيقة أنه كانت هناك هجرة من الريف، كما أن مدن العصر الحديث قد ازدهرت. ولا يمكن أن نجد الإجابة سوى بمساعدة سؤال معاكس. ويوضح نموذج الجملة المناقضة للحقيقة عن النمو السكاني، بعد استبعاد تأثير الهجرة، أن المهاجرين رفعوا بالفعل معدل وفيات الأطفال في المدينة لكنهم لم يرفعوا معدل المواليد – وهو اكتشاف تحليلي مذهل. إذ كانت المدن ستكسب سكانا أكثر بدون الهجرات الداخلية.

وثمة أنواع أخرى من الدر اسات التاريخية المناقضة للحقيقة تغير خط القصة المروية لتساعد في الإجابة على الأسئلة المطروحة عما حدث في الحقيقة. ويمكن أن نسمي هذا سؤال "ماذا لو". إنها جملة على نقيض الحقيقة تتخذ شكل السؤال. " ماذا لو أن البريطانيين تحت قيادة وليم هاو كانو اقد طاردوا جورج واشنطن وأتباعه إلى داخل نيوجيرسي بعد أن كان واشنطن قد خسر المعركة للسيطرة على مانهاتن في سبتمبر سنة ١٧٧٦ م؟ ". إنهم لم يفعلوا ذلك، واستطاع أن يعيد تجميع قواته ويحرز الانتصارات المذهلة عند ترينتون ويرينستون في نهاية السنة، ولكن لو أنهم كانوا قد أر غمو الحيش و اشنطن على التفرق و الفرار ، هل كان يمكن للبريطانيين كسب الحرب ضد الثوار؟ هذا السؤال المعاكس يساعدنا على فهم السبب في هزيمة البر بطانيين – لأن و اشنطن و أتباعه كان بوسعهم دائمــا مقايــضة المكــان بالزمان، ولكن خطوط الإمداد البريطانية كانت مقيدة بالبحر. " ماذا لو كان روبرت لي وجيش فرجينيا الجنوبية قد هزموا قوات الاتحاد في جيت سبرج وزحفوا إلى واشنطن العاصمة؟ " هل كان الكونفيدر اليون سيربحون الحرب؟ لا، لأن خسائر الجنر الله كانت في حجم خسسائر جسورج ميد وجسيش اليوتوماك تقريبا. والدرس الذي نتعلمه من السؤال المعاكس هو أن المعارك لا تحسم مسار الحرب. إذ إن مزيجا من الإرادة والقدرة الفاعلة، التي يزيدها قوة على نحو ما حجم القوات، هو الذي أملي انتصار الانتحاد على الرغم من أن جيوش الاتحاد لم تكسب سوى عدد قليل من المعارك.

وكما كتب روبرت كاولى في تقديمه للكتاب الذي يحمل عنوان :

What Ifs ? of American History: Eminent Historians Imagine What Might Have Been 2003

إن الكتابة التاريخية المعاكسة للحقيقة... يمكن أن تلقى ضوءا عاكسا على ما حدث بالفعل، فلماذا تسود أحداث معينة (والاتجاهات والمسارات التي خرجت منها) ولا تسود أحداث أخرى؟ عند أية نقطة صارت الممكنات مستحيلات؟ إن التفكير حول السؤال المعاكس يؤدى إلى فهم أشد وضوحا لطبيعة الحرب والسلام على السواء. ماذا لو أن لنكولن كان قد تفادى رصاصة جون ويليكس بوث؟ هل كان مشروع المساواة الكاملة بين الرجال والنساء العتقاء من الرق سنة ١٨٦٥ م سيتحقق؟ وما الدور الذي كان لنكولن سيلعبه في دراما إعادة البناء؟ إن السؤال المعاكس للحقيقة سمح لنا أن نفسر الأحداث الفعلية بطريقة أفضل عن طريق وضع البدائل. ذلك أن السؤال المعاكس يسمح للبحث أن يمضى قدما مع غياب الحقائق، وبأخذ التفكير المنطقى إلى مملكة التخيل.

وربما يصيح ناقد لمثل هذا التفكير قائلا إن المؤرخين ليس لهم دخل بتخمين ما كان سينتج من الأحداث التى لم تحدث، إن تحديد أسباب حدوث الأشياء، على نحو ما حدثت أمر غاية في الصعوبة، والأكثر من ذلك أن كل افتراض معاكس الحقيقة يفتح الباب أمام الكثير والمزيد من البدائل المعاكسة

^(*) هذا النمط من التفكير لا يمكن أن يدخل في نطاق البحث التاريخي لسبب بسيط هو أن التاريخ يدرس ما حدث بالفعل، واحتل مكانه في الزمن والمكان، ولا يبحث في الاحتمالات التي قد تحدث وقد لا تحدث في المستقبل. والبحث التاريخي يحاول استرداد الحدث التاريخي من الماضي لتحليله وفهمه، وبيان العلاقة السببية فيه؛ في محاولة لم تتوقف من جانب المؤرخين في كل العصور وفي جميع الثقافات لاكتشاف قوانين حركة الإنسان في الكون. ومن ناحية أخرى، فإن التاريخ علم متزمن لأن الماضي (إحدى آنات الزمن) يمثل قاعدة الفعل التاريخي. وباختصار، فإن البحث في احتمالات كان يمكن أن تقع في الماضي ولكنها لم تقع، نوع من العبث الفكرى من جهة، كما أنه لا يمت للبحث التاريخي من جهة أخرى. ويبدو أن المؤلف يعكس مدى سطحية فكره التاريخي على الرغم من أنه يزعم أنه يقدم وصفة لفلسفة تاريخ "تصلح لزماننا" على حد تعبيره (المترجم)

التى تبرز من طيات الافتراض المعاكس للحقيقة الأولى. ومثل لعبة الشطرنج، لكل حركة الكثير من الحركات المضادة التى لها بدورها المزيد من الحركات المعاكسة. وسرعان ما يصبح العدد فلكيا. إن قواعد الشطرنج تكبح عدد الاستجابات لأية حركة، ولكن تخيلاتنا التاريخية ليست محدودة مثل القطع فوق رقعة الشطرنج فى حال تحررها من كوابح الحقيقة.

إضفاء المرح على السؤال المشحون

يقدم السؤال المشحون مفتاحا حيويا لكيفية عمل المستحيل – أى معرفة الماضى. ولكى نقترب من هذا المفتاح بدرجة أكبر، سيكون علينا أن نتعامل مع السمة الخاصة التى يتسم بها السؤال المشحون – أى المرح. ففى فيلم My Favorite Year ينطق " بيتر أوتول " بحقيقة كونية: " الموت سهل، والكوميديا صعبة ". ومع هذا، فإن روح المرح تبدو من الخصائص الأفضل تطورا وتفردا للبشر. وهناك تاريخ خاص للنكات، يتطور مع تغير الأزمنة؛ ولا تتغير سوى الأسماء في النكتة لتوجيه إهانة لشخص برىء. وقد أعيد العمل وفق خطوط الكوميديا الرومانية القديمة في مسرحية بلوتوس للعمل وفق خطوط الكوميديا الرومانية القديمة في مسرحية بلوتوس حديث ومسرحية مضحكة. كما أن ذلك الكوميدي الإنجليزي العنيف الذي عاش في القرن الثامن عشر قد أعطى اسمه لكتب النكات التي صدرت على مدى مائتي سنة، و لابد أن بلوتوس الروماني كان يعرف بعضها قبله، ومن الواضح أن المرح ليس في الموضوع فقط، ولكنه أمر تاريخي أيضا.

ويشير البحث التاريخى الحديث إلى أن بعض المؤرخين يعانون من الحساسية ضد المرح. ففى دراسة قدمت إلى رابطة أساتذة الجامعات الأمريكيين فى مجلتهم Academe (يناير ٢٠٠٦م) وجد كارل بيتروسو،

عالم الأنثروبولوجيا بجامعة تكساس أن هيئة التدريس بقسم التاريخ في إحدى الجامعات الرئيسية على الأقل كانت مجردة من روح المسرح. " إن الهدف الأولى لهذه الدراسة بيان المستويات النسبية للتهريج والجديدة في هيئة التدريس في مختلف التخصصات بكلية الآداب "، وهو ما يمثل نزوة تشذ عن كثير من البحوث في العلوم الاجتماعية. لقد طور كارل بيتروسو "تصميما للبحث يقوم على أساس تنسيق أعداد الملصقات المرحة بالنسبة للملصقات المرادة على أبواب مكاتب الأساتذة ". وعلى أية حال، كان باب مكتب الأستاذ مرآة عاكسة لرؤيته للعالم!

وبعد جمع المعلومات ووزنها، وجد بيتروسو أن "مكاتب أساتذة التاريخ تستدعى تعليقا خاصا ". وإذا ما استبعدنا "أستاذا مهرجا مجهول الاسم " يعرض على بابه أربعة وسبعين رسما كاريكاتوريا ليس من بينها شيء له طبيعة تربوية جادة "، فإن الفهرس الذي يضم هيئة التدريس بأقسام التاريخ ممن يتمتعون بروح المرح، أوضح أن نسبة الملصقات المرحة إلى الملصقات التربوية الصارمة كانت "نسبة ٣٣٤ في الألف، وهو ما لابد أن يضع القسم – وعلم التاريخ بالتالي – في الدرك الأسفل من انعدام المسرح، ويمكن أن أضيف انطباعاتي الخاصة لدراسة بيتروسو السساخرة. فلأنني حضرت ما يقرب من مائة مؤتمر المؤرخين كما جلست في عدد لا يحصي من الندوات لأساتذة يقرأون أوراقا تفصيلية جافة، ثم يعقبهم معلقون يقرأون تعليقات تفصيلية جافة مثلها، يمكنني القول إن الكثير من المؤرخين لا يبدو عليها انهم مغرمون بالمرح والفكاهة. ويطلب منا محررو كتبنا الدراسية ألا نكتب بطريقة ملتوية في هذه الكتب؛ لأن الطلاب لن يفهموا الفكاهة. ومن الواضح أنه لا يوجد شيء فكاهي فيما ندرسه، وليس للمرح والفكاهة مكان في كيفية دراستنا. وإذا حاكينا عبارة جورج كليمنصو التي لاحظ فيها أن

الحرب أمر غاية فى الخطورة بحيث لا ينبغى تركها للقادة العسكريين، نقول إن التاريخ ربما يكون جادا جدا بحيث لا نتركه لقوم تحكمهم روح الفكاهــة والمرح.

ومع هذا، فعندما ينظر المرء إلى نوع من المرح والفكاهة يعرف فـــى اللغة الإنجليزية باسم shaggy dog story قصة الكلب الأشعث (وهي حكاية تغص بالتفاصيل التافهة وتنتهى بشكل مفاجئ)، فسوف يرى الرابطة التى تربط بين السؤال المشحون وفلسفة التاريخ التي تصلح لزماننا. وليس هناك أحد متأكد تماما من أصل المصطلح، على الرغم من أنه انتشر انتشارا واسعا في أربعينيات القرن العشرين، وحكاية الكلب الأشعث عبارة عن لمحة تاريخية موجزة لا ترقى في نهاية الأمر إلى مستوى توقعاتنا، وتشط تماما بعيدا عن الموضوع. وهنا واحدة من الحكايات المفضلة عندى من هذا النوع: قرر شاب أن يكتشف سر الحياة. وأخذ يتجول في جميع أنحاء العالم سائلا أكثر الرجال والنساء المقدسين احتراما أن يشرحوا لــ سر الحياة، ولأن إجاباتهم لم تشف غليله، سافر إلى التبت باحثًا عن الحكمة لدى أكثر الرجال قدسية هذاك. وعلم الشاب من تلاميذ الرجل المقدس ما ينبغى عليه فعله لتطهير روحه وتجهيز عقله لتلقى الإجابة. وعلى مدى سنوات مارس أشد التدربيات صرامة، وأخيرا سمح له أن يقترب من الأستاذ المقدس. ويسسأل الباحث عن الحكمة وقد صار آنذاك أكبر سنا وأكثر هزالا: "أيها الرجل المقدس، ما سر الحياة؟ " ويجيب الرجل المقدس: " إن الحياة مثل غصن منثن " ولما كان مازال مشوش الذهن سأل: " الحياة مثل غصن منثن؟ ". فأخذ الرجل المقدس يفكر برهة ثم قال: " هل تقصد أن الحياة ليسست مثل غصن منش؟ ".

إن نهاية هذه الحكاية، في شكل سؤال مشحون، تعتمد على الـسخرية. فالسخرية مكون حيوى في التاريخ كله. ففي حياتنا اليومية آلاف من السخريات البسيطة؛ في التدريس، وفي البحث، وفي كتابة التاريخ. " إذا كان هناك شيء سوف يمضي بالخطأ، فسوف يمضي ". هذه صيغة أخرى من " قانون مورفي " تتطبق علينا إننا نضيع الإحالات إلى المراجع، وننسى أننا نعبر عن الموضوع بكلمات أخرى، ونستعير بمزيد من الحرية من الآخرين بقدر أكثر من اللازم، ولا نعترف أحيانا بما ندين به كما أننا نخضع لشكل أو آخر من " مبدأ بيتر " ومؤداه أن الناس سوف يرقون في العمل إلى أن يصلوا إلى موقع هم غير مؤهلين لشغله. ومبدأ بيتر يعمل بالطريقة نفسها معنا. فسوف تتعدى فصول الكتاب النقطة التي ينبغي التوقف عندها. وفي غمره فرحنا بالعثور على الدليل المناسب لمفاهيمنا سوف نبالغ في النتائج التي توصلنا إليها ومن المؤكد أن " قانون باركنسون " القائل " إن العمل سوف يتمدد حتى يملأ الوقت المخصص له " ينطبق على المؤرخ الذي لا يستطيع الكف عن البحث لكي يبدأ في الكتابة، أو المؤرخ الذي يصر على أن يصمع كل بطاقات الملاحظات في النص، وينفخ في مقالة موجزة في مائتي صفحة لتصير كتابا منتفخا من خمسمائة صفحة.

وفى التاريخ نفسه، تتوفر السخرية. ويمكن لتأثير الصدفة، والتطور الطارئ وغير المتوقع، والحدث العارض، أن يغير المسار الكلى التاريخ صوب اتجاه غير متوقع. هذه النظرية تسمى " أنف كليوباترا "، لأنه لو كان أنفها أقصر قليلا أو أطول قليلا، فربما لم تكن جذابة لكل من يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس، وربما كانت الجمهورية الرومانية قد بقيت على حالها. ومثلما كتب دانييل بورستين في كتابه Cleopatra's Nosc: Essay on عندما نركز على النقاط الفارقة في التاريخ

نتعرف على الدور الحاسم الذي يلعبه الحدث الطارئ والحدث التافه". والتاريخ بهذا المعنى قصة طويلة عابثة من نوع حكايات الكلب الأشعث.

بيد أن هناك سخريات أخرى أكبر فى الحكايات التى نحكيها عن ماضينا، كما هو الحال فى السعى وراء فهم للحرب الأهلية الأمريكية. ويلاحظ إدوارد أيرس، فى حكايته المؤثرة للغاية عن قدوم الحرب إلى مقاطعتين فى وادى شناندوا، وفى مقاطعة فرانكلين ببنسلفانيا، وأرجوستا بفرجينيا، أن " الشمال دخل الحرب لكى يبقى الناس فى الاتحاد القائم على موافقة الحكومة ولكى يبقى على الرابطة مع المجتمع المتمسك بالرق الدى يحتقره... أما الجنوب، من ناحيته، فقد ذهب إلى الحرب تحت راية الحرية فى الاحتفاظ بعدد ضخم ومتزايد من العبيد ".

وثمة سخرية أقل كارثية تنطبق على ما هو غير متوقع وغير مخطط لنطور الأفكار. ذلك أن الاحتجاجات الأمريكية ضد مرسرم الطوابع الدى أصدره البرلمان الإنجليزى سنة ١٧٦٥ م كانت قائمة على أساس ما رأى المحتجون أنه الدستور الذى تتشارك فيه المستعمرات مع بريطانيا. ولما زادت الاحتجاجات ورفضها البرلمان، بدأ المحتجون يستكشفون بعض المضامين التى كانت مخبوءة حتى ذلك الحين فى مجادلاتهم هم. وقد اكتشفوا مؤامرة ضخمة ضد الحركة تقوم الحكومة الإمبراطورية بتولى رئاسة أركانها. وفى النهاية، صارت الأسس الفكرية لمقاومتهم فكرة عن القانون الطبيعى خارج الدستور الإنجليزى وفوقه، مجموعة من المفاهيم التى كان لها أن تؤدى ثانية إلى اتجاهات غير متوقعة بالمرة: الاستقلال ونهاية الرق فى الولايات المتحدة الجديدة، وحكومات جمهورية تقوم على أساس من الدسائير المكتوبة: العدالة فى الحقوق، والفصل بين السلطات، وسيادة الشعب.

إن صناعة التاريخ مثل الشرح الذي قدمه الرجل المقدس عن الغيصن المنثني. وعلى المرء أن يضع افتراضات معينة لصناعة التاريخ، وهذه، مثل حكايات الكلب الأشعث المضحكة، تكشف عن ينابيع ساخرة في الحياة الإنسانية. والواقع أن المؤرخ وهو تحت ضغط خصم ينكر إمكانية أي شيء أكثر من التاريخ باعتباره نوعا من البلاغة لا يمكنه الإجابة سوى بالسوال المشحون بالسخرية: " هل هناك من يشك في دور حفظ الوثائق؟ ".

وترجمة ذلك أنه يجب علينا، نحن الذين نمارس صناعة التاريخ، أن نتحلى بقدر معين من التواضع يرتقى إلى إحساس بالابتهاج بأنفسنا ونتائج أعمالنا. وليس هذا سهلا، ليس بعد حياة مهنية كانت مكرسة لملاحقة الإيماءات ومفاتيح البحث في أماكن غامضة. ولكن السؤال المشحون "أني لك أن تعرف أن روايتك هي الصحيحة؟ ". سؤال لا يمكن الإجابة عليه ببساطة. فالاستعداد بمواصلة استفساراتنا، لكي نقوم بالقفزات الضرورية دونما شبكة أمان، أمر جوهري إذا ما كان لنا أن نضع الجسر الذي يمند من دعامة إلى دعامة مقابلة لها. بيد أن تأملنا للسؤال المشحون قادنا إلى أن نفهم أن نوو أفضل قليلا، وجعلنا نقدر موارد التهلكة في مهمتنا، حتى ولو لم تكن هناك إجابة عنها في متناولنا.

سبب الانتباه

من ذا الذي سمع عن إبينزير شابلين؟... لقد استمر الجهد لفهم هذا المصير الثورى والتواصل معه وتحقيقه طوال فترة الجيل الثورى كله... في ذلك الحين تم تحديد المقدمات المنطقية ووضع الفروض. وفي ذلك الحين تم حدث استكشاف مجالات فكرية جديدة كانت تلك أكثر الفترات إبداعا في تاريخ الفكر السياسي الأمريكي تلك أكثر الفترات إبداعا في تاريخ الفكر السياسي الأمريكي، وكل ما أعقب ذلك كان مفترضا على أساسه، ومبنيا عليه

برنارد بايلين (١٩٦٧ م)

يكمن جزء من قيمة أنواع بعينها من الأسئلة المستحونة في قوتها التحليلية. فمن هو إبينزير شابلين؟ لقد كان شخصا صغيرا في حدث كبير، إنه الأصل الفكرى للثورة الأمريكية. فقد كتب موعظة وأعيدت طباعتها في كتيب صغير. هذه الكتابات التي كتبها ثوريو المستقبل في كتيبات صعيرة كشقت لهم النقاب عن مؤامرة تحاك ضد الحرية الأمريكية. وقد أدى هذا الكشف إلى تقوية الجدل الانتقالي. وأطلق الجدل جماح الثورة وحدد مسارها

فى الوقت نفسه. وكانت النتيجة محكومة بالقوانين والحرية. وتجعلنا نسأل "لماذا؟ "ونجيب بالأسئلة المشحونة مثل" من ذا الذى سمع على الإطلاق عن إبينزير شابلين؟ "، فيحول المؤلف التاريخ من حقائق تتلو إحداها الأخرى إلى شرح لهذه الحقائق. ومثلما لا يريد أحد تشخيص مرضه بأنه نتيجة "علة ذاتية"، فإن أحدا لا يريد التاريخ دون سببية.

بعد ١٩/١ طرح الأمريكيون الكثير جدا من الأسئلة التى تبدأ بكلمـة "لماذا ". لماذا أصبحنا غير مستعدين لهجوم إرهابي؟ لماذا سـقط البرجـان التوأم؟ لماذا احتجز الكثير جدا من الذين هاجمتهم النيران فى المبنيين عندما انهارا؟ لقد غربلت لجنة من ذوى الأشرطة الزرقاء الأدلة، واسـتمعت إلـى شهادات الشهود، وفى النهاية نشرت تقريرها. والنتيجة قراءة واعية: "فـى بناء هذا السرد، حاولنا أن نتذكر أننا نكتب بعد وقوع الحدث بما فيـه مـن مزايا الفهم، وجوانب القصور... ولكن مسار ما حدث مضىء بطريقة براقة للغاية بحيث يضع كل شيء آخر فى الظل... وبمرور الوقت، وظهور المزيد من الوثائق. .. تجلت الحقائق المجردة عما حدث بـشكل أوضـح. بيـد أن الصورة عن كيفية حدوث هذه الأمور تصبح أصعب وأكثر استعصاء علـى التخيل من جديد ". ما السبب؟ إخفاقات متعـددة فـى التخيـل، والـسياسة، والقدرات، والإدارة ": باختصار أخطاء توالت يؤدى كل منها إلى الآخر.

وبينما يكون الخطأ المتعدد صيغة شائعة من الإجابة على السؤال الذى يبدأ بكلمة لماذا، فكلما ركزنا بكاميرا التاريخ على الأحداث الفردية، ظهر المزيد من الأسباب، بمزيد من الوضوح في الصورة. واأسفاه، إن الوضوح لا يؤدى إلى الاتفاق حول الأسباب. مثلا، ليس هناك من يشك في أن المبنيين في مركز التجارة العالمي قد انهارا بسبب نوع من الخلط في تصميمهما،

وبسبب الأثر المروع فى الصدامين. بيد أن التحقيقات اختلفت حول السبب الدقيق المحدد.

وكما كتبت في كتابي Seven Fires، سئل المهندسون ومستشارو التصميم لتحديد أسباب انهيار البرجين فتوصلوا إلى استنتاجات متعارضة. لقد فحصوا بدقة الدعائم الحديدية المحترقة والحائط الخارجي، وبنوا محاكيات للمبنى على على أجهزة الكومبيوتر، وراجعوا تسجيلات الفيديو التي سجلت الانهيار في المبنى، ثم عادوا إلى أجهزة الكومبيوتر الخاصة بهم، وما يزالون على خلافهم.

وعند فحص ناطحات السحاب نجدها عبارة عن أقفاص عملاقة ذات أطراف ثقيلة – أعمال مشبكة من الصلب، والخراسانة، والقرميد الذي يبلغ سمكه عدة أقدام. وبتأثير النيران المرعبة في الحريق الذي حدث في بالتيمور سنة ٤٠٩٠ م، والتي حولت المباني الشاهقة إلى هياكل محترقة، وضع البناؤون أقفاصا أكبرمن الصلب حول أقفاص أصغر حجما من الصلب أيضا حتى بدا المبنى الشاهق مثل متاهة لا يمكن اختراقها من الأعمدة والكمرات الصلب. وقد وضعت الأعمدة على مسافة عشرين قدما بين كل منها وتم تثبيتها في الأرضيات. وقد أدت الوفرة إلى قوة المبنى. ولو كان هناك انهيار النيران من الانتشار، كانت المكاتب والشقق عبارة عن مقصورات محكمة العزل، وكان الموجودون من الأفراد بها معزولين بالسيراميك المضاد للنيران والمسلح. كما كانت سلالم الحريق موزعة في جميع أرجاء المبنى ومقواة بأبواب وحوائط مضادة للنيران.

و الأمر ليس كذلك في البرجين التوأم. فقد وجد المهندسون والبناؤون طريقة لوضع ألواح خارجية حاملة للثقل ودعامات تقيلة في قلب المبنى بدلا

من الأعمدة الداخلية الكثيرة. ولتخفيض الحمل على الحوائط الخارجية وأعمدة القلب الداخلية، استخدم الصلب الرفيع لعوارض الأرضيات، وحلت رشاشات المياه التي تعمل في حال حدوث حريق، محل القرميد والمسلح التقليدي المضاد للنيران. وكانت النتيجة مساحة مفتوحة أكبر يمكن تأجيرها وتتيح فرصة انتشار النيران بسرعة أكبر عبر أرضيات كاملة. كما كانت مخارج الهرب من النيران التي لم يكن عددها كافيا على الإطلاق (ثلاثة) والضيقة، مجمعة في قلب المبنى بدلا من توزيعها في جميع أرجاء البرجين.

فى سنة ٢٠٠٢ م قامت إدارة الطوارئ الفيدرالية بنشر ما كشفت عنه دراستها عن أداء مبنى التجارة العالمى بشكل أولي، واستنتجت أن الواجهات الخاجية فى كلا المبنيين قد صمدت فى وجه صدمة الاصطدام، وكانت كرة النيران الناجمة عن وقود الطائرة ساخنة بالقدر الذى جعلها تشعل النيران التى أضعفت الأرضيات وزعزعت قوتها فى نهاية الأمر، ولم تكن الحوائط سبب الانهيار أو السقوط المفاجئ، وإنما كانت الأرضيات السبب فى ذلك. وفى الدقائق الأخيرة لكل من البرجين، بحسب قول الضحايا الذين كانوا فى الطوابق العليا ولجأوا إلى الردهات، كانت الأرضيات تنبعج فقد أطاح الانفجار بكثير من رشاشات الماء المضادة للحريق والمركبة على تلك العوارض الحديدية، أما ما لم يطح به الانفجار فكان من بدايته بفتقر إلى الحماية الكافية من الحريق.

وفى ٢٢ أغسطس سنة ٢٠٠٢ م، بدأت الحكومة الفيدرالية تحقيقا آخر عن انهيار البرجين ومبنى البنتاجون. وقد أتـم المعهـد الـوطنى العلـوم والتكنولوجيا هذه الدراسة فى شهر فبراير سنة ٢٠٠٥ م، وأعلنت نتائجها فى يوم ٥ إبريل ٢٠٠٥ م، كانت الدراسة التـى قامـت بهـا إدارة الطـوارئ الفيدرالية خاطئة – لم يكن التصميم خطأ: "هذه النيران، مع مدافع الحريــق

المنزوعة من أماكنها، كانت المسئولة عن سلسلة من الأحداث التي تسببت في إضعاف المبنى من القلب وبدأ يفقد قدرته على تحمل الثقل. وقد ضعفت الأرضيات وتدلت بفعل النيران، وسحبت معها إلى الداخل الأعمدة القائمة في نطاق المبنى"، وتسببت في انبعاج الأعمدة صوب الداخل " ثم حدث الانهبار ".

ولم تكن الرسالة التى أرادت سلطة الميناء والمصممون سماعها مخبوءة – أن قدر البرجين لم يكن محتوما بسبب أخطاء التصميم. ذلك أن تأثير الطائرتين وحرارة الوقود، والنار نفسها، هو الذى أدى إلى الانهيار. وقد أصر المشرف على دراسة المعهد الوطنى للعلوم والتكنولوجيا على أن أداء المبنيين كان كما ينبغى له أن يكون "وتجنب تماما السؤال عما إذا كان التصميم التقليدي وأساليب البناء التقليدية تصمد وقتا أطول في وجه التأثير نفسها، أو حتى تنجو منها.

وبدا أنه من المستحيل تحديد سبب الانهيار، وهو أمر حيوى للغاية بالنسبة لنا من حيث فهمه وإخضاعه للدراسة الدقيقة. ومع هذا فقد واصلنا طرح السؤال "لماذا؟ " إنه من بعض الوجوه أهم سؤال يمكن أن يطرحه المؤرخ، حتى مع أننا نادرا ما يمكن أن نصل إلى استنتاجات لا جدال فيها حول الأسباب ".

والآن، كيف حدث هذا؟

هل تكون بعض النتائج حتمية؟ أم أنه من قبيل إهدار الوقت أن نجادل حول مثل هذه الأسئلة، لأننا لا يمكن دائما أن نفترض نتيجة بديلة معقولة تماما؟ هل الوساطة البشرية – والاختيار البشرى – السبب الأساسى فى كل الأحداث البشرية، أم أن هناك قوى خارج السيطرة البشرية تملى نتاج التاريخ وتفرضه علينا؟

فى القرن الثانى عشر، ظهرت التجربة العلمية التى حلت محل إرجاع كل شىء للمشيئة الربانية باعتبارها الطريقة المفصلة لتفسير الحوادث الطبيعية. وقد اقترح دافيد هيوم، الفيلسوف ومورخ أرسطو، أن السببية ببساطة هى استمرار اقتران نتائج معينة نتجت عن الأحداث التى مررنا بها ببعضها البعض. إذ إننا نظن أن A سبب B لأنه فى تجربتنا A تسبق B مباشرة. وإذا كان للمؤرخ أن يطبق ببساطة معادلة هيوم، فلن تكون هناك مجاهة إلى تحليل سببى على الإطلاق. ذلك أن السبب سيكون افتراضيا. وسوف تعقب كل تفصيلة تفصيلة أخرى، فى سرد القطع التى تؤلف الأدلة بلا تفكير. وستكون الحقائق هى نفسها أسبابها، لأنها ستكون كل ما لدى المؤرخ. وكل ما عدا هذا سيكون تخمينا من المؤرخ.

وبدلا عن ذلك، فإننا قد نتبنى المنهج العلمى الذى يتعلمه جميع أطفالنا فى المدرسة، وهو يقوم على نظرية السببية، أولا نلاحظ حدثا ما، ثم نحاول شرحه بوضع إجابة، تسمى الفرض العلمي، على سؤال أو سلسلة من الأسئلة يمكن اختبارها واختبار نتائجها، ثم نقوم بتلك الاختبارات التي نسميها تجارب، لنرى ما إذا كانت فروضنا صحيحة، يبدو الأمر بسيطا، ولكنه ليس بهذه البساطة، لأن التاريخ يختلف عن العلوم، إنه لا يعيد نفسه ومن المؤكد أنه لا يخضع للتجارب المعملية، وكان إيفان بافلوف، وهو عالم روسي، قد وجد أن قرع الجرس قبل إطعام كلبه يجعل الكلب يعتقد أن الجرس يعقب الطعام دائما. ولأن الكلب كان يتوقع الطعام، فقد كان لعابه يسيل كلما قرع الجرس، فتخيل انزعاج الكلب عندما يقرع الجرس ويكون الإناء فارغا، إنه يظن أن الجرس سبب ظهور الطعام، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفا. وفى يظن أن الجرس سبب ظهور الطعام، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفا. وفى التاريخ يكون الإناء فارغا دائما على الدوام.

وعندما نخطئ شرط الفعل من جانب واحد، نفترض الأسباب طوال الوقت. ذات يوم صاخب عاصف كنت أتمشى، ورأيت فرع شجرة ملقى على الطريق وتعجبت كيف وصل إلى هناك. وبدا لى أن أفضل تفسير عملى لهذا أن الريح قد قذفت به. ولم أر الريح تفعل هذا، فمن ذا الذى يرى الريح حقا؟ ولكننى كنت قد رأيت مناسبات سابقة كانت الأشجار تتحنى، وتتطاير الأغصان هنا وهناك، وكان ثمة ما يدفعها فى اتجاه واحد. إنها الريح و لا شك.

لماذا سقط فرع الشجرة على الطريق؟ لقد سقط بفعل الجاذبية، والجاذبية هي الاسم الذي نطلقه على القوة الموجودة في كل الأشياء التي لها كتلة. لماذا؟ لأن إسحق نيوتن عرف الجاذبية بأنها إحدى القوى الرئيسية التي تؤثر في المادة، والأرض كتلة كبيرة ولها مجال جاذبية قوي، ولكن ما الجاذبية؟ هل سبق لك أن رأيتها؟ لا، مثلها مثل الريح، واعتقد أن الجاذبية موجودة لأن الأشياء تقع دائما (خاصة في مطبخي)، ولكن هذا في الحقيقة يزيد قليلا عما تعلمناه من هيوم، إن السبب يكمن في عادات تجربتنا. بيد أن قراءتنا للتجربة، وتناولنا للسببية التاريخية، لابد وأن تكون معقدة قليلا.

وإذا ما هذبنا مفهوم هيوم، نصر على أنه إذا كان لنا أن نؤكد أن A تتسبب في B، وأن A تسبق B، وأنه بدون حدوث A لن تحدث B. باختصار تجبرنا فكرة السبب على قبول مفهوم معين للزمن، إذ إن الزمن مفهوم صعب بالنسبة للطبيعة الفلكية، وعلم النفس المعرفي، ومن الواضح أنه مفهوم صعب على تلاميذي في فصول الصباح الباكر. وإذا كان الزمن هو كما يقترح ستيفن بينكر في كتابه الذي يحمل عنوان (2007) The Stuff of Thought (2007) " نافذة متحركة تطل على الحياة متاحة لمعظمنا (الآن) وقدرا قليلا من الخذة متحركة تطل على الحياة متاحة لمعظمنا (الآن) وقدرا قليونة. فإذا كتبت عن الحرب الأهلية الأمريكية، تمتد "الآن "عندي إلى "حينئة " قبل مائة

وخمسين سنة. وفى زعمى عن السببية ينبغى أن أثنى الماضى لكى أجلب الماضى والحاضر سويا. ولست أدعو إلى نوع من الرحلة القهقرية فى رحاب الزمن، لأن الماضى الذى نسكنه نحن المؤرخين ليس زمنا عشناه، ولكنه زمن تذكرناه. نحن لا نأخذ القراء فى رحلة تقهقرية فى رحاب الزمن؛ بل إننا نستخدم لغة مؤقتة للدلالة على مرور الزمن.

فى بعض الأحيان يكون لدينا A ولا تليها B. وقد نقول وقتها إن A كانت ضرورية لحدوث B ولكنها لم تكن كافية. فلكى تحدث الثورة الأمريكية كان لابد للأمريكيين أن يكونوا متململين من الحكم البريطاني. وكانت تلك الأفعال ضرورية باعتبارها أسبابا ولكنها لم تكن كافية، فربما كان الأمريكيون سيسكتون قهرا عن هذا ولا يفعلون شيئا، أو ربما كانوا سيفعلون ما يفعلونه دائما - ينتهكون القانون بالتهريب مع دفع الرشاوى لموظفى الجمارك، ويجعلون القضاة ينظرون فى الاتجاه الآخر عند القبض على مذنبين من أمثال هانكوك فى حالة تلبس.

وإذا كانت A تؤدى دائما إلى B فعندها تكون A سببا كافيا. وإذا كانت موجة محددة من الأنفلونزا ينتج عنها ألم المفاصل، فإن جرثومة الأنفلونزا ينتج عنها ألم المفاصل، فإن جرثومة الأنفلونزا تكون سببا كافيا للألم. ولا يعنى هذا أنه ليست هناك علل أخرى قد تسبب آلم المفاصل أيضا. والسبب الكافى ليس بالمضرورة المسبب الوحيد وراء أى حدث. لقد كانت الحرب الأهلية ناتجة عن قرار لنكولن بألا يدع الكونفيدرالية تفسخ الاتحاد، وهو سبب كاف. ولكن لو كان قادة ولايات الجنوب قد نصوا خوفهم من أن حرب لينكولن الجمهوري، الذى فاز فى انتخابات سنة ١٨٦٠ م، سوف يحرمهم من عبيدهم، جانبا، لما كانوا قد رغبوا فى الانفصال أو شكلوا الكونفيدرالية.

الأسباب الزائفة

بقدر ما قد يكون عليه هذا الفهم الضرورى للسببية من الوضوح والبساطة، تعثر المؤرخون وانزلقوا فى أخطاء التفسير. هذه الأخطاء تتضمن النزعة الحتمية؛ والمغالطة المنطقية عن التلازم الذى يربط الأحداث ببعضها، ومغالطة الإدراك بعد وقوع الحدث؛ ومغالطة الوهم العنقودي؛ والنبوءة المتحققة بذاتها، والسبب الزائف.

فى النزعة الحتمية يعرف المؤرخ كيف تحول كل ما لابد له أن يتحول، لأنه يعرف كيف كان ينبغى أن يتحول، لأن سببا واحدا كبيرا تفوق على الأسباب الأخرى جميعا. ويكون هذا السبب كبيرا جدا بحيث يندرج كل شيء تحته ولا يمكن لشيء أن يفلت منه، فهو مثل " الثقوب السوداء " في الكون بجاذبيتها الكبيرة التي لا يمكن حتى للضوء أن يفلت منها. والنزعة الحتمية تنزل بجميع التفسيرات إلى تفسير واحد، ولهذا السبب سمى من يتبعونها " التخفيضيين ".

أنى لهم أن يعرفوا أن السبب الكبير وراء كل شيء؟ بالنسبة لكثيرين تكاد جاذبية السبب الواحد الكبير أن تكون جاذبية دينية – لأنه يفسر ويريح. ومن ثم، فإن وراء كثير من المجادلات السببية التخفيضية التزاما أخلاقيا أو إيديولوجيا. هذا النوع من السببية تاريخي لأنه يبدأ بدر اسة الإيديولوجية نفسها، وليس بدر اسة الماضي، لكي تتناسب مع أي دليل تم ليه وقولبته.

أشهر تلك النظريات الحتمية فى التاريخ هى النظرية الماركسية. فوفقا لكارل ماركس، كانت وسائل الإنتاج مفتاح تطور المجتمع الإنساني. فقد كانت الأساس الذى استقرت عليه المجتمعات، وشكل تفكير الناس وأعمالهم. وكان النضال من أجل السيطرة على وسائل الإنتاج بمثابة الآلية المحركية

للأحداث التاريخية. وفى وسط هذه الإيديولوجية يستقر مفهوم أن التاريخ مر خلال مراحل محددة، وأن هذه المراحل كانت تتبع كل منها الأخرى، وأنه لا شىء يمكن لفرد أو جماعة أن تفعله يستطيع أن يغير النتابع أو ما ينتج عنه. وفى المرحلة الرأسمالية من الصراع، يحارب العمال وطبقة البروليتاريا الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج، ولسوف تؤدى الثورة الناتجة عن ذلك إلى جلب المرحلة النهائية من التاريخ؛ أى الشيوعية الحقيقية. وعلى الرغم مسن أن حصاد الصراع فى سبيل السيطرة على وسائل الإنتاج كان حتميا شائه شأن حصاد أى حادث طبيعى فى ظل قوانين مثل الجاذبية، فإنه يجب على الرجال ذوى التفكير الصائب، فى الوقت نفسه، الإسراع فى الوصول إلى المرحلة النهائية من التاريخ.

وتتمثل جاذبية الماركسية للباحثين، سواء كانوا من المعجبين بالشيوعية أو كار هين لها، أنها كانت علمية. ففي كتاب ماركس 1847 PhilosophyPoverty of المعادلة البسيطة، وهي معادلة رشيقة علميا وسارية عالميا:

"عند تغيير أنماط الإنتاج، يغير الجنس البشرى كافحة علاقاته الاجتماعية. إذ إن الطاحونة اليدوية تخلق مجتمعا يحكمه سيده الإقطاعي؛ والطاحونة البخارية تخلق مجتمعا تسود فيه الرأسمالية الصناعية... وتحت النظام البطريركي، وفي ظل نظام الطوائف، وتحت النظام الإقطاعي والنظام التعاوني، كان ثمة تقسيم للعمل بين أفراد المجتمع بأسره وفق قواعد ثابتة. فهل تم إرساء هذه القواعد على يد أحد المشرعين؟ لا، إنها نشأت في الأصل عن ظروف الإنتاج المادي، ثم ارتفعت إلى مرتبة القوانين بعد زمن طويل. وبهذه الطريقة، صارت هذه الأشكال المختلفة من تقسيم العمل قواعد كثيرة للغاية في التنظيم الاجتماعي ".

وليس هناك أى حدث عارض هنا؛ ولا مفاجات، ولا التواءات أو تحولات. إذ يحدث كل شيء بالطريقة التي يفترض أن يحدث بها: لأن التاريخ مثل العلم، مسألة قوانين طبيعية.

وفى الحتمية التاريخية ميزة نفسية لمن يؤمنون بها. فهى لا تفسر فقط كل ما حدث، وإنما تتنبأ بالمستقبل أيضا. وقد أدت نظريات هتلر العنصرية عن التاريخ إلى الوعد بأن الجنس الآرى سوف يرث الأرض: "إن الطبيعة لا ترغب فى التزاوج بين الضعفاء والأقوياء، بل إن رغبتها أقل فى خلط جنس أرقى بجنس أدنى، لأنها إن فعلت ذلك فربما دمرت كل عملها على مدى مئات الآلاف من السنين فى ضربة واحدة وتقدم الخبرة التاريخية براهين لا تحصى على هذا. إنها تبين بوضوح مرعب أنه فى كل خلط تم بين الدماء الآرية ودماء شعوب أدنى تمثلت النتيجة فى على خلط تم المتحضر " لقد منحت السببية الحتمية فى التاريخ هثار الثقة بحيث يتنبأ بعصر يمتد ألف سنة لألمانيا النازية، طالما بقى الدم الألمانى نقيا.

والمؤرخون في جمهورية تحكمها الأفكار الديموقراطية مثل جمهورينتا ليسوا منزهين عن السقوط في فخ افتراض وجود رابطة حتمية بين الماضى والمستقبل. فعلى سبيل المثال، ثمة افتراض أخاذ أن نفترض أن صعودنا إلى مراكز القوة السياسية والاقتصادية العالمية كان قائما على أساس نظام الحكم الخاص بنا ونظامنا الاقتصادي الخاص، ومن ثم فان الديموقراطية والرأسمالية هي " نهاية التاريخ ". وقد شرح فرنسيس فوكوياما في والرأسمالية من " نهاية التاريخ ". وقد شرح فرنسيس فوكوياما في عمل مفهوم السببية هذا:

"لقد جادلت بأنه قد ظهر في جميع أنحاء العالم اتفاق الفت على شرعية الديموقر اطية الليبر الية نظاما للحكم على مدى السسنوات القليلة الماضية،

عندما لحقت الهزيمة بالإيديولوجيات المنافسة مثل الملكية الوراثية، والفاشية، والشيوعية، منذ زمن قريب. وفضلا عن ذلك، جادلت بأن الديموقر اطية الليبرالية ربما تشكل نقطة النهاية في تطور البشر الإيديولوجي والشكل النهائي للحكومة البشرية كما شكلت نهاية التاريخ، وبينما كانت أشكال الحكم السابقة مشوبة بنقائص خطيرة وتتسم بخصائص لاعقلانية أدت إلى انهيارها في نهاية الأمر، فإن هذه الديموقر اطية الليبرالية متحررة من مثل هذه التناقضات الداخلية ".

لقد عاد هيجل من جديد – ولكن في لغة أسهل كثيرا. يقول فوكوياما: " ما أشرت إلى أنه وصل نهايته ليس وقوع الأحداث، حتى ما هو منها مــؤثر وعظيم؛ ولكنه التاريخ: بمعنى، التاريخ المفهوم باعتباره عمليــة تطوريــة واحدة متماسكة، عندما نأخذ في حسابنا جميع الشعوب في كل الأزمنة ".

وفي صيغة مختلفة تماما لرؤية المسار الحتمى لتاريخ الجمهورية الليبرالية، رأى نيال فرجسون، وهو مسؤرخ مسن هارقارد، أن صعود الإمبراطوريات وسقوطها، وليس الديموقراطية الليبرالية، هو الموضوع الحتمى في تاريخنا. وكتب في طبعة سنة ٢٠٠٦م مسن كتاب الحتمى في تاريخنا. وكتب في طبعة سنة ٢٠٠٦م مسن كتاب Foreign Policy عن "الإمبراطوريات التي تحمل تواريخ نهاية صلحيتها" ين الإمبراطورية الأمريكية شابة بمعايير التاريخ. وكان توسعها في القرن التاسع عشر إمبرياليا بلا موارية. ومع هذا فإن السهولة التي تم بها استيعاب أية أراض مأهولة في البنية الأصلية الفيدرالية كانت عاملا مناوئا لتطور عقلية استعمارية حقيقية وضعت كوابح على المؤسسات المياسية للجمهورية. وعلى النقيض من وضعت كوابح على المؤسسات المياسية للجمهورية. وعلى النقيض من الحرب الإسبانية الأمريكية سنة ١٨٩٨م، أصعب بكثير، ولهذا السبب الحرب الإسبانية الأمريكية سنة ١٨٩٨م، أصعب بكثير، ولهذا السبب بالضبط، فإنني أستحضر مرات ومرات شبح الرئاسة الإمبراطورية ".

ويستمر فيرجسون قائلا: "ولكن اهدأوا بالا، لأن إمبراطوريتنا، مثل جميع الإمبراطوريات الحديثة، ليس مقدرا لها أن تستمر زمنا طويلا. أو على الأقل هذا هو حكم التاريخ. وبعملية حسابية بسيطة يشرح لماذا: "أية إمبراطورية إذن سوف تبرز إلى الوجود وتدوم طالما أن مكاسب ممارسة السلطة على الشعوب الأجنبية تفوق تكلفة ذلك في عيون الإمبرياليين، وطالما أن فوائد قبول السيادة من جانب شعب أجنبي تتجاوز تكاليف المقاومة في عيون الرعايا، إن مثل هذه العملية الحسابية تأخذ في حسابها تكاليف انتقال السلطة إلى إمبراطورية أخرى ". هنا حلت محل جدل هيجل صيغة تحليل التكلفة المأخوذة عن النظرية الرواقية القديمة عن التاريخ الدوري.

وفى المغالطة المنطقية عن التلازم الزمني، يظن البعض خطأ أن الصدفة هى السببية. إذ يحدث أمران سويا فيقع الظن بأن أحدهما لابد أن يكون سببا فى الآخر. ففى معرض الدفاع عن سياسة إدارة جورج دبليو بوش فى فرض تشريع السلامة فى المناجم، حسبما جاء فى صحيفة نيويورك تايمز، حكى ديرك فيلبوت من إدارة سلامة المناجم والصحة أنه في ظل السياسة المتسامحة كانت هناك فقط اثنتان وعشرون حالة وفاة بمناجم الفحم سنة ٥٠٠٠ م، وهو رقم تحت المعدل بكثير. وبالنسبة له، كان هذا يعنى أن السلامة تتحسن بشكل واضح ". والحقيقة أنه ربما لا تكون هناك علاقة على الإطلاق بين غياب التنظيم والعدد المنخفض للحوادث. فقد افترض وجود علاقة سببية لا يمكن أن نتبين فيها سوى التلازم الزمني. وفي سنة ٢٠٠٦ م ارتفع عدد وفيات المناجم بشكل كبير، لأن أصحاب المناجم سمح لهم بتجاهل توصيات مفتشي السلامة في السنة السابقة — هذه علاقة سببية بالفعل.

وأقرب أقارب مغالطة التلازم الزمنى هى المغالطة المنطقية القائلة بأن أى شئيأتى مباشرة قبل وقوع حدث ما يكون سبب الحدث (بعد هذا، وبالتالى

فهو بسبب هذا) وأوضح مثال على هذا: الديك يؤذن قبل انبلاج الفجر مباشرة. فالشمس تسطع بعد أن يؤذن الديك. ومن ثم فلابد أن يكون أذان الديك سبب شروق الشمس، وفي صيغة أخرى: "كنت أمضى يوما طيبا فعلا. ولابد أن السبب في ذلك هي قدم الأرنب التي تجلب الحظ، والتي أحضرتها بالأمس ". أو تجربتي الخاصة في بيع البضائع: "كل مرة أبيع فيها بضاعة، ترتفع قيمتها كثيرا، ربما يكون البيع سببا في زيادة اهتمام المشترين ".

هذا النوع من الجدل يستخدم طوال الوقت لجعل الإحصائيات متوافقة مع مسار الجدل. فإذا مررت ولاية ماساشوسيت قوانين صارمة للتحكم في حمل البنادق وانخفض عدد حالات القتل بشكل واضح في السسنة التالية، فسوف يزعم الداعون إلى التحكم في حيازة السلاح أن القانون تسبب في انخفاض عدد حالات القتل. وإذا قامت ولاية فلوريدا بتمرير قانون يجيز حمل الأسلحة مخبأة وانخفض عدد حالات القتل، فإن دعاة الحق في حمل السلاح سوف يدعون أن القانون تسبب في انخفاض معدل جرائم القتل. والحقيقة أن كلا الولايتين قد مررتا بالفعل هذه القوانين، وانخفض عدد جرائم القتل في كل من الموقعين قد نسبوا فعلا انخفاض جرائم القتل إلى أسباب متناقضة.

وليس هناك مصطلح لاتينى يدل على الخلط بين السبب والنتيجة. إذ إن حدثًا ما يقع في وقت لاحق لا يمكن أن يكون السبب فيه حدث وقع قبله. خذ مثلا حكاية السحر في مدينة سالم سنة ١٩٢٦م. ما الذي جعل الجار ينقلب على جاره، ولا يكتفى باتهام الجار بممارسة السحر وإنما يصر على محاكمته وتوقيع عقوبة الإعدام على من أدينوا بالتهمة؟ في كتاب فاز بجائزة، اقترح بول بوير وستيفن نيسباوم أن الاقتتال الذي استمر زمنا طويلا بين

عشيرتين في قرية سالم هما البورترز والبوتنامز، قسم المجتمع الفلاحي وفتح الباب أمام الاتهامات القاتلة "بالنسبة لقرية سالم. .. جاءت المرحلة الحرجة إلى التفسخ الاجتماعي] في تسعينيات القرن السابع عشر، وأطلق القرويون الاتهامات ". فما الذي كان على المحك؟ - خسسارة احتمالات المستقبل، والارتباط بالأرض، والأشجار، والمكانة. "بيد أن هناك ذنبا وغضبا أيضا في كل هذا: لأنه عندما حرمت عائلة توماس بوتمان من حقوقها الموروثة "في سلسلة من الوصايا المثيرة للنزاع "كانت مجبرة على مواجهة الحقيقة التي كانت تهمها بصورة صريحة وواعية، وأن تهتم بها اهتماما عميقا، وهي الحقيقة التي تتعلق بالمال والمكانة ". ثم جاءت الاتهامات.

ونتمثل مشكلة هذه السلسلة السببية التى جاء عرضها بصورة ذكية وجميلة فى أن " الضربة القاضية على العائلة جاءت فى شهر إبريل نفسه من سنة ١٦٩٥ م، عندما ماتت مارى فيرين بوتنام ". إذ كانت السيدة قد كافسات البورترز دون البوتنامز. فلماذا لم تترك الكثير لذوى قرباها؟ وقد أوضحت الوصية أنه كان من الممكن لهم أن "ينالوا المزيد لو لم يجلبوا على التهم غير المناسبة وغير الضرورية، وأز عجونى عدة مرات ". ولكن الاتهامات بدأت فى شتاء سنة ١٦٩٢ م الرهيب، أى قبل ثلاث سنوات من " الضربة القاضية" التى حفزت البوتمان ضد البورترز. والواقع أن الأزمة والفضيحة التى أعقبت ذلك وضعت الطائفتين إحداهما ضد الأخرى على نحو لم تكن المشاجرات السابقة تعرفه. وثمة تفسير قوى ومؤثر وجد طريقه إلى كل كتاب دراسي يستعرض التاريخ الأمريكي الباكر، مما يعد مثالا على وضع

وفى المغالطة المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه، يكون لدينا جميعا ميزة البصيرة النافذة بعد اكتمال الحقيقة. لأننا نستطيع أن نعرف ما

الذى كان سيحدث [لأنه حدث بالفعل]، والعبارة الدالة على هذه المغالطة المنطقية هى " لقد قلت ذلك " فالعرافون القدامى الذين كانوا يتكلمون بألغاز مبهمة يستحيل فهمها، والفلكيون فى الصحف الحديثة الذين تكون تنبؤاتهم غاية فى العمومية، والأوراق الصغيرة التى تخبرك عن حظك فى لفافات الشيكو لاتة والكعك، كلهم يتعمدون الغموض البالغ بحيث يمكنهم الاستفادة من المغالطة المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه. وفى الأساطير الإغريقية أخبرت العرافة كاساندرا الطرواديين بما سيحدث لهم فى الحرب مع الإغريق، ولكن أحدا لم يستمع لها. وإذا ما أخذنا نحذر الجميع من كل شيء سيحدث، فإننى واثق من أننا سنكون على حق بعض الوقت، وأن الناس سوف يتجنبوننا طوال الوقت.

إن فهم الحدث بعد وقوعه ليس تفسيرا سببيا. إنه مجرد إعادة حكاية ما حدث فعلا بحيث نصدر حكمنا على المخطئ بعد اكتمال الحدث، ونحكم على ما كان يمكن أن يحدث. ولماذا ينبغى أن نحول دون وقوعه ثانية. وتقرير لجنة ١١/ ٩ الخاص بالهجوم على مركز التجارة العالمي والبنتاجون حافل بالمغالطات المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه. بل إن من كتبوه خذروا من مغالطة الفهم بعد وقوع الحدث على حين كانوا يطبقونه بالفعل، ففي المغالطة المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه، أمكن رؤية ففي المغالطة المنطقية القائمة على فهم الحدث بعد وقوعه، أمكن رؤية بكفاءة. وارتكبت الإدارة الأخطاء. وقامت اللجنة بالانتقاء من بين العديد من شذرات المعلومات والتقديرات المتاحة وقتها، ووضعتها سويا لتصير إنذارا بما كان قد حدث فعلا، ومن هذا كله خلقت لجنة التحقيق سردا سببيا سليما لا يمكن الطعن في صحته. بيد أن النظر إلى تلك الأيام بأثر رجعي من منظور سنة ٢٠٠٣ م، ورفع هذه التهديدات الواهية إلى مستوى السببية من بين كل سنة وي الفاعلة الأخرى، ليس من المنهج التاريخي في شيء.

معنى هذا، أن الفهم بعد وقوع الحدث يمكن أن يقدم للمؤرخ نتائج مفيدة. إذ يشرح عالم الاجتماع الشهير مالكولم جلادويل في The Tipping Point كيف أن "التغيير يحدث غالبا بسرعة وبشكل غير متوقع ". وإذ يحكى جلادويل عن سلسلة من در اسات الحالة عن الأوبئة وما يشابهها، يشير إلى أن " الأمور يمكن أن تحدث في الحال، كما أن تغييرات صغيرة يمكن أن تحدث فروقا هائلة ". وتأتى نقطة الانقلاب – أي التغير الكبير – عندما تكون هناك تغييرات صغيرة قد وقعت بما يكفي لقلب الموازين وتؤذن بتغيير كبير. " إنها نقطة الغليان، إنها اللحظة التي يبدأ فيها الخط انطلاقه بشكل مستقيم صاعدا في الرسم اليباني ".

والحقيقة، أنه لا أحد يعرف في وقت كهذا متى، أو كم، من هذه التغييرات الصغيرة يلزم لإحداث التغيير الكبير، ولا حتى جلادويل قدم بالفعل تفسيرات سببية بالمعنى التقليدي، فهو ببساطة يحكى قصصا عن سلسلة من التغيرات الكبرى ويلاحظ تراكم التغيرات الصغيرة التى سبقتها، والفهم بعد وقوع الحدث ليس تحليلا سببيا، يربط الاثنين معا، وعلى الرغم من أنه مثال على الفهم بعد وقوع الحدث، فإن " نقطه الانقلاب " عامل مساعد على الكشف، وسيلة تعليمية لها بعض الجدة والجدارة، لأنها تبين أن الأحداث الكبيرة يمكن أن تهبط علينا ونحن في غفلة.

وهناك صيغة مفيدة أخرى من المغالطة المنطقية القائمة على الفهم بعد وقوع الحدث تتمثل في موضوع " تغير المثال "، فعلى امتداد فترة من الزمن كانت هذه العبارة أكثر العبارات الشائعة في الكتابة التريخية سخونة، فقد اقترح مؤرخ العلوم توماس كوهين سنة ١٩٦٠م أن يفسر كيف أن نموذج كوبرنيكوس عن النظام الشمسي (الذي تكون الشمس مركزه) قد حل محل النموذج البطليموسي (الذي تكون الأرض مركزه)، مجادلا بأن كوبرنيكوس

كان قد أسهم في تغير المثال، إذ كان المزيد والمزيد من الملاحظات الفلكية قد تراكمت بحيث لم تعد متماشية مع النظام الذي وضعه بطليموس، وقد تشبث الفلكيون بها، وعقدوها باطراد بحيث تناسب معلوماتهم، وفي الوقت الذي بدأ فيه كوبرنيكوس يفكر في النظام الشمسي كان وزن الملاحظات قد بات أثقل من أن يتحمله النظام القديم، فقد كان الوقت مواتيا لنظام جديد يستوعب الملاحظات الجديدة، فهل تسبب تراكم الأدلة المناقضة على هذا النحو في اكتساح نظام كوبرنيكوس القائل بأن الكواكب تدور في مداراتها حول الشمس للنظام المنافس؟ وهل كان من المحتمل سحق نظرية كوبرنيكوس؟ إن " تغير المثال "يصف ما حدث ولكنه لا يفسره، فلم يتسبب وزن الأدلة الجديدة في طي النظام القديم – ولكن دراسة كوبرنيكوس هي وزن الأدلة الجديدة في طي النظام القديم – ولكن دراسة كوبرنيكوس هي عنم النها قيمة " تغير المثال " في أنه يذكر المؤرخين بأن الخلي يضعوا في تقدير هم السبب في عدم استعداد المؤرخين القدامي للتخلي عن الأفكار السائدة منذ زمن طويل، حتى مع وجود الكثير من الأدلة الجديدة المناقضة.

وتشبه المغالطة المنطقية بالوهم المتجمع المغالطة المنطقية القائمة على الفهم بعد وقوع الحدث، ففى العالم الحقيقي، قد تكون أية كمية من المعلومات، أو نقطة واحدة منها، جزءا من النموذج، وقد لا تكون كذلك. ويغامر الذين يدرسون حالات تفشى المرض بإساءة عرض السبب حين تتجمع حالات بالقرب من بيئة تثير الشكوك والقلق، ولا يبرهن تجاور حالات المرض المتجمعة مع البيئة المثيرة للشكوك على أن البيئة تسبب الأمراض. وقد حدث في أثناء الحمى الصفراء المرعبة التي ضربت فيلادلفيا في تسعينيات القرن الثامن عشر، أن نقل الأطباء الناس من مناطق المدينة تسعينيات القرن الثامن عشر، أن نقل الأطباء الناس بالمرض فرعم المنخفضة وعالجوهم بأدوية تسبب القيء. ولم يصب الناس بالمرض فرعم

الأطباء أن هذه الأدوية كانت فعالة فى العلاج، والحقيقة أن المرض كان عبارة عن فيروس ينتقل عن طريق لدغة الناموس. وكان نقل الناس من منطقة المستنقعات الغاصة بالناموس على ضفاف نهرى ديلاوير وشويكل هو الذى أنقذهم وليست الأدوية المسببة للقىء، ولا نستطيع أن نفترض مجرد افتراض أن المعلومات تبرهن على شىء حتى نكتشف كيف حدث ما حدث، بصرف النظر عن المعلومات المتجمعة. إن علاقة الارتباط تجمع بين شيئين ليست تفسيرا سببيا.

ونادرا ما تكون للنبوءة المتحققة بذاتها الجدارة بسبب ما هي عليه مجادلة حول السببية. لقد تم سك المصطلح سنة ١٩٩٤ م على يد عالم الاجتماع روبرت ميرتون، بيد أن الظاهرة قديمة قدم علم المنفس البشري، وكان ميرتون أحد عمالقة علم الاجتماع في زمانه ولكنه اليوم غائب في عالم النسيان إلى حد كبير، ففي بعض الأحيان لا يعطى التاريخ لأصحاب العقول العظيمة ما يستحقونه من تقدير، لقد طرح مفاهيم مناهج الدور ونظرية الدور، وجماعات البؤرة، وقادة الرأي، ويمكن أن نجد بصماته على كل ممارسات البحث الاجتماعي وعلم النفس الاجتماعي الحديثة.

وفى النبوءة المتحققة بذاتها نعرف ما سوف يحدث، ويحدث بالفعل، ليس لأن المجادلة السببية التى تربط السابق باللاحق صحيحة، ولكن لأن التنبؤ يتدخل لأنه سبب نفسه. فهناك أنواع مختلفة من العلاج عن طريق التطعيم، وربما تنفع هذه الطريقة. ومن المفروض أنها تخفف الأعسراض، ولأننا نثق فى كفاءتها، فإننا نتحسن بالفعل. هذه العملية نفسها تدخل ضمن إطار " إعطاء الدواء إرضاء للمريض "، حيث يقال للمرضى فى تجربة محكومة إنهم يتناولون دواء تجريبيا، وهو فى الحقيقة ليس سوى أقراص من السكر. ويشفى المرضى بسبب النبوءة المتحققة بذاتها، وليس لأى سبب

ظاهر آخر. وربما تنجح التعويذة وغيرها من الشعوذات بالطريقة نفسها. ولأن الضحية يؤمن بفعالية اللعنة [في التعويذة]، تظهر أعراض القلق والحث الذاتي أو "النفسي - الجسدي"، لتجلب الشرور الموعودة.

وعلم النفس واضح – فنحن نعيش أعلى من توقعات الآخرين أو دونها – ولكن النبوءة المتحققة بذاتها مجادلة تاريخية فقيرة فى حد ذاتها لأن الأثر الذى حدث، قد حدث بسبب التنبؤ به. يقول لك مدرس غاضب: "سوف تكون سيئا مثل أخيك تماما عندما تكبر "، ويحدث هذا. فالتنبؤ الذى يفترض أنه قائم على مقارنة صحيحة، هو فى الواقع سبب الحدث اللاحق. ومع انهيار شعورنا بجدارتنا، نقرر أننا لسنا أفضل من أخينا ونترك الإغواء يتغلب على إحساسنا بالصواب والخطأ. ويمكن للنبوءة المتحققة بذاتها أن تعمل بالطريقة الأخرى. ففى سلسلة من التجارب، أخبر المدرسون بعض التلاميذ من المستوى المتوسط فى أحد الفصول أنه تم اختيار هم لذلك الفصل لأن لديهم موهبة أو قدرة خاصة. وتحسنت درجاتهم بشكل ملحوظ لأنهم ارتقوا إلى مستوى موقعهم المتقدم. ويمكن للنوع نفسه من النبوءة أن يحسن أداء المدرسين. فإذا ما قال لهم المشرفون إن الاختيار قد وقع عليهم لقيادة فصل من التلاميذ ذوى المواهب الخاصة فسوف يستمتع المدرسون بالتدريس لهذا الفصل أكثر من الفصول الأخرى ويرتقون بأدائهم فى الفصل (ويجب لهذا الفصل أكثر من الفصول الأخرى قد شككت فى هذه النتائج).

فى المغالطة المنطقية القائمة على السبب الزائف، نخطئ حين نخلط بين العذر والسبب، أو بين الدافع والسبب، إن عبارة مثل "لقد جعلنى صديقى أذهب إلى السينما بدلا من أن أنجز الواجب المدرسى "يمكن أن تكون عذرا أكثر منها سببا. وعبارة "ليس لدى خيار " غالبا ما تغطى الدافع وتحجب. القصد أو الخطة وراء السبب الزائف. فالدافع شكل من أشكال

السببية ولكن لابد من البرهنة عليه. وفي الغالب الأعم يفترض المؤرخون ببساطة أن جماعات المصالح التي رأوها تعمل في أحد الأحداث كانت تعكس أهداف الشخصيات التاريخية الفردية. ويصير الشخص الحقيقي كاركاتيرا عقلانيا لكائن بشري، يعمل بفراسة ومنطق ممتاز. والحقيقة أن فهم المؤرخين للأحداث بعد وقوعها هو الذي طرح هذا المنطق، لأننا غالبا ما نعرف أكثر كثيرا مما كان الناس يعرفونه في الماضي.

وقد ينشأ السبب الزائف عن أخطاء في " اللغة المنظمة للكون ". وربما يضع المؤرخون الدافع للأمم، والجيوش، والثقافات، وغيرها من الأشياء العامة، أو الأشياء غير الحية. فللناس دوافعهم: أما الأوطان فلا. وكانت " اليقظة الكبرى" إحياء دينيا استشرى في جميع أنحاء المستعمرات الأمريكية، خاصة في نيو إنجلند، في القرن الثامن عشر، وكان المبشرون الكثيرون، ومن تتصروا على أيديهم، يتشاركون في دوافع بعينها تسببت في أن يتصرفوا على النحو الذي تصرفوا به. ولكن الحديث عن " عقلية نيوإنجلند "التي كانت تعمل، يعنى أن نقدم دافعا واحدا على حين توجد هناك دوافع كثيرة.

وعندما لا نستطيع أن نفهم ما جعل موضوعاتنا تتصرف على النحو الذى تصرفت به، فإننا غالبا ما نقدم دافعا من مخزوننا الخاص من الأسباب، ووراء هذا الموضوع المحتمل، وإن لم يبرهن على أن الدافع الإنساني لم يتغير تغييرا حقيقيا على الإطلاق (وأظن أن هذا لا يمكن البرهنة عليه)، لأن الطبيعة البشرية مستمرة ومتسقة، وقد تناول ديفيد هيوم هذا السؤال في كتاب (Treatise of Human Nature 1639) بقوله: "يجب علينا... أن نجمع تجاربنا في هذا العلم من الملاحظة الواعية للحياة الإنسانية، ونأخذها كما تظهر في المسار العام للعالم، بسلوك الناس برفقة بعضهم البعض، وفي أوقات متعتهم ". وقد كشف هيوم (وأظن أنها لم تكن مفاجأة،

و لا ينبغى أن تكون مفاجأة لنا) أن الطبيعة الإنسانية كانت هى حقا العادات والقيم والمثل وأنها كانت تختلف من زمان إلى زمان آخر، ومن مكان إلى مكان غيره، أما أفكارنا، بما فيها أفكارنا عن أنفسنا، فهى " مستمدة باستمرار من تتابع أشياء قابلة للتغيير، و لا يمكن أبدا أن تكون قد انتقلت إلى العقل بواسطة شيء جامد لا يقبل التغيير ".

الإحصائيات والسببية

يعتمد بعض المؤرخين، وغالبا ما يطلق عليهم أولئك الذين يرفضون أعمالهم اسم " الكوميون "، على الأرقام للبرهنة على صحة مجادلاتهم. والمجادلة الإحصائية إن هي إلا مجرد شكل آخر من البيان السببي. إذ يعرف المؤرخ، أو يجب أن يعرف، أن الأرقام لا تتحدث بنفسها مثلما لا تتحدث الوثيقة عن نفسها، فالداول والرسوم البيانية وغيرها من ملخصات الأرقام، يتم جمعها وترتيبها وعرضها وفقا لاختيار المؤرخ.

والأرقام والتحليل الإحصائى للأرقام مثل الحقائق فى السرد، حيث يتم اختيار الأدلة وتقديمها لإقناعنا، وحسبما كتب عالما الاقتصاد روبرت فوجل وسنانلى أنجيرمان فى المجلد الثانى من دراستهما التى تقع فى مجلدين عن الرق الأمريكي: "عندما كانت الأدلة الصلبة غائبة عن موضوعات حيوية لتفسير الرق، فإننا مضطرين إلى التخمين، مثل المؤرخين الذين سبقونا ". ولكن " باستغلال ميزة العمل الكمى الممتد الذى قام به مؤرخو المنهج الكمى صرنا قادرين على التقليل من عدد الموضوعات التى كان التخمين فيها هو الخيار الوحيد المتاح تقريبا ". وقد كسب كتابهما 1974 Time on the Gross المنافق أن الخيار على المنافق أن فوجل وانجيرمان كانا قد اكتشفا أن العبيد، عامة، كانوا يأكلون ويسكنون بشكل أفضل من فقراء المدن، وأن

تجارة الرق كانت مربحة وكانت آخذة فى النوسع أيضا، وأن مزارع الجنوب التى كان العبيد يعملون بها كان أكفأ اقتصاديا من مــزارع العـــائلات فـــى الشمال، وأن معظم الجنوبيين لم يكونوا يستولدون العبيد، و لا كانوا يريــدون التفرقة بين أفراد عائلات العبيد بالبيع أو بالهبة.

وينبغى أن أضيف إلى هذا أن الصيحة التى أطلقها كل من المؤرخين الاقتصاديين والاجتماعيين للرق عن اكتشافاتهم - خاصة باستخدام الأرقام - قد هزت المهنة على مدى عدة سنوات، إذ كان المحتجون يتقابلون في مجموعات ويتحدثون في لقاءات مهنية. وقد نشر بول دافيد، وبيتر تيمين، وريتشارد سوتش، وهربرت جوتمان مجموعة من المقالات بعنوان وريتشارد سوتش، وهربرت خوتمان مجموعة من المقالات بعنوان الاستتاجات الإحصائية، التى كان فوجل وأنجيرمان قد توصلا إليها. فقد الستتاجات الإحصائية، التى كان فوجل وأنجيرمان قد توصلا إليها. فقد استنتج جوتمان وسوتش أن أهم إسهامات فوجل وانجيرمان تتمثل في البرهنة على " فشل المناهج الكلية في تقديم الأدلة التاريخية عندما تنفصل عن المناهج الكلية في تقديم الأدلة التاريخية عندما تنفصل عن درس الأسرة بين العبيد، في دراسة منفصلة، عددا من الأسئلة النفسية والأخلاقية على السواء. مثلا، حتى لو كان الجلد بالسياط غير شائع تماما؛ ماذا كان تأثير السلطة المطلقة التي يتمتع بها السيد في استخدام العقاب البدني على العد؟.

وأخيرا، كان تفسير الإحصاءات، وليست الإحصاءات نفسها، هو المهم. هل كانت الزيادة الطفيفة في عدد المواليد بين العبيد في بعض المزارع دليلا على الرغبة في استيلادهم؟ وعدد العائلات التي تفسخت نتيجة لتجارة الرقيق، أو هجرة العبيد من الشرق إلى الغرب، هل كانت تكفي لاستناج أن الرق قد مزق أوصال العائلات؟ وهل كانت الاستدلالات

مضمونة؟ لقد أجاب فوجل وأنجيرمان، في تبادل للآراء في إصدارات المضمونة؟ لقد أجاب فوجل وأنجيرمان، في تبادل للآراء في إصدارات ١٩٨٠ من دورية المسات (واضحا الآن " أن الجنوب قبل الحرب " يكن جامدا من الناحية الاقتصادية " وأن "الزراعة الحرة "كانت أقل ربحا، وأدني كفاءة من تجارة الرقيق.

وفى كتاب لاحق استمر فوجل فى دفاعه عن المنهج والمادة: "إن اكتشاف أن العبيد كانوا عمالا أكفاء طوروا حياة عائلية أكثر قوة، واكتسبوا المزيد من المهارات المهنية المتنوعة، وثقافة أشد تمايزا وثراء مما كان معترفا به من قبل، قد خلق معضلة معذبة... فهل سلبت الاكتشافات من السود تاريخهم فى مقاومة الرق وألقت بهم فى دور المتعاونين فى اضطهادهم هم أنفسهم، بدلا من ذلك؟ "أسئلة مشحونة كلها، وليس من بينها سؤال يجعلنا نشك فى أنه يستدعى إجابة إحصائية محددة. والمشكلة الحقيقية فى الرق لم تكن فى أنه يستدعى إجابة أحصائية محددة. والمشكلة الحقيقية أنه الرق لم تكن فى أنه يستدى أن تمارس سيادة شخصية مطلقة على مجموعة أخرى من البشر أن تمارس سيادة شخصية مطلقة على مجموعة أخرى من البشر "

وحتى لو استنتج المرء أن مناهج فوجل وأنجيرمان قد صمدت في مواجهة الهجوم الذى شنه ناقدوهم، فهناك فخاخ وشراك معدة وتتربص بكل من يظن أن الأرقام تتحدث عن نفسها. وهناك مخاطر ثلاثة مماثلة هي: المغالطة المنطقية الخاصة بأتلانتيك سيتى، والمغالطة المنطقية الإحصائية أو المغالطة المنطقية النكوصية، والعينة غير الممثلة.

وهناك مقامر قضى يومه فى اللعب بألعاب الحظ فى أتلانتيك سيتى. وهو يظن أن حظه كان سيئا. إذ كان يخسر بصورة ثابتة. ولكنه استمر في اللعب وهو مقتنع بأن حظه لابد أن يتغير. وعلى أية حال، لابد أن يتغير وهذا مؤكد من الناحية الإحصائية أليس كذلك؟

كلام فارغ. خذ عملة واقذفها فى الهواء منقلبة. وتسقط على الوجه الذى يحمل الصورة عشر مرات فى الدورة. وهو الأمر غير المحتمل من الناحية الإحصائية. فما مدى احتمال سقوطها على ناحية الكتابة فى الدورة الحادية عشرة؟ الإجابة أنها مرة من كل مرتين. وما دام أن كل رمية مستقلة عن المرات السابقة عليها، فإن الحظ لا يتغير فى كل رمية. والأن ربما يتغير حظ المقامر، ولكن مكاسبه، مثل خسائره، ليس لها نموذج منطقى عدا نموذج الاحتمالية الخالصة، وكلما طال وقت اللعب، أفرزت تلك الاحتمالات خياراتها المفضلة.

إنها تبدو مثل مشكلة بالنسبة للمقامرين المرغمين، ولكن هذا النوع من التفكير حول أحداث الماضى والمستقبل يمكن أن يكون له تأثير مخرب على حياتنا كلها. وغالبا ما تكون الأفعال اليائسة وليدة الإيمان بأن حظ المرء لابد أن يتغير أكثر منها نتيجة انعدام الأمل وشيوع اليأس. فنحن "نرمى الزهر" على أمل أن يحالفنا الحظ لأننا لم نكسب بعد. فقد كانت بنية القوات في فيتنام خلال الفترة من سنة ١٩٦٤م إلى ١٩٦٦م مثل رمية الزهر. إذ كانت كل إضافة كبيرة من الرجال العسكريين لا ينتج عنها أي تحسن في الموقف هناك، ولكن الرئيس جونسون ومستشاريه العسكريين، قد وقعوا المغالطة المنطقية التي يقع فيها المقامر، إذ كانوا يقامرون بأن زيادة أخرى في القوات المنطقية التي يقع فيها المقامر، إذ كانوا يقامرون بأن زيادة أخرى في القوات والصيف سنة ٢٠٠٧م كان مقامرة مماثلة، ومن المؤكد أن الحظ كان مواتيا للقوات الأمريكية هذه المرة.

ومن الإنصاف، أن المدافعين عن حرب فيتنام آنذاك والآن يجادلون بأننا كسبنا الحرب، أو كنا سنكسبها، في ميدان القتال بسبب تركيز القوات،

ولكننا خسرناها في الوطن بسبب الافتقار إلى الإرادة السياسية. ولو كان ذلك صحيحا، فيمكن اعتبار هذه الحالة مغالطة منطقية قائمة على الفهم بعد وقوع الحدث. ولكن إذا كانت المقدمة المنطقية صحيحة – أى إذا لم يكن هناك تحسن حقيقى في الموقف السياسي بفيتنام – يكون الدفع بمزيد من القوات مثالا على المغالطة المنطقية للمقامر. وعلى رأى المثل، لا يجب على المرء أن ينفق النقود الجيدة على الشيء السيئ. أو، على حد تعبير كيني روجرز: "عليك أن تعرف متى تطويها، ومتى تنصرف، ومتى تجرى". والموضوع كله ينطبق، بطبيعة الحال، على المقامرة أيضا.

ونقيض البيان الزائف زائف بالمثل، أنت على الخط السرابح. وأنست تغوص نحو الأعمق باطراد. ولا يمكن أن تخسر لأن حظك جيد. تلك كانت الطريقة التي تم بها حماية الاقتصاد الأمريكي أو اخسر تسمعينيات القسرن العشرين – فالجميع يستثمرون في السندات الإلكترونية، غيسر ملتفتين للأصوات التي قالت إن كثيرا من الشركات الإلكترونية البادئة تبيع الأشياء نفسها. ولا يمكن أن تكون كلها مربحة. بيد أنه لم يكن هناك أحد يستمع لأن الجميع كانوا على خطرابح لا يمكن أن ينتهى. وكلما غاص المستثمرون في السوق أكثر، طبعا، ارتفعت أسعار سندات الشركات منعدمة القيمة أصلا حتى ينتهى بها الأمر إلى العكس. وعندها تداعت خطط المعاشات واختفت مدخرات العمر في هوة بلا قرار.

فى بعض الأحيان يكون المؤرخون ضحايا الفخاخ التى ينصبها اللامنطق للمقامرين. وأنا أعرف مؤرخين قضوا حياتهم المهنية يطاردون تلك الوثيقة الواحدة التى تبدو دائما وكأنها اختفت عند الركن التالى، أو أمضوا عمرهم المهنى وهم يوسعون الدراسة التى يقومون بها خارج نطاقها، وهم على يقين من أن أعمالهم الشاقة كلها لابد أن تأتى بنتيجة – كتاب يفوز

بجائزة، أو وظيفة فى واحدة من مدارس القمة، أو الزمالة التى سعوا إليها زمنا طويلا - إذا ما تابروا فقط. والمتابرة عند الباحث فضيلة، ولكن المقامرة بعمل العمر مأساة.

والمغالطة المنطقية التى تقوم على النكوص أشد تعقيدا من المغالطة المنطقية عند المقامر، ولكنها تنبع من نوع الخطأ نفسه. فهى تنطبق على توزيع الخصائص فيما بين الناس أو الأشياء. وتفترض أن ما هو حقيقى فى العادى أو فى الحالة (أكثر نمط شائع) يصدق على كل الناس، أوعلى كل شيء آخر فى العينة. وفى صدام يعتبر الآن أسطورة بين المؤرخين الدنين لعبوا دور الخبراء الشهود بين طرفين فى قضية قانونية، كان على شركة لعبوا دور الخبراء الشهود بين طرفين فى قضية قانونية، كان على شركة الترقى إلى الوظائف ذات الراتب الأعلى، ضد لجنة تكافؤ الفرص فى التوظيف (EEOC). وجاءت إلى ساحة المحكمة الإحصائيات، والسببية، والتاريخ، جاءوا جميعا.

وأراد قاضى الناحية أن يعرف ما إذا كانت النساء تسردن وظاف بالعمولة. وكان رأيه بمثابة حكم على استخدام الإحصائيات (التى اكتشف أنها ضعيفة) بقدر ما حكم على قدرة الشركة المتهمة: "ثمة مفهوم يجب أن نحمله فى ذهننا عند تقييم أى تحليل إحصائى مؤداه أن لا تحليلا إحصائيا يمكن أن يبرهن على السببية بحد ذاته ". وكانت شهادة الخبيرة لحسالح الشركة، وهى المؤرخة روزاليند روزنبرج، قد بينت أن النساء فى قسم العمل بالتجزئة ،عموما، كن يفضلن أن يعملن ساعات أقل بحيث يستطعن قضاء وقت أطول مع عائلاتهن. ولخص القاضى ما وجدته روزاليند بقوله: " إن الفروق بين الرجال والنساء قد تلاشت فى العقدين المنصرمين، ولكن هذه الفروق ما تزال موجودة وربما تحسب وفقا للنسب المختلفة من الرجال

والنساء في مختلف الوظائف... والفروق بين أعداد الرجال والنساء في وظيفة ما يمكن أن توجد بدون تفرقة بينهما من جانب صاحب العما "وكانت المؤرخة آليس كيسلر - هاريس قد جادلت دونما نجاح، دفاعا عن لجنة تكافؤ الفرص في التوظيف بأن التفرقة الكبيرة بين أعداد الرجال والنساء في عمولات البيع بشركة سيزر " لا يمكن تفسيرها سوى بالتفرقة بين الجنسين من جانب صاحب العمل ". وجاء الحكم لصالح الشركة المتهمة.

والخبراء الشهود الذين يشهدون حول الإحصاءات يوجدون يوميا في محاكمنا ولكن هذا الاشتباك بين المؤرخين كان مختلفا. ففي حركة مفاجئة ردت روزنبرج على شهادة كيسلر – هاريس باقتباس من كتاب سابق لكيسلر – هاريس نفسها، وزعمها بأنها وجدت أن النساء أردن الانتظام الذي كانت توفره الوظائف التي لا ترتبط بالعمولة وفي مصطلحات قانونية فنية، فندت روزنبرج شهادة كيسلر – هاريس لصالح شركة سيرز بأن أوضحت كيف أنها ناقضت دراستها العلمية السابقة.

وهناك درسان فى هذه الحكاية. أولهما، أن قاضى محكمة الجهة الفيدرالية، عندما أخذ بكلم روزنبرج بدلا من كيسلر – هاريس، كان قد التزم بالمغالطة المنطقية القائمة على النكوص. فحتى لو لم تكن غالبية النساء تردن وظائف عمولات البيع، فإن هذا لم يكن يعنى أن جميع النسوة كن يشعرن هذا الشعور، والسياسة التى تنكر على أى فرد أن يريد ما يحتمل ألا تريده الأغلبية، هى سياسة تفرقة. وإذ أنكرت شركة سيرز على جميع النسوة فرصة الترقى، كان لابد لها أن تخسر القضية.

والدرس الثاني يخص مهنة التاريخ. فقد عرضت كل من روزنبــرج وكيسلر – هاريس أعمالهما على قارعــة الطريــق علـــى غــرار مــؤلفي Time on the Cross حوارية بالتليفزيون. وتسببت القضية في إحداث موجات واضطرابات في برامج حوارية بالتليفزيون. وتسببت القضية في إحداث موجات واضطرابات في أوساط المهنة أيضا. ووفقا لكيسلر – هاريس، لم تلعب روزنبرج بنزاهة: "لقد كتبت تلك الكلمات بالفعل، وتم اقتباسها بشكل صحيح، ولكنها تصف الإيديولوجية النسوية التي ظهرت في الولايات المتحدة في السنوات السابقة على الحرب الأهلية. فلماذا إذن تستخدمها كما لو كانت توضح رؤيتي ومفاهيمي عن النساء في سبعينيات القرن العشرين؟ " إن اللعب في ساحة المحكمة لم يكن لعبا نزيها في المجال الأكاديمي. أم تراه كان كذلك؟

إن الضرر الملازم بالنسبة لروزنبرج جاء في شكل قذف مكثف من النقد لها ولأساليبها من جانب بعض الباحثات. وتولت أخريات مهمة الدفاع عنها. وحسبما أورد توماس هاسكيل وسانفورد ليفينسون في مقالة لهما بمجلة عنها. وحسبما أورد توماس هاسكيل وسانفورد ليفينسون في مقالة لهما بمجلة اللي " تزاع أكاديمي مرير وغير معتاد قسم مجال تاريخ النساء على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات ". وقد أكد هاسكيل وليفينسون على أن " عنف النقد الموجه ضد روزنبرج يثير أسئلة إشكالية عن الحرية الأكاديمية في ضوء العواقب الناجمة عن الانقسام السياسي داخل مجتمع الباحثين ". وإذا ما نظرنا إلى المسألة بقدرمن الموضوعية، لوجدنا أن الاستنتاجات التي استطاع المرء أن يخرج بها من الإحصائيات أن قضية OECC كانت قصية إحصائية خالصة. وبدلا من ذلك، صارت المسألة بين المؤرخين على الأقصل مسألة الديولوجيا وولاء جماعات المصالح.

وبدون الانحياز إلى جانب أحد فى هذه المسألة يجب أن يكون واضحا لجميع الفرقاء أن عرض الإحصاءات عمن يكسب وعمن يخسر (ولسوف يسمى خبراء قانون التمييز هذه "دراسة التباين ") لا يحل بحد ذاته محل

الجدل السببى السليم. ذلك أن المناهج، إذا ما تم إعمالها بشكل سليم، تتيح فقط للمؤرخ (أو للقاضى) أن يرى نماذج الأدلة التي قد تتطلب تفسيرات سببية.

وتتطابق المغالطة المنطقية بالنكوص مع مغالطات منطقية سببية أخرى عندما نخطئ بتوزيع حدث ما أو سمة ما على المجموعة كلها بسبب علاقة داخلية بينها، ففي الطب، قد يجد الأطباء أن معظم المرضى الذين يخضعون لنظام علاجي معين يتحسنون، وافتراض أن النظام العلاجي كان مفيدا لكل واحد منهم مثال على المغالطة المنطقية بالنكوص، لأننا سنجد بعض الناس كانوا يتحسنون من تلقاء أنفسهم بدون التدخل العلاجي، وآخرين قد يتحسنون على الرغم من العلاج، ولا يمكن للباحث الطبي أن يستنتج أن الدواء نفسه كان مفيدا، سوى بإيجاد العلاقة السببية بين العلاج والمرض.

أما المغالطة المنطقية للعينة غير الممثلة فهى شبيهة بالمغالطة المنطقية بالنكوص، ولكنها تنطبق على عينة جزئية من الناس. وتصميم العينة عملية مركبة ومعقدة للغاية. ويستخدمها الخبراء لالتقاط محلف من بين هيئة المحلفين ليكون إلى جانب عميلهم فى المحاكمة. كما تستخدمها الشرطة عندما تقوم بعملية عرض للمشتبه بهم. ويقوم "صندوق الخروج "بعد الانتخابات على أساس تصميم العينة. إذ إن عينة خصائص الجمهور التى تم اختبارها يفترض أن تتماشى مع الخصائص نفسها فى جمهور أكبر عددا، ولذلك فإن المكتشفات القائمة على أساس العينة سوف تفسر، أو تتنبأ، بسلوك المجموعة الأكبر.

ويمكن للعينة غير الممثلة أن تؤدى إلى بعض النتائج المضللة تماما. وتقدم تقارير ألفريد كيتسى عن العادات الجنسية للذكور مثالا على ذلك. وعلى الرغم من أنه لم يستخدم تصميم عينة، وقابل فقط عينة صغيرة من الأمريكيين، فإن نتائجه كانت عينة ممثلة لكل منهم، وتوصل منهم إلى بعض

الاستنتاجات المذهلة. فقد وجد كينسى أن واحدا من بين كل عشرة رجال كان مصابا بالشذوذ الجنسي، وأن واحدا من كل اثنين مارس الزنا، وأن واحدا من كل ستة كان ضحية جنسية لأحد أفراد العائلة أو أنه ارتكب هذه الجريمة ضد أحد أفراد العائلة، وقد اكتشف البحث الحديث أن العينة التى اعتمد عليها (من الرجال والنساء الذين سالهم) كانت تضم مسجونين ومرضى بالمستشفيات أعدادهم أكبر كثيرا من نسبتهم في الجمهور الحقيقي، والحقيقة أنهم كانوا على الأرجح من الشواذ جنسيا، وممن قاموا بخيانات زوجية، ومن كانوا ضحايا إساءة جنسية من جانب أفراد آخرين في العائلة، بنسبة أعلى من نسبتهم في الجمهور كله.

وغالبا ما تأتى المغالطة المنطقية التى تسيء استخدام الأرقام فى شكل مجموعات. وفى بعض الأحيان تتطابق المغالطات المنطقية المتعددة إحداها فوق الأخرى، خاصة فى أيدى بعض من يكتبون التاريخ ولديهم جدول أعمال محدد سلفا. وفى مراجعة حديثة قام بها طالب قانون للقرار الذى اتخذ فى قضية روى ضد وادى، هناك عبارتان توضحان كيف يمكن لمغالطة منطقية إحصائية واحدة أن تؤدى إلى مغالطة منطقية واحدة، أو تدعمها. وقد اقترح الكاتب مجادلتين إحصائيتين، وكل منهما مقنعة إذا ما أخذت بقيمتها الظاهرية، فلماذا يجب أن نجعل الإجهاض صعبا. أولا: انقل عن قضية انضمت إليها ألف امرأة لوضع تقرير موجز" صديق للمحكمة " بأن الإجهاض ترك فيهن جروخا نفسية. وبينما كانت تصريحات النساء مؤثرة الإجهاض عميق فإن المنطق الذى يربطها بمجادلة الكاتب مزج ما بين المغالطة المنطقية القائلة: " بعد هذا، إذن، حدث هذا ".

ومع ما يزيد على مليون حالة إجهاض سنويا فى الولايات المتحدة، هل كانت الألف عينة كبيرة بما يكفى؟ ربما، لو كن تمثلن النساء البالغات أجمع، أو بدلا عن ذلك مجموعة عشوائية تماما من النساء. والحقيقة أنهن كن

مجموعة من النساء اخترن أنفسهن لمعارضة الإجهاض. فهل كانت هذه النسوة، اللاتى انضممن جميعا إلى المذكرة بناء على نصيحة سيئة، أو عانين رعاية متدنية، عينة ممثلة للنساء أم عينة عشوائية؟ تصعب الإجابة.

وقد أضاف الكاتب إلى هذه الغلطة الإحصائية الشنيعة خطاً سببيا. وتمثل هذا الخطأ في التعليل بأثر رجعى للمجادلة: بأن حق الاختيار في الإجهاض (السابقة) ينبغى إلغاوه لأن بعض هذه الاختيارات قد انقلبت إلى اختيارات هزيلة (التالية). ومن الممكن أن تتم المجادلة نفسها بشأن اختيار ما انقلب إلى شيء سيئ – مثل المعاشرة الجنسية نفسها. فهل سيجادل أحد لتحريم ممارسة الجنس لأن بعض العلاقات تحولت فيما بعد إلى علاقات كريهة؟

ومرة أخرى امتزجت مجادلة الطالب المؤلف الثانية بأخطاء إحصائية ومنطقية في السببية. فقد أشار إلى أن الإجهاض القانوني لابد وأن يؤدي إلى زيادة معدلات إساءة الرجال النساء. وكان الأساس الذي بني عليه مجادلت هو الحقيقة القائلة إن عدد الرجال الذين يفضلون الإجهاض القانوني أكبر من عدد النساء. ومع أن هذه حقيقة عددية فإنها بحد ذاتها لا تنطوى على أية علاقة منطقية. بل إنها عرضت المغالطة المنطقية القائمة على النكوص علاقة منطقية. بل إنها عرضت المغالطة المنطقية القائمة على النكوس أو معظمهم، يرغبون في إجبار النساء على الإجهاض؟ إن الأعداد نفسها لا تقدم الإجابة. فهل كان من المحتمل أن بعض الذين حبذوا الإجهاض القانوني من الرجال قد فعلوا هذا بتأثير من النساء اللاتي كن يحبذن الإجهاض المشروع، أو على الرغم من معارضتهم الشخصية للإجهاض؟ وإذا كانت مجادلة المؤلف صحيحة – أن الرجال الذين عارضوا حق الإجهاض لم يكن محتملا أنهم يسيئون معاملة النساء ويجبرونهن على إسقاط حملهن؟ لقد كان الدليل الذي قدم للمحكمة في مسار قضية كاسي ضد مؤسسة الأبوة المخططة المخلطة

سنة ١٩٩٢ م قد أوضح الافتراض المعاكس – أى أن النساء اللاتى كن يسعين إلى الإجهاض كن في بعض الأحيان تحت تهديد الرجال الذين كانوا يطلبون من النساء أن تحملن الأطفال وتلدهن.

وقد تنتج الأخطاء في المجادلات السببية عن إهمال بسيط، أو عن قصد إيديولوجي، فثمة تقدير لمواطن القوة ومواطن الضعف في التفكير السببي يساعدنا على أن نخترق حجاب متحدث يزعم أنه محايد، فعندما اقتربت الحرب الأهلية، بات المفكرون الجنوبيون من أمثال حاكم فرجينيا جورج فيتز هيو أشد تطرفا في امتداح الرق، وأكثر تصميما على التصدي لأولئك الذين يريدون القضاء عليه. وقد زعمت مقالات فيتز المدافعة عن الرق أنها تشرح لماذا كان الرق مسألة جيدة، وهذا التعليل لايصمد أمام الاختبار:

"ينبغى أن نذكر أولئك الذين يستنكرون استعباد الزنوج ويتعاطفون معهم، أن هذا الرق هنا يعفى الزنجى من عبودية أقسى كثيرا فى إفريقيا، أو من الوثنية، وأكل لحوم البشر، وكل رذيلة وجريمة وحشية يمكن أن تنال من كرامته الإنسانية؛ إذ إن الرق يدخله المسيحية، ويمدينه، ويحميه ويدعمه، كما أنه يحكمه على نحو أفضل كثيرا من الحكم الذى يحكم العمال الأحرار في الشمال... إن زنوجنا ليسوا فقط أفضل كثيرا من حيث الراحة الجسدية من العمال الأحرار، وإنما أحوالهم الأخلاقية أفضل أيضا ".

كيف حقق الرق هذا التحول الخير الكريم للأفارقة المتبربرين وجعلهم عمالا ذوى خلق ويتميزون بالطاعة؟ يمكن للمرء أن يجيب بأن السيد – الكريم بصفة عامة، والصارم عند اللزوم، والذى يبدى اهتماما حارا بخدمه على الدوام – كان هو الحلقة المفقودة في سلسلة السببية. وهكذا فإن الرجال أنفسهم الذين وصمهم الداعون إلى إلغاء الرق بأنهم قوادون ولصوص، كانوا

فى الحقيقة هم السبب فى الأرباح الناجمة عن الرق. ولكن فينز هيو طرح جانبا التحليل السببى برمته. ولم يبق سوى المقارنة.

عندما بحذف أحد التقارير السبب، فلا بد أن ينتاب المؤرخ القلق -وبتملكنا جميعا. فإذا كان الرق قاعدة اقتصاد الجنوب، وكان عمل العبيد أساسيا للمحاصيل الرئيسية التي كانت مصدر ربح لكل رجل أبيض من أهل الجنوب، وإذ كان أولئك البيض الجنوبيون أنفسهم قد خشوا عواقب تحرير الملونين الذين يعيشون بينهم، ولم يكن هناك طريق للخروج من المعصصلة، فقد كان الشيء الوحيد الذي يمكن عمله آنذاك الدفاع عن الرق باعتباره الشيء المعقول أكثر من غيره بالنسبة لطبقة الأسياد وللعبيد علي السواء. فهل كان من المؤكد أن ملاك المصانع من أهل الشمال قد فعلوا الشيء نفسه عندما مجدوا فضائل العمل الحر ودفعوا لقوة العمل المهاجرة علوة في الأجر؟ وهل كان من المؤكد أن المضاربين الغربيين في مجال الأراضي قد فعلوا الشيء نفسه عندما تباهوا بأمجاد التوسع صوب الغرب على حين كانوا يضعون علامات المزارع في السهول؟ وهكذا، فإن سبب اتساع انتشار الرق في جميع أنحاء الجنوب وسبب دفاع فيتز هيو عنه، كان الأساس الاقتصادي على الرغم من عدم الإشارة إليه البئة. إن الكتابة التاريخية الجيدة تتطلب تحليلا سببيا. ولكن ليس من السهل دائما تحديد الأسباب، فهناك أيضا حقول ألغام من المغالطات المنطقية، والاختصارات التي تقود إلى سقطات مميتة وفخاخ مكشوفة. وفلسفة التاريخ الصالحة لزماننا يجب أن تكون واعية بذاتها ومدركة للسببية بقوة. ذلك أن الأحداث لا تفسر نفسها بنفسها، ويجب أن نكون حذرين في التأكيد على السهولة المفرطة والاتساق الفائق للسببية. وأخيرا، فنحن بحاجة إلى الحذر والحيطة في التعليل بسبب أو باخر، وأن نعترف بأن الدعائم التي تسند جسرنا الممتد إلى الماضى لم تعد مرئية أكثر من الحلقات السببية التي نكتب عنها في كتاباتنا التاريخية.

أحدنا يكذب

يتجنب كثير من المؤرخين أية إشارة إلى الخيال... على حين أن التاريخ يرحب بأية دعوة لأن يكون "خياليا" ومبدعا "و "خلاقا". كان تقاذف الكلمات كثيرا في كل دوائر المهنة بحيث لا يكاد المرء يلاحظها أو يتأمل مغزاها.

جيرترود هيميلفاب (١٩٩٤م)

التاريخ كذبة نحكيها عن الموتى، حسبما يقول المثل القديم. هذا المثل يحمل بعض الحقيقة، لأن بعض كتب التاريخ عبارة عن دعاية مكشوفة. وإذا أخذنا هذه المخاطر في اعتبارنا، فإن لنا أن ننزعج من تحذير هيميلفاب بشأن الخيط الرفيع الذي يفصل ما بين إعادة البناء التخيلي والاختراع المجرد، فقد تغيرت المادة التاريخية في الطبعات العديدة لدائرة المعارف السوفييتية لأن القادة المتعاقبين للحزب الشيوعي كانوا يحتاجون إلى صيغة مخصوصة للتاريخ تدعم سياساتهم. كما أن كتب التاريخ المدرسية في ألمانيا واليابان بعد الحرب كانت بها فجوات كبيرة في الذاكرة فيما يتعلق بوصف المذابح التي حرت زمن الحرب. أما كتب التاريخ الأمريكي، فإنها حذفت ذكر الرق وجيم جرت زمن الحرب. أما كتب التاريخ الأمريكي، فإنها حذفت ذكر الرق وجيم

كرو، أو قللت من شأن شرور العنصرية إلى أن غيرت حركة الحقوق المدنية من الطريقة التي كنا ندرس التاريخ بها في مدارسنا.

والحقيقة والكذب موجودان في بعض من أكثر القصيص عن جمهوريتنا الباكرة شهرة واقتباسا – مثل الرواية التي رواها المبشر، والمؤلف، وبائع الكتب الجوال، ماسون ويمس، عن الشاب جورج واشنطن وشجرة الكرز. ومن المفترض أن واشنطن قال لأبيه: " إنني لا أستطيع أن أكذب، لقد قطعت شجرة الكرز " والحقيقة أن القصة لم تحدث قط. وقد اخترعها ويمس ليضعها في السيرة التي كتبها عن واشنطن ليوضح للقارئ جوانب شخصية السشاب (ولكي يبيع المزيد من نسخ كتابه). كان ويمس يعرف أنه يكذب بسأن واشنطن، ولكنه كان يظن أن الاصطناع سوف يعلم الأطفال عدم الكذب وهو مثال صالح تماما عن موضوع هذا الفصل. وقد يكون الكذب عقلانيا أو غير منطقي، أو كليهما معا، بيد أنه موضوع لا يمكن تجنبه في أية فلسفة تاريخ لزماننا.

إن التاريخ نفسه محمل بالأكاذيب والكذب. وتتمثل أفضل الأمثلة وأسوئها فيما سمى " الكذبة الكبرى ". و" الكذبة الكبرى " عبارة عن رسالة بسيطة تحمل قدرا من الأهمية المزعومة. وعندما تتكرر مرات ومرات، على الرغم من تكدس الأدلة المضادة، تكون لها قوة لا يمكن الحقيقة أن تفندها ولا تستطيع الأدلة المضادة نفسها أن تدحضها. إذ كان الدكتاتور النازى أدولف هتار أحد أساتذة الكذبة الكبرى، على الأقل لأنه استخدمها بنفسه عندما اتهم أعداءه بأنهم استخدموها. ففي مذكراته، اتهم اليهود بأنهم سببوا في هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (والواقع أن بعض اليهود الألمان لم يؤيدوا الحرب، ولكن غيرهم أيدوها، كما مات آخرون في الخنادق). ومن المزاعم أن اليهود قد أقنعوا جماهير الألمان بقبول الهزيمة:

"كان هذا كله إلهاما من المبدأ القائل بأنه فى الكذبة الكبرى توجد دائما قوة مصداقية معينة – وهو مبدأ صحيح تماما بحد ذاته – لأن الطبقات الدنيا فى الجماهير العريضة فى أية أمة تكون أسهل إفسبادا بسبب طبيعتها العاطفية، ولا يحدث هذا بشكل واع وإرادي؛ وهكذا تكون عقولهم بما فيها من بساطة بدائية أكثر استعدادا للسقوط ضحايا الكذبة الكبرى منهم للوقو فى براثن الكذبة الصغرى؛ لأنهم هم أنفسهم غالبا الذين يطلقون الأكاذيب الصغرى فى الأمور الصغيرة، ولكنهم سيخجلون من اللجوء إلى التزييف والكذب على نطاق واسع، ولن يرد على بالهم قط أن يصطنعوا أكاذيب هائلة، ولن يصدقوا بالتالى أن غيرهم سيكون لديه من الصفاقة ما يجعله يشوش الحقيقة على هذا النحو المفضوح".

كان هذا، حسبما كان هتلر يعرف، وصفا كاملا للأسلوب الذى كان هو ووزير دعايته، جويف جوبلز، من الأساتذة فيه. فقد كانا يقولان الكنبة الكبرى ويصران على أن اليهود كانوا مدانين في هذه الجريمة بالذات. والكذبة الماكرة، إذا رويت بما يكفى من المرات، تصير تزييفا مكتملا للحقيقة.

وليس شرطا أن تكون الكذبة كبيرة جدا بحيث تحدث فرقا في التاريخ. إذ يحكى كتاب بيتر ساجال الموسوم (The Book of the Vice 2007) قصمة كذبة ربما كانت هي التي حسمت نتيجة انتخابات سنة ٢٠٠٤ م: "في موسم انتخابات ٢٠٠٤م أمضى جون كيرى وقتا طويلا وهو يهز وجهه الطويل إلى الأمام وإلى الخلف ببطء، وهو يتعجب كيف يمكن أن يكون هناك إنسان يساوره الشك في حقيقة أنه كان من أبطال حرب فيتنام. فقد كان هناك، لقد حدث ذلك، وكان هناك شهود على ذلك ". ولكن "الناس الذين كذبوا بـشأنه كانوا يلبسون ربطات العنق ويبدون هادئين على شاشة التليغزيـون. كانـت

لديهم نظريات، وهم يتحدثون عن التواريخ والأسماء، وقد أشاروا إلى نقاط عدم الانساق ". كل هذا بينما كان كيرى وشهوده "عاجزين بسبب ساداجتهم: كيف يمكن أن يحدث هذا؟ " لقد تمت إدانة كيرى بسبب نشاطه زمن الحرب بمجموعة من الأكاذيب الصغيرة، وآراء عرضت باعتبارها حقائق، وسوء عرض أخذ مكانه أنذاك في تاريخ الكذب تحت العنوان الصاخب " ركوب الزوارق بسرعة ". ففي بعض الأحيان يمكن لكثرة من الأكاذيب الصغيرة أن تحدث قدرا كبيرا من الضرر يماثل ما تحدثه كذبة كبرى واحدة.

الأكاذيب عن الموتى

على الرغم من الأمثلة المشينة عن الكذب في كتب التاريخ والكذب في التاريخ، فإن الكذب جزء من التاريخ، إننى لا أعنى هذا على سبيل السخرية. وبما أن الكذب كان جزءا من السلوك البشري، وربما كان جزءا جوهريا من السلوك البشرى في واقع الأمر، فإنه موضوع مناسب للدراسة التاريخية. إذ يعلمنا التاريخ أن الأكاذيب والحقائق يتعلق كل منهما بالآخر بطرق معقدة مركبة. فلكي تجد سببا للخروج من كذبة محتملة، يجب أن تعرف شيئا عن الحقيقة فعلا، وفي الوقت نفسه، لكي تنطلي الكذبة – أي استغفالنا – يجب أن ترتدي قناع الحقيقة، ففي الحياة اليومية، لا تكون الإجابات التي نتلقاها أو نعطيها ساذجة وإنما معقدة، فالكذب وقول الحقيقة ليسا نقيضين على نحو ما بظهر.

إن قوالب البناء في روايات المؤرخين هي الحقائق التي نقدمها لقرائنا. فماذا لو كانت هذه الحقائق خاطئة؟ هل يكون ذلك كذبا؟ لقد تعقبت بعض هذه الأسئلة في كتابي الذي يحمل عنوان Past Imperfect. والمجلة التي يعتد بها المؤرخون العاملون في هذا المجال هي Journal of American History.

وتمر كل مقالة بالكثير من الدوائر قبل نشرها. وعملية "التحكيم" بها صارمة، مع وجود ما يصل إلى سبتة محكمين من الخبراء في موضوع المقالة المقدمة إلى المجلة يكتبون تقديرات بعناية عن مدى أصالة المقالة ودقتها. ويختار محرر المجلة المحكمين ويزن أقدارهم، وهو صاحب القرار الأول عن مدى صلاحية المقالة للنشر. وبصفة عامة فإنه يتم نشر مقالة واحدة من بين كل عشر مقالات تقدم المجلة. ومن ثم يفترض المرء أنسه يستطيع أن يثق في صلاحية أية مقالة منشورة بالمجلة. وتفوز أحسن مقالة سنويا بجائزة. وفي سنة ١٩٩٦ م ذهبت الجائزة إلى ميخائيل باليليس مكافأة على قطعة مدهشة من أعمال التحقيق قلبت المعلومات التقليدية عن ملكية البنادق في أمريكا في عصورها الباكرة رأسا على عقب.

كانت مقالة بلليسليس تخطيطا أوليا لكتاب قادم. وكان مدهلا في وضوحه في الجدل: "قبل أن نقبل الحق الفردي في امتلاك البنادق كما جاء في التعديل الثاني للدستور، يجب أن نحدد من هم " الناس " الذين كان لهم حق " الاحتفاظ بالأسلحة وحملها ". هل كانوا يمتلكون البنادق حقا؟ ماذا كان الموقف الشعبي إزاء الأسلحة النارية؟ هل تغيرت مثل هذه المفاهيم على مر الزمن؟ سوف نكتشف أن ملكية البنادق كانت مسألة استثنائية في القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر، حتى في مناطق الحدود، وأن البنادق لـم تصبح متاعا عاما سوى مع عصر التصنيع، وأن ملكية البنادق كانت مركزة في المناطق الحضرية. لقد نمت ثقافة البنادق مع انتشار صناعة البنادق ". ولتدعيم هذا الاستنتاج قدم بلليسليس الدليل المادي والكيفي على السواء. وجاء ولتدعيم هذا الاستنتاج قدم بلليسليس الدليل المادي والكيفي على السواء. وجاء الدليل المادي على أساس البنادق التي تم العثور عليها في عمليات جرد لمحتويات الضياع. لقد كان الإحصاء المتفق عليه حوالي خمسين بالمائة. ووجد بلليسليس أنه كان أقل من خمسة عشر بالمائة.

ويلتزم كثير من المؤرخين الحذر بشأن الأرقام خوفا من إمكانية التلاعب بالأرقام. وقد زادت من هذه المخاوف المجادلات التى ثارت حول Time on the Cross وقضية سيرس. كان باليسليس واثقا من الأعداد التى ترويها قصته. وقد استنتج أنه إذا "كانت هناك مشكلات مرتبطة باستخدام الإحصائيات في التاريخ... ويتفق معظم النقاد المفكرين الذين يعارضون المنهج الكمى على أنه لا يوجد أي بديل حقيقي عن استخدام هذه المسجلات، مع التحذيرات المناسبة. وبدون مثل هذه الجهود في التقدير الكمي، نكون في مواجهة تكرار التأكيدات غير المحققة التي قال بها المؤرخون الآخرون، أو لعبة بدون نقاط في المبارزة بالفقرات المقتبسة - لمصاهاة إشارة أدبية باشارة أدبية أخرى، والأفضل كثيرا أن نضاهي مجموعة كاملة من الوثائق بمجموعة أخرى من المادة المصدرية، مثل سجلات الوصايا والميليشيا. .. وبعبارة أحرى، المسائل الكلية ".

وقد فاز الكتاب الذى أعقب ذلك ؛(Arming America 2000) بجائزة بانكروفت المهيبة ورحب به الباحثون والعلماء البارزون في مراجعاتهم، وكان على مدى فترة من الزمن المرجع الجديد في ملكية البنادق في تاريخ أمريكا الباكر. وكانت الاقتباسات منه على نطاق واسع باعتباره الحجة في قو انين التحكم في حيازة البنادق وقراءة محددة لما ورد في التعديل الثاني عن "الحق في الاحتفاظ بالسلاح وحمله ".

كانت المشكلة الوحيدة أن باليسليس إما أنه لم يكتشف ما زعم أنه اكتشفه - والواقع أنه لم ينظر حتى في المصادر - أو أنه كان قد رأى وزيف ما وجده. ولم يستطع أن يكرره عندما واجه التحدي، أو يكررها حينما وجهت إليه الدعوة من علماء آخرين في المجال وهيئة خاصة كونتها الجامعة التي يعمل بها لإعادة تقييم بحثه. وقد استقال في خزى من منصبه، وحذف

ناشره الكتاب من قائمته. كما أن جامعة كولومبيا ألغت جائزة بانكروفت التبى كانت قد منحت للكتاب.

قبل أن يشرع باليسليس في فحص أوراقه القانونية الصفراء ويبدأ في عمليات التأشير عليها بالعلامات، ليقدم، حسبما قال، البنادق التي وردت في عمليات جرد الضياع، كتب مؤرخ أمريكي آخر ما لابد أن يرفضه معظم المؤرخين اليوم باعتباره منافيا للحقيقة. وكان من أوائل الحاصلين على درجة الدكتوراه من جامعة "جونز هوبكنز" رجلا صارم المحيا عميق الفكر من أهل الجنوب اسمه وودرو ويلسون، وكان عليه أن يواصل حياته العملية باحثا، ومدرسا في جامعة برنستون، وصار رئيسا لها، ثم حاكما لولاية نيو جيرسي، شم أصبح في النهاية رئيسا للولايات المتحدة في ١٩١٢م. لقد كان داعية أخلاقيا ومصلحا تقدميا. وقد يتوقع المرء أنه كان يضفي على تفسيراته التاريخية تلك الموضوعية العلمية غير المنحازة التي يتسم بها المؤرخ المحترف.

في سنة ١٩٠١ م تمت طباعة مجموعة من عشرة مجلدات من الوثائق في تاريخ أمريكا. وكانت مقدمة هذه المجموعة مسحا لمسرح التاريخ الأمريكي الواسع. فعندما جاء الإنجليز إلى أمريكا، كما يقول ويلسون، وجدوا "أن الداخل كان برية شاسعة، تغطيها الغابات المتشابكة ". كان هذا خطأ واقعيا. فقد وجد الإنجليز حدائق هندية وبلدات مسورة بالأشجار، كما وجدوا الغابات والأحراش، وكانت تلك هي المواد الأولية المتاحة أمامهم. واستمر ويلسون يقول إن أمريكا الشمالية كانت برية أربكت بعض الأوربيين، ولكن ذلك لم يدم طويلا. فقد كان الأنجلو سكسون " جنسا مكتملا يتسم بروح المغامرة والصلابة. كانوا رجالا "كان عقلهم المنضبط " و " حصافتهم الراسخة في مجال الأعمال " ممتزجة بـ "أمل خيالي راق "، وهو ما قادهم صوب البحر أولا، ثم " باتجاه موانئ جديدة وأوطان جديدة فـي أمريكا ".

فعلا، كان أوائل هؤلاء المقاولين الأنجلو- سكسون رجال أعمال مرعبين. فقد أفلست مشروعاتهم كلها تقريبا، تاركين الفتات للمستثمرين في بلادهم.

واستمر ويلسون يقول إن " الوحشية البربرية " لرجال القبائل لم تردع الإنجليز؛ لأن الهنود " خافوا الرجل الأبيض وتملكهم منه رعب هائل ". لقد وجدت التقارير الإنجليزية الأولى في الهنود الحمر ما يثير الإعجاب من عدة وجوه ولكن لم توجد أية أدلة على أن الهنود كانوا يخافون الإنجليز وكشفت هذه التقارير أنهم ربما كانوا يحتقرون الإنجليز، ولكنهم لم يكونوا يخافونهم. ويقول ويلسون: " وبخطى ثابتة، ودونما تردد، وبالتقدم الحذق من مستوطنة إلى أخرى ومع عجز الهنود عن الصمود في مواجهة الزحف، تم دفع الهنود إلى داخل الغابات ". والحقيقة أن الهنود كانوا صامدين حتى هبطت الأمراض الوبائية التي جلبها الأوربيون، التى لم يكن للسكان الأصليين من الهنود حصانة ضدها، بأعدادهم بعد أن قضت على نحو • ٩ كمنهم. فهل كانت "حقائق " ويلسون أكاذيب فعلا؟ إن الكذبة تستوجب أن يكون وراءها قصد ما؛ فهل كانت مقدمة ويلسون من أجل تبرير رحيل الأهالى الأصليين وانتصار الجنس الحاكم؟ وإذا كان ذلك كذلك، هل كان ذلك القصد كافيا لإساءة قراءة المصادر الأصلية التي استخدمها هو نفسه؟

بالنسبة للمؤرخ الذي يحاول أن يروى قصة أكبر، في كتاب دراسي مثلا، يكون اختيار الأدلة وترتيبها أمرا ضروريا وحتميا. فنحن لا نـستطيع ببساطة أن نضع كل ما لدينا من معلومات فيما نكتبه، ولو فعلنا ذلك فلن يستطيع أحد أن يفهم ما نقول – إذ إن أوراق الشجر الكثيفة تحول بيننا وبين رؤية الغابة كلها. فليس هناك تأليف مهما كانت المعلومات فيه جيدة، وأيا كان شكله، إلا ويقدم ما لا يزيد على شذرة صغيرة من القصة كلها. والآن إذا كان الكذب ينطوى على ألا نقول شيئا عن شيء ما، فمتى يرقى القرار بحذف الحقائق إلى مستوى الكذب؟

في زمن الحرب الباردة، كان اختيار الحقائق في الكتب الدراسية يسشير إلى الاتجاه نفسه. وكما شرح آلان نيفين، الأستاذ في جامعة كولومبيا، وسستيل كوماجر الأستاذ بكلية آدامز، في كتابهما Pocket History of the United States الداية أن يكتسح الاستيطان القارة من شرقها إلى غربها؛ وأن يتم التغلب على المتوحشين؛ وأن يمر تقدم المدنية بعدة مراحل معلومة"، وفي تلك الأثناء كان لابد أن يكسب التسامح الديني، وتتراجع سلطة المؤسسات الأوربية مثل كنائس الدولة؛ كما كان لابد أن يوجه " الموروث العام " مسن اللغة الإنجليزية والأفكار السياسية الأمة في مسارها الصاعد. وكانت مشل هذه الحقائق مفيدة بصورة مباشرة في الحرب الباردة بالكلمات. فقد كان التاريخ الأمريكي برهانا على أن المادية الجدلية كانت فلسفة تاريخ رديئة. فلم تكن نهاية التاريخ دكتاتورية الاتحاد السوفييتي التي تحوزها البروليتاريا. فهل كان الحذف الواضح من تاريخ أمريكا – ترحيل الهنود، مـثلا، أو الانتهاك الواضح للمعاهدات مع الهنود من جانب المستوطنين وحكـومتهم الانتهاك الواضح للمعاهدات مع الهنود من جانب المستوطنين وحكـومتهم أكانيبا؟

بالنسبة للمؤرخ الذي يحاول إضفاء المعنى على قصصة ما، تكون المشكلة مشكلة تفسير. فإذا كان الكذب تحريفا لرواية تناقض الأدلة، فإنه يجب على المؤرخين الرد على هذا. وليس هناك مثال على هذا أفضل من الطريقة التي أدت بالمؤرخين الجنوبيين إلى تحويل العبيد والعنقاء إلى كبش فداء لمشكلات الجنوب. وهكذا، سمى كلود باورس، سنة ١٩٢٩ م، عملية إعادة البناء " عصرا مأساويا "، وكان يعتقد أن السود قدموا مشهدا " مدهستا "وكاشفا. فقد كان السود مسئولين عن متاعب الجنوب.

حظى كتاب باورس بشعبية طاغية، ولكنه من حيث الدراسة العلمية يتوارى خجلا بالمقارنة مع كتاب بول بوك 1900 -1865 Road to Reunion

الذى نشر سنة ١٩٣٧ م ويتسم بالعاطفية العميقة، وفاز بجائزة بوليتزر. لقد نعى بوك نهاية الحرب الأهلية ومجئ " الحكم الزنجى " الذى مارسه " جنس أدنى " مما جلب على الجنوب " فوضى أشد سوءا من الحرب نفسها، واضطهادا لامثيل له فى التاريخ الأمريكى ". وفى الوقت نفسه، تم التغلب على " نبل تضحيات " محاربى الكونفيدر الية الشجعان بقوة الأعداء وحدها، وكان من رأيه أنه فقط عندما يتم طرد الزنوج والدمى الجمهورية التى تؤازرهم من مكامنهم يمكن أن " يسود السلام والأخوة " بين البيض فى الشمال وفى الجنوب، ومع مرور الزمن، وبموافقة البيض فى المشمال فى النهاية " فإن الجنوب (الذى كان بوك يقصد به الجنوب الأبيض) سوف يتاح له أن يحل " مشكلة الزنوج " بنفسه. ثم سوف يتيح " استقرار العلاقات العنصرية مع الزنوج الفرصة. .. لكى يتخذوا الخطوات الأولى نحو التقدم " من المؤكد أن هذا خطأ، بل إنه خطأ كريه، ولكن هل هذه أكاذيب؟ كلهم كذابون!!

لماذا كتب رجال على هذا القدر من الشرف والتكريم من الذين اقتبست كلامهم على النحو الذى كتبوا به؟ ربما كانوا يؤمنون ببساطة بما كانوا يقولونه. وربما آمنوا أن الكذبة تتقذهم من مواجهة حقيقة غير مستساغة. أو هل يكون من الممكن أنهم اعتبروا التاريخ بلاغة خالصة - أهمى ظلل التحذير الذى أطلقه هايدن هوايت؟ قبل أن نبدأ في بحث انحيازات مورخى الماضى، ينبغى أن ننظر عن كثب إلى الكذب والطبيعة البشرية.

يقدم الكاتب المرح والمعلق السياسى أل فرانكلين فى كتابه الذى يحمل عنوان Who tell them Lies and the Lying Liers عنوان فى رأيه، وبينما قد يكون مقنعا أو لا يكون كذلك، فإن القائمة التى أعدها قصيرة للغاية بالتأكيد. فمن هم الكذابون الذين يكذبون؟ كلنا. ففى تحقيقات

الشرطة يكذب حتى الأبرياء بشأن بعض الأمور. وفي علاقاتنا اليومية، نكذب لأن الكذب سيجعلنا نبدو بصورة أفضل مما تظهره الحقيقة، أو لأن الكذبة ستجعل من يستمع إلينا يشعر بإحساس أفضل. وفي عمل فنان الكرتون "سكوت آدمز " Dibert and the Way of the Weasel تكون "منطقة ابن عرس " صالحة حيث يكون الكل " على وعيى بأنك متلاعب، متآمر، ومريض اجتماعيا ". يكذب علينا زعماؤنا بصورة منتظمة، وبكثرة بالغة، لدرجة أن السياسيين يحتلون مرتبة متدنية للغاية في استطلاعات الرأى العام لأننا لا نثق في أنهم يقولون الحقيقة.

هناك أكاذيب تعطى إشارات عن نفسها لحظة وصولها، وهي شائعة جدا لدرجة أن الجميع يعرفون ما هي. إذ يقول المدير: " إننا نثق في المدرب ثقة كبيرة "، وهي علامة أكيدة على أن المدرب سوف يطرد من عمله. كما أن عبارة " لا شيء يهم، فسوف أحبك دائما " تحذير مسبق يدل علي أن العلاقة الغرامية تسير في طريق النهاية إذ يكون المتحدث قد نسى لماذا كان مغرما أصلا. ومن الكذب عبارة " إن الشيكات في البريد "، " بمجرد أن أجد دفتر الشيكات، وأضع بعض المال في حسابي، واشترى الطوابع، وأرى فاتورتك ". كما أن مراوغات المحامين تبدو شائعة لدرجة أنها صارت نكتة أن تسأل: " هل تعرف متى يكذب المحامون؟ (الإجابة: عندما يحركون شفاههم).

عندما نلجأ إلى العقلانية، نكذب على أنفسنا وعلى الآخرين. وقد بينت نظرية عالم النفس ألبرت باندورا عن التعليم الاجتماعي أن الأشكال التي لا تعد ولا تحصى من هذا النوع من الكذب تفسر تصرفا نعرف أنه شر. وغالبا ما تنطوى الكذبة على مغالطة منطقية أو معرفية أيضا. فنحن نقول إننا تصرفنا بالخير الأعظم – والغاية تبرر الوسيلة. فهنحن نهمتغل لطه

التعبير لإخفاء جسامة سلوكنا السيئ. ونقول إن ذلك كان " تطهيرا عرقيا " بدلا من القول إنه قتل جماعي. فنحن نقارن الضحية بشخص شرير، اعتمادا على الإدانة بالارتباط، والتشبيه الضعيف أو الكلمات المشحونة لكى نجد العذر لسلوكنا. ونحن نحول وجهة اللوم: " إننى كنت أتبع الأوامر فحسب " ونحن نتشارك في اللوم بقولنا: " الجميع يفعلون ذلك " ونحن ننكر تأثير أفعالنا بالقول: " لا أحد يهتم حقا "، كما ننكر على ضحايانا إنسانيتهم فنقول: " إنهم مجرمون على كل حال " وأخيرا نلوم الضحية: " أنت الذي تسببت في حدوث هذا ".

وتشرح مقالة الفيلسوف هارى فرانكفورت المعنونة "Clever on Bullshit" أن "في كل استخدام للغة بلا استثناء بعض خصائص الكذب وليس كلها". ولا ينبغي لنا أن نخطئ في حقيقة أن الكذب ببراعة يمكن أن يسصنع العجائب. فالكذبة التي نقولها لأنفسنا تجعلنا ننام ملء جفوننا. ويقول لنا علماء النفس أن أحد الطرق التي نتغلب بها على المأساة والغضب تتمثل في أن نصطنع التصديق. وهم يسمون ذلك الإيهام. وبعبارة أخرى، فإن الكذب ينفع لأننا نريد سماع الكذب. فعلى سبيل المثال، فإن الطبيبة التي تقول لمريض يعاني سكرات الموت من تأثير السرطان لا تنفع معه العمليات الجراحية، الها لا تريد التدخل الجراحي في جسده، تكذب مستغلة طاعة المريض الإرادية لها. ويمكن للكذبة التي نقولها للآخرين أن تحقق غايات لا يمكن تحقيقها بوسيلة أخرى. إن أكاذيبنا يمكن أن تتقذنا من عيون المتطفلين.

الاصطناع الماكر

أنا لا أدافع عن الكذب، ولكننى أعتقد بالفعل أن المؤرخين قد يجدوا أن الكذب يخدم الأهداف الغنية. وكلمتا artifice artful، مثل الكثير جدا من

الكلمات الإنجليزية، تحمل كل منهما معنيين مختلفين تمام الاختلاف. فكلمــة artful تعنى متعلم وحكيم كما تعنى ماكر ومراوغ. أما كلمة artifice فمعناها الاصطناع ومعناها أيضا المخادعة. واليوم، من المؤثرات الخاصة في أفلام السينما، والخداع في الأعمال الموسيقية الفائزة بالجوائز، نجد مزيجا من الحقيقة والكذب منصهرة في الفنون الجميلة وفي الفنون الحية. والخداع فيها يخطف الأبصار ويأسر القلوب. وتعطى نقطة التلاشي في رسوم المناظر الطبيعية الرومانسية التي رسمها جون كونستابل في إنجلترا وتوماس كول في أمريكا إيهاما بالعمق على سطح لوحة مسطحة من الكانفاه. وعندما يكذب ياجو على أوثيللو، تتحول الدراما الراقصة إلى واحدة من أعظم تر اجيديات العالم. والعقدة في أشهر أفلام الأبيض والأسود The Third Man عبارة عن كذبة بشأن الموت على طريقة أضرب واجر بحيث تجعل كل أجزاء اللغز تتناسب سويا. وتدور القصة البوليسية التي جعلت أجاثا كريستي تنتشر في كل مكان، وما تزال واحدة من أعظم الروايات البوليسية التي خطها قلم، وهي الرواية التي تحمل عنوان (The Murder of Roger Ackroyd 1926)، حول كذبتين ولغز منطقي يبدو في ظاهره مستعصيا على الحل بحيث يبقسي القارئ مشدودا إلى الرواية حتى الصفحة الأخيرة.

ومثل المحقق فى الرواية، ينبغى على المؤرخين أن يتعاملوا مع الكذب فى السجل الوثائقي، بل إن أكثر قرائنا أهمية يكذبون، وحسبما كتب آرثر شليزنجر الابن فى يومياته (متذكرا ما كان قد قيل فى لجنة بالكونجرس فى جلسات الاستماع التى عقدت للرئيس كلينتون) "لقد كذب معظم الناس بشأن حياتهم الجنسية ". كان شليزنجر يقصد أن يكون متمردا ويخرج متطهرا من عاصفة النقد التى أثارتها ملاحظته: "إننى أظن أن الوقاحة غلطة كبيرة ". وربما كان الخطأ فى عدم مناسبة التعليق فى التحقيق حول سلوك الرئيس

الجنسي، ولكن كل مؤرخ يكتب السيرة الشخصية يعرف أن شليزنجر كان على صواب.

ويمكن أن يكون المؤرخون متحفظين حول الكذب من هذا النوع - فلم يذكر شليزنجر شيئا عن مغامرات جون كينيدى أو روبرت كينيدى، الجنسية خارج الزواج في كتابه الذي ألفه عنهما - أو يمكنهم جعل الكذب السمة المركزية في أية سيرة، على نحو ما فعل بعض كتاب سيرة كل من بنيامين فرانكلين، وتوماس جيفرسون، وفرانكلين وإليانور روزفلت، والأخوين كينيدى، وليندون جونسون وبيل كلينتون. وكشف الكذبة أو تركها، أمر يرجع إلى المؤرخ. فهل يكذب المؤرخ عندما يقرر عدم الكشف عن الحقيقة؟ وإذا كانت الكذبة تستدعى قصد الخداع، فهل يكون حذف الحقيقة كذبا؟ والسبب الأكثر شيوعا بين المؤرخين للحذف قولهم: "لم يكن مهما، ولذا صرفت النظر عنه "، ولكن إخفاء الكذب شكل آخر من أشكال الكذب.

وربما يكون على القدر نفسه من الأهمية بالنسبة لنا أن نفهم أنه يمكن للمؤرخين أن يتوسلوا بمعادلة الاصطناع الماكر في عملهم، إنهم يخدعون العين ويضيفون إلى المؤامرة لتحقيق الغايات المشروعة. وثمة مثال ممتاز في الكتاب الذي ألفه جون ديموس 1994 المشروعة. وثمة مثال ممتان في الكتاب الذي ألفه جون ديموس بصورة تخيلية المحادثات والذي فاز بعدد من الجوائز. ففيه يستعيد ديموس بصورة تخيلية المحادثات التي لا بد أن تكون قد حدثت بشكل ما، بيد أنها لم تسجل، وفي لب كتابه، تحاول عائلة من نيو إنجلند افتداء طفلة من الهنود الذين أسروها، وفي إحدى الفقرات يتحدث شقيق البنت معها من خلال مترجمين، لأنها كانت قد نسست لغتها الإنجليزية، في بيت كندى معبأ بالدخان. " ربما يكون الأمر قد سار بشكل يشبه هذا... وكان الدخان المنبعث من المستوقد يلسع عيونهم والأصوات تمضى تجاههم بلا تمييز من الحوائط البعيدة. أشكال آدمية، نحو

دستة أو يزيد، تاوح فى العتمة: يجلسون القرفصاء، أو يتكنون، يذحنون إلى الأمام للقيام بعمل أو آخر. وفى بطء، تحرك أحد الأشكال - لا، بل اثنين - الله الأمام: إمرأة تتقدم قليلا ووراءها رجل. واقتربت المرأة جدا، وعيناها تتفحصان الوجوه التى أمامها".

ونحن نعرف من السجلات التاريخية أن المقابلة قد تمت بالفعل، ولكنا فقدنا تفاصيلها. وباستخدام أساليب الروائي، ملآ ديموس الفراغات في القصة، واعترف أنه تصرف في السجلات بحرية – إذ اخترع الحوارات على سبيل المثال – ولكن المؤكد أن المؤرخ الذي يستعير من الروائي الذي يكتب رواية تاريخية، يمكنه أن يملأ الفراغ الذي ينتج عن الأدلة الناقصة بالتخمينات المدروسة. وقد تعلم من الروايات، حسبما ورد في مقالة لهنشرت سنة والأساليب الفنية، والحركات " ما ساعده على إعادة خلق ماض تجسد كاملا والأساليب الفنية، والحركات " ما ساعده على إعادة خلق ماض تجسد كاملا البحث العلمي القائم على أساس الحقيقة وبين الخيال، بل على أن يتخطى هذه المدود. كانت الحيلة أن يمزج ما بين الاهتمام المفرط بتلك التفاصيل التي يمكن التحقق منها والإحساس بالحالة الإنسانية – أي بالروابط التي تربطنا بأناس في الماضي.

وتكون محاولة ديموس ضرورية عند استخدام الأساليب الروائية لملء الفجوات عندما يريد المؤرخون الكتابة عن الناس العاديين. ذلك أن معظم الناس لا يتركون وراءهم أوراقا، وفي الماضي، عندما لم تكن معرفة القراءة منتشرة وكانت الكتابة تستغرق وقتا، وجهدا، وتتطلب مالا للإنفاق على شراء الورق والحبر والقلم، كان الناس العاديون يخرجون من المشهد ببساطة دون أن يتركوا سجلا موثقا عن حياتهم خارجنطاق الميلاد والزواج والموت. لقد

اكتشف المؤرخون وسيلة مصطنعة، ولكنها فعالة، لإعادة هـؤلاء الرجـال والنساء إلى الحياة مرة أخرى.

والتاريخ الروائي (لكي نسك مصطلحا) لديه الإجابة عن المعيضلة القائلة إن التاريخ مستحيل. ومن الواضح أن الإجابة مأخوذة عن أسلوب روائي مجرب، وحقيقي. ويحكي لورنسستيرن في روايته Tristram Shandy قصمة حياة خيالية للشخصية التي تحمل الرواية اسمها، بادئا بالأحداث التي تقود إلى مفهومه. وهو يخاطب القارئ من حين لآخر بصورة مباشرة، معلقا على حكايته هو. ويستخدم المؤرخون الروائيون الوسيلة الأدبية نفسها كما يوقفون تواريخهم لكي يخبرونا كيف تم بناؤها. ويكشف ثيموتي برين، في حكايته عن التواريخ الكثيرة التي تدور حول إيست هامبتون، ولونج أيلاند، عن " أننى ألاحظ نفسى أشرع في عمل تفسير للماضي من منطلق القلق لكي أجعل القارئ يعرف موقفي... فعلى عاتق المؤرخين تقع مسئولية الحديث بصراحة إلى قرائهم ". لقد كان برين أكثر من مؤرخ في هذه القصة؛ إذ كان. مشاركا في أنواع من المحاولة لإكتشاف الماضي المفقود، بيد أن تأملاته تنطبق علينا جميعا. ولم يقتبس دانييل ريشتر كلام برين في عرضه اللافت للنظر للحياة بين الهنود في أراضي الغابات في روايت Facing East from Indian Country، ولكنه شرح في تقديمه لروايته الرد نفسه علي استحالة التاريخ: " هكذا، تدور الفصول التالية حول كيفية تطويرنا لقصص المواجهة في الشرق والتي تدور حول سكان أمريكا الأصليين في الماضي، بقدر ما نطور القصص التي تدور حول ماضينا نحن ". وقد افتتح كتابه بثلاثة رسوم مزخرفة عن المواجهات بين الهنود الحمر والمستكشفين الأوربيين، وكلها تعبر عن وجهة النظر الهندية المفقودة الآن، و لا يمكن استعادتها. و من ثم، " فإن هذه المشاهد متخيلة ". وكلما أخذ المؤرخون الروائيون المزيد من

الحرية، عظمت حاجتهم إلى " الحديث بصراحة " مع القارئ. ومن سوء الحظ أن كل من يتوقع أن يجد تعريفا - وردا على استحالة التاريخ - لهذه الانحرافات المنهجية يعترف دائما بأنه لا يمكن أن نعرف ما حدث حقا.

وثمة منهج آخر يسمى "التاريخ التجريبي". وقد وصفت المؤرخة مارثا هوديس هذا المنهج بأنه" غير نقليدى " وخيالى بدرجة عالية فى الفصل المعنون Experimental History in the Classroom فى العدد الصادر من مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ٢٠٠٧ م. وقالت إن التاريخ التجريبي " قدم للباحثين طرقا جديدة لتطوير الجدل وللربط بين التعقيدات ". لقد وسع الحدود بتقوية المؤرخين وتزويدهم بسلطة رواية القصمة من منظورات مختلفة فى الوقت نفسه، على نحو يشبه عمل الروائى إلى درجة كبيرة. فالانتباه إلى التفاصيل الصغيرة لتكوين مشهد يبعث حيا ويشرك القارئ فيه ليس أمرا جديدا، أو حتى تجريبيا، ولكن فكرة أن التاريخ " محادثة " متبادلة بين المؤرخ والقارئ، مستعارة أيضا من الرواية. وعند حافة التاريخ التجريبي يرقد الحوار المخترع، قائما على أساس ما نعرفه بالفعل، وما يمكننا تخمينه. نحن نعرف أن الحوار قد حدث، ونحن نقدم الكلمات اللازمة لهذا الحوار.

وعلى الرغم من أن سائلا شكاكا قد يسأل المؤرخ التجريبي: "كيف تعرف؟ ما دليلك؟ "فالحقيقة أن المؤرخ التجريبي يكون أحيانا نقديا بدرجة أكبرمن المؤرخ التقليدي وأكثر حرصا منه. إذ يمكن للمؤرخ التقليدي أن يكتب القصة التاريخية "من بطاقات الملاحظات "، ويكون ما نقرأه هو ما وجده المؤرخ. وعلى المؤرخ التجريبي أن يمعن فكره كثيرا حول كل من الأدلة والبراهين الباقية، لأنه يجب أن تستخدم كلها، لا أن يعاد تكرارها فحسب، لإعادة خلق الحوار المفقود أو المشهد الضائع.

ومع أنهم لا يسمون أنفسهم مؤرخين تجريبيين، فإن مؤلفى "التواريخ المصغرة " يستعيرون أساليب معينة من التاريخ التجريبي. لوريل تاتشر أولريش المدهش، والفائزة بإحدى الجوائز:

A Midwife's Tale 'The Life of Martha Ballard Based on Her Diary '1785 - 1812 1991

الذي كتبت عنه في كتابي Sensory Worlds in Early America أنها " حولت يوميات تتسم بالرشاقة والإيجاز لقابلة، وأم، وسيدة أعمال هي: مارتا باللارد من هالويل، في منطقة مين، إلى مصدر يساعدنا على تخيل المدى الكامل لأنشطة النسوة في الفترة الباكرة من تاريخ نيو إنجلند. فنحن نـشعر ببرودة ليالى الشتاء وخشونة القماش المنسوج في البيوت لأن أولريش عايشت القصة. فقد أمضت من الوقت في بنوبسكوت ما يكفي للدخول في عالم باللارد. وتنقل لغة أولريش تجربتها الشخصية الحميمية. وهي تزعم أن اليوميات تتحدث عن نفسها - " قد يرغب المرء في المزيد من التفاصيل، ليكون التعبير عن الرأى أكثر صراحة، ومن أجل روايات أكثر اكتمالا عن العلاقات الطبية أو التعقيدات في طب الولادة، والمزيد من الصراحة والنزاهة في وصف الأطباء أو القضاة، وقدرا أقل من الاحتراز في تسجيل الفضائح، بيد أن يوميات مارتا، مع كل التحفظات عليها، وثيقة لا نظير لها في التاريخ الأمريكي الباكر. وهي قوية لأنها تستعصى على الاستخدام الكامل من ناحية، و لأنها تتمسك بكل تفاصيل الحياة اليومية من ناحية ثانية. " والحقيقة أننا نرى نبو إنجلند الشمالية عند نهاية القرن الثامن عشر بعيون أولسريش، ولسيس بعيون باللارد. فعندما تستعير المهارة الفنية من الدهاء، يبعث التاريخ حيا.

وعلى الجانب الآخر من الحدود بين الخيال / واللاخيال تمرج الروايات التاريخية ما بين الحقيقة والأكاذيب لكى تبهجنا وتسلينا بالمشاهد

التى لم يكن ممكنا أن نشاهدها بطريقة أخرى. إذ إن الروائى يعتمد على المؤرخ فى هذه الحالات، ويصب المادة التاريخية على الروايات لكى يصف المكان والزمان بدقة. وقد تكون الشخصيات فى الرواية شخصيات تاريخية حقيقية أو شخصيات مخترعة أبدعها الروائي، أو مزيجا من الاثنين، ولكن العمل المشترك بين المؤرخ والروائى يبعثها حية. وكما كتب ريش إيزاك فى روايته الفائزة بجائزة بوليتزر:

Transformation of Virginia 1740-1790 1982

" إن المفاهيم - والمهارة الفنية - لدى كل الذين وجدوا الطريق للدخول بقوة فى عوالم غريبة من التجربة، سواء بوصفهم روائيين أو كتاب دراما، أو رسامين، أو نقادا أدبيين، أو علماء اجتماع، يجب توظيفهم حيثما تكون خدماتهم مطلوبة... لإعادة بناء شىء من عالمهم كما جربوه ".

واستعارة الحصافة والفراسة التاريخية من الرواية طريق ذو اتجاهين. فقد شرح دان براون مؤلف الروايات التاريخية، في شهادته دفاعا ضد تهمة انتهاك حق الملكية الفكرية، كيف أنه هو وزوجته بلايثي قد استخدما كتاب تاريخ واحدا: " ثمة كتاب مهم لهذا البحث الباكر [رواية شفرة دا فينشي] عنوانه The Hiram Key من تأليف كريستوفر نايت وروبرت لوماس. وهذا الكتاب يبحث في دور الماسونيين وفرسان الداوية [الهيكل] في التنقيب عن الكتاب يبحث في دور الماسونيين وفرسان الداوية والهيكل] في التنقيب عن عائلة المسيح، وأصول المسيحية الأولى التي تم إخفاؤها. كما أنه يتحدث عن عائلة المسيح، وأصول المسيحية، والأناجيل الغنوصية، وكنيسة روسلين في أدنبرة. وعندما عاودت النظر في نسختي من الكتاب رأيت أنني وبلايثي قد أبرزنا الفقرات التي تتأمل وتتدبر في طبيعة ما وجده فرسان الداوية وعواقبه على المسيحية فيما بعد. كذلك أبرزنا أجزاء تتناول قنسطنطين وأهمية المسيحية الحديثة ".

وحتى لا يظن القارئ أن الرواية بحد ذاتها تاريخ، رد "دكتورو" مؤلف رواية Ragtime وهي الرواية الأحسن مبيعا، وغيرها، بأن القارئ الذي يريد الحقيقة التاريخية لا يجب أن يصدق كل كلمة في أية رواية. وإذا كانت هناك قيمة للفن الذي يخدع العين بمنظور زائف، والدراما التي تعيد تجسيد الواقع على المسرح، فإن تأثير الفن والدراما يأتي من الحيلة قرينة الاصطناع.

وغالبا ما یکون للمذکرات التاریخیة، الفعل السحری نفسه، لأنها تعبر الحدود ما بین الحقیقة والخیال جیئة وذهابا. ولو کان جیمس فرای، الکاتب الذی لقیت کتبه رواجا کبیرا، قد اعترف بأن کتابه کان خیالا أکثر منه حقیقة، لکان قد تجنب العار الذی لحق به. فغی سنة ۲۰۰۳ م نشر مدکرات بعنوان A Million Little Picces وقد اعتبرت حکایته عن إدمان المخدرات، والسباب الفاحش الذی أعقبته إعادة تأهیله، شجاعة مست مشاعر القراء فی جمیع أنحاء البلاد. وقد حرکت حکایته التی یفترض أنها حقیقة عن المعاناة والعلاج قناة التلیفزیون الشهیرة أوبرا وینفری لدرجة أنها اختارت کتابه فی نادی الکتاب الذی تدیره.

وفى سنة ٢٠٠٨ م اكتشف أحد المواقع الأليكترنية أن فراى قد اصطنع أجزاء مهمة من المذكرات. فمثلا، احتج المعالجون فى مركز إعادة التأهيل الذى نزل به لأن روايته عن إقامته فى المركز تحمل الكثير من الزيف والاختلاق. وفى قصة يفترض أن تكون حقيقية (حقيقية بقدر ما يمكن لكاتب المذكرات أن يتذكر)، بالغ فراي، واختلق، وأساء تقديم الأحداث. ولم يكن قط متأنقا حسبما صور نفسه فى الكتاب أو فى البرنامج التليفزيونى.

وعندما سئل للمرة الأولى عن مذكراته، أصر هو وناشره على أن كل شيء فيها حقيقى وأنه " تمسكت بالحقيقة الجوهرية في كتابي ". وبعد ملاسنة

محرجة من جانب وينفرى فى برنامجها التليفزيوني، اعترف بأنه كان قد الختلق الكثير فى القصة، ثم أضاف فى ملاحظة وضعت فى الطبعات التالية شارحا "لقد أردت للقصص التى وردت فى الكتاب أن تكون مثل المد والجزر، وأن يكون لها عقد درامية، وأن يكون لها التوتر الذى تتطلبه كل القصص العظيمة "ولذلك "غيرت الأحداث فى جميع أجزاء الكتاب ". إنه عمل خيالى مسئلهم من حوادث جرت فى حياته تحول إلى مذكرات، وكانت بقيته تاريخا. ولكن بالنسبة لنا هل يكون الدرس مختلفا؟ لقد كسبت المهارة والاصطناع قلوب القراء وساعدتهم فى حياتهم.

ولم يكن فراى أول كاتب يكذب عامدا في مذكراته ليجد أن الكذب نقل التي القراء رسالة لم يكن ممكنا أن تصل بطريقة أخرى. تأمل رواية Roots التي كانت من بين الروايات الأكثر مبيعا والتي ألفها أليكس هايلي (١٩٦٧م)، ويفترض أنها مبنية على أساس البحث في أمريكا وفي إفريقيا وعلى مذكرات عائلة هايلي نفسها. لقد غير ما كشفته هذه المذكرت عن الرق والعنصرية وعي الأمة. وفاز هايلي بجائزة الكتاب الوطني وجائزة بوليتزر. كما أن المسلسل التليفزيوني الذي بني على أساس من هذا الكتاب فاز بعدد جم من الجوائز، وأظهر للأمريكيين جسامة عار الرق في مصطلحات يمكنهم استيعابها. والحقيقة، أن الجزء المركزي في الكتاب، بما فيه المادة الخاصة بإفريقيا، كان كله مأخوذا من كتاب مؤلف آخر، على حين كانت بقية كتاب الجذور خيالا. كما أن الخلفيات التي قدمها هايلي في أحايث كانت كذبا؛ ولكن من رواية الكتاب وعرض التليفزيون للقصة عرف ملايين الأمريكيين الرعب والأهوال التي كان ينطوي عليها الرق بطريقة لم يستوعبوها قبل طيل هايلي البارعة.

ثم كانت هناك "ريجوبرتا مينشى" التى فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٩٢ م بسبب محاولاتها لحماية أخواتها وأخوتها، وهم من الهنود الحمر، فى أثناء الحرب الأهلية فى جواتيمالا. وكانت قد وثقت معاناة أسرتها الخاصة في وقت مبكر على أيدى الحكومة العنصرية وقواتها فى مذكراتها التى تحمل عنوان (Regoberta MenchI 1983)، وهو كتاب وضع محنتها ومحنة شعبها فى دائرة الضوء وجذب انتباه عالم القراء. وفى هذا الكتاب أكدت ريجوبرتا على أنها نشأت وترعرعت فى بيت فلاح هندى فقير، ولم تذهب إلى المدرسة قط، وتعرضت للقهر على أيدى ملاك الأرض المغتصبين، كما تعرض واحد من أخوتها وأبوها للتعذيب، ثم قتلا فى نهاية المطاف بيد الزمرة الحاكمة كما رأت أخا ثانيا لها يموت من سوء التغذية.

ثم اكتشف عالم الأنثروبولوجي، دافيد ستول، العامل في إقليم جواتيمالا الذي أسمته مينشي الوطن، أن الحقائق الرئيسية في مذكراتها كانت زائفة. فلم يكن أبوها ضحية ملاك الأراضي، ولكنه كان متورطا في نزاع مع أنسبائه؛ وقد ذهبت هي إلى مدرستين ممتازتين، ولم يمت أي من أخونها على الإطلاق. بل إن روايتها عن أيامها الباكرة وعملها مشرفة على العمل لا يمكن أن تكون صحيحة، لأنها كانت تلميذة بالمدرسة في تلك الأنتاء. لقد جلبت لها الحرفة والاصطناع الصريح الشهرة، ولكنها، وقد يكون هذا الأمر الأكثر أهمية، حولت الانتباه إلى الضحايا الحقيقيين ومحنتهم بطريقة ربما لم تكن لتتحقق عن طريق رواية صادقة.

وموضوع المذكرات الزائفة له تاريخ طويل، وفى أثناء هذا التاريخ كان الاصطناع قد نور القراء وأضفى عليهم البهجة. فمنذ زمن طويل، كان يفترض أن المذكرات نوع من الخيال، فهى رواية عن صاحبها بلسانه. وقد كتب المؤلفون المشهورون فى القرن العشرين من أمثال: ليليان هيلمان، ومارى مكارثى، وإرنست هيمنجواى، مذكرات وجد فيها النقاد أغلاطا

متعمدة في الحقائق. ولكن البيانات المغلوطة وجدت قبولا باعتبار ها أدبا، أو باعتبار ها خيالا، في كل الأحوال. فما الذي يتوقعه القارئ غير ذلك من هؤلاء الأدباء العمالقة؟

واستنجت كاتبة السيرة الشخصية نانسى ملفورد أنه " فى النهاية، ربما تكون المذكرات لا تدور حول استرداد ذكرى الأحداث بقدر ما تكون حيل للذاكرة، إذ إن خداع النفس بالسن والإلحاح الذى يشعر به الكاتب يدفعه إلى القول: " هذه هى الطريقة التى احتاجها للتذكر، وهذا هو ما كنت أتمنى أن يكون تصرفى، هذه ذكرياتى الزائفة على أفضل نحو يمكننى أن أكتب به ". على هذه الدرجة من الصدق، كتبت المحررة وكاتبة المذكرات مارى آرانا عن كتابها America Chica: " إذا كان هناك شيء مثل الحقيقة، تلاعبت بها، فإن هذه لم تكن أكاذيب محسوبة، ولكننى شكلت الحقيقة (كما فهمتها) وفق غاياتى الخاصة، واستخدمتها بوسائلى الخاصة، وقد انتقلت من خلايا المسخ التى تتيح لنا أن نحلم ".

فالمتوقع منا أن نعرف الخيال الفنى عندما نراه أو نسمعه، ولا نتوقع أن نراه فى كتاب تاريخ. ويصنف الناشر الكلمات إلى خيال أو لاخيال، وهناك نراه على رفوف مكتبات بارنيس ونوبل (على الرغم من أن مكتبات بارنيس ونوبل تركت كتاب فراى على رفوف أفضل المبيعات غير الروائية). ونحن ندخل المسرح أو دار السينما متقبلين فكرة أن ما سنراه خيال. وحتى عندما تكون المسرحية، أو الفيلم "مأخوذا عن قصة حقيقية "، فنحن نعرف أنه سيكون هناك حوارات ومشاهد إبداعية. والواقع، أنه عندما يتم قول هذا كله وفعله، تنفع الإضافات الخيالية والتغييرات لمجرد أنها شبيهة للغاية بمنطق الحقيقة، وتحتفظ بالشكل المنطقى حتى عندما تكون زائفة تماما.

ويتراقص خيالنا، سواء في عيني الفنان أو بقلم المؤلف 'رائحا غاديا عبر الحدود اللامحدودة بين الحقيقة والكذب. فهل كان يمكن أن تكون الحقيقة نفسها تعبر هذه الحدود في كلا الاتجاهين طوال الوقت؟ إن الزعم بغير هذا يعنى أن ننكر على أنفسنا سلطة تصوير ما لا نستطيع إثباته والحلم بما لمد نره - وهذا ما يجعل التاريخ ممكنا. إن الكذبة الماهرة رد بديهي على استحالة التاريخ.

الكلمات التي تكذب

ثمة نوع آخر من التزييف يبدو أن كتابة التاريخ تجتذبه هو الخطأ فى معانى الكلمات، والخطأ فى معانى الكلمات لا يعكس غموضا فى اللغة، فهو ينشأ عن حقيقة أن واحدا من بين كل معنيين أو أكثر خاطئ بالضرورة، وبالتمادى فى الغموض نتقبل حقيقة أن العبارة، أو جزءا من العبارة، لن يكون صحيحا. ومثل هذه الحيل التى تمارس على الأذن، شأنها شأن الوهم البصري، تجعل قراءة التاريخ أمرا مسليا.

ويعود الخطأ في معانى الكلمات إلى الأساطير القديمة وإلى السعر الملحمي. فقد كان أوليسيوس في الملحمة الهومرية (نسبة إلى هـوميروس) متحايلا. فقد ابتكر حصان طروادة – وهو هدية مميتة للطرواديين اعتمادا على تصديقهم (وسهولة خداعهم) لتدميرهم. وعندما أرسى على جزيرة للتزود بالطعام والمؤن في الطريق إلى وطنه بعد الحرب، تـم أسره مسع مجموعة من رجاله على يد عملاق ذي عين واحدة من أكلة لحـوم البـشر (سايكلوب في الأساطير الإغريقية) يسمى بوليفيموس. ولكي ينقذ أوليسيوس رجاله روى كذبة ماهرة للعملاق – فقد قال إن اسمه " لا أحد " ثم فقا عـين العملاق. وعندما استدعى العملاق الجريح قبيلته، سألوه عمن فعل بـه هـذا

« الفعل أو سبب له هذا الأذى. وأجاب: " يا أصدقائى، إننى أموت، والذى سدد لى هذه الضربة " لا أحد ". فأجابوه بقولهم " إذا كان " لا أحد " قد آذاك فإنها ضربة من الإله جوفى وعليك أن تتحملها ". وتمكن أوليسيوس من أن يقود رجاله إلى سفنهم وحيث الأمان فى البحر.

وتلاعب أوليسيوس بالكلمات الذى أنقذ حياته مثال على الجناس، فعندما نسمع جناسا، يكون المتوقع منا أن نئن وناشكو، وهاذا ما فعله بوليفيموس العملاق، وكل شيء من شعر الهايكو الياباني حتى شكسبير وإلى أوجدين، حافل بالجناس، ويوجد في الجناس الجيد لغز منطقي جزء منه غير حقيقي، لأن المعنيين (أو أكثر) اللذين يحملهما الجناس يخلقان عن قصد غموضا منطقيا، وقد شن إيوجين فولوخ، أستاذ القانون في جامعة أوكلا، حملة دون نجاح ضد الجناس في عناوين المقالات البحثية، ومع الاحترام الواجب لحملته، فإن بعض هذه المقالات بصراحة نوع من المرح الصاخب، وبدافع من الاحترام للبروفيسور فولوخ، ولحماية هوية كتاب المقالات، لن أكتب قائمة بهم.

ويمكن للجناس أن يكون بؤرة الألغاز المنطقية. "متى لا يكون الباب بابا؟ عندما يكون الباب مواربا ". هذه الأكاذيب المتمثلة في معاني الكلمات تتخذ أحيانا شكل عبارة بدلا من كلمة واحدة. إنها العبارة التي تصنع الغموض "ما الحيوان الذي يمكن أن يقفز أعلى من المنزل؟ "، والإجابة أن أي حيوان يمكن أن يقفز أعلى من المنازل لا تستطيع القفز.

وفى لعبة إبدال الحروف بطريقة مضحكة التى تسمى Spoonerism يتم استبدال أول حرفين فى عبارة مشتركة بحيث يكون هناك معنى جديد نماما. فقد كان المبجل وليام أرشيبالد سبونر W. A. Spooner عميد الكلية الجديدة فى أوكسفورد مشهورا بزلات اللسان عندما لا يكون مشغولا فى تنظيم العمل

بالكلية – وبلغت شهرته أن هذه الزلات قد سميت باسم سبونر. وربما لا تكون قد نطقت أبدا عبارة وأنت تقصد أخرى مثل a half- wormed fish وأنت تقصد عندئذ راغبا في أن وأنت تقصد من هذا القبيل.

إذن هناك استعمالات خاطئة لكلمات بدلا من غيرها. فالسيدة مالابروب شخصية كوميدية فى الكوميديا الإنجليزية التى كتبها ريتشارد شريدان فى القرن الثامن عشر بعنوان The Rivals، وكانت تستخدم كلمات خاطئة فى وصف الناس والأشياء (الواقع أن اسم الشخصية بحد ذاته كان نوعا من الجناس قائما على أساس الكلمة الفرنسية mal a propos بمعنى "غير مناسب"). وعلى أية حال كانت الكلمات التى تختارها مختلفة بشكل مروع ومؤذى عن الكلمات التى كان ينبغى أن تستخدمها. فقد وصفت ابنتها، مثلا، بأنها " عنيدة مثل قصة رمزية على ضفاف النيل " ويفترض أنها كانت تقصد التمساح وليس القصة الرمزية الأخلاقية التى كانت تحظى بالشعبية فى العصور الوسطى (فقد استخدمت كلمة والعصور الوسطى بدلا من كلمة أخلاقية كانت نوعا من الدراما الشعبية فى العصور الوسطى بدلا من كلمة alligator ومعناها تمساح). يجب أن تحترس من أى شخص يحاول أن يبيع لك أثاثا لشخص " شقى هزيل ".

وفى التناقض اللفظى المعروف باسم oxymoron، وهى كلمة مسشقة من الكلمة اليونانية التى تعنى "حاد - بليد " توجد كلمة أو عبارة تناقض نفسها، وفى معظم الأحيان يأتى هذا المثال من التلاعب بالكلمات فى صورة تعديل لمعنى الاسم، وتحوز مسرحية روميو وجولييت على قصب السبق فى التناقض اللفظى بسبب الكثير من هذا التناقض الوارد فى سطر واحد من الحوار فى هذه المسرحية:

"O heavy lightness, serious vanity / O anything of nothing first created."

وما إلى ذلك. كان شكسبير أيضا متمكنا من الجناس، وفى المثال السابق كان على وعى تماما بما يفعله، ويحدث بعض التناقض اللفظى فى الاستخدام العام للغة، بشكل طبيعى مثل الرزنيخ، والسيانيد، أو الجمرة الخبيثة فى الطبيعة. ومن بين هذه التناقضات عبارات من قبيل: "أرضية أعلى "، و" طعام صيام "، و" زحام خفيف " و" حب قاس ". وهناك تناقض مقصود بين لفظين أو أكثر قد يكون تعليقا ساخرا، مثل " أخلاقيات العمل ". وقد يقول المرء إن مصطلحا مألوفا، أو عنوانا رسميا يحمل النتاقض اللفظى الذي يحقق هذا التأثير مثل " الاسم الإنجليزي لوكالة المخابرات المركزية (CIA) " التى هى تناقض لفظى.

وما علاقة هذا كله بالكذب في التاريخ؟ معظم المسؤرخين مدرسون أيضا. وفي الفصل، يعتمد التاريخ كله على كذبة. ذلك أن الكلمات التي نقولها في المحاضرات والكلمات الموجودة في الصفحات، حتى مع الفرقعات والتغطيات، للكلمات التي تظهر على الشاشات، وحتى مع الصور المتحركة، ليست سوى تقديم ذي بعدين لعالم ذي أبعاد أربعة. إذ إننا نصع خريطة للواقع على مساحات مسطحة. فكيف يمكن لنا أن نجعل ذلك الرسم المسطح لواقع ذي أبعاد أربعة يبدو حيا؟ يجب أن نمرح، ونلوى حكايات التاريخ لكي نلوى ذيول طلابنا. وكما تشى أبواب مكاتبنا، فإننا لسنا بارعين في الكوميديا، ولكن الجرعات الصغيرة من الجناس والتلاعب بالكلمات يساعد على ابتلاع دواء التاريخ الأكثر جدية.

وقد وضع جون أكستل، وهو باحث متفوق في التاريخ ومدرس تاريخ مثير للإعجاب بكلية وليام ومارى، الأمر على هذا النحو: "ليست لمدرس

التاريخ وظائف مهمة اجتماعيا وتحمل تحديا مدنيا فحسب، ولكنها أيضا وظائف ممتعة إلى حد كبير. وأود التأكيد على أن المقصود ليس تلك المتع التى يستمتع بها المدرسين كافة، أيا كان تخصصهم، وإنما تلك المتع الخاصة بمدرسي التاريخ ". ويحتفظ أكستل بحيلة في كمه لكى بشغل الطلاب في هذا العمل " أما بالنسبة لأسلوبي التربوي والأدبى فهو مختلط ومركب يختلف من يوم لآخر، مثل أسلوب أي واحد غيري، بسحب العمل الذي ينبغي القيام به. وهو يميل إلى السخرية الفطنة والمرح، وموالاة الشيطان - لأنني استمد معظم المتعة من ذلك. وهدفي بوصفي مدرسا أن أجعل نفسي مدرسا لا يمكن الاستغناء عنه ".

وقد أطلقت مجموعتا ريتشارد أرمور البارزتان عن الكلام التاريخى الفارغ شرارة اهتمامى بالتاريخ الأمريكى بدرجة أكبر من جميع كلمات المدرسين الذين علمونى وكل الكتب التي قررها المدرسون في المدرسية العليا. وكان كتاب أمور المعنون (1953) It All Started with Columbus العليا. وكان كتاب أمور المعنون أغير وقور، وحافلا بالمعلومات بشكل غريب. كتابا مضحكا يغص بالحماقة، غير وقور، وحافلا بالمعلومات بشكل غريب لقد عرف أرمور تاريخه ولكنه رفض أن يأخذه بجدية: "كان البيض يخافون الهنود ذوى البشرة الحمراء واعتبروهم الشر الأول في الغابات ". وتم إنقاذ جون سميث عندما دخلت " ابنة الزعيم بوهاتان الشابة التي تغيض حيوية. ولم نعلم ما الذي دخلت فيه ". وقد أرغم المهاجرون على طاعة ملوك إنجلترا وكان لابد لهم من أن يتدهوروا إذا لم يغادروا إنجلترا " لقد صدار الرجال الأولئ الذين وطأت أقدامهم الشاطئ أجدادنا الأولين ".

لم يقصد أرمور التسلية فقط. فقد سرب الرسائل التى وجهها للقارئ فى سياق الحكايات التى نشرها "كان الشتاء الأول باردا، وهو ما شكل مفاجأة بالنسبة للحجاج [يقصد المهاجرين الأوربيين إلى أمريكا]. والواقع

أنهم ربما لم يكونوا لينجون لولا الغلال التى أعطاها لهم الهنود الأصدقاء. وبمراوغة غريبة من التاريخ، صار إعطاء البيض الغلال أو الشيلم للهنود مخالفا للقانون ". ولم تكن مصادفة أن أرمور كتب فى ذروة الفترة المكارثية، عندما كان أى نقد للتاريخ الأمريكي أو القيم الأمريكية يمكن أن يودى بصاحبه إلى أن يوضع فى القائمة السوداء أو ما هو أشد سوءا. لقد وفرت الفكاهة الغطاء السكرى للنقد الاجتماعى.

ويطبيعة الحال، ترتد علينا طرقنا في استخدام الفكاهة في الفصل لتطاردنا عندما يضيف الطلاب فكاهاتهم العفوية إلى محاولاتنا للمرح والمزاح. ففي ثلاثينيات القرن العشرين جمع ألكسندر أبيجدون ونشر ثلاثة مجلدات عن فكاهات طلاب التاريخ، ومن بينها جناس وزلات لسان مجلدات الفظية، وألفاظ في غير مكانها، عفوية ومبهجة فقد أكد أحد الطلاب بصورة مذهلة على أن المهند ثلاث ديانات رئيسية هي: البوذية، والبراهمينية، وعبادة الأصنام (ولكنه استخدم كلمة bidi التي تعنى كسول، بدلا من كلمة المان ومعناها صنم) ويميل المزيد من الممتحنين إلى الخطاعلى طريقة مسز مالابروب. فقد كتب أحد الطلاب أن سقراط مات بسبب الزواج wedlock بدلا من أن يقول إنه مات بسم الشوكران hemhock. ربما في إشارة إلى علاقته المريرة مع زوجته إكسانتي، وقام السير فرنسيس ديريك بختان circumcised الكرة الأرضية، وهو بديل مؤلم وصعب المأثرته الأصيلة في الدوران circumnavigating حول الكرة الأرضية. ووضع الدستور الأمريكي لضمان العداوة الداخلية domestic hostility بدلا من

ولم يسلم تلاميذى شيئا لأسلافهم عندما يتعلق الأمر بالجناس العفوى الذي ينطقون به باستمرار، ففي أحد الامتحانات التي جرت من وقت قريب،

أصر أحد الطلبة على أن علامة أكيدة على القوى الشيطانية لأحد المشتبه بهم محاكمات السحر بمدينة سالم كانت " قدرته على الحديث بعدة ألسنة " (وكان المقصود عدة لغات). وثمة زميل له فسى الفسصل كتب أن " آن هوتشينسون " المنشقة الدينية في و لاية ماساشوستس زمن الاستعمار قد أدينت بتهمة الشائعات hearsay وكان يقصد أنها أدينت بالهرطقة heresy ومن الواضح أن رواية الحكايات والشائعات كانت جرما أشد من الهرطقة ومن الواضح أن رواية الحكايات والشائعات كانت جرما أشد من الهرطقة عدد هذا الطالب، وقد اعتقد طالب ثالث أن هوتشينسون كانت ربحا profit عقيقيا، وهو يقصد أنها كانت عاهرة profligate حقيقية... وهي زلة قلم كان عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر سيلقاها بالتقدير (لأنه كان يظن أن المذهب البيوريتاني قد حفز الرأسمالية). والمؤرخون ليسوا فوق مثل هذا الجناس، حسبما أوضح جون فردريك مارتين في كتابه:

Profits in the Wilderness: Enterprneurshipand the Founding of New England in the Seventeenth Century 1991

وإنصافا للمؤلف لابد أن أقول إن الكتاب أفضل كثيرا من عنوانه.

والصوت الخافت الثابت الذى زرعه المنهج العلمى فى عقولنا يهمس "انتظر، انتظر، هذا ليس تاريخا. لأن التاريخ لايمكن أن يكذب. "بيد أن التاريخ ليس مجرد علم كما كتب المؤرخ الثقافى المتميز ستيوارت هوفيس سنة ٩٧٥م: " إن دراسة التاريخ تقدم برهانا حيا على الطبيعة التكاملية للفن والعلم ". والحقيقة أن التاريخ هو المجال الأكاديمي الوحيد الذى يتداخل فيلان والعلم بلا انفصام. ويقول هيوجيس مرة أخرى: " إن الطبيعة نصف العلمية ونصف الفنية لممارسات المؤرخين تبرز بمثابة مصدر للمعضلة وصعوبة تفسير ما يفعله المؤرخون بالفعل لزملائهم فى المجالات الأخرى ". فلا يمكن للمؤرخ أن يحوز الفن بدون العلم أو العلم بدون الفن.

إن القفزات الفنية الت تتيح لنا أن نرى ما وراء الواجهة المشروخة لما نجا من عوادى الزمن مما كان موجودا منذ زمن طويل، إنها الاصطناع الخيالى الذى يعيد ما كان قد ضاع، حيلة المنوم المغناطيسى لإحياء الموتى التي تنطلى على الطلاب وتسحبهم إلى داخل مؤامرتا لهزيمة استحالة التاريخ، وهذه الأفعال القريبة من الكذب جزء جوهرى من تدريسنا ودراستنا للتاريخ. إنها تساعدنا على تصوير ما قد كان عليه الجانب البعيد من الجسر الذى يوصلنا إلى الماضى. أما الأكاذيب الأخرى، والحقائق المخترعة، والمجادلات الزائفة، فلا ينبغى أن يكون لها مكان في البحث العلمي، على الرغم من أن المرء لو نظر يمكن أن يجدها في غالب الأحيان.

سياسات التاريخ والتاريخ في السياسة

فى المغالطة المنطقية لرجل السياسة نخطئ لأننا نأخذ الناس على أنهم حيوانات سياسية لا تحركهم سوى الرغبة فى السلطة . وهذا ينزل بمستوى الحالة النفسية المركبة إلى مجرد أدوارهم السياسية ويقلص جميع حسابات التفاضل والتكامل الاجتماعية إلى مجرد مساواة بين السلطة، والطموح، والمصلحة

دافید هاکیت فیشر (۱۹۷۰ م)

إن تحذير فيشر من مغبة النزول بدوافع الأشخاص السياسيين إلى دافع وحيد جدير باهتمامنا حقا، ولكن هذا التحذير يتعارض مع أصول مهنتا. فعلى حائط أول قاعة استخدمت لتدريس التاريخ في أمريكا، بجامعة جونز هوبكنز، توجد راية معلقة كتب عليها "التاريخ سياسة الماضي، والسياسة تاريخ الحاضر".

كان مدرس التاريخ " هربرت باكستر آدامز " الذى كان قد عين منذ فترة قريبة فى جامعة جونز هوبكنز، قد استعار هذه العبارة من المؤرخ الإنجليزى " فريمان"، لأنها عبارة كانت تجسد مفهوم آدامز وأبناء جيله عن

القصد من دراسة التاريخ. ذلك أنهم كانوا جميعا قد شهدوا أهوال الحرب الأهلية الأمريكية. فهل كان مؤكدا أن السياسيين في خمسينيات القرن التاسع عشر قد نسوا دروس الماضى الحيوية؟ وكان لابد لحملة الدكتوراه الدنين تخرجوا من الحلقة الدراسية (السيمنار) الذي أشرف عليه آدامز لينضموا إلى هيئة التدريس بالكلية أن يمرروا دروس التاريخ الصحيحة إلى تلاميذهم، قادة الوطن في المستقبل. كان الأمر بهذه البساطة.

كما أنه كان على هذا القدر من الأهمية. ففى سنة ١٨٨٦ م، قال جورج بانكروفت، الذى ظل أشهر المؤرخين الأمريكيين وأكثرهم احتراما طيلة ما يقرب من نصف قرن، أمام أعضاء الجمعية التاريخية: " إن غاية المهنة التى نمتهنها واحدة من الغايات العظمى التى استرعت انتباه الإنسان. إذ تندو حركة الدول فى شد تتابعى دائم وكأنها جيوش للغاية، بحضاراتها المختلفة يسيرون تحت راياتها؛ وقد تلاشوا بأنفسهم من المشهد، وبحياتهم، وبإسهاماتهم الباقية التى أضافوها إلى جملة المعرفة البشرية التى قدموها للجنس البشرى على فترات استغرقت قرونا من الزمان، وكلها تدخل فى نظاق مهنتنا ". رجال عظماء، وأفكار عظيمة، ترتبط سويا فى صعود الدول وسقوطها، تلك هى الموضوع المناسب والصحيح للتاريخ.

كان صعود المهنة الجديدة للمؤرخ منظورا متوهجا، واجتذبت إلى برامج الدراسات العليا في جامعة جونز هوبكنز بعضا من أفضل العقول الشابة في البلاد. ولكن حتى بينما كان الالتحاق بالدراسات العليا يتزايد، كان بعض الطلاب يجدون تعريف التاريخ والسياسة محصور جدا. ومع بداية القرن الجديد، وبعد أن وطد أوائل الخريجين أوضاعهم في مهنة التدريس، كانت الدعوة إلى التاريخ الاقتصادي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الثقافي عالية بالقدر الذي يشغل بال مؤسسي المهنة.

كان جورج بورتون آدامز، رئيس الجمعية التاريخية الأمريكية، قلقا. ففي سنة ١٩٠٨ م أخبر أعضاء الجمعية: " بعد ثلاثة أرباع القرن من امتلك مجال دراستنا بلا منازع، في أثنائها فازت إنجازات المورخين السياسيين باستحسان العالم، ويدور الآن التساؤل عن حقنا، ومناهجنا، في هذا المجال، كما تتعرض أفكارنا للعدوان ويتم القذف بنا إلى مواقع الدفاع في العديد مسن النقاط ". ترى من كان البرابرة الواقفون على الأبواب؟ إنهم جحافل مسن علماء السياسة، والاقتصاد، والجغرافيا، والاجتماع، وعلم النفس؛ وقد جلبوا معهم نظريات جديدة، واتجاها صوب التفكير التأملي، وطاقة السباب. فما الذي ينبغي عمله لصد هذا الغزو؟ حسنا، ربما كانت " كل محاولة لتوحيد القديم والجديد، لإيجاد أرضية مشتركة لجميع الذين فيما هو عملهم المشترك حقا، ويجب أن يحصلوا على المساندة القلبية من جميع المؤرخين. وسوف نكتشف من جانبنا أن الرجال الذين يحاولون هذا من السنباب في معظم الأحيان ".

وصار بعض تلاميذ هربرت باكستر آدامز ممن اتجهوا نحو "التاريخ الجديد ". وقد أصبح أحدهم، وهو فريدريك جاكسون تيرنر، رئيس الجمعية التاريخية الأمريكية في سنة ١٩١٠ م، وقال لأعضاء الجمعية: " إن التحول الذي تمر به الولايات المتحدة في أيامنا عميق وشامل الغاية، بعيد المدى، لدرجة أنه ليس من المبالغة أن نقول إننا نشهد ميلاد أمة جديدة في أمريكا. إن الثورة في البناء الاجتماعي والاقتصادي لهذه البلاد في أثناء العقدين الأخيرين يمكن مقارنتها بما حدث عند إعلان الاستقلال ووضع الدستور، أو بالتغيرات التي انطلقت منذ نصف قرن مضي، زمن الحرب الأهلية وإعادة البناء ". ولم تكن القوى الحاسمة سياسية بالمرة، ولكنها كانت اجتماعية واقتصادية. وكما كتب هاري بالمر بارنيز في كتابه الذي يحمل عنوان:

(The New History and the Social Siences 1922) " إن حقيقة أن أتباع التاريخ التقليدى القديم يشعرون بأنهم مضطرون إلى التوقف عن الاستهزاء بإسهامات المؤرخين الأكثر تقدمية وحداثة... ذات أهمية فائقة ".

لم يعد التاريخ سياسة الماضى ببساطة - ولكنه صار سياسات المؤرخين، وهو موضوع مختلف تماما. ومثلما أظهر النزاع فيما بين التاريخ القديم والتاريخ الجديد عند نهاية القرن العشرين، لم يكن من الممكن فصل سياسات عمل الؤرخين عن المؤرخين الذين يكتبون عن السياسة. والأسوأ من هذا، أن عملنا يمكن أن ينتشر على أيدى السياسيين الشغوفين بأن تكون سلطة التاريخ رهن إشارتهم.

سياسات المؤرخين

كما هو الحال في أى تجمع للناس، طور علم التاريخ سياسات خاصة به، وحدثت به التصدعات بفعل المنافسات الشخصية، والمنازعات الإيديولوجية وقصص الرعب في المراجعات الدنيئة للكتب، وسيمنارات الدراسات العليا المتشددة، وغيرها من المذابح. وبعض هذه الخلافات الأصلية حول اتجاه المهنة ومحتوى تاريخنا، نكرت في Past Imperfect في ستينيات القرن العشرين الذي صارت السياسة حربا مفتوحة، خرج جيل من المؤرخين الشباب من الدراسات العليا مشحونين بطاقة عاطفية من أجل حقوق متساوية للأقليات والنساء وطالبوا الدوائر الأكاديمية بأن تنفتح أمام الإصلاح. وقد دعوا إلى تاريخ جديد، وكتبوه هم أنفسهم، شاملا، مختلفا، يتسم بالنقد الذاتي، وحسبما كتب وارين سوسمان، أحد هولاء " المورخين الجدد "، سنة ١٩٦٤م " غالبا ما يستخدم التاريخ أساسا للغلسفة السياسية التي

تفسر الماضى على حين تقدم أيضا الطريقة لتغيير المستقبل. وهكذا يعمل التاريخ بشكل إيديولوجي. بيد أن طبيعته الخاصة ونوع المجتمع الذى يطلبه تجعل من غير الممكن أن يكون التفسير التاريخي قيد الاحتكار على نحو فعال لوقت طويل من جانب أية طبقة أو جماعة خاصة ".

ومثلما كانت أمريكا في ستينيات القرن العشرين مختلفة اختلافا شاملا عن أمريكا في كل الأزمنة السابقة، كان لابد لبكتابة تاريخها أيضا أن تعكس الانفتاح الجديد والنتوع الثقافي في المجتمع وفي الثقافة، لقد صار " كل إنسان " على حد تعبير بيكر مؤرخا حقا. وكان للتاريخ الجديد كذلك أن يحدد ملامح نزعة تشاجرية، والشك في الميل لإرضاء رغبة العامة في البطولة والأبطال، والإقبال على تعقيد منهجي يضع المؤرخين الجدد في مواجهة بعضهم المورخين البعض، ويجعل الحركة ضد المؤرخين والمدارس التاريخية الأشد ارتباطا

وإذ تمرس الأعضاء الأكثر تقليدية في المهنة داخل أقسام التاريخ وهيئات التحرير في المجلات التاريخية الكبرى، فإن تصرفات رفاقهم الأصغر سنا الشاذة والهزلية لم ترق لهم، وأحد هؤلاء المتمسكين بالتقاليد، وهو دافيد دونالد الأستاذ في جامعة جونز هوبكنز، حكم بأن التاريخ الراديكالي لم يكن "يتمتع بالاستمرارية الكافية التي تجعله يستحق الاعتبار المتواصل على صفحات مجلتنا المهنية الكبرى ". ومع هذا، فإنه كان متسامحا بالطريقة التي يتسامح بها الأب مع طفل مشاكس: هذا، إذن، توجد أصوات اليسار الجديد - ومعظمهم ليسوا يسارا ولا جديدا... إذ إن المهنة التاريخية قد أولت بالفعل لهؤلاء الكتاب اهتماما فاق ما يستحقونه ". ومن ثم، التاريخية قد أولت بالفعل لهؤلاء الكتاب اهتماما فاق ما يستحقونه ". ومن ثم، التاريخية تتجهلهم ".

ويستمر الصراع داخل المهنة من أجل السيطرة على جدول الأعمال، مع الأولاد المارقين كالحى الوجوه من اليسار الجديد الذين يسيطرون الأن بقوة على هيئات التحرير ولجان البرامج الكبرى للمهنة. وقد زعم المؤرخون العسكريون والسياسيون المحافظون أن المؤرخين الاجتماعيين والثقافيين "المناسبين سياسيا" يستولون على المنظمات المهنية، مما نتج عنه انحراف برامج المؤتمر القومى انحرافا غير عادل. وبعض الؤرخين، من أمثال مارك تراتشنبرج، اتهموا الجمعية التاريخية الأمريكية نفسها بأنها صارت "مسيسة". ووافق على ذلك إيوجين جينوفيسى، وهو مؤرخ يسارى بارز كان قد انتقل إلى أقصى اليمين. وكانت الجمعية التاريخية الأمريكية " متخصصة محترفة، بيروقر اطية، والنوع، إلى استبعاد المجالات الأخرى، " وهـو مايـشبه العرق، والطبقة، والنوع، إلى استبعاد المجالات الأخرى، " وهـو مايـشبه المكارثية التي استشرت في خمسينيات القرن العشرين بشكل غير مريح. إنها مفروضة من قبل شلل تتـولى الأن الرئاسـة بحيـث جعلـت الانـصياع الإيديولوجي المعيار الأول لتولى المناصب ".

ومن الواضح، أن المؤرخين كانوا يعبرون الخط الفاصل ليدخلوا مجال السياسة Politics بحرف P كبير. كانت هناك الكثير من السيوابق. فالمؤرخون الأوربيون في القرن التاسع عشر، من أمثال جوليس ميشيليه في فرنسا، وليوبولد فون رانكه في بروسيا، وجورج بابينجتون في إنجلترا، كانوا جميعا من المدافعين عن عن الدولة القومية، ولم يكن مستغربا أن يدافعوا عن بلادهم. وقد جادلوا على التوالي بأن التاريخ أدى بصورة مباشرة إلى أمجاد فرنسا (الثورة الفرنسية)، وبروسيا (والتشعوب التيوتونية) وإنجلترا (خاصة نظام الحكم البرلماني) وقد ضم بارنز هؤلاء العمالقة وغيرهم في كتابه The New History مع غيرهم من المؤرخين فيما أساماه "مدرسة

التاريخ السياسى والقومى ". لقد كان التصنيف دقيقا، إذا مسا وضعنا فى اعتبارنا أن فون رانكه شغل وظيفة المؤرخ الملكى فى بروسيا فى سنة ١٨٤١ م، وأن ماكولى كان عضو البرلمان. وكان المؤرخون فى بواكير القرن العشرين أكثر حرفية وكنهم بدوا كما لو أنهم قد تزوجوا القومية. إذ إن مارك بلوك، مثلا، كما قالت كاتبة سيرته كارول فينك، كان يعتقد أن " التريخ موضوع سياسى ".

و في الو لايات المتحدة، لم يكن أكثر مؤرخي القرن التاسع عشر نفذا وشعبية، جورج بانكروفت، مجرد واحد من المحتفين بصعود الولايات المتحدة ولكنه كان سياسيا ديموقر اطيا، وتولى عددا من المناصب السياسية. وكان خليفته في القرن العشرين باعتباره أبرز المؤرخين الأمريكيين (إذا ما كانت ثلاث جوائز بوليتز وجائزتان قوميتان للكتاب مقياسا للعظمة)، وهــو آرثر ميير شليسينجر قد كتب مؤرخة عن رئاسات كل من أندرو جاكسون، وفرانكلين ديلانو روزفيلت، وجون كينيدى، كما خدم في إدارة كينيدى. لقد كان شليسينجر يعرف كل من كانت لهم أهمية ويبدون في الوقت الـصحيح وفي المكان الصحيح الذي يجعله يرى السياسة وهي تصنع. فعلي سبيل المثال، كان ترومان، وهو يغادر البيت الأبيض، "مبتهجا للغاية، نظيف، مهندما ". فقد كان شليسينجر يشعر بالمودة دائما تجاه ذلك المحارب العجوز الشرس. وعندما دخل جون كينيدي سباق الرئاسة، كان " موضوعيا في ملاحظاته، وعلى استعداد دائم للنظر إلى مصالح الأخرين ". واستحوذ الإعجاب بهذا الرجل على شليسينجر وانتابه الأسيى بسبب " الهجمات الوضيعة أخلاقيا والمريرة " التي شنها من كتبوا سيرة جون فيتزجيرالد كينيدي.

كانت سياسات التاريخ وسياسات المؤرخين أمرين متصلين لا انفصال بينهما بالنسبة لشليسينجر، وقد رثى شليسينجر في كتابه The Vital Center عين، كون " الرجل الغربي في منتصف القرن العشرين متوترا، مزعزع اليقين، يسير مع التيار، إننا ننظر إلى حقبتنا باعتبارها زمن المتاعب، وعصر القلق. إن الأرض التي تقوم عليها حضارتنا، وقناعتنا، تتفسخ تحت أقدامنا، وتتلاشى الأفكار والمؤسسات المألوفة عندما نصل إليها، مثلما تتلاسى الظلال وقت الغسق ". لقد كان واجب المؤرخ باعتباره مواطنا أن يعمل في سبيل إنقاذ البلاد من أنفسنا " إن هدفنا واضح، إذ يجب علينا أن ندافع عن مجتمعنا ونقويه ". هذا فعل سياسي واضح بقدر وضوح الطرح الأكثر تواضعا لرأيه في كتاب آخر " لقد بات من واجب المجتمع الحر أن يجيب على هذه الأسئة... ذلك أن صعود دولة الرفاهية الاجتماعية تعبير عن الإحساس بالواجب"

كانت تلك الدولة والالتزام بسياستها (في سنة ١٩٤٩ م) تتسضمن "التعبير عن سلطات الحكومة ". وكان هذا بالنسبة لشليسينجر يعنى بالتالى أن روزفلت وهارى ترومان كانا نموذجين أفضل لأمريكا من من الجمهوريين المحافظين الذين ينتقدون الخطة الاقتصادية الجديدة. ورد شليسينجر على آولئك الذين انتقدوا آراءه سنة ١٩٩٦ م بقوله: " أنها لوظيفة تقترب من حد الخطر أن تكون مؤرخا، ويبدو أن العامة لديهم القليل من المحرمات بسأن إصدار الأحكام على ما يجرى داخل جماعة المؤرخين ".

فى العقود القليلة الماضية، نـشبت مجـادلات أخـرى حـول أدوار المؤرخين فى الأحداث العامة. وفى مناسبة الـذكرى الأربعمائـة لوصـول أسطول كولومبس الصغير إلى المياه الأمريكيـة؛ عندما اقترح متحـف سميتسونيان للطيران والفضاء أن يفتتح عرضـا عـن Enola Gay ونهايـة

الحرب العالمية الثانية في المحيط الهادى؛ وقد ولول الناقدون احتجاجا على السهام المؤرخين في الجدل حول جريمة الرئيس بيل كلينتون. وكتب محرر الوول ستريت جورنال أن " الأكاديميين لم يكونوا قادرين على رؤية التاريخ الأمريكي على أنه شيء آخر غير كتالوج تعس للجرائم والأعمال العدوانية ضد شعوب الأرض التي لا حول لها ولا قوة " وحذرت الواشنطون بوست من أنه يجب عمل شيء ما لمواجهة " مماحكة المؤرخين المكرسين لتحطيم المعنويات الوطنية ".

عندما يستغل السياسيون التاريخ

إذا كان المؤرخون قد فقدوا موضوعيتهم أحيانا (أو أنهم ببساطة رفضوا مفهوم الموضوعية) في منازعاتهم ضد بعضهم البعض، فإن السياسيين الذين يستغلون التاريخ لديهم سجل لا يحسدون عليه. ويحكى آلان سبيترز قصة أحد المشهورين بوضع الخطط الخائبة، فقى سنة ١٩٨٥ م، وبناء على دعوة المستشار الألماني هيلموت كول، أعلن الرئيس الأمريكي وبناء على دعوة المستشار الألماني، وكانت المناسبة هي الذكري الأربعين رونالد ريجان أنه سوف يزور ألمانيا، وكانت المناسبة هي الذكري الأربعين ليوم النصر في أوربا، وهو وقت مناسب لتنكير الناس بملايين القتلى من الرجال في الجيوش، ونهاية "رايخ الألف سنة " الدي أراد هتلر بناءه، واغتيال أعداد لاتحصى من المدنيين الأبرياء في معسكرات الموت الألمانية.

). .

بيد أن ريجان كان فى حال من التسامح والنسيان. وكان على قائمة الأماكن التى تم التخطيط لزيارتها ضمن البرنامج، وبناء على اقتراح من كول، المقبرة العسكرية فى بيتبرج، التى دفن بها رجال قوات العاصفة الألمانية، مع آخرين. ولم يختر زيارة الأماكن الأخرى التى اقترحها كول، مثل معسك التجميع فى دخاو، وعندما اندلعت عاصفة من الاحتجاجات فى

جميع الأوساط السياسية بالولايات المتحدة ضد الرحلة المعلنة، تحول ريجان إلى التاريخ ليفسر اختياراته. وقال إن السبب هو أن " الشعب الألماني به عدد قليل جدا من الأحياء الذين يتذكرون الحرب، ومن المؤكد أن لا أحد منهم كانوا بالغين وشاركوا بأية طريقة في الحرب، ويشعرون بالذنب ". وليس من الضروري أن نفرض عليهم المزيد من ذلك الذنب.

كان تاريخ ريجان انتقائيا بشكل غريب. إذ كان الناس الذين في عمره قد خاضوا غمار الحرب، وربما يكونون قد شاركوا أيضا في " الحل النهائي " للمشكلة اليهودية، وعلى أية حال، استمر ريجان ليقول إن الشعب الألماني كان ضحية أيضا، فقد تم إقناعهم بالمشاركة في " الشر الفظيع الذي بدأه رجل واحد، لقد كان جميع العسكريين أبطالا ضحوا بحياتهم دفاعا عن معتقداتهم، وقد آن أوان التصالح والنسيان بصورة واضحة ".

ولم يكن ريجان دقيقا في تاريخه. إذ كانت أجزاء منه متهافتة، وأجزاء أخرى مصطنعة، وأجزاء غيرها تبسيطا مخلا. وربما كان ريجان فقيرا في معلوماته، حسبما ألمح ناقدون فيما بعد، أو كان بلا إحساس. ولكن التقسير الأكثر بساطة أن ريجان أراد وجود ألمانيا غربية قوية تكون حليفا لنا في أوربا، لتكون متراسا ضد السوفييت. . وكان هذا هو العرض نفسه الدى قدمه المتأمرون ضد هتلر إلى الحلفاء سنة ١٩٤٤ م. لقد كان هذا أساس سياسة الولايات المتحدة تجاه إعادة بناء ألمانيا الغربية بعد الحرب. وإذا نظرنا إليه في سياق التاريخ العسكري والدبلوماسي للحرب الباردة، فقد كان التريخ الذي ذكره ريجان عن الحرب استرضاء للحرائي العام الألماني المحافظ. كان انتهاكا للحقيقة والتفسير، بيد أنه لم يكن خروجا على المألوف النمطي. كانت بيتبرج حالة مرئية جدا لظاهرة أمريكية قديمة جدا – البنا الخاطئ عمدا للمعاني التاريخية بقصد تحقيق أهداف سياسية.

والتاريخ السياسي الأمريكي، القريب منه والبعيد، مستخم بحسالات الاستغلال السيئ للتاريخ من جانب حزب أو آخر من أجل غايات وطنيــة. فعندما كانت أول الأحزاب الوطنية - الفيدراليون أنباع ألكسندر هاميلتون و الجمهور بون أتباع جيمس ماديسون - يقاتلون بالفعل في تسعينيات القرن التامن عشر، اتحه كل من الرجلين إلى التاريخ القريب لكي ينسجا رسالة كل من حزبيهما. وبالنسبة للإيديولوجية السياسية التتي ورثها الثوار عن إنجلترا، كانت الأحزاب السياسية الموجودة في أفضل أحوالها عبارة عن جماعات تدافع عن مصالحها الخاصة، وفي أسوئها عبارة عن عصابات تأمرية. فكيف كان يمكن تجاوز هذه العقبة؟ إن الأسماء نفسها التي اتخذها كل من هاميلتون كانت توظيفا للتاريخ. ومن المفترض أن الفيدر اليين كانوا الأصقاء الحقيقيين للدستور، لأن الحزب الفيدر الى كان هو حـزب التـصحيح سـنة ١٧٨٧ م وسنة ١٧٨٨ م. وكان كل من عارضهم (مثل ماديسون) عدوا للدستور في نظرهم. ولم يكن يهم أن آراء هاميلتون قد أغضبت المندوبين المبعوثين إلى المؤتمر الدستوري سنة ١٧٨٧ م لدرجة أنه عاد إلى وطنه بعد أن عبر عنها، أو أن أراء ماديسون ستكون جوهر الوثيقة الجديدة. وقد زعم الجمهوريون أنهم الورثة الحقيقيون الوحيدون للتبورة الأمريكية. و هكذا يضعون خصومهم في موقع أنصار الملكية المتحولين. ولم يكن يهم أن يكن الفير اليون جميعا، وحتى هاميلتون نفسه، يؤمنون بالنظام الجمهوري في الحكم، وأن كثيرين، مثل هاميلتون، قد خاطروا بحياتهم في الحرب الثورية.

وعندما قاد " آكلوا النار " في كارولينا الجنوبية الدولة صدوب الانشقلاق بعد انتخاب لنكولن في نوفمبر سنة ١٨٦٠ م، لم يترددوا في اتهامه بخلط الأجناس طوال حياته، وقد دوت الرسالة في جميع أرجاء العمق الجنوبي وساعدت الانفصاليين في مسعاهم لخلق دولة كونفيدر الية. وكانت

لحزب لنكولن الجمهورى رسالته الخاصة؛ نفور من التوسع فى الرق ترجع جذوره إلى تاريخ من من شرور الرق اجتذب جميع أصوات الناخبين فى الشمال لصالح لنكولن. وقد استخدم كل من الجانبين شندرات وقطعا من التاريخ – اقتباسات وخطبا انتزعت خارج سياقها، مثلا – لإضفاء الحجية على المجادلات السياسية بقوة الحقيقة التاريخية. ومع اتباع كلا الجانبين المنطق فى رسالة كل منهما، كان من المستحيل الوصول إلى حل وسط. وبعد فوات الأوان، حاول لنكولن أن يستخدم الفرامل، وأعلن أسفه فيما بعد "لأن الجميع عانوا الهلع من الحرب، وسعى الكل إلى تفاديها " ولكن " الحرب جاءت ". لقد كان هذا تاريخا سياسيا فى كبسولة وأنكر، بالفعل، أخطاء جيل كامل من الساسة.

وربما ينبغى على المرء ألاً يرثى لسوء استغلال التاريخ على أيدى الساسة. ذلك إن السياسة هى فعل كسب السلطة وممارستها، تبرهن فيه الحكمة القديمة " السلطة مفسدة " نفسها مرات ومرات. ومثلما يقول لورنس ستيرن لقرائه فى كتابه Tristram and Shandy: " مثلما تتسبب اضطرابات سوء الهضم، والمشاعر الكئيبة، فى اضطرابات الدم وتعكير المزاج وغيرها من التأثيرات السيئة، فإننى أرى فى الجسد السياسى - مثل الجسد الطبيعى - أنه لا شيء يمكن أن يتحكم فى تلك المشاعر بالكامل ويخضعها للعقل سوى اعتياد الفضيلة ". إن جرعة كبيرة من التاريخ سوف تبدو أنها العلاج الصحيح لفساد السلطة. ولكن أكثر استعراض إيجازا لكيفية استغلال الساسة التاريخ يحذرنا من أن فلسفة التاريخ العملية - وهى هدفنا فى هذا الكتاب - يجب أن تحدد الصفة العملية بطريقة مختلفة عن طرق الساسة وكتبة الخطب.

دروس في تقطيع المنطق

يظهر التاريخ القريب أن الساسة قد باتوا هم أساتذة الصضرر والأذى الناجم عن استخدام الشذرات والقصاصات التاريخية. شدرة من حكاية تاريخية، وتعميم مفيد في الموضوع، واقتباس أو اثنين خارج السياق يضفيان على بلاغة السياسي قدرا من الرشاقة والجاذبية. وهم يختارون هذه المشذرة من الأدلة أو من قصة سوف تقطع مجادلة الخصم على أفضل شكل وتجعله يبدو أحمقا مغفلا. وإذا كان تقطيع المنط التاريخي لا يمضي بعيدا، فهل يمكن لفلسفة تاريخ صالحة أن تقدم معيارا بديلا؟ وإذا استطعنا أن نجد طريقة ما لكبح جماح هذه الرغبة الملحة لاستغلال التاريخ، فإننا يمكن أنسهم إسهاما مهما آخر في في فلسفتنا للتاريخ.

والحقيقة المحزنة أنه ليس على المرء أن يمعن النظر لكى يجد الأمثلة نفسها عن تقطيع المنطق السياسى الذى يسىء استخدام التاريخ. فكر في السؤال الزائف وتوأمه السؤال الموجه إلى عواطف المرء الماتسة. وفي الصيغة وليس عقله، وكذلك المغالطة المنطقية عن خيال المآتة. وفي الصيغة السياسية من السؤال الزائف، يسأل المرء ببساطة سؤالا عن خصمه، ومن المفضل أن يلطخه بطريقة لا يمكن محوها أبدا (*). وقليل من التاريخ يجعل

^(*) لا يمكن أن يكون هذا الكلام يمت للفكر التاريخي بأية صلة؛ أنه وصفة شريرة للكذب والافتراء. وبغض النظر عن الناحية الأخلاقية، فإنه من غير الممكن قبوله في سياق ما يزعمه المؤلف من أنه يبحث عن فلسفة تاريخ "صالحة لزماننا " على حد تعبيره. هذا نوع غريب من الكتابة في مجال التاريخ أو الفكر التاريخي. وسوف يلاحظ القارئ في فصول هذا الكتاب أن مؤلفه يتحدث عن كل شيء تقريبا ما عدا الفكر التاريخي الحقيقي، أو تاريخ الكتابة التاريخية. وعلى الرغم من عدم رضائي عن المستوى الذي يعكسه كلام المؤلف، فقد رأيت من المفيد أن يتعرف القارئ على نوعية من الكتابة (التي يزعم أصحابها أنهم يكتبون في التاريخ) لأنها ببساطة تشي بالسطحية والسمة التجارية التي تتسم بها معظم الكتابات الأمريكية. والحقيقة أن هناك فرقا شاسعا بين الكتابات الأوربية والكتابات الأمريكية في العلم التاريخي. (المترجم)

التاريخ يجعل التجريح يلتصق بالشخص المقصود "هل توافق خصمى مع العدو؟ سوف نرى فى الحال". ولأن الذى يقوم بعملية التقطيع المنطقى لا يلقى بيانا إعلانيا، ولكنه يصيغ الإهانة والتلطيخ، الذى يكون استهزاء سخيفا فى غالب الأحيان، على شكل سؤال، فلا يمكن لأحد أن يذمه بأى شكل من الأشكال، وعلى كل حال، كان سؤالا، ونكون نحن السامعين أحرار فى تكوين رأينا الخاص.

فبعد أن قتل آرون بيرت قائد الحزب الفيدرالي، الكسندر هاميلتون، في مبارزة، شن الفيدراليون حملة سب وقدح ضد بيرت. وقد تتبعت جريدة الحزب الفيدرالي المسماة Gazette of the UnitedStates رحلات بيرت في العزب بسؤال زائف بعد الآخر. "كم سيمضي من الوقت قبل أن نسمع عن أن الكولونيل بيرت كان على رأس حزب تورى في المياه الغربية؟... متى ستكون القلاع والمخازن وغيرها من المواقع العسكرية في نيو أورليانز، وعلى ضفاف المسيسيبي في أيدى الكولونيل بيرت وحزبه التوري؟ " لاحظ كيف أن الفكرة الأولية صارت حقيقة في فكرة المحرر النهائية. لقد أدت تخمينات الجريدة إلى بث الشائعة، والنميمة، ثم الاتهام بأن بيرت قد تأمر لحرمان الولايات الغربية من الانضمام إلى الولايات الثلاث عشرة. وعندما حوكم بتهمة الخيانة أمام محكمة فيدرلية، برأته المحكمة، ولكنه لم يتول أي منصب عام بعد ذلك. لقد أدى السؤال الزائف مهمته.

ويمزج السؤال الزائف مابين معادلة السسؤال المستمون، والهجوم الموجه صوب المشاعر البشرية، وعبارة ad hominem (ومعناها الحرفى "ضد الإنسان") تتجاهل الحقيقة أو الزيف في خصمك وتسعى وراءه مباشرة: من أنت حتى تقول ذلك؟ ليس لك الحق في أن تأتى إلى هنا وتقوم بهذه المجادلة؟". وقد يتم شن مثل هذه المجادلة على مؤهلات المتحدث ("طبعا

نحن نتوقع منه أن يدافع عن موقفه لأنه...) أو أنه لا علاقة لــه بالــسؤال المطروح (هل تعرف أنه...) وفعالية الهجوم ضد الشخص مــستمدة مــن إلغاء مصداقية الخصم. وعندما أراد السناتور جون كالهون النائب عن جنوب كارولينا أن يمنع الالتماسات ضد انلرق في الكونجرس سنة ١٨٩٦ م، قــال لزملائه: " نحن الممثلين لاثنتي عشرة من هذه الولايات ذات السيادة الحنين شننت ضدهم هذه الحرب المميتة، يتوقعون منا أن نجلس هنا فــي صــمت، نسمع أنفسنا وناخبينا يوما بعد يوم توجيه الإدانات... ومع اتساع انتشار هذه الروح المثيرة للفتنة، فإنها لم تصدر عدواها إلــي المجلـس بعـد، أو إلــي الجمهور الكبير الذين يمثلون الجزء الذكي العامل في الشمال؛ ولكن ما لم يتم وقفها على وجه السرعة، فإنها سوف تستشري وتتصاعد حتى تزج بالفريقين الكبيرين فة الاتحاد في أتون صراع مميت ". وهكذا، لتكون هناك حاجة إلى قراءة قضية دعاة تحرير أو التفكير فيها.

وثمة صبيغة كريهة من السؤال الزائف تعتمد على خطأ سخيف في جملة طويلة لكى تحذف بقية الجملة، دون دحضها. وأنا أسميها صبيغة " الغلطة الصغيرة " من السؤال الزائف، وتمضى على هذا النحو: "كيف يمكننا أن نصدق بقية ما تقوله وقد أخطأت في تهجى اسم القاعدة في الفقرة الأولى؟ هذا سؤال زائف لأنه لا يتعامل مع بقية الجملة، وهو أقل كثيرا من أن يقدم دليلا أو مجادلة لتفنيد الجملة. كلما زاد الحنق والرفض من جانب الذي يقطع المنطق بشأن الغلطة الصغيرة، كان من الأسهل عليه أن يتجاهل بقية الرسالة.

وقد وجد أحد خبراء الإعلام أن الكاتب جيل شيبى قد عثر فى إحدى المناسبات على خطأ فى سن الرئيس بيل كلينتون (سنة واحدة) فى سيرة

هيلارى كلينتون التى تحمل عنون Hillary's Choice. وقد نفخ هذا الناقد فى الخطأ وزعم أن بقية خارجة عن التصديق، لأن المؤلفة وقعت فى هذا الخطأ، فما الأخطاء الأخرى التى وقعت فيها المؤلفة؟ ولو أن مستشار الرئيس السابق للأمن القومى ريتشارد كلارك أخطأ فى أسباب القبض على أحد الإرهابيين، فهل كان ذلك يقوض مصداقية كتابه Against Enemies؟ ستكون الإجابة، نعم، بانسبة لأى ناقد. إن الحذف بسؤال زائف يقوم على أساس غلطة صغيرة فى الحكاية التاريخية التى يرويها المؤلف.

ولكى أكون صريحا، كنت ضحية لسؤال زائف على أساس من الغلطة الصغيرة. ففى مراجعة لكتاب كتبته عن انتفاضة العبيد سنة ١٧٤١ م بمدينة نيويورك؛ ولاحظ الذى كتب العرض أن هناك خطأ رقميا فى عدد العبيد الذين ذكرت أنهم عاشوا فى المدينة وعملوا بها. قفال إذا كنت قد وقعت فلى هذا الخطأ، فكيف يمكن لأحد أن يثق فى بقية الكتاب؟ والحقيقة أن من عرض للكتاب كانت له مشكلة أشد خطورة بشأن تفسيري. فقد ظن أن الرق يمتد بأصوله إلى العنصرية. وكنت وما زلت أظن أن أصول الرق تكمن فلى الحاجة إلى عمالة رخيصة ومستعدة. ولكى يقوض مجادلتى دون أن يستبك معها مباشرة، ركز على الغلطة الصغيرة.

ويمكن لمن يقطع المنطق إذا كان داهية أن يستخدم رجلا وهما لكى يسىء استخدام الأمثلة التاريخية. والرجل الوهمى خيال مآتة، وحشى المنظر من بعد، (بالنسبة للغربان على الأقل) ولكنه عن قرب مجرد ملابس قديمة محشوة بالقش - لا يمثل خطرا على الإطلاق. و يمكن لمن قع المنطق إذا كان مستعدا للعمل قليلا أن يبنى خيال مآتة من تتويعة من الشذرات والنتف التاريخية. ثم يأخذ السياسى خيال المآتة بدلا من متابعة المجادلات التى قام بها خصمه فعلا. بيد أن خيال المآتة لا يشعل صراعا قط لأنه لا يستطيع. إنه مصنوع من القش.

"فى سنة ١٨٥٤ م دخل مستر إيراهام لنكوان ومستر ترومبول (السيناتور النائب عن اللينوى) فى ترتيب يجمع يجمع أحدهما مع الآخر، ومع كل منهما أصدقاؤه، لحل حزب الهويج القديم بيد، ولحل الحزب الديموقراطى القديم باليد الأخرى، وأن يدمجا الحزبين فى حزب ولحد يدعو إلى إلغاء الرق تحت اسم الحزب الجمهورى والتخفى وراءه... وكان على لنكولن أن يجلب من معسكر الهويج القدامى الداعين لإلغاء الرق، وينقلهم إلى جانب، يوشع جيدينج، وسالمون تشيس، وفريدريك دوجلس، وبارسون لويجى وكلهم من دعاة إلغاء الرق، الذين كانوا على استعداد لاستقبالهم وتعميدهم فى عقيدتهم الجديدة ".

عندما تمت بعثرة محتويات خيال المآتة الأول في الهواء، وهو حزب جمهوري افتراضي من أنصار الرق على أيدى طاقم من " الجمهوريين السود " (والحقيقة أنه كان حزبا على أرض حرة به بعض دعاة إلغاء الرق)، ضرب دوجلاس منتشيا حشو خيال مآتة آخر، هو إيمان لنكولن المزعوم بالمساواة بين البيض والسود: " أنا لا أتساءل عن إيمان مستر لنكولن الذي يدرك أن الزنجي قد صار ندا له، ومن ثم فهو أخوه [ضحك]، وكنني من جانبي، لا أعتبر الزنجي ندا لي، وأنكر تماما أن يكون أخي، أو أحد أقربائي على الإطلاق ". كان ذلك أسلوبا فعالا في المناظرة حسيما ذكر الصفيون على الإطلاق ". كان ذلك أسلوبا فعالا في المناظرة حسيما ذكر الصفيون

الذين شهدوا المشهد، بيد أنه لم يكن صحيحا و لا منصفا لآراء لنكولن من الناحية التاريخية. إذ كان لنكولن يعتقد أن الناس جميعا يستحقون نتيجة عملهم، ولكنه لم يكن يؤمن بالمساواة بين الأجناس ".

وزعم لنكولن بدوره أن دوجلاس كاريد مد نطاق الرق فى الشمال. فقد كتب دوجلاس مرسوم كنساس نبراسكا، الذى يشترط على الشعب فى منطقة ما أن يقرروا ما إذا كان يجب أن تكون ولاية حرة أو ولاية للعبيد. وركز لنكولن على نص المرسوم: " إن قصد هذا المرسوم ليس تشريع الرق فى أية أرض أو ولاية "، واستمر لنكولن: " كنت دائما احتار فى معرفة صلة كلمة ولاية بهذا الشأن. إن القاضى دوجلاس يعرف. فهو الذى وضعها هناك. وهو يعلم ما الذى وضعه هناك. لم يكن القانون الذى يمررونه هناك؟ ".

إن خيال المآتة هنا، وهو كلمة واحدة، كان قد أقيم آنذاك. وسدد له لنكولن ضربة قاصمة: "بعد روية قرار دريد سكوت، الذي أخبر الناس بأنه لا يمكنهم استبعاد الرق من منطقة ما، وما إذا كان هناك قرار آخر سوف يصدر عن دريد سكوت يمنعهم من استبعاده من إحدى الولايات، وسوف نكتشف أنه إذا كانت الكلمة قد وضعت هناك في الأصل، فقد كان ذلك بالنظر إلى شيء سوف يجئ في أوانه، وسوف نرى أنها كانت النصف الآخر لشيء ما. "ولم هذا الشيء ما سوى الرق مفروضا على ولايات الشمال الحرة: "إنني أطلب انتباه الناس المجتمعين هنا وفي كل مكان آخر، إلى المسار الذي يتبعه القاضى دوجلاس يوميا وصلته بمسألة إشاعة الرق في البلاد كلها. وليست هذه عودة إلى السجلات، ولكن لنأخذ الخطب التي التي يلقيها، والخطب التي القاها بالأمس وما قبل الأمس، والتي يلقيها باستمرار في جميع والخطب التي ألقاها بالأمس وما قبل الأمس، والتي يلقيها باستمرار في جميع أنحاء البلاد – إنني أطلب منكم الانتباه إليها ". ولم يكن لدوجلاس مثل هذا المدا

القصد، من ناحية لأنه كان بحاجة إلى الديموقر اطبين فى و لايات الشمال لكى يصوتوا له إذا ما كان يريد تحقيق حلمه بأن يصبح رئيسا، ولكن خيال المآتة كان قد تلاشى بالفعل.

ولا يمنح الزعماء الحاليون شيئا لعملاقى أللينوى عندما يتعلق الأمر بضرب خيال المآتة. فقد فاز الرئيس جورج بوش بعدة جولات ضدهما، ففى الحملة الانتخابية سنة ٢٠٠٤ م حذر الرئيس بوش قائلا: "قد يبدو من الكرم وانفتاح العقل أن نقول إن الجميع محقون في كل مسألة أخلاقية بقدر متساو، ولكن ذلك الموقف يمكن أيضا أن يكون عذرا لتحاشى أهم مسائل الحياة "لقد كانت النسبية الأخلاقية خيال المآتة بالنسبة له. وفي خطاب حالة الاتحاد سنة حدودنا "سوف يترك " عالما يتعرض للهجوم لكي يدافع عن نفسه بنفسه ". حدودنا "سوف يترك " عالما يتعرض للهجوم لكي يدافع عن نفسه بنفسه ". فمن كان الانعزالي الذي كانت هذه الدروس موجهة إليه؟ إنه مستر خيال المآتة.

هناك وفرة من الأمثلة التاريخية على أساليب البلاغة التى يستخدمها الساسة -الطلب الخاص. وهى تشير إلى أن هناك حالات بعينها أو إناسا بعينهم يجب إعفاؤهم من القواعد العامة أو حتى من القانون. الطلب الخاص يمكن أن يكون بحسب الموقف - ومعنى هذا أن الدعاوى يمكن أن تعتمد على الزمان والمكان. هذه الصيغة من المعايير المزدوجة تحدث غالبا في السياسة. فبعد الفشل الذريع الذي عرف إعلاميا باسم (Blackhawk Down) في مقديشيو بالصومال سنة ١٩٩٣ م تم إجبار ليس آسبين وزير الدفاع على الاستقالة. إذ إن القوات الأمريكية في الصومال لم تكن قد منحت حق استخدام الأسلحة الآلية لكي يؤدوا مهامهم في أمان. وعندما سئل وزير الدفاع دونالد رامسفيلد عن تكرار حالات المركبات ذات الدروع الهزيلة التي جعلت

القوات لأمريكية بلا دفاع ضد القنابل المزروعة على جوانب الطرق فى أثناء حرب العراق بعد عشر سنوات، أجاب فى شماتة: "عليك أن تخوض حربا بالجيش الذى ترغب فى أن يكون لديك ". ولم ينل أى توبيخ بسبب طلبه الخاص المتعلق بالمشكلات الخطيرة مع المدفعية العسكرية الأمريكية.

وقد ساعد رامسفیلد علی توضیح موقفه قدر قلیل من التاریخ. اذ کان دفاعه عن تخطیطه و تخطیط الإدارة للحرب أنه كان یعرف هو و زملاؤه كل مزالق الحرب طویلة المدی. و و فقا لصحفی من الواشنطون بوست، شرح أنه الم یدخل العراق بدون اهتمام أو استعدادات كافیة. فقد توقع رامسفیلد الأمور التی كان یمكن أن تمضی بشكل خاطئ – ولم یتوقعها فقط، ولكنه سجلها كتابة ". و كانت الوثیقة ما زالت محظورة، ولكن كان لا بد لها أن تبرهن – وكان للتاریخ أن یبرهن – أن رامسفیلد لم یكن لیقدم التماسا خاصا. والواقع أنه حسبما شرح تقریر رامسفیلد المكتوب: " ربما كان سینفع لو أن الأمریكیین وقادتهم قد أبدو اقدرا أقل من الغطرسة وأكثر فهما لأنفسهم ومكانهم فی التاریخ. و ربما یظهر الأمریكیون، أكثر من أی شعب آخر، أنهم یفقدون الذاكرة عن ماضیهم بشكل مستمر، مثلما ینسون تاریخ أولئك الذین من حولهم ".

وأخيرا، يمكن للمرء أن ينزلق أسفل المحور الزلق وهو يمسك بخيال المآتة في إحدى يديه. وسيكون القليل من التاريخ المنشور بطريقة صحيحة مفيدا. خذ المجادلة التالية التي جاءت في قرار حديث للمحكمة العليا في الولايات المتحدة. فقد استخدمت المحكمة التاريخ طوال الوقت. وكان القضاة يفحصون السوابق، أي القرارات السابقة للمحكمة في القيضايا الماضية الشبيهة بالقضية التي يجب اتخاذ قرار بشأنها في تلك اللحظة. وكانوا أيضا

يستعرضون الحوادث التي أدت إلى القضية في رحاب الواقع التاريخي المحيط بالقضية. ولما كانت القضية المنظورة أماسم تثير مسائل دستورية، فإنهم كانوا يطرحون المزيد من الأسنئة التاريخية. ترى ماذا كان قصد مسن وضعوا الدستور وتعديلاته عندما كتبوا تلك الكلمات؟ وما الذي كانت تعنيه تلك الكلمات بالنسبة للناس اتلذين عاشوا آنذاك؟ هل تغيرت تلك المعانى بمرور الزمن؟

ماذا لو تقبلت المحكمة مفهوم الحق في الحياة، كما حدث بالفعال، وقررت أن الجنين شخص تحت حماية القانون؟ وهو ما يعنى أن الـشخص الذي ما زال في الرحم له الحقوق والامتيازات كافة، والحصانة التي يتمتع بها أي مواطن من حيث المفهوم. (ليس من الواضح كيف سيتناسب هذا مع قانون المواطنة السارى؛ لأننا نصبح مواطنين عندما نواد هنا وليس عندما يتم حملنا هناك). إذن فإن المرأة الحامل لم تعد مجرد أم مستقبلية وإنما هي الحافظ لكائن بشرى حى بالفعل. إننا نطلب من آباء الأطفال الأحياء أن يقدموا لهؤ لاء الأطفال، الطعام، والمأوى، وبعض العطف الأبوى. فهل يمكننا أن أن نطلب هذا من المر أة الحامل؟ و إذا كان الكافيين و تـــدخين الـــسجائر وتعاطى الكحوليات يؤذى الأجنة، فهل يمكننا منع النساء من استعمال هذه الأشياء قانونا؟ و هل يمكننا أبيضا أن نطلب منهن زيارة الطبيب بصفة منتظمة للفحص، وأن يبقين في صحة جيدة، وأن تأكلن وتمارسن الرياضــة بشكل صحيح؟ عل يمكننا أن نحد من تحركاتهن، بل وضعهن بالمستشفى إذا ما قاومن هذه القيود على حرياتهن الشخصية؛ وكم قدر الإشراف الذي يجب على الدولة أن تفرضه من أجل حماية الجنين من أمه المستقبلية؟ إننا يمكن أن نفعل هذا كله إذا ما تبعنا المنزلق المنحدر لفكرة أن النسوة الحوامل لسن مجرد أفراد قد يحملن، أو لا يحملن، أطفالا؛ ولكنهن حاويات لكائنات حية.

فى قضية كارهات ضد جونزاليس (٢٠٠٧) خرجت القاضية روث بادر جينسبورج عن رأى الأغلبية وقالت إن الحظر الفيدرالى للإجهاض دستوري. وكتبت: "إن قرار اليوم يدعو لتوخى الحذر. إنه يسرفض الأخذ بالقرارات السابقة حول حقوق الإجهاض مأخذ الجد. إنه يتسامح، بل يستحسن فى الواقع، التدخل الفيدرالى ليمنع فى أرجاء الوطن كله إجراء الإجهاض الذى وجد أنه ضرورى ومناسب فى حالات بعينها، حددتها الكلية الأمريكية للولادة وأمراض النساء، وهو يشوش الخط الذى تم رسمه بصورة ثابتة فى قضايا سابقة خاصة بالإجهاض قبل اكتمال مقومات الحياة فى الجنين وبعدها، وللمرة الأولى (منذ تم الفصل فى قضية روى ضد وادى) الجنين وبعدها، وللمرة الأولى (منذ تم الفصل فى قضية روى ضد وادى) تبارك المحكمة منع الإجهاض بدون استثناء لحماية صحة المرأة ". ولا شك فى أن القاضية كانت تعرف أن هناك محكمة فى كارولينا الجنوبية كانت قد سارت بالفعل وفق هذا المنطق، إن كل خطوة ترتبط بخطوة أخرى سابقة نزولا على المنحدر.

مثل هذه المنحرات الزلقة لها شكلان. ويتطلب كل منهما مجادلات تاريخية. وأحد هذين الشكلين مؤقت. إذ إن A، في حال السماج له، سوف يؤدى إلى B، وسوف تؤدى B إلى C... وهكذا دواليك، حتى نصل أخبرا إلى X، وهي نتيجة غير مرغوبة. وسوف يحدث هذا بشكل أو باخر مسن التيسير. وهكذا لا يجب علينا أن يكون لدينا A منذ البداية. فإذا تركنا، مثلا، المدارس تدرس التحكم في المواليد لمنع حمل المراهقات، فإن التلاميذ سوف يصيرون على ألفة بالجنس، وعندها سوف يحدث المزيد من ممارسة الجنس بين المراهقين. وهنا تكون الغلطة في افتراض وجود العلاقة السببية وهي غلطة شائعة في مجال البحث التاريخي للغاية.

أما النوع الثاني من المنحدر الزلق فهو سردى - أى يكون النقدم من A إلى B يكون من خلال سلسلة من الخطوات الصغيرة للغاية. ولو أن الرب

وجد فى سدوم رجالا طيبين، لما كان قد دمرها بأسرها. ويتكون المنحدر من عدد كاف من الرجال؛ ألف، مائة، عشرة رجال؟ إن الفرق بين الأرقام ليس محددا حقا، ولا الرابطة المنطقية بين الرقم النهائى وإنقاذ سدوم. ذلك أن الرقم ينحدر بنفسه إلى أسفل المنحدر (فليست هناك حاجة لوجود سبب).

وغالبا ما يقذف الساسة بالمجادلات على هذا المنحدر الزلق. ففى سنة ١٩٥٦ م، اتحد الساسة الجنوبيون معارضين لقرار إنهاء الفصل العنصرى فى قضية براون ضد هيئة التعليم (١٩٥٤ م) وقد وقعوا منشورا ونسشروه فى Congressional Record، وكانت أحد المزاعم الرئيسية فيه منحدرا زلقا يغطيه التاريخ بالشحم. أو لا: " نحن نعتبر القرارات التى أصدرتها المحكمة العليا فى قضايا المدارس نوعا من استخدام السلطة القضائية، إنه يمثل ذروة اتجاه فى القضاء الفيدرالى يأخذ على عاتقه التشريع، ويحط من سلطة الكونجرس، ويعتدى على الحقوق المصونة للو لايات والشعب ". وبالفعل، فإن ممارسة المحكمة لنوع من العملية المادية (أى تطبيق التعديل الرابع عشر لفحص مدى دستورية ترتيبات الو لايات ووقوانينها البرلمانية) إنما تعود بتاريخها إلى قضية لوشنر ضد نيويورك (١٩٠٥ م)، وهو قرار يضرب ترتبات الو لاية بشأن الصحة والعمل والرفاهية على مدى خمسين سنة قبل براون. وكانت قوانين جيم كرو للو لايات الجنوبية من بين تلك الترتيبات التى كانت سارية زمن لوشنر.

فى هذا المنشور انزلق تعليم التاريخ أيضا إلى أسفل المنحدر "دون النظر إلى موافقة المحكومين، يهدد الوسطاء الخارجيين التغيرات المباشرة والثورية التى جرت فى نظم مدارسنا العامة. فإذا عمل بها بالفعل، فمن المؤكد أن هذا سيدمر نظام التعليم العام فى بعض الولايات "هذا النظام الذى يقوم على الفصل العنصرى فى التعليم يحدد أصغر وحدة فى العملة

الأمريكية للإنفاق على المدارس السوداء مقابل كل دو لار ينفق على المدارس البيضاء. وماذا بعد؟ هل ستقوم المحاكم بقلب قوانين الولايات الجنوبية ضد الزواج المختلط رأسا على عقب؟ (وقد فعلتها المحكمة العليا في قضية لافينج ضد فرجينيا سنة ١٩٦٧ م) إلى أين سيؤدى هذا؟ وقد حدر جاكسون والمسيسيبي، والديلي نيوز بالإجماع بعد أن أعلن براون أن " الدم البشرى قد يلطخ التراب الجنوبي في في كثير من الأماكن بسبب هذا القرار... فسوف يؤدى وجود الأطفال البيض والسود في المدرسة نفسها إلى التراوج بسين اللونين... وتهجين الجنس البشرى ".

الكلمات الضائعة في كل المناسبات

إذا كان تقطيع المنطق أمرا متعبا للغاية، فهناك طرق أخرى لاستخدام النتف التاريخية، والخداع بالاقتباس خارج السياق، ويمكن أن يكون الاقتباس خارج السياق فعالا للغاية. ويتعلم المؤرخون في أثناء أولى حلقاتهم الدراسية أنه يجب لفهم معنى وثيقة ما أن يضع المرء في حسبانه من الذي كتبها، ومتى، وتحت أي ظروف، وهلم جرا، ولايجب على المرء بصفة خاصة، أن يقتبس من الوثيقة قطعة تناقض معناها الأوسع أو غرضها الأكبر.

ويمكن لأى كاتب له كلام منشور أن يتوقع أن يتم الاقتباس من كلامه خارج السياق. وغالبا ما يحدث هذا لكلمات المؤرخين حين يقتبس الصحفيون كلامنا. وليس من الممكن حتى تجنب بعض هذا. فقد تمتد المكالمة التليفونية مع الصحفى ساعة من الزمان، ولكن سطرين فقط يظهران عند الطباعة. بل إن منشوراتنا وأحاديثنا الخاصة ربما تمزق قطعا ثم يعاد تجميعها بطريقة خاطئة إذا ما كانت الكلمات المحيطة بها تشير إلى اتجاه مختلف.

فى سياق جلسة استماع استمرت ساعات حول اتهام الرئيس بيل كلينتون، استمعت لجنة فرعية من النواب إلى شهادات العشرات من كبار الباحثين، وكان لديها قبل هذا مئات الصفحات من بحوث هؤلاء الخبراء وآرائهم، وانقسم الباحثون كما كان متوقعا حول ما إذا كانت أفعال كلينتون تمثل انتهاكات يمكن أن تتحول إلى اتهامات، ولكن الصحفيين الذين كانوا يغطون هذه الجلسات التقطوا تعليقا واحدا قاله سين ويلينتز، أستاذ التاريخ فى جامعة برنستون، وعندما تم اقتباسه خارج السياق اكتسى أهمية لم تكن له فى حينها. فقد أجاب بصوت حاد على أحد أعضاء الكونجرس المعادين؛ لقد قال ويلينتز إن التاريخ سوف " يطارد ويدين " أعضاء السناتو الذين صوتوا مع الاتهامات الأسباب حزبية بحتة. واحتفى الصحفيون بتعليق ويلينتز الذى لم يخطط له، وأخذوه على أنه تحد مباشر الأعضاء السناتو الجمهوريين بدالا من ربطه بموضوعه الأكبر، وهو أن تهما حزبية ومتسرعة قد وجهت ولم يمحها مرور الزمن.

والاقتباس خارج السياق يمكن أيضا أن يبدل ما يبدو حقائق تاريخية. فعلى سبيل المثال، حدث فى خضم حملة الانتخابات الرئاسية سنة ٢٠٠٤ م أن جهز مسئولو الدعاية والإعلام فى الحزب الجمهورى إعلانا اقتبس من مقالة لمحرر "صحيفة تصدر فى مسقط رأس كيرى ". وكان الاقتباس من الصحيفة دقيقا، ولكن الإعلان تغافل عن حقيقة أن الصحيفة، وهى بوسطون هير الد، كانت قد صادقت على ترشيح بوش للرئاسة وأيدته سنة ٢٠٠٠ م، ولم تعبأ كثيرا بموقف كيرى فى المسألة التى ورد ذكرها فى كلمة المحرر، إن قصاصات الصحفالمنتقاة للمرشحين السياسيين وإعادة طباعة النتف المأخوذة من افتتاحيات الصحف الموالية، تتم عملية إعادة عرض رأى المحرر بحيث تبدو كما لو كانت حقيقية، وهذا شكل آخر من أشكال الاقتباس

خارج السياق، ولا يعلم القارئ أن كلمات الصحيفة جزء من افتتاحية (على اعتبار أنها معارضة لكتابة الأخبار أو التحقيق الصحفى).

وتغيير الكلمات في الاقتباس، أو تحسين الاقتباس ونسسته بالخطأ لشخص ما، أشكال من الكذب الذي تنتمي إليه أكثر من انتمائها إلى الاقتباس خارج السياق، على الرغم من أن كليهما يشوبه الإفلاس الأخلاقي، وهو أمر شائع في المواقع السياسية على شبكة الإنترنت. ويمكن أن يودي إغفال كلمات أو انتزاع كلمات من السياق إلى حدوث الكثير من الدمار بالحقيقة شأنه شأن الكذب بخصوص ما يقوله أحد الناس. والساسي الديموقراطي "هوارد دين " ليس حريصا في كلامه دائما، ولكن معارضيه يجعلون كلمات أكثر عرضة للمذمة عندما يأخذونها خارج سياقها. وفي سنة ٥٠٠٥ م قاتل في حوار صحفي: " إن فكرة أننا في سبيلنا اكسب هذه الحرب فكرة خاطئة تماما لسوء الحظ ". واهتاج الجمهوريون لأن رئيس الحزب الديموقراطي يوفر لأعدائنا ما يريحهم، وظن الديموقراطيون أن دين يظهرهم في صدورة غير الوطنيين. والحقيقة أن التعليقات كانت تاريخية، وكانت جزءا من المقارنة بين حرب العراق وحرب فيتنام، وهي حدرب كان لابد لأكثر المقارنة بين حرب العراق وحرب فيتنام، وهي حرب كان لابد لأكثر المراقبين وطنية (فيما عدا الجنرال ويستمور لاند) أن يسلم بأننا لم نكسبها.

ولا يكون وضع كلمات قالها أحد السياسيين في الماضي مساندة لسياسة جارية أمرا صائبا ودقيقا سوى عندما يكون السياقان متماثلين. ففي خطاب في وست بوينت في شهر مايو ٢٠٠٦ م، ألقاه الرئيس جورج دبليو بوش، وهو يشبه التهديد الذي يشكله الإرهاب المعاصر بما كانت تمثله السشيوعية من تهديد في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، مقارنا نفسه بالرئيس هارى ترومان ضمنا (من حسن الحظ أنه كان لدينا رئيس اسمه هارى ترومان) ثم عقد مشابهة بين سياسة هارى ترومان في دعم الحكومات

المعادية للشيوعية فى أوربا وآسيا، وسياساته هـو فـى غـزو العـراق وأفغانستان. وعندما يقرأ المرء كلها بمـا فيهـا "مـذهب ترومـان "فـى الكونجرس يوم ١٤ مارس سنة ١٩٤٧ م، تبدو أهمية السياق واضحة جلية:

" إن خطورة الموقف الذي يواجه العالم اليوم تستدعي ظهوري أمام جلسة مشتركة للكونجرس، وهذا ما تقتضيه السياسة الخارجية والأمن القومي لهذه البلاد، وأحد وجوه الموقف الحالي، الذي أود طرحه عليكم في هذا الوقت لكي تفكروا فيه وتتخذوا القرار المناسب، يتعلق باليونان وتركيا، فقد تلقت الولايات المتحدة من الحكومة اليونانية طلبا عاجلا بالمساعدة المالية والاقتصادية. وتتماشى التقارير المبدئية من البعثة الاقتصادية الموجودة في اليونان الآن، وتقارير السفير في اليونان، مع تصريح الحكومة اليونانية بأن المساعدة لازمة تماما لبقاء اليونان أمة حرة ".

كان ترومان يطلب " مساعدة أجنبية " وكانت تلك بداية سياسة المساعدات الاقتصادية والفنية لمساعدة البلاد الأجنبية " إن اليونان اليوم بلا ميزانية لتمويل استيراد البضائع اللازمة لبقائها. وفي ظل هذه الظروف لا ميكن لشعب اليونان أن يحرز التقدم في حل مشكلات اليونان وإعادة البناء. يمكن لشعب اليونان بحاجة إلى المساعدة الاقتصادية والمالية لتعينها على استئناف مشترياتها من الطعام، والكساء، والوقود، والبذور. وهذه أشياء لا غنى عنها لحياة شعبها ولا يمكن الحصول سوى من خارج البلاد. ولابد أن تحصل اليونان على المساعدة لاستيراد البضائع اللازمة لاستعادة الأمن الداخلي والنظام وهو أمر ضروري جدا للتعافي السياسي والاقتصادي. " ولا ريب في ملاطات ترومان، وهي إشارة أنه كانت هناك إشارة إلى " الإرهاب " في ملاحظات ترومان، وهي إشارة ضرورية لتأكيد إلحاح الأحداث في عقول أعضاء الكونجرس الذين كانوا قد اعتادوا حالات الضرورة في الحرب العالمية الثانية وتعبوا من جرائها. " إن

وجود اليونان نفسه مهدد اليوم بسبب الأنشطة الإرهابية التى يقوم بها الآلاف من الرجال المسلحين، يقودهم الشيوعيون الذين يتحدون سلطة الحكومة اليونانية في عدد من المواقع؛ لايما على امتداد الحدود الشمالية ".

المساعدة، المساندة والدعم، ولكن ليس غزو بلد أجنبي، كانت جوهر مبدأ ترومان. قارن هذا بما قاله الرئيس جورج بوش للطلاب العسكريين في وست بوينت وهو ينقل عن ترومان وعن التاريخ دفاعا عن المجهود الحربي في العراق: "لقد عملتم بجدية في فصولكم الدراسية، وعلى أرض التدريب استعدادا لعنف القتال... إن ميدان المعركة هو المكان الذي سوف تأخذكم درجتكم ومهمتكم إليه... لقد أحاطت بكم حقيقة الحرب منذ اللحظات الأولى لكم في هذه الأكاديمية، إن أكثر من خمسين من زملائكم الطلاب العسكريين، هنا في وست بوينت، قد شهدوا بالفعل القتال في العراق وأفغانستان ". كان الحل العسكري لمشكلة الأمن القومي، يتم تنفيذه في " ميدان المعركة " يختلف الحل العسكري لمشكلة الأمن القومي، يتم تنفيذه في " ميدان المعركة " يختلف تمام الاختلاف عن اقتراح ترومان. لقد غير بوش مذهب ترومان من بديل للحرب إلى الحرب، ليخوض "هذه الحرب الجديدة "، على حد تعبيره، بالخروج عن السياق.

إن الشعارات البراقة التي تستخدم إشارات مشفرة إلى التاريخ لمواجهة السرد الأكثر تفصيلا للأحداث التاريخية، إنها تتجاهل السياق تماما، مسثلا عبارة " اقطع واجر " التي يمكن تطبيقها على الخصوم في حسرب العسراق تذكرنا بالنقد الذي أثاره خروجنا من فيتنام، ومثل هذه الكلمات التاريخية المشحونة تملأ البلاغة والخطابة السياسية. ففي حلقة أنيعت أوائل سنة ٢٠٠٦ من البرنامج الكوميدي المحبوب عن الأحداث الجارية استخدم فيها الرئيس أوضح جون ستيوارت، مقدم البرنامج، عدد المرات التي استخدم فيها الرئيس جورج دبليو بوش مصطلح " النصر " في خطبه عن حرب العراق، ولم يكن جورج دبليو بوش مصطلح " النصر " في خطبه عن حرب العراق، ولم يكن

احتلال الولايات المتحدة للعراق يمضى بطريقة جيدة وقر رأى الفريق الاستشارى للرئيس، بعد سلسلة من استطلاعات الرأى، أن الأمريكيين سيدعمون تورطنا المستمر في العراق إذا ما استخدم الرئيس كلمة "النصر "مستعينا إلى الذاكرة صورا من الحرب العالمية الثانية، بدلا من الكلمات المهمة الأخرى مثل الديموقر اطية، والسلام والحرية، التي كانت من سمات خطاباته.

ويمكن لتجاهل السياق أن يؤدى بسهولة إلى أحادية الملاحظة أو الانحياز إلى جانب واحد. وهناك الكثير من الأمثلة عن هذا النوع نفسه من الانحيازات لجانب واحد بدافع من الرغبة في عمل قضية لذلك الجانب، في تاريخ السياسة. فقد كان الساسة المؤيدون لإلغاء الرق قبل الحرب الأهلية أساتذة هذا الأسلوب. ففي سنة ١٨٥٨ م، قال السناتور ويليام هنري ستيوارد النائب عن نيويورك وأحد دعاة إلغاء الرق لمستمعيه في روشستر بنيويورك: " إما أن تؤدى الحال في النهاية إلى زراعة حقول القطن والأرز في جنوب كار ولينا وزر اعات قصب السكر في لويزيانا، بأيدى العمال الأحرار، كما أن شار لستون ونيو أور ليانز سوف تصيران مركزين تجاربين للتجارة للتجارة المشروعة فقط، أو أن يجب تسليم حقول الشلجم والقمح في ماساشوستس ونيويورك من جديد إلى ثقافة العبيد وإنتاج العبيد، وتصير بوسطون ونيويورك مرة أخرى أسواقا للمتاجرة في أجساد البشر وأرواحهم ". إنها لغة قوية، غير واقعية، بالنسبة لنيويورك وبوسطون (المينائين الرئيسيين لدخول العبيد الهاربين وخروجهم) ولا تبالى في إدانتها للجنوب. فقد كانت معظم عائلات مزارع القطن تعمل وحدها، أو بمساعدة المـزارعين المـأجورين (إذ لم يكن في مقدورهم تحمل فقات العبيد)، مثلما كانت معظم العائلات التي تملك مزارع في نيو إنجلند تعتمد على الأطفال والعمال المأجورين في مواسم الزراعة والحصاد.

وثمة شكل من أشكال الانحياز إلى جانب واحد يتمثل في المجادلة انطلاقا من النتيجة. فالسياسيون، مثل بقية الناس، لا ينظرون فقط للأمام من أجل النتائج الجيدة ولكنهم يميلون إلى المجادلة من توقعهم لذلك. إذ يمكن نهب التاريخ بحثا عن " دروس" بلا أبعاد وإنما هي فعلا مجادلات نتطلق من النتائج. والقول بأنه ينبغي علينا أن نتقبل حقيقة وضع معين لأنه (لو كان حقيقيا) سوف يؤدي إلى غاية مرغوبة، ليس دليلا على أن المقدمة المنطقية نفسها حقيقية أو أن الغاية المرغوبة نفسها سوف تتحقق "يجب علينا أن نجلب الديموقراطية والسلام إلى الشرق الأوسط. وإذا لم نفعل ستكون بلايين الدولارات وآلاف الأرواح التي خسرناها في العراق قد ضاعت هباء منثورا". تلك هي المغالطة المنطقية في معاني الكلمات عند الجدل انطلاقا من النتائج. كما أن رفض مقدمة منطقية لمجرد أن نتيجتها ستكون غير مرغوبة، النتائج. كما أن رفض مقدمة منطقية لمجرد أن نتيجتها ستكون غير مرغوبة، فصوف تتأثر سواحلنا، وإمدادتنا من الوقود، بل والمناخ الذي نعيش فيه فسوف تتأثر سواحلنا، وإمدادتنا من الوقود، بل والمناخ الذي نعيش فيه على المناخ ودرجة حرارة المحيط ".

وأكثر الأمثلة سخافة (عن قصد بلا ريب) على هذا النمط من التعليل بناء على نتيجة سليبة يتجلى فى السخرية السياسية فى فيلم لإخوان ماركس Duck Soup إذ إن روفوس ت. فاير فلاى (جروتشو) هو رئيس فريدونيا الضئيلة، التى تواجه التهديد من جانب جارتها سيلفانيا. وينتهى لقاء دبلوماسى بين البلدين بالفشل قبل أن تبدأ وقائعه عندما يقول فابرفلاى منطلقا من التعليل من النتائج السلبية المتوقعة - "ماذا لو مددت يد الصداقة إلى رئيس سيلفانيا ورفضها؟ - ويصبح أسيرا لهذا المنظور إلى الدرجة التى تجعله يصفع الرئيس السيلفانى عندما يدخل. ثم تقعب هذا حرب قصيرة. أما

الحروب الحقيقية التى يجابها مثل هذا التفكير الذى يخلط بين المنطق واللامنطق؛ فإنها نادرا ما تكون بلا دماء.

قبل أن يتأمل المرء المجادلة انطلاقا من النتائج مثل ذلك الشكل من الاختلال العقلى الذى ينفرد به الأخوان ماركس، فليعد إلى سنة ١٨٩٦ م والخطبة التى ألقاها كاليون فى مجلس الشيوخ ضد دعاوى المطالبة بإلغاء الرق: "مهما كان صحيحا موقف الولايات الداعية إلى إلغاء الرق فى الوقت الحاضر، فإنه فى غضون سنوات قليلة سوف يخلفهم أولئك النين سوف يتعلمون أن يكرهوا الناس والمؤسسات فى ما يقرب من نصف هذا الاتحاد، كراهية مميتة تفوق أية كراهية أضمرتها أية أمة ضد أمة غيرها. من السهل أن نرى النهاية. وبالمسار الحتمى للأحداث، إذا ما تركت لحالها، لابد أن نصير فى النهاية شعبين ". ومن ثم لا يجب قراءة الدعاوى.

والتفكير في العواقب لا يجلب اللوم دائما. إذ يجادل قاضى المحمة العليا في الولايات المتحدة ستيفن براير، بأنه ينبغي على القضاة أن يزنوا العواقب المحتملة للتخلى عن القانون أو الضرب به عرض الحائط. ويتساعل: ما الذي سوف يحدث لو انعكست القواعد في القضاء الذي اعتمدت عليه أجيال عديدة من الأمريكيين فجأة؟ ماذا ستكون عليه العواقب في العالم الحقيقي إذا توصلت المحكمة إلى قرارات غير شعبية أو يصعب فرضها؟ ولم يكن هو القاضي الأول الذي تملكه القلق بهذا الشأن؛ فقد كان القاضي فيللكس فرانكفورتر يدرس أن للمحكمة مخزون صغير فقط من رأس المال السياسي ويجب أن تسستثمره بحكمة. وهذا هو السبب في أنه كان يخشى، هو وغيره، من أن يكون القرار الكاسح في قضية براون ضد هيئة التعليم (١٩٥٤ م)، الذي يلغي جميع الشكال الفصل العنصري الذي تشرف عليه الولايات المتحدة في المدارس العامة، خطأ. فقد رأى العواقب التي يمكن أن تتدرج من العصيان المدني إلى

العنف الصريح في أعماق الجنوب، وقد كتب القاضى دافيد سوتر رأيه عن حقوق الإجهاض في قضية كلاسي ضد هيئة الأبوة المخططة (١٩٩٢ م) أن سببا واحدا لا يجب أن يقلب قضية روى ضد وادى هو أن الكثير جدا من النسوة كن قد انتهين إلى الاعتماد على هذه القضية وهن تخططن لحياتهن الإنجابية، فهل كانت هذه الأمثلة كلها أمثلة عن المغالطة المنطقية المتمثلة في المجادلة انطلاقا من النتائج؟ والإجابة بالنفي، إذ إنه لا توجد قضية يجادل فيها القاضى بأن المقمة المنطقية صحيحة لأن نتائجها مرغوبة، ولكنهم يجادلون بأن المقدمة المنطقية – القانون أو الرأى القانونى – مرغوبة لأن تأثيرها المستمر مرغوب، وبعبارة أخرى، فإنهم يربطون ما يمكن التنبؤ به إلى الحاضر، وهو أمر منطقى تماما.

فى كلمة المحرر فى صحيفة نيويورك تايمز يـوم ١٨ يوليـو سـنة ٢٠٠٧ م عبرت مورين دوود عن إحباطها بسبب استغلال الساسة للتـاريخ. كانت تقصد الرئيس جورج دبليو بوش: " ذكر الرئيس فى خطابه يوم الثلاثاء أنه يقرأ التاريخ، وأنه كان يستدعى المؤرخين واللاهوتيين إلى البيت الأبيض لمناقشة مصير العراق وطبيعة الخير والشر. وظن بوش أن التاريخ سيكون ذريعة له. فعندما يخفق الرؤساء ويريدون تعزية أنفسهم، يظنون أن التاريخ سيمنحهم فرصة ثانية. إنه المعادل التاريخي للعفو الرئاسي، ولكـن هنـاك أشياء أخرى - الأخلاق والاستراتيجية والأمن - تضغط أكثر من التاريخ.

إن غريزة دوود الصحفية لإضفاء ميزة على الحاضر خصما من حساب الماضى هى التى أضلتها. إذ إن الأخلاق، والاستراتيجية، والأمن كلمات فارغة عما يمكن للسياسة أن تفعله فى أية مجادلة تاريخية. وهي تذكرة بأن كل مجادلة تحمل بعض السياسة، وتصر فلسفة التاريخ المناسبة لزماننا على أن نكون واعين بانحياز اتنا السياسية. ويمكن أن تتسلل تلك

الانحيازات بسهولة - بسهولة شديدة - في مجادلاتنا مع المؤرخين الآخرين. وتساعدنا معرفة كيف أسيء استخدام الجدل في التاريخ السياسي (بما في ذلك أخبار الأمس القريب) على رؤية مواقفنا، وتجعلنا نتأكد من أنه حتى الباحث المنعزل في دار الوثائق له آراء سياسية. مثل هذه الآراء تجد طريقها بالضرورة إلى البحث العلمي، وحتى الإصرار على أنه غير سياسي أمر محل شك. لك أن اختيار الموضوع، والقراءة، واختيار الأدلة، وترتيب الجدل - كلها مستمدة من وجهة نظر الباحث.

وسوف تقودنا شئوننا السياسية إلى الاختلاف. وكما كتب هاسكيل وليفنسون في ردهما النهائي على آليس كيسسلر - هاريس: "إن التبرير الرئيسي لوجود جماعات الباحثين يكمن في قدرتهم على توليد حوارات نقدية أكثر كثافة من تلك التي تحدث بطريقة عفوية في المجتمع كله حيث يمكن تجنب المنازعات حول الأساسيات في الغالب أمرا ذا قيمة عالية. ولكن ليس معنى هذا القول، عندما يتعلق الأمر بالنقد، أن كل شيء يمضى على ما يرام، أو أن صيحة "أحمق" يمكن أن تكون رادعا لنا. إن نقد المنطق والأدلة من موقع المخالفة يوسع من دائرة الجدل، وينبغي أن يكون ملتزما بصورة كلية بتقاليد البحث العلمي، أما محاولة إغراق المخالف في الصمت فهي شيء مختلف تمام الاختلاف، كما أنه ضار تماما بمبدأ الحرية الأكاديمية".

وسواء اعتبرنا البحث التاريخي وتدريس التاريخ "منبرا "للترويج لآرائنا، أو لعقد أذرعتنا على صدورنا ووضع أصابعنا على شفاهنا أمنع لآرائنا من الخروج إلى النور، فإن فلسفة التاريخ التي تليق بالأوقات المثيرة للجدل اليوم تتطلب الاتفاق على المسائل السياسية. ولأننا نرى السهولة التي يمكن بها أن ينزلق الالتزام السياسي في جدل لامنطقي، ينبغي علينا أن نكون على حذر من ترك التزاماتنا السياسية تتسبب لنا في تغيير اكتشافاتنا، أو أن

نبقى صامتين عندما يكون من الواجب أن نتكلم، أو ندين الآخرين لأنهم يعبرون عن أفكار هم.

مثل هذه الروابط السياسية بين بين المؤرخين ليست غير سائغة فقط ولكنها غير علمية أيضا، إذ يجب على المؤرخين أن يشاركوا في قانون للسلوك السياسي الجيد، حسبما يذكرنا جميعا " بيان المعايير " الذي أصدرته الجمعية التاريخية الأمريكية:

"يناضل المؤرخون باستمرار لتحسين فهمنا الجماعى للماضى من خلال عملية حوار نقدى مركبة - مع أحدنا الآخر، ومع الجمهور الأوسع، ومع السجل التاريخي - نستكشف فيها حياة من سبقونا والعوالم السابقة بحثا عن إجابات للأسئلة الأشد إلحاحا في زماننا ومكاننا".

ولا يمكن للمؤرخين أن يؤدوا هذه المهمة بنجاح بدون الثقة والاحترام المتبادل. وممارسة المهنة باعتزاز تكسب المؤرخين شهرة بالجادرة التى هى رأسمالهم المهنى الوحيد والأثمن. إن الثقة والاحترام من أقران المرء ومن الجمهور على السواء، تعتبر من أعظم الإنجازات التى يمكن لأى مؤرخ أن يحققها، ومن أكثرها صعوبة. ومن الحماقة فعلا المخاطرة بهما.

وعلى الرغم من أنهم يختلفون مع أحدهم الآخر حول أمور كثيرة، فإنهم يعلمون بالفعل ما الذى يثقون فيه ويحترمونه في أعمال كل منهم. ويؤمن جميع المؤرخين بتكريم الاعتزاز بالسجل التاريخي، فهم لا يصطنعون الدليل. ذلك أن التزييف ينتهك الأصول الأساسية التي التي يبني عليها المؤرخون تفسير اتهم للماضي، وأى تزييف غير محقق لا يقوض المجادلات التاريخية للمزيف فقط، وإنما يقوض كل البحوث التالية التي التي تعتمد على عمل الذي قام بالتزييف، وأولئك الذين يخترعون، ويبدلون، أو يدمرون الأدلة يجعلون من الصعب على أى باحث أن يثق في أعمالهم مرة أخرى ".

إن الأمور السياسية الداخلية في مهنة التاريخ تقوض مـشروع بنـاء فلسفة تاريخ لزماننا برمته، بيد أن الثقة التي يشير إليها "بيان المعايير" يشير إلى أن الكلمة السياسية قد لاتكون الكلمة الأخيرة. ومهمـا كانـت الأمـور السياسية للمؤرخين الأفراد، فإن الاحترام المهذب لمهنتنا المشتركة توصـينا بأن نمنح الجانب الآخر الوقت والمساحة لعرض قضيته على أفضل وجـه. وعندها، عندها فقط، يصبح بناء الجسر إلى الماضى سعيا مشتركا.

المؤرخون في السوق

إن أفضل استجابة هي عدد الناس الذين يشترونه [كتاب Undamned Courage] وحقوق التأليف التي تأتي في شيكات. وأفضل استجابة بعدها تتمثل في الناس الذين يكتبون ويقولون: "إنني أقرأ كتابك وآخذ الأسرة لنخرج بحثًا عنه". وهذا يعني الكثير.

ستيفن أمبروز (۲۰۰۲م)

كان ستيفن آندروز واحدًا من أحب مؤرخي أمريكا وأكثرهم انتسشارًا. كان يعرف أن التاريخ مجال عمل كبير في أمريكا، كما أن المورخين وأعمالهم بضائع في السوق. ومعظم مدرسي التاريخ يعتمدون على رواتبهم لدفع فواتير معيشتهم، ولكن الأعمال الأفضل مبيعًا في التاريخ عادة ما تكون مبيعاتها بالملايين، وقد تجلب مليون دولار مقدمة حقوق التأليف للمؤلفين ذوى الشعبية من أمثال أمبروز. ووفقًا لروبرت تاونسند ومجلة الجمعية التاريخية الأمريكية Perspectives في سنة، ٢٠٠٣م، خرجت إلى السوق عشرة آلاف وأربعمائة وتسعة وثلاثون كتابًا في التاريخ. وفي سنة ٢٠٠٤م وصلت تسعة آلاف وستمائة واثنين وستين عنوانًا جديدًا. وقد زاد عدد الكتب

التاريخية بنسبة خمسين بالمائة منذ سنة ١٩٩٣م، وهى أول سنة يستم فيها جمع إجمالى عدد كتب التاريخ. وفى سنة ٢٠٠٤م كان هناك ١٨١١٩٩ كتابًا منشورًا فى جميع المجالات. وبحسابى أنا فإن هذا يعنى أن كتب التاريخ كانت نسبتها حوالى خمسة ونصف بالمائة من جميع الكتب التى تنشر سنويًا.

وهناك تقريبا حوالى عشرة آلاف عصو فى منظمة المورخين الأمريكيين ونصفهم أعضاء فى الجمعية التاريخية الأمريكية، ولكن المؤرخين المؤهلين مهنيا ليسوا هم الملاك الوحيدين للتاريخ. فهناك ما يزيد على مائة ألف رجل وامرأة يعلمون التاريخ فى المدارس الثانوية العامة والخاصة. وكما قالت لوريل تاتشر أولريش الأستاذة فى هارفارد فى إحدى المقابلات الصحفية «نحن بحاجة إلى قليل من التواضع بحيث نعترف بأن الناس يمكنهم أن يفعلوا ما يشاءون بالماضي، إن المورخين لا يملكون التاريخ».

إن التاريخ تسلية شعبية. ذلك أن قنوات التاريخ، ومتنزهات موضوع التاريخ وجلسات استعادة التاريخ، والمتاحف، والمتاحف الحية في المواقع التاريخية تجلب ملايين الدولارات وملايين الزوار سنويا. وعلى حد قول النيوزويك في ٣٠ أبريل سنة ٢٠٠٧م، الذي جاء تذكرة بمناسبة الدذكري الأربعمائة لإعلان قيام مستوطنة چيمس تاون، أنه بالقرب من الحفرة التي كان الأثريون يستخرجون منها قطع الفخار: «سوف ترون مجتمعا أمريكيا تاريخيًا يعود ثانية إلى الحياة». وبالنسبة للأمريكي الذي يحب قراءة التاريخ، أو زيارة المواقع التاريخية والمتنزهات التاريخية، فإن التاريخ ليس مستحيلاً على الإطلاق.

ومعرفة حقيقة أن التاريخ والمؤرخين بضائع في السوق تثير أسئلة عملية بشأن فلسفة التاريخ الخاصة بنا- وهي أسئلة تجاهلتها فلسفات التاريخ

التقليدية. فما التزاماتنا المهنية والأخلاقية باعتبارنا موردين للبــضائع فــى السوق؟

إن المعيار القانونى للبائعين محدد فى القانون المعروف اختصاراً باسم Uce The Uniform Commercial Code الذى أعده المعهد الأمريكى للقانون، والمؤتمر القومى لمفوضى القوانين الموحدة للدولة في أربعينيات القرن العشرين، وأخذت به جميع الولايات، فيما عدا ولاية واحدة، بصورة جزئية على الأقل. وجوهر هذا القانون أننا يجب « أن نعلن عن منتجاتنا ونبيعها بشكل منصف. وهو التزام نابع من الإيمان الصحيح» (Ucc, sec. 1-304). ومن حق المستهلك أن يعرف بالضبط ما الذى يشتريه. بإيجاز، ينبغي أن يكون تلاميذنا وقراؤنا قادرين على الثقة فينا وفي أعمالنا.

ولكن شكلا أكثر حداثة لتحليل التعاملات التجارية قائما على نظرية «القانون والاقتصاد» ينبئنا أننا يمكن أن نزن المخاطرة في مقابل الربح في تقرير كيف نضع أنفسنا ومنتجاتنا في حزمة واحدة. وتقول لنا النظرية أن نزن مخاطرة اكتشف التوجه الخاطئ والخسارة وما يرتبط به من خسسارة السمعة واحتمالات المستقبل في مقابل المكسب الذي قد يجلبه أي اختيار لتوجه بعينه. وبعبارة أخرى، فإننا بحاجة إلى حساب الاحتمال بأن الاختزال أو الاصطناع أو أي سلوك آخر مستهجن عامة، يمكن اكتشافه. فهل تستحق تلك المخاطرة أن بها من أجل المكافآت التي قد يجلبها السلوك السيئ؟ إذا كنا على استعداد لدفع ثمن الاكتشاف، فإن المكاسب التي تنتج عن السلوك السيئ تستحق المخاطرة اللازمة.

وفى مصطلحات مألوفة أكثر للمؤرخين، هل ينبغى لنا أن نتبنى صيغة ما من «المبدأ الأول» الذى يقول به هربرت سبنسر للسعادة والحرية؟ وكما كتب سبنسر فى «Social Statics» أو The Conditions Essential to Human

(Happiness Specified 1851) فإن «المبدأ الأول» للسعادة الإنسانية هـو أن كل رجل يجب أن يكون حراً في أن يفعل ما يشاء، فيما عدا الافتئات علـى حرية غيره. و « إذا كانت لكل واحد الحرية في أن يفعل ما يشاء، بشرط ألا ينتهك الحرية المساوية لغيره، فإن الواضح أن له الحق في حياته: لأنه بدون هذه الحرية لا يمكنه أن يفعل شيئًا كان يريده ؛ ولحريتـه الشخـصية؛ لأن الانسحاب منها جزئيًا، وإن لم يكن كليًا، يحول بينه وبين تحقيـق إرادتـه». فهل ينبغي أنا أن نتبني موقف «البقاء للأفضل» تجاه المنافسة مع المؤرخين الآخرين من أجل الوظائف، وعقود النشر، والمكافآت الأخرى التـي يمكـن للسوق أن يقدمها؟

عمل يتسم بالمخاطرة

تحمل الحوادث القريبة بعض الإجابات الشيقة على هذه الأسئلة عن سلوك السوق. فهناك سوق ضخم لكتب التاريخ الدراسية للطلاب. وولاية تكساس وحدها تنفق ما يزيد على أربعة ملايين دولار سنويا على كتب التاريخ المدرسية بها. وتنفق ولاية كاليفورنيا أكثر من ذلك. والمؤرخون وناشروهم الذين ينجحون في كتابة الكتب المدرسية لتلك السوق يمكنهم أن يجنوا مكافآت مالية كبيرة. والكتابة لهذا السوق تعنى تلبية رغبات هيئات المدارس في ولايات مثل تكساس وهيئات الكدارس المحلية في كل مكان أخر. وذلك يعنى، بدوره، تشكيل الكتب المدرسية بحيث تحذف حكايات بعينها وتتجنب مصطلحات معينة يمكن أن تسئ إلى من يحتمل أن يتبنوا النص وتعزيز حكايات أخرى يمكن أن تحوز رضاهم.

U.S. and World Report وفي سنة ٢٠٠١م، فإن المحافظين، وفقًا للتقرير تملكهم الذعر عندماً تبنت تكساس على اتساع الولايــة نــصًا يــدرس فــي

المدارس العليا أشاد بشجاعة بحار أمريكى أسود ولم يذكر بطولة إيثان آلسن في بيرل هاربور وربما كان ذلك البحار دورى ميللر، الذى أدى دوره فسى فيلم بيرل هاربور الممثل كوبا جودنج جنيور، كان أقل إثارة للجدل من إيثان ألين. وقد مات ميللر فيما بعد فى الحرب عندما ضربت سفينته بطوربيد. وقد أمضى ألين جزءا من فترة الحرب فى السجن وقدم خدماته لكلا الجانبين فى بعض الأوقات). ولكن تكساس لم تخضع. وحسبما كتب ألكسندر ستيللى فى :

«Textbook Publishers Learn: Avoid messing with Texas»

وهى مقالة فى عدد ٢٩ يونيو ٢٠٠٢م فى صحيفة نيويورك تايمز: «إن كتاب Out of Many كتاب لأربعة من المؤرخين المحترمين، من أكثر الكتب مبيعًا بين الكتب الدراسية التى تدرس بالجامعات بالو لايات المتحدة، ولكنه ليس من المحتمل أن يكون متاحًا للمدارس العليا في تكساس التى تدرس دراسة تاريخية متقدمة. فقد اعترضت المجموعات المحافظة في تكساس على فقرتين فى الكتاب الذى تقترب صفحاته من ألف صفحة، تشرحان أن الدعارة كانت منتشرة قبل أن يستوطن الغرب تمامًا في مدن الماشية فى أو اخر القرن التاسع عشر «ويبدو صحيحا أن كل امرأة غرب المسيسيبي كانت عاهرة»، كما قالت جريس شور، رئيسة هيئة التعليم في المسيسيبي، وهو ما أشك فيه، ولكن حتى لو كان هذا الرقم حقيقيًا، فهل ذلك المسيسيبي، وهو ما أشك فيه، ولكن حتى لو كان هذا الرقم حقيقيًا، فهل ذلك شيء يجب التأكيد عليه؟ هل تلك حقيقة تاريخية مهمة؟».

هل يجب على مؤلفى الكتب الدراسية الذين يسعون إلى تبنى كتبهم فى سوق كبيرة أن يوافقوا على إجراء التغييرات التى تريدها هيئة التعليم فى الولاية؟ لقد قالوا لا. لقد تخلوا عن خيار الانصياع لما يفضله زبائنهم. ولم يختاروا الخروج من السوق، ولكنهم اختاروا ألا يشاركوا فى هذا التحول:

«لقد قام الناشر، بيرسون برنتيس هول، في هدوء بسحب الكتاب من تقييم الهيئة. وقال وندى سبيجيل، نائب الرئيس للاتصالات في الشركة، إن لديها كتابًا آخر يناسب المقرر الذي وضعته الولاية على نحو أفضل ... وقالت بيجى فينابل، مديرة مجلس تكساس، إن التنفيذيين في بيرسون برنتيس هول قد سحبوا كتاب Out of Many لأنهم «بحكمة لم يريدوا أن يجازفوا باكثر كتبهم، مبيعا في الولاية بأن يجعلوا ذلك الكتاب مثل طفلهم في الإعلان ويلاحظ المرء أن سلوك الناشر يناسب بدرجة أكبر نموذج سبنسر أكثر من سلوك المؤرذين - المؤلفين.

هل ينبغى على المؤرخين الساعين إلى تسويق برنامج عام للدراسات التاريخية لطلاب المدارس العليا أن يوفقوا آراءهم لتتسق مع المجريات السياسية؟ في ثمانينيات القرن العشرين صدرت سلسلة من الكتب الدراسية القائمة على نمط الأسئلة المتعددة في التاريخ الأمريكي أعطيت لطلاب المدارس العليا وكشفت عن أنهم كانوا جاهلين بشكل مروع بمعظم المعلومات الأساسية عن ماضينا. وقد برهن هذا للمعلم ديان رافيتش وآخرين على أن المدارس بحاجة إلى كتب التاريخ الأكثر توسعًا. وقد كسبت جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس منحة من:

تشينى التى تقوم بالاختيار، وانطلقت فى تجميع الخبراء لكى يكتبوا المعايير. تشينى التى تقوم بالاختيار، وانطلقت فى تجميع الخبراء لكى يكتبوا المعايير، وكان لدى رئيس «مركز التاريخ القومى»، جارى ناش، قدر جيد من الخبرة وسجل قوى فى كتابة كتب التاريخ الدراسية للمدارس العليا. وقد تضمنت مقاربته الكثير من الناس العاديين – مهاجرين، وأقليات عرقية، ونساء، وعمال – الذين كانت الكتب الدراسية الأقدم قد حذفتهم، وبينما قد تكون مقاربة

الحقائق الأساسية قد عالجت الدرجات المنخفضة التى كان الطلاب يحصلون عليها، كان ناش يريد أن يضع نهاية « للانقسام الزائف بين الحقائق وتحليل المفهوم». فقد كانت الأفكار الديمقر اطية حقيقية ونابعة من رؤية على السواء. ولم يكن التاريخ مجرد سرد ولكنه كان «تفسيرا للسرد» و «عمقا» و «طارنا وتركيبا». وكان المفهوم التبسيطى «للتقدم» عبارة عن « فخ ما تزال الكثير من كتب التاريخ الدراسية تتصبه للطلاب»، مثلما كان التركيز القديم على «المنتصرين». إن برنامجا « للتعليم النشيط و الاستفسار النقدى» يستخدم المصادر الأولية سوف يعين الطلاب على أن «يكتبوا ويتكلموا عما يدور بأذهانهم» بدلاً من الاستيعاب السلبي لما كانت تقوله الكتب الدراسية والمدرسون.

كانت لتشينى أفكار أخرى. بعد سنوات، حكمت بأن المعايير الوطنية التى نشرها ناش «عكست الرجعية الموجهة سياسيًا والعابسة» التى كانت قد باتت «مألوفة تمامًا فى رحاب الكليات». وبالإضافة إلى ذلك، كان الأبطال جميعا قد اختفوا وحل محلهم أشخاص صغار. كما أن القيم الثابتة كانت قد اختفت هى الأخرى، ولم يبق سوى الاضطهاد. وفى ٣٠ أكتوبر سنة عوالها الذى يحمل عنوان The End of History على الصفحة الأخيرة من وول ستريت جورنال. وفيه حطت من شأن المعايير الموضوعة لرفع أهمية Club. The National Organization of Woman و Sierra Club. The National Organization of Woman فوق الدستور، والكونجرس، و U.S. Grant (على الرغم من أنه فى الحقيقة كانت هذه موضوعات لمقالات الطلاب من «نماذج من انجازات الطلاب» ولم تكن هى المعايير نفسها). وحكمت بأن النتيجة كانت حكاية كئيبة و عابسة عن أمريكا كان يمكن أن تمنح الراحة فقط لمن هم يسيرون على «الخط السياسى الصحيح».

ورفض ناش أن يقدم ما يرضى أذواق الساسة، وبوصفه مشروعًا لسوق ضخم كانت «معايير التاريخ الوطنى» كارثة وحتى بعد مراجعة شاملة لم تستخدم على نطاق واسع، وفي وزارة التعليم، كانت الحلقات النقاشية «لتعليم التاريخ الأمريكي» لمدرسي المدارس المتوسطة والعليا في التاريخ. قد اكتشفت أن المدرسين لم يسمعوا عنها قط، ولم يروا المعايير ولم يسسحب ناش نفسه من السوق، ولكنه رفض أن يترك قسمًا صوتيًا من السوق يملى ما يجب عليه هو رفاقه أن يكتبوه.

بيد أن فتنة السوق وسحر فيمكن أن يقود المؤرخين إلى الضلال. تأمل هذا الفرض التالى. أنت مؤرخ مشهور. وكتبك السابقة باعت جيدًا. يمكن أن تطلب «مقدمًا» كبيرا تحت حساب حقوق التأليف المتوقعة لكتابك التالى من ناشر تجارى. وهذه المقدمات تدفع على دفعات، ولكن في الحالات القانونية الحديثة حكمت المحاكم بأنك يمكن أن تحتفظ بالجزء الذي دفع مقدمًا بالفعل إذا كنت قد بذلت جهدًا طيبا لإنتاج الكتاب. والأن لديك عدة اختيارات إنها اختيارات السوق.

لمن تقدم الكتاب (أنت أو وكيلك)؟ إن مطابع جامعات القمة لديها قدرة حرفية وسوف تعمل على أن تضع كتابك في المكتبات كما سنبيعه إلى الباحثين وتضعه في الفصول الدراسية، ولكن نادرًا ما تحقق كتبهم الدخول في قوائم الأحسن مبيعًا. وأنت تقرر أن تتعامل مع ناشر تجارى. وهناك ميزة أخرى في هذا الاختيار. ذلك أن الناشرين التجاريين يتخذون القرار بطباعة كتابك. وبعبارة أخرى، يقرأ المحررون الكتاب ويتخذون قرار نشره بأنفسهم. أما المطابع الأكاديمية فترسل مخطوطك لاثنين أو ثلاثة قراء لتقييمه. وحتى لو كان هؤلاء مع النشر، فإن المخطوط سوف يتطلب بعص المراجعات. ثم يجب أن يستجيب مخطوطك لموافقة هيئة تحرير المطابع الأكاديمية،

وهم مجموعة متميزة من علماء الإنسانيات والعلماء الذين ربما لا يعرفون إلا القليل عن موضوعك. ودار النشر الجارية يمكن أن تضع كتابك في المكتبات في غضون أربعة شهور إلى ستة شهور. أما المتوسط في المطابع الأكاديمية فيتجاوز السنة منذ قبول المخطوط مرورا بتحرير النسخة وإجراء البروفات لكي تنهي الكتاب.

ما الموضوع الذي ينبغي عليك اختياره للكتاب المذي ستتشره في مطبعة تجارية؟ إن أكثر الموضوعات شعبية – السيرة، والتاريخ العسكري، والحرب الأهلية، وزمن الحرب العالمية الثانية – حسب المؤشرات، لأنها سيكون لها سوق دائمًا، ولكنك تعرف أن لديك القليل جدا من الجديد المذي تقوله عن هذه الموضوعات. فهل ينبغي لك أن تمضى السنوات في البحث عن وثائق جديدة وتقدم تقارير متقدمة في الموتمرات (بينما قد يسمتمع الآخرون إلى ما اكتشفته «ويجرفون» ما تقوله؟» أم أنك سوف تمضى الشطر الأكبر من وقتك تجمع وتنكب على ما كتبه أسلافك، وتنسخ على بطاقات الاقتباسات من صفحات المصادر الأولية، مع بعض من أحسن الفقرات التي كتبوها؟

أنت تقرر أن تكتب سيرة لأبراهام لنكولن أو كتابًا عن غــزو اليــوم المحدد. وأنت تعرف أنه بمجرد أن تنهى هذا الكتاب يمكنك أن توقع عقــدًا لكتاب آخر. والحقيقة. إن دخلك يعتمد على المقدمات أكثر من حقوق التأليف نفسها، لأنه حتى المقدمات المتواضعة (ربما خمسة أرقــام) ربمــا ســوف تتجاوز عشرة أو خمسة عشر بالمائة من صافى المبيعات التى سوف تحصل عليها من حقوق على مدى عمر الكتاب. وذلك سبب آخر لاختيــار الناشــر التجارى، في الحقيقة، ومعظم كتب التاريخ الأكاديمية لا تبيع من النسخ مــا

يكفى (فالمتوسط حوالى ١٢٠٠ نسخة لأى واحد- سواء ناشر مطبعة جامعية أو أستاذ مؤلف) - لأن يصبح غنيًا من ورائها.

ومعظم الكتب الصادرة عن المطابع الأكاديمية، كما نحكم من الاعترافات ومن غير ذلك من الأدلة، تستغرق ما يقرب من السنة في البحث والكتابة، وأنت لا تملك مثل هذه الرفاهية. وعليك أن تتحرك بسرعة معقولة، أما تلك الكتب الأخرى، بما فيها من اقتباسات مشوقة من الوثائق أو المقابلات وملخصاتها النثرية الرائقة، فتبدو أكثر جاذبية، واقتباسك منها يبدأ في التراكم فوق مكتبك. والاعتماد على ما قرأته في صفحات الكتب الأخرى يزداد جاذبية يوما بعد يوم.

وباعتبار كتابك إسهامًا في البحث العلمي، فإنه يجب أن يقول شيئًا، بل الكثير من الأشياء في الحقيقة، تكون جديدة أو يجب أن تكشف عن الأدلية التي لم يرها أسلافك أو يستخدموها. بيد أن جميع اختيارات السوق التي جاءت بك إلى هذه النقطة في عملك اختيار الموضوع والناشر، وحجم المبلغ المدفعوع مقدما - تضغط عليك لتأخذ طريقًا مختصرًا. فهل يجب أن تفعل ذلك؟ في ٥ أبريل سنة ٢٠٠٢م، قابل كولمان وارنسر مسن تفعل ذلك؟ في ٥ أبريل سنة ٢٠٠٢م، قابل كولمان وارنسر مسن ليناقشه حول مؤلفه ستيفن أمبروز. وقد أخبر روزنتال الناشر بسيمون وشوستر، ليناقشه حول مؤلفه ستيفن أمبروز. وقد أخبر روزنتال وارنر أن «التاريخ الشعبي والأكاديمي حيوانان مختلفان، وأن كتابا لأمبروز يحصل على قدر الشعبي والأكاديمي حيوانان مختلفان، وأن كتابا لأمبروز يحصل على قدر لمجلة متخصصة في التاريخ. فنحن نثق في أن المؤلف يتحرى الدقة». وقال روزنتال: «إن غرضنا هنا ليس أن نخلق كتابًا تم فحصه أكاديميًا. وإنما أن نخلق كتابًا يمكن قراءته، دقيقًا، ومعقولا، ويناسب الموضوع جيدًا».

كان ستيفن أمبروز قاصاً متقوقاً يقدم إلى الجمهور ما يريده على الرغم من أنه كان أستاذا للتاريخ في جامعة نيو أورليانز. وكان إنتاجه ضخماً، وبمساعدة من عائلته كان ينهى كتابًا كل سنتين. وكانت موضوعاته تتناول سير الرؤساء، والمغامرة والحرب. وعندما كان يبين تماماً أو بشكل عادل درجة الاستعارة – فإن محررته في دار سيمون وشوسر، أليس ماى هيو، أخبرته حسيما قال، أن يواصل الكتابة. ووافق روزنتال. وقال «في سيمون وشوسر، يبدو الانتحال بلا تأثير على مبيعات كتب روزنتال إننا نتلهف شوقاً لكتاب روزنتال التالي». لديهم جميعًا المخاطرة التجارية نفسها في استمرار إنتاجه. لقد اختاروا خيارًا سوقيا بأن أساليبه المثيرة للريبة لن تخفض من مبيعاته. وكانوا على حق بشأن المبيعات، كما كان نقاده على حق في أنه كان منتحلا محنكا، ولكن هل كانت حساباتهم تستحق أن تستحسنها فلسفة التاريخ الخاصة بنا؟

صدق أو لا تصدق، حتى فى هذا اليوم الذى يتسم بالحذر الصارم ضد الانتحال، من الممكن تأليف دفاع عن الاستعارة بدون الإشارة إلى المرجع، وأجزاء ذلك الدفاع تكاد تكون قديمة قدم الكتب المطبوعة، وعندما أشار رجل لم يذكر اسمه إلى چيمس كيركباتريك قد سرق اللغة، والشكل، والموضوع لكتابه الذى يحفل بالشعر على امتداد صفحاته (١٧٥٠) Sca- Piece (١٧٥٠) مسن نصوص كلاسيكية، انتفض قائلا: «هنا يبدو صعبا على العقل الذى يحمل أقل قدر من الكرم ألا يعبر عن احتقاره للآلام المثيرة للأحقاد» عند أولئك الذين يعتبرون «ما صار معتاذا للغاية في عالم الكتابات التافهة» جريمة «انتحال»، والحقيقة أن التشابه الكثير لن يمكن تجنبه، لأن كلا المتشابهين سيوظفان نفسيهما في الموضوع والربط بينهما». وباختصار الكل فعلوا هذا، وحتى لو لم يكن النسخ «معتاذا» فإن تسلبه العبارات والاستخدامات المتشابهة للمصادر الأولية نفسها كانت حتمية.

ولئلا يجيب أحد هؤلاء القراء غير المحسنين الذين ذمهم كيركباتريك بقوله: «حسنا كان ذلك في ذلك الحين، ولكنه ليس الآن» تأمل الحالتين الأكثر حداثة. ذلك أن كاتب السيرة وأستاذ التاريخ ستيفن أواتيس يحكى القصة الأولى. فقد «بدأت في سنة ١٩٩٠-١٩٩١م، عندما قام ناقد أدبى، أستاذ في الكلاسيكيات، وأستاذ مشارك في علم الإجرام واثنان من المؤرخين بتوجيه الاتهام علنا لي بأنني انتحلت في كتابي With Malice المورخين بتوجيه الاتهام علنا لي بأنني انتحلت في كتابي المسيرة التي كتبتها عن الكولن. وقد حددوا دليلا على تسابه العبارات وشذرات قصيرة من الحقائق في روايتي عن السنوات الباكرة في هياة لتكولن وتلك الموجودة في السيرة التي كتبها بنيامين توماس سنة Abraham Lincoln, A Biography.

ولم يلبث الاتهام أن صار معلومًا للجميع، وشن أوانيس دفاعًا عنيفًا ضد التهمة. ذلك أن زملاءه في دراسات الحرب الأهلية ولنكوان حصلوا على خطابات تدافع عنه، كانت قائمة في الأساس على تقدير كاتبى الخطابات لشخصية أواتيس المهنية والشخصية. وقد طعن في التحقيق الذي قام به القسم المهني في الجمعية التاريخية الأمريكية في الموضوع (لم يكن عصوا في الجمعية التاريخية الأمريكية ولذلك رفض التحقيق) وفي الصحافة. وبعد عشر سنوات كان ما زال يتقدم مجادلاً بأن «في الحقيقة، لا توجد خطوط الرشادية إلى ماهية الاعتراف بالمصادر في السير والتواريخ العامة. وقد كانت آلاف من مثل هذه الكتب ومنها الكثير جدا عن لنكولن قد نشرت بدون أية إشارات مرجعية أو قوائم المصادر والمراجع على الإطلاق». فقد كان توماس قد كتب خمسة كتب عن لنكولن، وكان قد ذكر الحد الأدني من من المراجع فقط. فقد كان أوانيس قد استخدم فقط المصادر نفسها التي استخدمها توماس، ومن ثم كان حتميًا أن يصوغ الصور نفسها.

وقد رد ميخانيل بورلينجيم، أحد الذين اتهموا أواتيس في سلسلة من الاقتباسات المزدوجة من أواتيس وتوماس، منها مثلاً:

ستيفن ب. أو اتيس «إنهم يو اصلون جر مكانسهم الرشيقة بقوة لتجنب النتوءات والحواجز الرملية...»

بنيامين ب. توماس «وبالجر الشديد للمكانس الرشيقة لتجنب النتوءات والحواجز الرملية...»

ستيفن ب. أو اتيس «تاد ... أكل الفراولة كلها قاصدًا أن تكون عـشاء فحنق الساقى على الصبى وشد شعره...»

بنيامين ب. توماس «أكل تاد الفراولة كلها قاصدًا أن تكون عشاء فحنق الساقى ومزق شعر الصبى...»

ستيفن ب. أو اتيس «كانت الفترة التي عمل فيها حاصدًا لدى عائلة ماكور ميك أكثر تجربة ساحقة في حياته»

بنیامین ب. توماس «لقد تذکر الجفاء الذی لقیه فی سینسناتی عندما کان حاصدا لدی عائلة ماکورمیك باعتبار ها أکثر تجربة ساحقة فی حیاته...»

وأيا كان قرار القارئ بشأن هذه العبارات المتقاربة وغيرها في الكتابين، فإن قصدنا هو أن أو اتيس وناشره، هابر، روو، Harper and Row الذي كان ناشرا تجاريا كبيراً بمدينة نيويورك في ذلك الحين، كانوا يعرفون أن مشروع لنكولن مشروع ناجح. أما أو اتيس الذي كان آنذاك في منتصف حياته العملية فقط، فكان يبرهن على أنه كاتب سيرة ناجحًا تجاريًا. وكان بالفعل قد كتب سيرة جون براون، وكتابين عن حدود تكساس، وقبلها بسنتين

كتب With Malice Toward None، وهي سيرة للعبد المتمرد نات تيرنر. وأمضى أواتيس عامين لتأليف كتاب لنكولن في ٤٩٢ صفحة من الحجم الكبير. ثم أعقب ذلك، في مدى عشر سنوات، كتاب قصير عن الحرب الأهلية وسيرة تقع في ٥٦٠ صفحة عن مارتين لوثر كينج (١٩٨٢)، وكتاب آخر عن لنكولن، وسيرة معدلة في ٤٣٤ صفحة عن چون براون وكتاب عن كيفية كتابة السيرة. ويمضى كتاب السير والتراجم عشرات السنين عادة في الكتب الكبيرة مثل الذي كتبه أواتيس عن چون براون ولنكولن ومارتين لوثر كينج. وعلى النقيض كانت إنتاجية أواتيس تجارى إنتاجية أمبروز. ومن المؤكد أن المؤلف والناشر يمكن التماس العذر لهما إذا ما سألا: لماذا نمضى سنة إضافية أو اثنتين أو ثلاثا بحثا عن طرق لقول بكلمات مختلفة على حين كان توماس قد قاله بهذه الجودة؟

وفى المقالة الأخيرة بالمجموعة التى حررها بعنوان Biography as وفى المقالة الأخيرة بالمجموعة التى حررها بعنوان High Adventure المناسبة المن

وثمة حالة ثانية: تأمل ما كان على القاضى ريتشارد بوسنر أن يقوله عن الانتحال، وهو يحمل فى ذهنه أن القاضى واحد من الذين يتجسد فيهم القانون والنظرية الاقتصادية، والتى تكون فيها القيمة الأخلاقية لأى سلوك موزونة بما لها من تأثير على السوق «إن فكرة أن النقل عن أفكار شخص

آخر أو تعبيره (أى شكل الكلمات التى صيغت بها الفكرة) دونما ترخيص من الشخص وبدون اعتراف واضح بالنقل، أمر مذموم، وعموما، فهو زيف واضح» لماذا؟ لأنه «هذه خاصية عامة فى الوثائق الحكومية، والخطب فى الكونجرس، والكتب التى يؤلفها المشاهير». وريما كان للقاضى بوسنر أن يضيف رؤساء الجامعات والقساوسة، وغيرهم ممن يشغلون مناصب عليا. وواصل بوسنر كلامه بقوله «إن كتاب چون كينيدى الذى كان من أعضاء السناتو آنذاك، مثلاً، Profile in Courage، الذى فاز بجائزة بوليتزر، كان «كتابًا ناجحًا». وهناك كثير من الآراء القضائية تحمل هذا الطابع. ويبدو محتملاً أن كثيرا من الموضوعات التى تشغل عدة مجلدات والتى يكتبها عادة أساتذة القانون «كتب ناجحة» فيها تكون معظم الكتابة الفعلية من عمل مساعدى البحث من الطلاب... على الرغم من أننى أخمن وليس لدى دليل فعلى».

لقد كان الانتحال بالنسبة لبوسنر «بطاقة ترتبط بحالات من النقل غير المرخص لا يوافق عليه المجتمع، أو مجموعة مؤثرة فيه» وإذا كان التزوير أو انتهاك حقوق الملكية الفكرية أو أى شكل آخر من خسران حقوق الملكية متضمنًا، فمن المؤكد أن الانتحال يستحق الذم، وإذا كان الطالب أو المؤلف يكسب من التزوير، يكون هذا عدوانًا. « إن المؤرخ المحترف الذى «ألف» كتابًا جماعيا بدون الإفصاح عن الحقيقة سوف يكون مدانًا بالتزوير لأن رفاقه من المؤرخين سيظنون أنه ألفه بنفسه». إن سوء التقديم لأى منتج هو الخطيئة، وليس السلوك الخاطئ في الكتابة.

ومن الممكن ألا يكون الانتحال من النوع الذى مارسه أمبروز مستساعًا حتى بالنسبة لأكثر المدافعين عن سلوك سبنسر استخفافًا، أو القانون والنظرية الاقتصادية لتلك المسألة، ولكن نوعًا آخر من الاختصار الذى يعتمد

على السوق نادرًا ما يتعرض للإدانة، حتى من جانب أكثر المؤرخين تدقيقًا. وفي الاعتراف بالشكر لقاء فوزها بجائزة بليتزر لكتابها عن فرانكلين وليانور روزفيلت زمن الحرب العالمية الثانية No Ordinary Time، كشفت دوريس كيرنس جودوين عن أنه «لم يكن هذا الكتاب ممكنًا بدون المساعدة البحثية من جانب ليندا فاندر جريفت ... إن مثابرتها في التنقيب بدور الوثائق، وحبها للتفاصيل، وعطفها قد صاحبني في كل خطوة على الطريق». ولقد اجتمعت المرأتان ثانية من أجل كتاب جودوين عترفت جودوين: «إنني أدين ولقد اجتمعت المرأتان ثانية من أجل كتاب جودوين اعترفت جودوين: «إنني أدين بدين باهظ مرة أخرى لصديقتي العظيمة ومساعدتي الدءوب ليندا بدين باهظ مرة أخرى لصديقتي العظيمة ومساعدتي الدءوب ليندا بدين باهظ مرة أخرى ليتابها الذي كان من أحسن الكتب مبيغا المنافقة ومساعدة وقب البندان أكن المنطبع إنجازه بدون (New York: موريقتي القديمة أن شارنلي». فقد قامت أن شارنلي بالبحث، المساعدة من صديقتي القديمة أن شارنلي». فقد قامت أن شارنلي بالبحث، وساعدتها أبيجيل ابنة أخت روبرتس، وكتبت الهوامش أني ويتورث.

وعادة ما يفكر المرء في الكتاب التاريخي باعتباره البحث وكتابة التاريخ. وإذا كان الزمن له هذه الأهمية الجوهرية ومرشد الصوق، فمسن المعقول أن نجمع فريقا من الباحثين، ومن يقومون بتمحيص الحقائق، وغير ذلك من المساعدين. وعندها يصبح المؤلف شيئا مثل الجامع الذي يصع القطع سويا في نموذج سار بعد أن وجدها الآخرون. فهل هذا النوع من العمل الجماعي يمكن مناقشته في فلسفة التاريخ؟ وثمة إجابة مفيدة للغاية تأتي من السوق نفسه، أو من أداة أكاديمية تستخدم غالبًا لصنع قرارات السوق.

هل ندع المشترى يحترس؟

ربما يجيب المرء على الخطر الذي يواجه تاريخنا في كل مكان السوق: «دع المشترى يحترس» Caveat emptor. ألا يوجد في الداخل نسق من الأفكار أكثر حذلقة وحداثة عن قرارات السوق تصنع أسسًا أخرى من أجل السيطرة على سلوك المؤرخين؟ إنني أقترح نظرية لتلك اللعبة، وبصفة خاصة ذلك العنصر الذي يسمى «معضلة السجين»، التي تقدم حلاً مستحسنًا للمعضلات الأكاديمية وإلاً سوف يتم حلها على نحو غير أخلاقي.

وقد تم صك مصطلح «معضلة السجين» على يد ألبرت توكير، عالم الرياضيات في جامعة برنستون، للمساعدة في شرح نظرية اللعبة لتلاميذه. وقبل الحرب العالمية الثانية، قام عدد من علماء الرياضيات اللامعين، وخاصة جوناثان فون نيومان (واحد من العمالقة من معدى برامج الكمبيوتر الأوائل) بإبراز أن صنع القرار يمكن تخفيضه إلى نوع من اللعبة الحسابية. وبعد الحرب، والعالم يترنح من جراء خطر السقوط في هوة حرب نووية عالمية، كانت الحاجة إلى إيجاد استراتيجيات تحد من المخاطر إلى الحد الأدنى في الحرب الباردة بين القوى الغربية والكتلة الشيوعية قد قادت بعض علماء الرياضيات إلى الاتجاه صوب نظرية اللعبة. وفي «مستودعات التفكير» مثل مؤسسة رائد RAND في كاليفورنيا التي تمولها حكومة الولايات المتحدة في (اختصار لاسم Research and Development) سعى علماء الرياضيات وراء نماذج تنبؤية يعتمد عليها للخروج بتخمينات من علماء الرياضيات وراء نماذج تنبؤية يعتمد عليها للخروج بتخمينات من الضربة الأولى ضد العدو لابد وأن تؤدي إلى الرد.

وفى مؤسسة راند سنة ١٩٤٩م فكر ميريل فلود، وملفين درشر في معضلة السجين وطبقاها على مجال واسع من المواقف العسكرية والاقتصادية والسياسية لوزن المخاطر والفرض أمام سلام عالمي وتقدم

اقتصادي. وقد نشر الناس في راند التي كانت سنة ١٩٤٩م مشروعًا خاصاً لا يسعى إلى الربح، كلمة عن إنجازاتهم. وقد علم توكر بالمعضلة، فقد شد الاسم الذي وضعه لها الانتباه، وبدوره جعل نظرية اللعبة نظرية شائعة. وقيض لجون ناش، وهو أحد تلاميذ توكر في جامعة برنستون، أن يحمل النظرية إلى ارتفاعات جديدة من التعقيد في سنة ١٩٥٠م في الرسالة التي تقدم بها وفاز بجائزة نوبل في الاقتصاديات سنة ١٩٩٤م. وقد رويت قصته في الكتاب والغيلم A Beautiful Mind .

وفي لعبة غير تعاونية، يتخذ لاعبون مختلفون قرارات لتعظيم مكاسبهم. هل هناك مردودات مربحة وعقلانية متبادلة في مثل هذه الألعاب، أم أن مردوداتهم لا يمكن التنبؤ بها بصورة فطرية ولا يمكن استردادها؟ ووجد ناش أن هناك عائدًا عقلانيًا لكل لعبة مثل هذه، وهو ما وضع لمنظرو اللعبة اللاحقون مصطلح توازن ناش. ومثل هذا التوازن ليس شيئًا ولكنها مجموعة من التوقعات والتنبؤات عن كيف سوف يتخذ اللاعبون قراراتهم، واقترح ناش أنه إذا كان لدى اللاعبين جميعا المعلومات نفسها أي نفس كتاب اللعب وكانوا كلهم عقلانيين، فإن اللعبة إذن يمكن أن تأتي الى نقطة حيث لا يمكن لأى لاعب أن يزيد من أرباحه في مقابل ما ربحه اللاعبون الآخرون. فهنا كثير من الافتراضات، وفي نصف القرن الدي أعقب أقتراح ناش نظريته حدثت تعديلات وتغييرات كثيرة عليها.

ولكن الأساسيات واضحة ويمكن أن تنطبق على المؤرخين. تخيل، على سبيل المثال، أنك تقوم بمراجعة فصول كتاب ما فى فلسفة التاريخ لزماننا. وبينما أنت تراجع كل فصل، تبدو الفصول الأخرى كلها رئية بالمقارنة معه. وهكذا تراجع فصلاً آخر. وكل الفصول الأخرى (بما فيها الفصل الذى أنهيته للتو) تبدو فقيرة بالمقارنة معه. وعندما تراجع فصلا، أى

فصل، لا يتحسن بعد ذلك بالنسبة للفصول الأخرى - تكون قد وصلت إلى توازن ناش. ومقولة ناش هى أنه يمكن الوصول إلى مثل هذا التوازن فى كل لعبة تلعب بعقلانية - أو، بالنسبة لمثالنا، كل عملية مراجعة لفصول الكتاب. إنها لا تخبر اللاعبين متى سيكون التوازن موجودًا، تمامًا مثلما لا تقول للمؤلف متى يتوقف عن التعديل فى النص وتسليم المخطوط لأحد الناشرين، ولكن ذلك يؤكد لنا بالفعل أنه سيكون هناك وقت لإرسال المخطوط.

وتتضمن معادلة ناش بعدًا أخلاقيًا ومعنويًا ونفسيا لـصنع القرار. إذ يجب على اللاعبين أن يكونوا متسقين في رؤاهم لأهدافهم وآرائهم طوال اللعبة في أهداف اللاعبين الآخرين. ويتطلب هذا درجة من الـوعى الـذاتى وثقافة مشتركة فيما بين اللاعبين. والمؤرخون لديهم هذه السجايا. وبوصفنا أفرادًا نحن على وعى بأهدافنا ونعمل على تحقيق تلـك الأهداف بطريقة عقلانية. فنحن نشترك في ثقافة عامة عن الأمانة والكرامة متجسدة في بيان المستويات الصادر عن الجمعية التاريخية الأمريكية. ولكن سلوك المؤرخين في السوق ليس عقلانيًا دائمًا. وليس كل فرد يشترك مع الآخرين في القيم نفسها. وليس كل واحد لديه المعلومات نفسها. وليس كل قرار قد اتخذ بطريقة عقلانية. إن اليد تقفز، والعقل يترنح، وترتعش العقلانية. ويمكن بطريقة عقلانية المحتمالية من هذا النوع من الانحراف عن تـوازن نـاش بتطبيق «معضلة السجين» على اختيارات المؤرخين في السوق.

نحن نواجه شكلاً أو آخر من «معضلة الـسجين» يوميًا، والـصيغة المعروفة أحسن من غيرها هي صيغة العرض التليفزيوني عن إجراءات البوليس، والحقيقة أنها الصيغة التي استخدمها توكر لتقديم اللعبة إلى تلاميذه، فقد ألقى البوليس القبض على اثنين أو أكثر من المشبوهين وجاء بهم إلى قسم

الشرطة المتهمة نفسها. ووضعوا كلاً منهما في غرفة تحقيق منفصلة وقال لكل واحد «أمامك عرض واحد ومن يقبله منكما أولاً سوف يحصل على ضمان بحكم مخفف. عليك أن توافق على أن تشهد ضد المسجون الآخر. فإذا ما قبله هو أولا، فسوف تتال عقوبة أطول في السجن» فإذا لم يتكلم أي منهما، لن تكون الشرطة قادرة على إدانة أي واحد بأي شيء. ولكن كل مشتبه به لا يمكن أن يعرف ما الذي سيفعله الآخر. وإذا ما بقى مشتبه صامتًا على حين يوافق آخر على الصفقة، يكون هو الخاسر الأكبر، ويبدو التعاون مع الشرطة هو الذي يقدم أحسن نتيجة، ويسمى الاختيار السائد، ويبدو أنه الاختيار العقلاني، ولكن النتيجة الأفضل لكل من المشتنه بهما الأيقولا شيئًا، أو ينكران كل شيء. عندها سيخرجان من قسم الشرطة. والحيلة هي أن القرار العقلاني لأحد اللاعبين هو اللاعقلاني لكليهما.

والآن قد تفكر قائلا لنفسك ما الخطأ في اختيار الخيار الأفضل لي؟ وأحد الأقوال المنسوبة إلى الربى التلمودي الحكيم هيلليل قوله: «إذا لم أكن من أجل نفسي، فمن إذن يجب أن يكون من أجلي». وعلى سبيل المثال، إذا كنت أنا على ثقة كافية في أعمالي لكي أسلمها للنشر وإمكانية النقد أو حتى الرفض، فمن إذن سوف يدافع عن قدراتي بوصفي باحثًا؟ لا يجب أن ننسى النصف الثاني من القول: «إذا كنت لنفسي فقط، فما نوع الشخص الذي أكون؟».

كم مرة يوميًا نرغى ونزيد فى وجه الشخص الذى يأخــذ اختيــارات أنانية فى النسخة اليومية من «معضلة السجين»؟ إن الشخص الــذى يــصر على الالتفاف يسارًا عند الضوء ويخرج عن مسار حركة المرور، ويخلــق اختناقًا: والشخص الذى يعطل الصف كله عند صندوق الحساب فى محاولــة لافراغ جيو به من العملات الصغيرة (الفكة)؛ والشخص الذى يأخذ كل دجاج

تكا فى البوفيه الهندى بدلاً من أن يأخذ قطعة واحدة، ليترك كل الآخرين فى المطعم انتظارًا لصينية أخرى تصل من المطبخ، كلهم أمثلة على تفكير أنا أو لا الذى، لو صار القاعدة، لابد أن يخلق اختناقًا اجتماعيًا حقيقيًا (*).

إن التاريخ حافل بالأمثلة عن الأنانية الفردية التي تهدد المجتمعات بأسرها. فعندما قدم التجار الإنجليز للهنود في الجنوب الشرقي بضائع التجارة الأوربية في مقابل جلود الغزال، كان السكان المحليون زبائن متلهفين. وعلى الرغم من أن عاداتهم التقليدية كانت تنطوى على صيد الغزلان في مجموعة تم يتقاسمون حصيلة الصيد جميعا، فإن فرصة الحصول على بصضائع التجارة تسببت في أن يقوم الأفراد بالصيد لحسابهم. وكانت النتيجة الصيد الجائر للغزلان وإهمال المسئوليات الاجتماعية. وقد تضور الهنود جوعا لأن أعداد الحيوانات تناقصت إلى مستويات منخفضة حرجة. إن القرار بتحسين مصالح المرء الخاصة كان خطراً على بقاء القرية.

وعندما لا يلعب اللعبة اللاعبون الأفراد، وإنما تلعبها شعوب أو أمـم بأسرها، تصير أكثر تعقيدًا، تشبه الأحداث التاريخية الفعلية إلى حد كبيـر. ومع هذا، فإن أحسن عائد مشترك (أعظم خير لأعظم عدد) قد لايتصل بمـا يبدو أنه الاختيار العقلاني لشعب ما أو لوطن ما. وعلى سبيل المثال، إذا كان لدى أمتين اختيار بين السلم أو الحرب ضد إحداهما الأخرى، يكون الـسلام هو أحسن نتيجة لكليهما، ولكن إذا شنت إحداهما الحرب على الأخرى، فقـد تحصل على الأرض المرغوبة والموارد غير المتاحة من خـلل العلاقـات السلمية. وهكذا يبدو القرار العقلاني هو الذهاب إلى الحرب، ولكن إذا أخذت

^(*) هذا كلام جميل يصلح فى مجال التوعية الاجتماعية؛ ولكن ما علاقته بفلسفة التاريخ التي يزعم المؤلف أنه يسعى وراءها. وفى ظنى أن فكرة التاريخ عند المؤلف متواضعة وسطحية للغاية. (المترجم)

كلتا الأمتين هذه الطريقة وشنت كل منهما الحرب على الأخرى، فلن تكون لأي منهما ميزة على الأخرى، وتكون النتيجة دمارا لكل منهما.

وهكذا تكون نتيجة ما يبدو أنه قرار عقلانى بالنسبة لإحدى الأمتين في الواقع قرارًا لا عقلانيًا لكليهما.

وبسبب كل التجريد والتعقيد الممكن في "معضلة السجين"، فإنها ليست مجرد معادلة مجردة أو لعبة. إنها التاريخ على شكل لعبة. وفي مصطلحات أهداف الأمم المنفردة في مواجهة الصالح العالمي، تتكرر "معضلة السبجين" في كل مغامرة إمبريالية، وكل قرار لاستغلال الموارد الطبيعية في السبلاد النامية، وفي انتشار للتقدم التكنولوچي، وعندما يضع القادة السباسيون والمتعاونون الأفضليات قصيرة المدى والمصالح الاقتصادية (مثلا الوظائف في الصناعات الملوئة للبيئة) قبل المصالح بعيدة المدى (مثل الحفاظ على البيئة) فإنهم يلعبون لعبة "معضلة السجين".

أساليب لعب المؤرخين

يواجه المؤرخون صيغتهم الخاصة من هذه المعضلات. فهل يجب عليهم أن ينسخوا عن كتاب غير منشور لمؤلف آخر أو ورقة مقدمة لحلقة نقاشية أو محاضرة عامة ويضربون المؤلف الآخر في الطباعة؟ يكررون القصص القديمة بدون إضافة أي جديد لمجرد النشر؟ تشاركهم ما توصلوا إليه من خلال بحوثهم؟ ويعملون تجاه تاريخ أفضل في مشروعات مشتركة أو يمضون وحدهم؟ إن الحاجة الملحة لتحقيق السبق على زملاء المرء قد زادت بفعل نظام النشر والتوظيف الذي يمنح المكافأة للمجهود الفردي، ولكن إخفاء الاكتشافات عن الآخرين الذين يعملون في المجال نفسه، على مدى عدة سنوات أحيانا، على حين يجهز المؤرخ كتابه، يمثل نكسة للعلم بأسره.

والتوظيف في أقسام التاريخ يخضع لمنافسة شديدة. ففي سبيل الحصول على وظيفة في تاريخ أمريكا في القرن العشرين تلقى القسم الذي أعمل به ما يزيد على مائتى طلب، ومن هؤلاء كان لخمسين من هؤلاء المتقدمين تقريبا من الأوراق، والخبرة، والمنشورات وخاصية التدريس، ما يعادل أو أحسن مما كان لدى عندما تم توظيفي منذ ثلاثين سنة مضت. ويمكن أن نعقد مقابلة لدستة فقط من هؤلاء الناس الذين يحملون مؤهلات مدهشة، ونجىء بثلاثة أو أربعة منهم فقط إلى رحاب الجامعة، ويتم توظيف واحد منهم فقط.

ماذا لو قرر واحد من المتقدمين أن يغش؟ ولو أن كل متقدم للوظيفة أمين في طلب التقدم بشكل منضبط، لما كان هناك أحد يتمتع بميزة غير عادلة. ولكن إذا كان هناك أحد ما يكنب بشأن الإنجازات التعليمية أو منشوراته، فإنه حينئذ يكتسب ميزة على جميع المرشحين الآخرين. وضد مجرى التصرف هذا يجب على المرء أن يخاطر بأن الكذبة سوف تكتشف، ولكن المكسب المحتمل قديفوق في وزنه المخاطرة في عقل المتقدم للوظيفة، ومن ثم لا تكون هناك ميزة لأحد. فما الذي ينبغي على المتقدم للوظيفة أن يفعله؟

ويقترح توازن ناش إجابة. أين سيجد جميع المتقدمين التوازن؟ وأين لا يكن لأحد من اللاعبين يمكنه أن يكسب أية ميزة ضد الآخرين إذا ما مارس أحدهم الغش؟ إذا كان أحدهم يغش، فإن الآخرين يجب أن يغشوا إذا ما كان لهم أن يربحوا في مواجهة أولئك الذين ما يزالون يلعبون بحسب القواعد. وليس هناك توازن ما دام الجميع يبدأون الغش ويستمرون فيه. فهل هذه نتيجة مرغوبة لأى واحد من الغشاشين؟ لا. لأنهم لم يكسبوا شيئًا من غشهم، باستثناء زيادة مخاطر الانكشاف. وعلى أية حال، إذا كان الكل يلعبون بحسب القواعد، فلا أحد يكسب المزيد في مواجهة اللاعبين الآخرين. وهكذا يكون الغش عملاً غير عقلاني للجميع.

والمعلومات عن القواعد، حسب متطلبات توازن ناش، متاحة أمام كل اللاعبين. وكل من يحصر مقابلة من أجل وظيفة، وكل من يتم توظيفه في عمل، لديه كتاب اللعبة نفسه. "وبيان المعايير" الذي وضيعته الجمعية التاريخية الأمريكية يقول: "إن المؤرخين ملزمون بأن يقدموا أوراق اعتمادهم بدقة وأمانة في كل المناسبات، ويجب عليهم أن يحرصوا على أن لايسيئوا تقديم مؤهلاتهم في الخلاصات، وطلبات الوظائف، أو السجل العام. وعليهم أن يطبقوا القوة والكرامة نفسها في وصف منجزاتهم مثلما تطبقها مهنتهم على السجل التاريخي نفسه". وباختصار، تتطلب أخلاقيات المهنة أن يكون طالبو الوظائف صادقين، كما أن الكذب يقوض أساس التوظيف الأكاديمي برمته.

فما الذي يحدث عندما تبحث أقسام التاريخ عمن يشغل وظيفة - مثلاً، في تاريخ الولايات المتحدة في القرن العشرين - ولكن لديها جدول أعمال لا يكشفون عنه في الإعلان؟ فعلى سبيل المثال، قد يرغبون في زيادة وجود أقليتهم أو عدد النساء في القسم. مثل هذه المعلومات يمكن أن تكون متاحة لبعض المرشحين ولكنها ليست متاحة للبعض الآخر، أو يمكن استخراجها من طبيعة توصيف الوظيفة ولكن لم يتم الإقصاح عنها. وبحسب "بيان المعابير" فإن "قرارات التعيين تنطوى دائما على أحكام. ولكن فيما عدا تلك الأحوال التي يسمح فيها القانون الفيدر الي بتفضيل خاص، فإن المعاهد يجب أن تجعل قرارات التوظيف وكذلك القرارات المتعلقة بإعادة التعيين، والترقيات، ومدة الوظيفة، والتملذة، وعمل المساعدين العلميين من الخريجين، والجوائز، ومنح الزمالة قائمة فقط على أساس المؤهلات المهنية دون اعتبار والجنس، أو العرق، أو اللون، أو الأصل القومي، أو الاتجاه الجنسي، أو الاتزام السياسي أو الخبرة المهنية، أو السن، أو بعض الإعاقات الجسدية، أو الحالة الاجتماعية".

هل يمكن أن تساعد نظرية اللعبة في تفسير كيف يجب أن بتصرف القسم في هذه الحال؟ إن القرار العقلاني في المدى القصير، تمامًا مثل قبول الصفقة التي تقدمها الشرطة، أو قرار دخول الحرب، سوف تكون اختبارات من بين عدد المتقدمين للوظيفة، بحيث ينزل بها إلى مجرد أولئك الأفراد الذين يناسبون توصيف الوظيفة الخفي. ولكن التفكير في ضوء توازن ناش، ماذا لو أن كل بحث مضى في هذا الطريق- مثلا، التفرقة ضد النساء لأن القسم لم يكن يريد المزيد من النساء، أو لا يعتبر الأفراد بسبب انتمائهم الديني (أو يتطلب من كل المتقدمين للوظيفة أن يخضعوا الختبار إيماني قبل السماح لترشيحاتهم بالمضى قدمًا)؟ فماذا ستكون نتيجة مثل هذا القرار؟ لابد أن النتيجة ستكون أن التوظيف لم يعد قائمًا على الجدارة وإنما على مناسبة الأفراد للقسم لأسباب غير مهنية تمامًا أو إلى حد كبير. وقد تتدهور الأقسام المنفردة في مكانتها وهي تعيد ملء صفوفها بأنواع معينة من المجموعات العرقية أو الدينية فقط. و لابد أن تتدهور مكانة المهنة كذلك، عندما يدرك الأفراد ذوو الجدارة الذين ينوون العمل في مجال التاريخ يدركون أن احتمالات وظيفتهم لا تعتمد على الجدارة وإنما على الخصائص الشخصية. وقد حدث شيء من هذا القبيل حقا في المهنة التاريخية. هذا هو السبب في أن التوظيف الآن لا يتم بحسب توازن ناش.

وتأمل اللعبة الآن من منظور المرشح للوظيفة. إذ يتم تقييمه من جانب أكثر من قسم. فعندما يتنافس أحد أقسام التاريخ من أجل فرد لديه "عروض خارجية"، فإن الفرد يمكنه أن يصل بمكسبه بالتلاعب بالقسمين ضد أحدهما الآخر. ويخبر الفرد القسم الذى قدم له العرض بأنه يريد الكثير، تم يخبر القسم الذى يعمل به أنه يرغب جدا فى البقاء. لقد زاد المتقدم للوظيفة من قيمته إلى الحد الأقصى بأن "ربط" العصى سويًا. والمؤرخون الناجحون فى

هذه اللعبة سوف يخبرون زملاءهم الساخطين أن عليهم أن "يذهبوا إلى السوق" من أجل كسب مميزات مماثلة في الراتب وفي العبء التدريسي.

ماذا يحدث لو أن الجميع تبنوا هذا القرار؟ يصبح كل واحد فى القسسم بضاعة قابلة للتسويق (أو غير قابلة للتسويق). فهل يؤدى هذا إلى التسوازن، عندما يصل الجميع إلى المرحلة التى لا يكون أى قرار جديد يجلب المكافأة؟ لا. وبدلاً من ذلك، سوف تقود الكل إلى أن يكرر العملية للبحث فى الخارج عن العروض فى كل سنة، وهو عكس التوازن تمامًا لأن نهاية اللعبة، أى توازن ناش، لم تعد فى الإمكان. والبديل أنه سيكون هناك أدوار بلا نهايسة للبحث عن عروض خارجية.

وبمكافأة مثل هذا السلوك، في الواقع قياس جدارة الفرد في القسم بناء على الكيفية التي يكون بها الفرد جذابًا للأقسام الأخرى، وللقسم المحلى والأقسام التي تحاول إغراء المرشح للوظيفة تجد نفسها أيضا في حال عدم التوازن. ذلك أنهم لا يمكن أن يتنبأوا بمن الذي سيبقى ومن الذي سيرحل ويواجهون مشكلة الحفاظ على هيئة التدريس من الرحيل - أو توظيف أعضاء جدد - في كل سنة.

هل يمكن لتوازن ناش أن يساعدنا مع مشكلة الغش في المنسشورات؟ نعم. فعلى سبيل المثال، أنا أعرف أن هناك سوقًا لسيرة أخرى لجرانت U.S، ولكن هناك القليل مما يقال جديدا. وأجد سيرة قديمة، توفي مؤلفها، وأستعير منه بحرية لكتابي. والاستعارة تقال من الوقت الذي يستئزمه استكمال مشروعي. وكتابي ناجح تجاريًا. وقد فزت في "معضلة السجين" لقد كسب الغشاش ميزة في السوق، ولكن إذا كان ذلك القرار عقلانيا، فإن كل الأخرين في الموقف نفسه، بعقلانية، يجب أن يقصوا ويلصقوا الكتب من كتب أخرى. دعك من انتهاك حقوق التأليف، فإن النتيجة ليست توازن ناش وإنما عملية

متصاعدة إلى الأبد من الأعمال غير الأصلية التى تتخفى فى قناع الجدة. وربما يرضى جمهور القراء، ولكنهم أيضا سوف يكونون قد تعرضوا للغش. فالمشترون يدفعون لشراء كتب جديدة هى فى حقيقتها تجديد جزئى. وليس هناك توقف عن التزييف.

هذا التطبيقات لنظرية اللعبة على سلوك المؤرخين فى السوق تـوحى بسلسلة من الإضافات لفلسفة التاريخ الخاصة بنا. وإذا عرف المؤرخون أننا فى السوق ولسنا منه، وأننا لا يجب أن نسخر أو نشجع أسوأ ملامح مفهـوم القرن التاسع عشر عن الأسواق الحرة، فإننا يمكن أن نحمى أنفسنا وعملنا من القرارات غير العقلانية. حقًا، إن بعـض هـذه الاختيارات الـسلوكية الجماعية التى تتعارض مع العادات باتت راسخة والبعض يتطلب فقـط أن نعترف باعتمادنا المتبادل على بعضنا البعض.

خذ مسألة التعاون بين المؤرخين. وكما نكرت، في معظم الأحيان، يعمل المؤرخون منفردين. إنهم يعملون وحدهم، كما أنهم يخضعون نتاجهم النهائي وحدهم للحكم. ومع هذا فإنهم يصبحون عند هذه النقطة جزءًا من عملية تعاونية أو جماعية كبيرة. فإنهم يقرأون أجزاء من أعمالهم أوراقا في المؤتمرات، كما أن الزملاء في حلقات النقاش أو "المعلقين" يقدمون استجابات بناءة. وعندما يقدم المؤرخ مقالة إلى مجلة متخصصة، يرسلها المحرر إلى قراء خبراء طلبًا لمشورتهم. هل ينبغي نشرها؟ كيف يمكن تحسينها؟ وتطلب المجلات البارزة عادة خمسة أو ستة من القراء الخارجيين لكسى يفحصوا المقالة. والمؤرخ الذي يرسل مخطوطة إلى ناشر أكاديمي يمكنه أن يتوقع على الأقل اثنين وأحيانا أكثر من القراء الخارجيين لتقديم مسشورتهم إلى المطبعة، وإلى المؤلف عن قيمة المخطوط.

وطوال هذه العملية كلها، فإن المساعدين – من القراء الخارجين، والمحكمين، وحتى الزملاء الذين ينحون جانبا عملهم الخاص لمساعدتنا في عملنا لا ينالون أية مكافأة مباشرة. ذلك أن من يحكم مقالة مقدمة إلى مجلة علمية، مثلا، لا ينال المقابل. إنه يستغرق وقتًا ومجهودًا خضمًا من عمل المرء الخاص. ولكننا نفعل ذلك على توقع أننا عندما نقدم أعمالنا، فإن أحدا سوف يأخذ من وقته لكى يقرأ عملنا ويعلق عليه. هذا الجهد التعاوني الجماعي ليس ببساطة التبادل أو المقايضة بالخدمات. فالمؤرخون الذين لا يكتبون ولا يقدمون مقالات المجلات العلمية مستعدون مع ذلك لتحكيم المقالات، والمؤرخون الذين لا يخططون لتقديم مخطوط كتاب في المستقبل القريب سوف ينحون أعمالهم جانبا مع هذا ويوفرون الوقت لمساعدة ناشر ومؤلف أو آخر لتحسين عمل المؤلف.

فى مثل هذه الجهود التعاونية، يكون المجموع أعظم من أجزائه، وهو هدف من أهداف نظرية اللعبة كذلك. إن فلسفة تاريخ لزماننا لابد أن تفسيح مكانًا لهذا النوع من العمل وتحبذ المشاركة، ولا تحرك التاريخ بعيدًا عن اعتماده التقليدي على الباحث المنفرد في دور الوثائق كثيرا بقدر الاعتراف بأنه حتى الباحث المنفرد يعتمد على باحثين آخرين، ومحررين، وناشرين كثيرين لكى نصل بأى قطعة من العمل إلى حد الكمال.

وبالمثل، تذكرنا نظرية اللعبة بأن معاملة الدنين يحتمل أن يتولوا الوظائف على أساس جدارتهم، بدلاً من المفاهيم المسبقة عن التوافق، أو حصة كل مجموعة، يجعل ساحة اللعب مناسبة للجميع، وقد يكون الفعل الإيجابي في التوظيف ما يزال ضروريا لأن أحد الأقسام له تاريخ طويل في التفرقة ضد مجموعات بعينها ويتطلب علاجا، لأن الطلاب سوف يستفيدون من تنوع أساليب التدريس واهتمامات البحث التي يفتقر إليها قسم محدود،

أو لأن وكالة حكومية قد تكفلت بأنواع محددة من التوظيف. وعوضا عن ذلك، فإن جداول الأعمال المخفية، والاتفاقيات السرية، والمصالح الخاصة تمنع ببساطة تحقيق معادلة ناش – ستكون هناك دائما طريقة أمام الفرد لتحسين موقفه بالنسبة للآخرين".

وأخيرا، تكشف نظرية اللعبة عن أن المكاسب المباشرة من الغش في جميع الأشكال لا تلبث أن تنجلي عن الخساره للفرد ولسمعة المؤرخين جميعا. ولن ينسي أحد تماما أن ستيفن أمبروز قد انتحل عمل غيره، وأن رجلاً لطيفا ومؤرخا قادرا سوف يحمل وصمة هذا على السدوام. وإذا كنا نغش، فالجميع في النهاية يخسرون لأنه لا أحد سوف يشق فيما يقوله المؤرخون. إننا نفقد سلطتنا بوصفنا أبناء نظام علمي مع احترامنا بوصفنا أفرادا. إن الغش، كما تخبرنا مضلة السجين، سوف يكون حصادها سيئا على الدوام. إن جسرا إلى الماضي يبني على مثل هذه الأساسات غير السليمة لا يمكن أن يستمر في البقاء .

اللايقينيات

لم تعد هناك أية يقينيات سواء فى الحياة أو فى الفكر. هناك ارتباك فى كل مكان. هناك أسئلة فى كل مكان. أين نحن؟ من أين جئنا؟ إلى أين نحن ذاهبون من هنا؟ علام كل هذا؟

کارل بیکر (۲۶ ۱۹ م)

كتب بيكر هذه الكلمات في خطاب إلى محرر جريدة الطلاب في جامعة كورنيل عندما شكا الطلاب من الافتقار إلى اليقينيات في دراستهم. وإذ انساق الطلاب مع التحرر الأخلاقي في عشرينيات القرن العشرين، فإنهم نظروا إلى التاريخ ولم يجدوا سوى النسبية مثل تلك التي دعا إليها بيكر. كان متعاطفا ولكنه أجاب بأن التاريخ لا يقدم لهم، أو له، أي قدر من الراحة.

ويواجه المؤرخون اليوم، مرة أخرى، أزمة عدم اليقين. وكما كتبت في كتاب Past Imperfect، كانت ثمانينيات القرن العشرين قد بدأت بواحد من العمالقة بين أساتذتنا، وهو برنارد بابلين، يقود الجمعية التاريخية الأمريكية، ويدعو إلى "إعادة حكاية قصصنا" أو إعادة توحيد كل المكتشفات ذات التقنية العالية التي اكتشفها الجيل الأصغر من المؤرخين الجدد. وكان

واثقًا أن هذا التجميع يمكن تحقيقه، وكرس خطابه في المؤتمر السنوى لملخص موجز للمجالات ذات التخصص العالى التي نحتاج إلى إدخالها في القصة.

وقد انتهت تسعينيات القرن العشرين بخطاب مختلف تمامًا من الرئيس جويس أبللبى إلى الجمعية التاريخية الأمريكية: "اليوم، نحن نواجه تحديًا ... إن الجمود في حوارنا مع العامة لا يأتي من وجهة نظر إيجابية في التاريخ غير مناسبة وإنما من ضدها - الارتباك بشأن طبيعة المعرفة التاريخية وكم المصداقية التي تستحقها. مثل هذا الارتباك يمكن كذلك أن يدفع إلى اللمبالاة بل حتى إلى الخصومة".

وهذا ما حدث، ففي وجه عاصفة من النقد التاريخ الأكاديمي والمؤرخين الأكاديميين كان أبللبي يريد بشدة من العامة أن يفهموا كيف غير المؤرخون، في السنوات التي جاءت بعد ١٩٨٠م، الأساس نفسه الذي كان يتم عليه تحصيل المعرفة التاريخية. "يمكنكم أن تتعلموا ما الذي على التاريخ أن ينقله من الأخبار بدأتم بفكرة زائفة عما يكون التاريخ وكيف يحوز المؤرخون سواء من الهواة أو من المحترفين المعرفة عن الماضي، والأسوأ من ذلك، أنكم بدون هذا الفهم، سوف تصبحون أسرى المشك في شائعات الحرب الثقافية والمؤامرات الأكاديمية. إن الشكوك بشأن صدق المعرفة التاريخية قد تم تسجيلها، والمد من التعامل معها".

والدعوة إلى «منهج تاريخى عام» يقترب من «المنهج العلمى» التى شاعت فى أواخر القرن التاسع عشر، لم تقنع أحدًا بحيث إنسا استطعنا أن نتملص من شعبتى مشكلة عدم اليقين. والشعبة الأولى تختص باستخدامنا للكلمات. فهل الكلمات التى يستخدمها المؤرخون لوصف الماضى تتصل فعلا

بالأشياء التى تتحدث عنها؟ وهل يمكن لنا أن نثق فى لغننا لتعكس الحقيقة على حين لم تعد هذه الحقيقة التى نتصورها موجودة فى مكانها؟

والمشكلة الثانية أكثر إثارة للضيق. وحتى لـو استطعنا أن نكـون مستريحين بشكل معقول إلى الكلمات التى نستخدمها، فهل هناك أى نماذج في الماضى يمكننا أن نكتشفها؟ وبدون مثل هذه البناءات الكبرى والتنظيمية لا يمكننا أن نعبر الجسر إلى الماضى لأن الجانب الآخر سيكون بلا نظام تماما وبلا معنى بالنسبة لنا. ومن المؤكد أن كل «المراجعات» للتاريخ من جانب كل جيل من الباحثين دليل على أن البحث التاريخي لا يكون نهائيًا قط. بيد أنه يمكن للمرء أن يكون على يقين من ذلك، ثم ربما نستطيع القول بان المعرفة التاريخية قد لا تكون أكيدة ولكنها تقترب من اليقين بالطريقة التي يتم المعرفة التاريخية قد لا تكون أكيدة ولكنها تقترب من اليقين بالطريقة التي يتم بها مقاربة دمج النقاط في منحنى للحساب الدقيق للمنحنى نفسه.

هل هي واقعية ساذجة؟

لا يمكن للمؤرخين أن يعملوا بدون الكلمات. نحن نصع عناوين اعتباطية لفترات زمنية مثل القرون العقود بأسماء خاصة مثل القرون العقود وأسماء خاصة مثل القرود. ونرفع الأمريكي، وعقد ريجان ونعطى أسماء للفترات والعهود والعصور. ونرفع الأحداث المبعثرة إلى مستوى الحركات ونجعل من تجمعات الأفراد أحزابًا، وطوائف، وجماعات. ومع ازدهار كتابتنا يمكننا أن نحول حربًا أهلية إلى تجمع للديمقر اطيين. وبمثل هذه الحركات الوائقة نفترض أن كلماتنا أشياء وأن الأشياء موجودة في الكلمات بالقدر نفسه.

وربما بسذاجة، يفترض معظم المؤرخين أن الكلمات أشياء وأن الأشياء مربوطة سويًا بطريقة لا فكاك منها وأن كلماتنا تتعلق بالتالي على

نحو ما بالواقع. في نظرية؛ الواقعية الساذجة» قد يقول المرء إن ما نسراه، ونسمعه، أو نحسه بشكل آخر «موجود هناك» كما نراه بالضبط. ويجب على المؤرخين أن يقلقوا من وضع خريطة على طريقة «واحد مقابل واحد»، أي وضع كلمة لتسبغ معنى على الأشياء لأننا عرفنا أن الكلمات أدوات ثقافية وأن الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة قد لا يصفون الشيء نفسه بطريقة مختلفة تماماً.

وثمة مثال من كتابى (Micmac of Nova Scotia قد نقلوا أسطورة عن سوف يوضح قصدى. إذ إن Micmac of Nova Scotia قد نقلوا أسطورة عن كيف أنهم قابلوا البحار الفرنسى جاك كارتبير بأسطوله الصغير قبالة الساحل في سنة ١٥٣٤م (طبعا التواريخ وهوية القادمين الجدد لم تكن جزءًا من القصة الهندية) وذات صباح، تجمع شعب الميك ماك على الضفة ورأوا جزيرة صغيرة غريبة، وعليها أشجار، تطفو بالقرب من الشاطئ ثم توقفت. وفي الأشجار كانت هناك دببة. ولكن عندما جرى الميك ماك إلى حافة الماء بقسيهم وسهامهم لكى يطلقوها على الدببة تحولت بطريقة سحرية إلى رجال ذوى هيئة غريبة ويركبون زوارق غريبة المنظر ليجدفوا صوب السفاطئ. ولم يحدث سوى عندما أخذ الفرنسيون عددًا من الهنود على سطح السفينة أن أدركوا أنها كانت من صنع الإنسان.

وقد سجل الفرنسيون المواجهة كذلك، وما رأوه كان مختلفًا عما رآه الميك ماك، تماما مثلما كانت ثقافتهم مختلفة عن ثقافة الميك ماك. فقد افترض الفرنسيون أن «الأسطولين المكونين من قوارب المتوحشين» اللذين اقتربا منهم يوم 7 يوليو ١٥٣٤م، كان غرضهما حربيًا، وعلى حد تعبير كارتيبه على الرغم من أن الأهالى:

«جاءوا جميعا وراء قاربنا الطويل، وهم يصيحون ويظهرون العديد من الدلائل على الفرح، ورغبتهم في أن نكون أصدقاء ... لم نشعر بالثقة في إشاراتهم ولوحنا لهم بالعودة ... ولما رأينا أنه لا يهم كم لوحنا لهم، وأنهم لم يعودوا أدراجهم، أطلقنا فوق رءوسهم طلقتي مدفع صغير، وعند وصلوا إلى جانب قاربنا وأطلقنا حربتين ناريتين تبعثرتا بينهم وأخافتهم كثيرا لدرجة أنهم بدأوا يجدفون بسرعة شديدة وهم يبتعدون».

لقد تصرف صيادو الميك ماك والمستكشفون الفرنسيون في رد فعل تجاه ما شاهدوه، ثم تذكروه فيما بعد، بطريقتين مختلفتين تمام الاختلاف وكان ذلك بالضبط لأن تجاربهم السابقة والتكنولوچيا التي يملكونها كانت مختلفة للغاية.

إن التاريخ يعلمنا أن الرؤية مرتبطة بالثقافة: فنحن نرى ما تعلمنا أن نراه، وليس ما هو «موجود هناك» لكى يـراه الجميع بالطريقة نفسها، والمفكرون العظام أمعنوا التفكير في سؤال مماثل طوال التاريخ الغربي. هل ما يحسه أي منا، الآن أو في وقت آخر، حقيقي، أم أنه الانعكساس الغامض الشيء مثالي لا يمكن لنا أن نراه أبدًا؟ فالمثاليون كالفيلسوف الإنجليائي الأيرلندي الذي عاش في القرن الثامن عشر والكاهن الأنجليكائي ورج بيركلي كان يظن أن الكلمات تعكس الأفكار التي في أذهاننا، فليست هناك أفكار مجردة خارج عقولنا، وحسبما كتب في كتابه «هناك في الواقع رأى يسود على نحو غريب بين الرجال، أن المنازل، والجبال، والأنهار، وجميع الأشياء المحسوسة لها وجود طبيعي أو حقيقي، متمايز عن أنها تدرك عن طريق الفهم، ولكن بأي قدر من التأكيد والموافقة مهما كبر يمكن أن يؤخذ بهذا المبدأ في العالم: ومع هذا فإن من يجد في قلبه مهما كبر يمكن أن يؤخذ بهذا المبدأ في العالم: ومع هذا فإن من يجد في قلبه

ما يستدعى طرح السؤال، وربما، إذا ما كنت مخطذًا، يفهمه على أنه يتضمن تناقضًا واضحًا. لأنه ماذا تكون الأشياء التي سبق ذكرها سوى أشياء تدرك بالحواس، وما الذي نستوعبه إلى جانب أفكارنا أو حواسنا الخاصة: كما أنه ليس من الواضح أنه من المكروه أن أيا من هذه أو أي مزيج منها يمكن أن يوجد وهو غير مدرك؟».

إن الكلمات لم تكن أشياء، لأن الشعوب المختلفة لديها كلمات مختلفة تدل على الشيء نفسه. «من الواضح لأى واحد يقوم بعمل مسمح أشياء المعرفة الإنسانية، أنها إما أفكار مطبوعة فعلا على الحواس، أو غير ذلك كما ندركها حاضرة في العواطف وفي عمليات العقل، أو أخيرا أفكار تشكلت بمساعدة الذاكرة والخيال، سواء كانت جامعة أو تقسيمية أو هي فقط تلك الأشياء المدركة أصلا بالطرق السابق ذكرها ... وطالما أحدد تفكيري في نطاق أفكاري المنزوعة من الكلمات، فإنني لا أرى كيف يمكن أن أكون مخطئا بسهولة». ولم نستطع قط أن نبرهن على أنه كان هناك عالم هناك في الخارج، مستقلاً عن أفكارنا (فيما عدا أن الرب لا يمكن أن يخدعنا، وكان هذا جيدًا تماما بالنسبة لبيركلي) «بالنسبة لي، أقول إنه من الواضح أن كينونة روح حكيفة، وخيرة وقوية بلا حدود يكفي تماما لتفسير كل كينونة روح حكيفة،

وإذا كان ما نراه ونسمعه في هذه اللحظة ليس هو ما يوجد «هناك في الخارج» ولكنه يوجد فقط في أذهاننا، فما التاريخ، إذن؟ بدون «الآن» التي نشترك فيها، كيف يمكن أن يكون هناك «حينئذ» يمكن أن تتقاسمه؟ يريد أن نصدق أننا نشارك أحدنا الآخر في عالم، وأن روايته عن ذلك العالم إن لهم تكن حقيقية بالتأكيد، فيجب على الأقل أن تكون صادقة. ولا يمكن أن يكون هناك بناء مندرج للمعرفة التاريخية لأن مثل هذا البناء سوف يوجد، إذا أمكن

أن يوجد، في العقل الفردى فقط، وفكرة كل واحد عنه سوف تكون خاصة بهذا الفرد وحده. وكما كتب بيركلي «عندما أحاول أن أضع إطارا لفكرة بسيطة عن الزمن، مجرد من تتابع الأفكار في عقلي، والتي تفييض بشكل متسق، ويشارك فيها كل الكائنات، أضيع وأتعشر في صيعوبات لا فكاك منها».

لقد صارت رؤية بيركلى للأفكار والزمان شيئًا مثيرًا الفضول، ولكن في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، عندما كان الكثير جدا من الفروض التقليدية عن العقلانية في الفلسفة الغربية تتلاشى، فثمة مدرسة جديدة من المفكرين الشكاكين (يطلق عليهم أحيانا اسم التفكيكييين) رفضوا مفهوم الحقيقة خارج اللغة. وغالبًا ما تعرضوا للشتائم، وفي أغلب الأحيان أسيء فهمهم باعتبارهم مفضوحين و لاعبين فحسب، بدون برنامج إيجابي، والحقيقة أنهم كانوا مفكرين جادين وكثير منهم كانوا قد رأوا الكثير جدًا من التاريخ: لأن التاريخ آنذاك كان ذاكرة الرعب الذي سببه الهولوكوست. فقد كانوا يشكون في مزاعم الأمم والأحزاب بأن الحقيقة بسيطة، مؤداها أنب يمكن أن يتم تصنيفها، وأن كل المرئ يتوافق في صندوق أو آخر تحدده الدولة.

بالنسبة لچاك دريدا كان الزمن «يُدرك في مصطلحات الحاضر، ولا يمكن أن يعنى أى شيء آخر»، والمعانى فى النصوص يمكن أن تسافر عبر الزمان، من نص إلى نص آخر، ولكن النص هو كل ما هناك. ولم يكن التاريخ قابلاً لتحديد مداه، وانهار الزمان عندما صار كاتب النص وقارئ النص واحدًا، إذ لم يكن هناك معنى ثابت المصطلحات التاريخية، أو على الأقل معنى ثابت فى سياق خارج اللغة، وإذا كان هذا يبدو مبهما فقد كان الابد لدريدا أن يكون أول من سلم بهذا، كما فعل فى سنواته الأخيرة، بأنه كان

دائما وأبدا «أسأل نفسى أسئلة لا جواب لها». وكما كتب ريتشارد إيفانز فى كتابه (In Defense of History 1999) إن مكمن الراحة النهائى لمئل هذه النظريات أنه؛ لم يعد ممكنا اعتبار المؤلفين متحكمون فى معانى ما يكتبون... ففى التاريخ لا يمكن إيجاد معنى فى الماضى؛ إنه يوضع هناك فحسب، بطريقة مختلفة فى كل مرة، وبقدر متساو من الصلاحية، على أيدى مؤرخين مختلفين». وليحذر القارئ، أو، دع القارئ يبتهج لأن النص ينتمى إلى القارئ. ففى النهاية بقينا مع نسخة أقل تفاؤلا وثقة بالنفس من الشك المثالى لدى بيشوب بيركلى، وفيها لم يكن ثمة آلهة رحيمة لكى تضمن لنا أن قراءتنا لضمائرنا كانت صحيحة.

كان هناك حسبما قد يشك المرء بعد قراءة الفصل السمادس، جانسب سياسى فى هذا، لأن معظم التفكيكيين كانوا شكاكين للغاية فى الحكومة. كانت قوة الدولة تعبر عن نفسها فى أرشيفاتها، أو فى جيوشها، وتمتد إلى قوة اصطناع التاريخ. وكان دريدا، على سبيل المثال، قد نما وترعرع حتى وصل سن الرجولة بالجزائر فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وعانى الاضطهاد لكونه يهوديًا، وتعلم فى فرنسا التى كانت ما زالت تتعافى مسن عواقب التعاون والاحتلال. باختصار، يمكن للمرء، بشىء أقل من الإحسان، أن يلمح إلى أن نظرة التفكيكية لاستخدام اللغة وسوء استخدامها كانت ناتجة لا عن خصائص اللغة الكامنة ولكن عن التجارب الرهيبة للحرب، والاحتلال، والخزى الوطنى. وكما استنتج دافيد روبرتس بسأن الحركة التفكيكية فى أيامها الأخيرة «يزداد النقاد عدوانية، ويصورون التفكيك على أنه بلا قيمة، ويصورون موضته الرائجة فى البداية على أنها إحراج، ويمكن تفسيرها فى مصطلحات الشذوذ الأسلوبى فى الحياة الفكرية الفرنسية وأقسام الأدب الأمريكي».

وتقديم هذا السياق من أجل «المغالاة المقصودة» في أفكار التفكيكيين يسلب من النقد قوته. ولكن تفكيك الماضي التاريخي قد يفح الباب أمام مزاعم وطنية تماما (وليس مصادفة، أنها تخدم نفسها) عن الماضي، وإذا كان الأمر حسبما يحذر چون توش «التطلع إلى إعادة خلق الماضي في الروايات التي يكتبها العلم، إنما هو وهم» إذن فمن الذي سيقول إن أي سرد خاص أو تقييم يكون أسوأ، أو أفضل، من أي سرد آخر؟ وستكون هناك صيحة قتال مشتركة لكل من الشكاكين، والمؤمنين على السواء. ويرفض الشكاكون التاريخ كله باعتباره «تخريف» على حين يعرف المؤمن الحقيقي ما حدث حقًا على الرغم من كل البحوث التي تقول العكس.

أخطاء التصنيف والصلابة الزائفة

هل يمكن لفلسفة التاريخ الخاصة بنا أن تنقذ نفسها من مثل هذا التحدى الأساسى لكل المعرفة التاريخية؟ أدخل جلبرت رايل، وهو فيلسوف بارز من أوكسفورد، ومؤلف كتاب لافت سنة ١٩٤٩ م عنوانه The Concept of م عنوانه Mind. فقد طاف بأحد الزوار في أرجاء أوكسفورد ما أسماه خطأ التصنيف في قصة. فقد اطلع زائرا على أوكسفورد، مشيرًا إلى الطلاب، والكليات، والمكتبة وكل الأشياء الأخرى الحقيقية. ثم سأله الزائر في حيرة حقيقية، أين هي «الجامعة؟» وشرح رايل أن هذه كانت غلطة تصنيف، افتراض أن الجامعة يجب أن تكون شيئًا غير مجموع الأجزاء المكونة لها .

كانت الغلطة نفسها التى نرتكبها عندما نقول إن «العقل» مختلف عن كل الوظائف الواعية للمخ. فقد وضعنا «عفريتًا» فى الماكينة. خذ مثلا واحدًا من النجوم الساطعة بين المؤرخين الغربيين، فكرة التقدم. فإذا كان التقدم

صعودا ثابتا فى مستوى المعيشة، فإن السيطرة المادية والتكنولوچية غلى الطبيعة، وراحات المخلوق، سوف توزن إذن فى مقابل انتشار الحروب المرعبة وأسحلتها الحديثة. ويمكن أن يكوم المؤرخ الأدلة على أى من الجانبين. وإذا كان التقدم عبارة عن مفهوم، على أى، عفريت فى الماكينة، فيه يمضى التاريخ غير المرئى تجاه أيام أفضل، فإنه لن يكون هناك من الأدلة ما يكفى للبرهنة على ذلك أو إنكاره، وسيكون التقدم فى عقل المؤرخ بلا معنى.

وقد تنطبق غلطة التصنيف هذه على كثير مما كتبه المؤرخون عن الحركات العظيمة في الماضى، وعلى سبيل المثال، فإن تسمية البناء التحتى المتنامي في إنجلترا القرن التاسع عشر «ثورة صناعية» يمكن أن يكون إضافة كلمة إلى كلمات كثيرة يمكن أن نعددها، ويمكن أن نظهر لقارئنا المصانع، والعمال، واستثمار رأس المال، بل ويمكننا حتى أن نشير إلى العقلية المتغيرة لكل المهتمين، ولكن أين هي الثورة؟ ويمكن إظهار التغير في التكنولوچيا ولكن عند أية نقطة يصبح التغير شاملاً بحيث يرقى إلى صورة؟ ونحن نخرج بمثل هذه المصطلحات العامة لأننا جميعا نستخدمها ويجامل كل منا الآخر المجاملة المهنية في هذه الكلمات المستحدثة. إنني أخشى من أننا وقمنا باختبارات دقيقة لغلطة التصنيف على مؤلفاتنا التجميعية في التاريخ فإننا سنجد الكثير من الأشباح في ماكينتنا.

وشمة تحد ثان للتصنيف التاريخي السببي يتمثل في المغالطة المنطقية عن الصلابة الزائفة. وقد سبقت ما قال به رايل. ذلك أن عالم الرياضيات الإنجليزي ألفريد نورث هواتسهيد قال في بداية القرن العشرين وببساطة، إن القول بأن شيئا ما موجود لا يجعله هكذا. ويجب أن تكون هذه فراسة مزعجة للمؤرخين، لأننا في أوقات كثيرة لا يكون بحوزتنا دليل باق عن

الدافع، والسببية وأجزاء أخرى من روايتنا، إن التسمية لا تخلق الأحداث، أو الأفعال، أو الوعى المشترك. وعندما نسمى ثمانينيات القرن التاسع عـشر «عصر الرفاهية»، أو تسمى فترة الثمانينيات من القرن العشرين «جيل أنا أو لا»، إنما نفصح عن آرائنا، فنحن نصدر أحكامًا، لكننا لا يمكن أن نخلف شيئا بمجرد تسميته. وربما كان مارك توين قد غضب عن حق من العرض المبهرج لمحدث النعمة، الذي تحيط به مظاهر الفقر المحدوق في علماتهم ثمانينيات القرن التاسع عشر، وربما يكون المجدون قد وجدوا في كلماتهم المستحدثة راحة أخلاقية مماثلة، بيد أن الكلمات ليست أشياء.

وبالنسبة للمؤرخ، فإن الصلابة الزائفة حقل ألغام نخوض فيه يوميا. ومنذ زمن طويل مضى كانت المعجزات التى نستهزئ بها اليوم تؤخذ ليس على أنها حقيقية فقط ولكن باعتبارها كشفا مباشر الغرض قوة أسمى. وكان المؤرخ فى العصور الوسطى يكتب عن الملائكة والمعجزات والقوى المقدسة التى وراءها. كما ألف علماء العصور الوسطى مقالات لشرح السبب فى أن الإعجازى كان لابد أن يكون حقيقيًا. وبينما تكون النزعة العلمانية عند الغالبية العظمى من الباحثين المحدثين نوع من الدروع ضد هذه الأمثلة القديمة جدا من العجائب، فإننا استبدلناها بعجائب من لدنا. ونحن نخطئ فى الهوية السياسية للدولة ونخلط بينها وبين عجيبة ثقافية نسميها الوطن. ونخطئ حين نخلط بين الحكومة العاملة والسياسة الراسخة، ونحن نكتب تاريخ الحرية، وتاريخ الملكية الخاصة، وتاريخ الحقوق كما لو كانت هذه أشياء بحد ذاتها، على حين أنها فى الحقيقة أبنيتنا العقلية.

وثمة هجوم أكثر تعقيدًا على الغلطات التصنيفية والصلابة الزائفة تنتمى إلى مجموعة من الفلاسفة الأوربيين يسمون الفلاسفة الوضعيين. وكان

هؤلاء الرجال مهتمين بما يمكن للعلم أن يتحقق منه فى لغتنا. وإذا كان هناك شىء لم يمكن التحقق منه، فإن تسميته كانت مجرد إحداث ضجة لا غير. فى هذه الطبقة وضعوا كل شىء لم يكن ممكنا اختباره فى العالم الحقيقى فى الميتافيزيقا وفى الدين. فهل كان التاريخ بنتمى لهذا أيضًا؟

وفى كتابه الكلاسيكى (Language, Truth and Logic 1946) شرح الفيلسوف الإنجليزى ألفرد جوليس آيير ما الذى تتطلبه الوضعية المنطقية. وتم تعريف الاعتقاد العقلانى على أنه «اعتقاد يمكن الوصول إليه عن طريق المناهج التى تعتبر الآن مناهج يعتمد عليها». ولم يكن هناك مستوى مطلق للعقلانية والجدازة، ولكن «نحن نثق فى مناهج العلم لأنها كانت ناجحة فلى الممارسة» وحيننذ صارت الجدارة «درجة من الثقة» يحوزها المرء فى أى اقتراح حول العالم الحقيقى، وهذه الثقة مستمدة من «الملاحظة». ولكن يمكن تطبيق هذا على الأحداث التاريخية، التى لم يكن من الممكن ملاحظتها بصورة مباشرة؟

كانت الإجابة جاهزة عند آيير «إن الاقتراحات التي تشير إلى الماضى لها نفس السمة الافتراضية مثل تلك التي تشير إلى الحاضر». وإذا شئنا الدقة «فإن معرفتنا عن الماضى» لها السمة الافتراضية نفسها «مثل معرفتنا عن الحاضر، التي يمكن اكتسابها بطريقة برجمانية. وبالضبط مثلما كان أي اقتراح عن الحاضر فرضا يمكن ألا نوافق عليه، فكذلك لم يكن هناك ماض «موجودا بصفة موضوعية». ولم يكن التاريخ شيئا أكثر ولا أقل من مجموعة من الاقتراحات الخاضعة للبرهنة بواسطة براهين مماثلة .

ولكن كيف يمكن للمرء أن يبرهن باختبار تحقيقى على ما لا يمكن للمرء أن يخضعه لللختيارات التحقيقية؟ إذا كانت كل عبارة أو بيان عن الماضى عبارة عن اقتراح، والثقة التي لدى المرء في أى اقتراح تعتمد على النجاح في الممارسة، وكان النجاح في الممارسة يقاس بالملاحظة، فإن البيانات التاريخية لا يمكن التحقق منها على الإطلاق. كان آيير قد ترك المعرفة التاريخية داخل دائرة مكتملة، قطار في مسار يدور ويدور، ولا يتوقف أبذا عند محطة الحقيقة. وفقط إشارته إلى البراجمانية تلمح إلى طريق للنزول من هذا القطار إلى لا مكان.

تاريخ براجماتي

إن بداية أية إجابة على هذه التحديات التى تواجه كلمات المورخين تأتى من جهة غير متوقعة. على الرغم من أن أمريكا ليست معروفة بفلاسفتها الأكاديميين، ففى تطور مواز للوضعية الأوربية، والواقع أنه كان هناك تنبؤ بها على نحو ما، فإن الفيلسوف الأمريكي الذي عاش أواخر القرن التاسع عشر تشارلس ساندرز بيرس، كانت له نظرة صعبة «للحقائق» لدينا. فقد أطلق على فلسفته اسم «البراجمانية»، وهى تشك بسشكل خاص فى الاستخدام الفضفاض للكلمات الفارغة.

وفى مقالة صدرت سنة ١٩٠٥م بعنوان «What Pragmatism Is» قدم بيرس للفقراء نسخته الوداعية للطريقة البراجمانية للمعرفة: «إن النظرية هى أن مفهوما، أى، الفحوى العقلانى لكلمة ما أو تعبير آخر يكمن حصريًا فى توجهها لوضع مفهوم للسلوك فى الحياة... وإذا كان المرء يستطيع أن يحدد بدقة الظواهر التجريبية التى يمكن فهمها والتى يمكن أن ينطوى عليها تأكيد المفهوم أو إنكاره، فإن المرء حينها سوف يكون لديه تحديد أو تعريف للمفهوم، وليس هناك إطلاقًا شيئا فيه أكثر من ذلك».

والتعريف، وهو موجز ونهائى بحد ذاته، يضع مشكلة ذات شقين أمام المؤرخين. وإذا كان الأمر، كما قال صديق بيرس ورفيقه على درب البراجماتية وليم جيمس لجمهور من السامعين فى معهد لويل فى بوسطن، فى سنة ٧٠٩م، وأن الحقيقة ليست معطاة ولكن: ما تزال فى طرور الصنع، وتتنظر جزءًا من استكمالها فى المستقبل» كيف يكون التريخ ممكنا؟ إن الماضى يتغير حتى عندما يحاول المؤرخون أن يتوغلوا فى أسراره. ولا يستطيع المؤرخ أن يحدد الشروط التجريبية لاختبار أية رواية بعينها عن ذلك الماضى، وليس السبب ضياع سياقها الأصلى وكمالها بدرجة كبيرة، ولكن ما يتبقى منها يتغير باستمرار، وكل ما لدينا شذرات لا يمكن إعادة إنتاجها فى حالة سيولة مستمرة.

والأسوأ من هذا، أن من يدرس التاريخ يدرس أشياء ثلاثية الأبعاد وهو يعتمد بدرجة كبيرة على وثائق ثنائية الأبعاد. وفى هذه الوثائق لايجد المرء الناس ولا الأشياء، ولكنه يجد كلمات، هى مجرد كلمات. والمعضلة التى تواجه المؤرخين الأمريكيين أشد إيلامًا من هذا، لأن كلماتنا الأكثر ثراء مثل الديموقر اطية، والمساواة والحقوق، تبدو بلا واقع راسخ على الإطلاق. وبينما هناك تأثير فى العالم الحقيقى لانبعاث هذه الكلمات، فإن المفاهيم نفسها لا يمكن أن تخضع للتجارب البراجماتية، إذ لا يمكن التحقق منها. فهل يجسب إلقاؤها بعيدًا مع ما فيها من غموض وسرية؟

وواحد من أوائل البراجماتيين الأواخر، الفيلسوف چون ديـوى مـن جامعة كولومبيا، الذى تعثر فى هذه المعـضلة. كـان يـؤمن بعمـق فـى الديموقراطية والمساواة – ولكن هل يمكن لفيلسوف براجماتى أن يدافع عن هذه القيم الأساسية؟ وبالنسبة له تكمن الإجابة فـى الطريقـة التـى ينبغـى بها تعليم هـذه القـيم. وفـى سـنة ١٩٠٦م اقتـرح ديـوى فـى كتابـه بها تعليم هـذه القـيم.

«إن المجتمع الذي لايتغير فحسب ولكنه يمتلك نموذجا لمثل هذا التغير ويحسنه كذلك، ستكون له معايير ومناهج مختلفة في التعليم عن ذلك المجتمع الذي يهدف ببساطة إلى استمرار عاداته الخاصة. ولجعل الأفكار العامة قابلة للتطبيق على ممارستنا التعليمية الخاصة، فإن من الضروري أن نقترب من طبيعة الحياة الاجتماعية الحاضرة... ولا يمكن لنا أن نقيم، خارج رءوسنا، شيئًا نعتبره بمثابة مجتمع نموذجي، ونحن يجب أن نضع مفهومنا على أساس مجتمعات موجودة حقًا، لكي يكون لدينا أي تأذيد بأن مثالنا مثال عملي، ولكن، كما رأينا للتو، لا يمكن للمثال أن يكرر ببساطة الخصائص المرغوبة والموجودة بالفعل، والمشكلة هي في استخراج الخصائص المرغوبة من المثال الحياة الاجتماعية الموجودة فعلاً، وتوظيفها في انتقاد الملاميح غير المرغوبة وتقترح تحسينها». وباختصار، كانت الإجابة استفساراً من نوع مختلف تمامًا، في القيم نفسها.

ما الذي كان هذا يعنيه بالنسبة للتأكيد التاريخي؟ كتب ديوى أن «التاريخ كله كتب بالضرورة من منطلق الحاضر». وليس من الصعب أن نرى أساس ذلك التعميم أي مؤرخ يكتب عن الماضي يكون في زمنه الحاضر وهو يكتب. وبالنسبة لديوى، كان هذا يعنى أن الحاضر موجود دائمًا في التواريخ التي نكتبها. إن الكتابة «بذهنية الحاضر» عن الماضي بمشكلات الحاضر وقيمه في عقولنا، هو أحد المقدمات المنطقية الزائفة التي يدينها دافيد هاكيت فيشر. والإجابة بأننا لا نعيش في الماضي، وأن الأدلة التي نستخدمها موجودة في الحاضر وأن أفعالنا (تذكر أن البرجماتية ربطت المعنى بالأشياء التي يمكن التحقق منها) تكون في الحاضر، لا يقنع نقاد الوجودية. ويمكن طبعا، أن ننكر الوجودية، وأن نستبعدها ونقصيها إلى آخر دوائر الجحيم بصوت عال، بيد أن هذا لا يعنى أن الأمر قد سار على ما

يرام – فلو كان ديوى محقًا فلن يكفى أى قدر من الإنكار من جانب المؤرخين ذوى العقلية الوجودية. لقد ثبتنا فى مكاننا. ذلك أن اختيارنا للمادة. وتأكيدنا عليها، واستخدامنا للكلمات، ووجهة نظرنا، كلها نابعة من حالتنا الذهنية الحاضرة.

كيف لمثل هذه الحالة الوجودية أن تساعد فلسفة التاريخ في زماننا؟ إن المحك في سؤال كهذا أننا نعطى قيمة كبيرة لذلك في تاريخنا وفي قوانينسا، وربما لم يكن هناك دليل فلسفى على أن «الناس جميعا خلقوا متساوين، وأن خالقهم قد أسبغ عليهم حقوقا معينة لا يمكن المماحكة فيها». وعلاوة على ذلك، يكشف تاريخنا عن التناقضات واللايقينيات في مثل هذه التصريحات. فالرجل الذي كتب هذه الكلمات الافتتاحية الرنانة في إعلان الاستقلال كان يمثلك العبيد ولم يحرر الأغلبية العظمى منهم. وعلى النقيض من ذلك أخذت مجموعات من العبيد في نيو إنجلند تلك الكلمات وكرروها في طلبات التحرير التي قدموها، ووافق ملاك العبيد في نيو إنجلند على أن السرق لا يمكن أن يبقى في جمهورية ثورية مع أن ذلك يناقض مصالحهم الاقتصادية.

وتناسب البراجماتية الأمريكية فلسفة التاريخ لزماننا لا لأننا يمكن أن نتبع قواعد بيرس، أو لأننا نشترى وجودية ديوى كلها، ولكن لأن البراجماتية تتيح لنا أن نكتشف كيف تعمل أفكارنا التأسيسية في الممارسة. ومن ثم، فإنه بالنسبة البراجماتية التاريخية، لا تكون المساواة هدفًا بعيد المنال وإنما حقيقة يمكن التأكد منها. وعندما تحرم مجموعات من المساواة في المكانة أمام القانون في الساحة العامة، حتى في الوصول إلى الراديو والتليفزيون، فإن العلاج في العالم الحقيقي، من خلال ساحات المحاكم والتشريعات، يقدم لهم هذه المساواة. فالحرية مرئية يوميا، أو إذا لم يكن ذلك كذلك، فإننا نطلب أن نعرف لماذا. وتتيح لنا قوانيننا ليس فقط أن نتكلم بصوت عال (علانية) وإنما نعرف لماذا. وتتيح لنا قوانيننا ليس فقط أن نتكلم بصوت عال (علانية)

تتيح لنا أيضا (نسبيا) أن نكون آمنين من اضطهاد الحكومة. وعندما تدوس الوكالات السياسية المغالية على ذلك الخط، وهي خطوة في اتجاه الطغيان، فإن لدينا وسائل الاحتجاج. فالحرية، ومتابعة الأهداف الفردية في السعادة والفرصة الاقتصادية يمكن أيضا قياسها بصورة براجماتية ويتم اختبارها في العالم الحقيقي. وإذا لم تكن تلك الأهداف ميسورة دائما، فإنها على الأقل مرئية. ومع بعض الاستثناءات، فإن نظام القواعد لدينا، وحرياتنا، وحقوقنا، لا تظهر صلابة زائفة وأخطاء التصنيف.

وينبغى لهذا كله أن يؤكد للمؤرخين الباحثين عن فلسفة تاريخ تـصلح اليوم. ونحن بحاجة إلى أن نكون على ثقة من أننا لا نلعب لعبة بالكلمات، نفكر في الكلمات بدلاً من الأشياء. وقد تذكرنا البرجماتية بأن مـصطلحاتنا يجب أن تكون قائمة على أرضية من التجربة الحقيقية، ويجب أن تنسب إلى علم نشترك فيه جميعًا. والتاريخ الذي يكون على هذا النحو واقعًا في غـرام رطانته الخاصة، مهتمًا للغاية بأن يكون غامضًا، لدرجة أن القراء العاديين لا يستطيعون متابعته، إنما هو بناء لأخطاء التـصنيف والـصلابة الزائفة. والتاريخ الأكاديمي في أغلب الأحيان يقع في هذا الخطأ، عندما يكتـب الأساتذة لحفنة من الأساتذة الآخرين... وتتطلب فلسفة التاريخ الخاصة بنا الشفافية واحترام القارئ المتعلم غير المتخصص. وعندما نحقق هذا الوضوح الأدبي، فإننا أيضا نخطوه خطوة أخرى بعيدًا عن الاستحالة ونتقدم خطوة أقرب إلى ذلك الجانب الآخر – أي الماضي. ذلك أن تاريخا يتحـدث إلـي الملايين يكون تاريخ تلك الملايين. ومثل هؤ لاء المؤرخين يمكنهم عبـور الجسر إلى الماضي علو نحو مريح كثيرا من المـؤرخين الـذين ارتبطـوا بنظريات غامضة ومصطلحات ملغزة.

ولكن ماذا لو كانت الفوضى تحكم الشاطئ البعيد؟

البرهنة على اللايقينية

تخيل أن عالم آثار عظيمًا أخذته حفائره الأسطورية إلى جميع أنحاء العالم بحثًا عن كنوز مخبوءة. وفي إحدى هذه البعثات كان يسعى بحثًا عن صندوق فيه سر المعرفة كلها. ووجد الصندوق وفتحه. وبداخله كانت توجد قطعة وحيدة من ورق البردي الأصفر عليها كلمات تقول: «الصندوق فارغ». ونظر العالم المغامر حوله بعد أن أغلق صندوقه في عنف ليرى ما إذا كان هناك أحد قد سخر منه بشأن محتويات الصندوق. ولم يكن هناك أحد. لقد كانت الورقة هي السر في حد ذاتها. فلو كانت حقيقية، والصندوق فارغ، فلن يكون هناك ورقة. لقد أمضى سنوات كثيرة للغاية في البحث الميداني وكان يتصور نهاية بحثه. ولكن ها هي النهاية. وإذا كانت زائفة، وكان هناك شيء في الصندوق، إذن فهي قطعة الورق، والتي قالت إن الصندوق فارغ. وباع بطلنا المحبط الصندوق في السوق المحلى وانطلق الصندوق فارغ. وباع بطلنا المحبط الصندوق في السوق المحلى وانطلق

دعنا نضف طبقة من التعقيد إلى محتويات الصندوق الغامض. إنه يسمى «التناقض الإغريقي» لأن قدماء الإغريق سخروا من الكريتيين منافسيهم في التجارة وزعموا أنهم «كذابون دائما»، وكان مصدر هذا واحدًا بعينه من الكريتيين، وتقول قطعة الورق في الصندوق إن «هذه العبارة زائفة». والآن لا تشير الكتابة إلى الصندوق وإنما إلى نفسها. فلو أن ما تقوله حقيقة، فإن العبارة تكون زائفة. فإذا كانت العبارة زائفة، فإن العكس يجب أن يكون كذلك العبارة صحيحة. ووفقًا لأرسطو لا يمكن أن تكون العبارة زائفة وحقيقية، إذن فما هي؟ إن الإجابة هي أنك لا نستطيع أن تقرر من العبارة نفسها ما إذا كانت حقيقية أو زائفة.

وبالنسبة للمناطقة يفتح هذا اللغز الطريق لاستكشاف حدود الاستنباط. فكر في العبارة المكتوبة على الورقة باعتبارها نظاما حسابيًا (أي نمط من الرياضيات قبل الهندسة، أو الجبر، أو ما أشبه ذلك) يغص بعبارات أصغر. وسوف نود أن نعرف ما إذا كانت تلك العبارات يمكن البرهنة على أنها حقيقية أو زائفة بإشارة كل منها إلى الأخرى وبعبارة أخرى، بالبقاء داخل النظام نفسه. تلك هي طبيعة البرهنة عن طريق الاستنباط وهو السؤال الذي كان عالم الرياضيات ابن فيينا كورت جوديل قد هاجمه في عشرينيات القرن العشرين.

لقد كان جوديل نفسه نوعًا من اللغز، وكان مصابًا بموجات عامصة من الانهيار العصبى وكان يستسلم لعبارات تنبؤية لم يكن حتى أقرانه يستوعبونها تمامًا. وكان قد ولد وتعلم فى فيينا فى بواكير القرن العشرين. ولأنه كان أعجوبة فى الرياضيات، فقد صار أستاذًا بعد وقت قصير من حصوله على الدكتوراه سنة ١٩٣٣م، وقد برهن على أنه فى جميع النظم الرياضية الكبيرة القائمة على أساس المسلمات البديهية لا يمكن البرهنة على بعض الفروض أو دحضها داخل مسلمات العلم (لم تكن الهندسة والحساب كبيرة بالقدر الذى يجعلها تتأثر – إذ إن منطقها الداخلى محكم) هذا الاستنتاج، الذى سمى «تناقض جوديل»، أطاح بمحاولات على مدى مئات السنين للبرهنة على أنه كانت هناك طرق لوضع جميع الرياضيات فى نظم منطقية تامة كاملة. وكان قد برهن، بمنطق لا يمكن مهاجمته أن منطق الرياضيات ناقص.

وقد جعلت البرهنة جوديل مشهورًا ولكنه لم يكن سعيدًا. إذ لـم تكـن حالته الذهنية غير المستقرة قد شفيت عندما وصل النازيون إلى النمسا. فقـد استمروا يخلطون بينه وبين رجل يهودى ويضايقونه، وهكـذا جـاء إلـى

الولايات المتحدة ووجد منزلاً في معهد الدراسات المتقدمة في برنسستون، بنيوچيرسي. وهناك، ووفقا لكتاب ريبيكا جولد شتاين Incompleteness: The بنيوچيرسي. وهناك، ووفقا لكتاب ريبيكا جولد شتاين Proof and Paradox of Kurt Godel عمله، وهو تأثير أضاف على غير العادة إلى الهالة التي أحاطت به. وحقيقة أن لا أحد قد فهم إجاباته أضفت عليها نوعا من الحجية تتجاوز جوانب القصور فيها. وعلى الرغم من المزيد من الانهيارات، استمر ينتج الرياضيات المتفوقة حتى وفاته سنة ١٩٧١م. وبعد موته بوقت طويل كان الناس الذين قابلوه ما يز الون يحكون الحكايات عنه. وما ترال أعماله العشرين الذي شابته الحروب والاضطهادات، والذي كان قد مسته الجنون بأي معيار آخر.

وإذا كانت أكثر إنجازاتنا الفكرية رقيًا - وهي الرياضيات - غير كاملة وغير حاسمة، فما الذي نستطيع قوله عن العالم الحقيقي المرتبك الذي نسكن في رحابه؟ ولفعد برهة إلى التناقض الإغريقي، أي قطعة الـورق بالعبارة التي تحملها بأنها زائفة، وطبقها على القانون والأمور السياسية. كمم مرة يحدث أن نسمع خبير اإعلاميًا يخبرنا أنه لا يمكن الوثوق بأن وسائل الإعلام تقول الحقيقة؟ وبعبارة أكثر جدية: نحن نعيش في مجتمع متسامح، ولكنه مجتمع له حدود. فهل يمكن لنا أن نتسامح مع أولئك الذين ينكرون الأسس التي يقوم عليها تسامحنا؟ وعندما طلب النازيون الجدد الحق في حسد جماهيرهم في ضاحية سكوكي التي تسكنها أغلبية يهودية في شيكاغو دافع الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية عن ذلك الحق كما أن المحاكم ساندتهم على الرغم من أنه لو جاء النازيون إلى الحكم لكان من المؤكد أنهم سينكرون على خصومهم حق حرية الكلام وحق الاجتماع بدايمة بمحاميي سينكرون على خصومهم حق حرية الكلام وحق الاجتماع بدايمة المكارثية،

ووجه كثير من المفكرين الليبراليين بمعضلة مماثلة. كما أن الاتحاد السوفييتي تحت حكم ستالين كان يعاقب المنشقين بالنفى الداخلي، والسجن والموت. فهل يجب السماح للمدافعين عن الحياة السوفيتية. بالتدريس في الولايات المتحدة؟

وتعاود العضلة الظهور في عدم الحسم الذي تتسم به فكرة حرية الكلام نفسها. فهل يمكن للمجتمع الملتزم بحرية الكلام أن يسمح بالكلام الذي يؤدي إلى سقوط ذلك المجتمع، إذا لم يتم ضبطه؟ لا يرى العالم المحافظ والمؤلف دافيد هورويتز أي لغز هنا ويعلن عن هجومه على المعارضين للحرب على العراق، فيقول في كتابه Alliance بأن يقلب التناقض رأسا على عقب: «ليس كل انشقاق مساويًا لغيره، والأمريكيون الذين تحسب أعمالهم على أنها تمنح المساعدة والراحة للجزارين الذين اغتالوا ثلاثة آلاف من الناس الأبرياء في ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م ليسوا وطنيين بالمرة... إنهم، في الحقيقة، عكس ذلك تمامًا – وهو نوع من المغالطات المنطقية القائمة على أساس كل شيء أو لا شيء والذنب بالارتباط، ولكن من المؤكد أنه تناقض لا يمكن تجاهله.

الفوضى

إن الذى كان تناقض جوديل بالنسبة للرياضيات، القانون الثانى فى علم الديناميكا الحرارية، المعروف أكثر باسم entropy، ونظرية الفوضى، تنطبق على الظواهر الطبيعية. ونظرية الفوضى نظرية، وليست حقيقة، ولكنها نظرية راسخة تمامًا منذ اكتشفت أو لا فى القرن التاسع عشر. وبحسب الرجل الذى طرح الفكرة، وهو عالم الفيزياء الألمانى رودولف كلاوسيوس، فإن الميكانيكا الحرارية طاقة غير متاحة للاستخدام، وعلى الرغم من أنها معتمدة

فى معادلتها الرياضية، فمن الممكن مقارنة هذه النظرية بتجربتنا العامة بأنه ليست هناك أبدا ما يكفى من الوقت فى اليوم لعمل كل الأشياء التى خططنا للقيام بها. ومهما كانت جديتنا فى عمل كل شىء، وكفائتنا ونحن نحاول أن يكون، فإن هناك جزءا معينًا من جهدنا يضيع هباء.

مثل هذه الخسارة في الطاقة، وفقا لكلام بعض العلماء، دليل على فوضى الكون. وبما أن القانون الذي تم حسمه منطقيا يبرهن على أن القوانين المنطقية تزول سريعًا وكما أن الطاقة مهدرة، فإن المزيد والمزيد مسن الاختلافات تظهر على كل بنية وعلى كل شكل. فعلى سبيل المثال، سخن الثلج وسوف يتحول إلى ماء. وبتسخين المادة الصلبة تستهلك طاقة. والذرات في الماء هي نفسها مثل تلك التي في الثلج، ولكن ذرات السائل يمكن ترتيبها بأكثر من طريقة حين تكون على شكل ثلج صلب، وطاقة الحرارة تستهلك في خلق الفوضى، وهذه الفوضى تزيد مع الوقت. لقد كان الكون مستديرًا فقترة طويلة، وهكذا كانت نظرية الفوضى فاعلة طوال تلك الفترة، واحد من كل لخبطة الاصطفافات الذرية وما دون الذرية وتسبب لنا خسارة واحد من كل زوج نملكه. وقد تنبأ بعض علماء الفيزياء بأن نهاية الزمن سوف تحين عندما تكون نظرية الفوضى قد أنهت عملها ولم تعد هناك طاقة باقية، أو عندما نتوقف عن السعى وراء أمورنا التافهة.

ويضع ريتشارد دوكينز المتخصص في علم الوراثة الأدلة نفسها على فوضوية الكون على درجة أدنى من التعميم، «في كون من الإلكترونيات، والجينات الأنانية، فإن القوى الطبيعية العمياء والاستنساخ الوراثي، سوف تنال بعض الناس بلا أذى، وسيكون بعض الناس محظوظين، ولن تجد أي مبرر أو سبب في هذا، ولا أية عدالة. إن الكون الذي نلاحظه له بالضبط الخصائص التي يجب أن نتوقعها إذا ما لم يكن هناك عند القاع أي تصميم، ولا غرض، ولا شر ولا خير، لا شيء غير اللامبالاة بلا شفقة».

وتقترح نظرية الفوضى عدم الحسم حتى فى الأحداث الفعلية التى تسم التخطيط لها ببساطة مثل الطقس. والحقيقة أن نظرية الفوضى بدأت بالمشكلة القديمة عن كيفية التنبؤ بالطقس. وتحولت أنه إذا حدثت تغييرات صغيرة جدا فى الأحوال الأولية فى أى أى نظام طقس متطور، فإن الناتج يمكن أن يتغير بشكل هائل. كانت هذه نتيجة «بديهية»، وبعبارة أخرى، كثير مسن الإدراك العام إذا ما أوليت أى اهتمام للتنبؤ بالأرصاد فى التليفزيون أو الراديو. لقد كان التنبؤ والحدث أكبر، كلما زاد احتمال الخطأ. لقد انتشرت النظرية باعتبارها التبرازيل، من خلال سلسلة مركبة من الأحداث، لتنتهلى بحدوث عاصفة (تورنادو) فى تكساس. وقد عبر فيلم The Butfly Effec عن هذه الظاهرة النهائية .

وثمة عالم رياضيات اسمه بينوا ماندلبرو دفع بالنظرية قدما. وكان مهتمًا بالتذبذب في أسعار السلع، وجادل بأنه لا يهم مدى دراسة المعلومات بتمعن، فإن المتغيرات الصغيرة فيها كانت مفقودة. وكان الشيء نفسه يصدق على أية محاولة لرسم الشكل الدقيق للخط الساحلي. ولا يهم مدى دقة الرسم، فإن المتغيرات الصغيرة في الخط الساحلي كانت ضائعة. وثمة سلسلة لا نهائية من التخطيطات الأدق فالأكثر دقة وقربًا من الحقيقة، ولكن السلسة اللامتناهية من التعديلات (اللامتناهية) ليست لها نهاية. وتفلت منا الدقة المطلقة في العالم الحقيقي، تماما مثلما لا يمكن للكمال المطلق أن يتحقق في أكبر نظم الميكانيكا، والمنطق لا يقود إلى تأكيد للعقلانية ولكن يقود إلى اللاعقلانية المبرهنة.

وقصة نظرية الفوضى كان لها التواء آخر فى مخططها. فقد كان اللاحسم الذى اقترحته النظرية بحد ذاته مرتبطا بقاعدة: أى أنه كانت هناك قواعد لعدم الحسم. وعلى الرغم من أن هذا يبدو تناقضا ذاتيًا، فإنه ليس كذلك. وبدلاً من ذلك، فإنها خاصية لجميع الألغاز المنطقية الكبرى. وقد لا تبدو أن لديها الإجابات المرضية فى البداية، ولكن تناولها يجبرنا على أن نغمس فى سببية عميقة.

وقد أنتجت نظرية الفوضى «النظرية التجزيئية» أو «التشابه الذاتى». إن هذه الأسماء المانعة تصف شيئًا بسيطًا للغاية. ذلك أن الأشياء الكبيرة مكونة من صيغ مختلفة منها هى نفسها. انظر إلى فروع الشجرة. ثم انظر إلى عروق ورقة من الشجرة. إنها متشابهة. افحص القنوات السشعبية في رئتنا. ثم استخدم ميكروسكوب لكى تنظر إلى الشعيرات الدموية التي تمد القنوات الشعبية. إنها تعيد إنتاج شكل القصبة الهوائية. بل الأكثر مدعاة للدهشة، معدل النسخ الصغيرة إلى الأشياء الأكبر في بعض الحالات هو كالدهشة، معدل النسخ الصغيرة إلى الأشياء الأكبر في بعض الكل، تعود التسبة إلى الظهور. ولا يصدق هذا على كل الأشياء، ولكنه حقيقى بما يكفى لأن يعطى السمًا لتلك الأشياء التي تظهر تلك الخاصية اللافتة للنظر – طواقم ماندلبرو.

والنظرية التجزيئية نفسها مضبوطة تمامًا، حتى وإن كانت متواضعة في مزاعمها، ولكن يمكن للمرء أن يتجاوزها قليلا لكى يشير إلى ارتباط قوى بين عالم المنمات والمجرات الكونية. فعلى سبيل المثال، في القرن التاسع عشر كان بعض العلماء يؤمنون أن «التطور الفردي»، أي تطور الجنين في الرحم، كان تلخيصًا لتاريخ التطور والنشوء. وبعبارة أخرى، فإن كل فرد يمر بالمراحل التطورية نفسها التي مر بها الجنس البشرى نفسه. ونحن نعرف أكثر عن الأجنة الآن ولم نعد نعتبر المقارنة بين تطور الجنين

فى الرحم والفرد الفرد البالغ مقارنة صحيحة، من الناحية البيولوچية، ولكن باعتبارها نوعًا من المجاز فإنها تخبرنا أن كل طفل يحمل بداخله الإنجاز الثورى الذى تحقق فى النوع البشرى بأسره.

لا يقينيات التاريخ

عند نهاية القرن العشرين فتح الفيلسوف الأمريكي چورچ سانتيانا كتابه المكون من خمسة مجلدات The Life of Reason 1906 بقوله: «سوف يعترف الجنس البشري في أي مغامرة من مغامراته، وهو يعيد النظر في تجربته كلها، بالتقدم والمكسب؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة، حسبما قد يجيب عليها أحد الأفراد على نحو من التأمل والإيجابية، هدف الكتاب التالي». فبالنسبة له، كان العقل البشري عملية من الفكر الفردي وانعكاسًا لتقدم العقل الغربي. وإذ تعلمنا على يدى جلبرت رايل وألفريد نورث هوايت هيد، فإنه يجب علينا أن نكون شكاكين في مثل هذه المصطلحات العامة مثل العقل والذهن، ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر جاذبية المشابهة التي عقدها سانتيانا بين تساؤل كل فرد عن المعنى والتاريخ الأوسع للفلسفة الغربية. وكما قال سانتيانا نفسه: «لا يستطيع الفيلسوف أن يمتلك طموحًا أكثر من أن يصنع من نفسه لسان حال جنسه».

الجزئيات، والتطور الجنينى، وحتى برهان جوديل، كلها تقدم نموذجًا أو تصميما وهذا بالضبط ما يفعله المؤرخ - فهو يقدم النموذج أو التصميم، وليست المحتويات ثابتة تمامًا، لأنه فى داخل التصميم قد لا تكون العناصر المضبوطة سهلة التعريف. والنموذج، التصميم لا يأتى أصلا من الطبيعة نفسها وإنما ينبع أيضا من التفاعل بين العالم الحقيقى وعقل المؤرخ، والتفكير في النماذج والتصميمات

يتيح نوعًا من النظام داخل اللايقينية. وربما لا تبرهن رغبتنا في التنبؤ بالطقس، والتذبذب في المؤشرات الرئيسية للسوق، وغيرها من الظواهر الطبيعية على أن هناك قوانين طبيعية راسخة تحكم مثل هذه الأحداث، وأي مزيد من بحث فلاسفة العصور الوسطى عن الرب كان برهانًا على أن الرب موجود، ولكن كما كتب جوديل نفسه، قرب نهاية حياته، «إن العقل نفسه لا يخطئ». والخطأ بالنسبة لفلسفة تاريخ لزماننا سيكون معناه الشك في أن المؤرخين يمكن أن يجلبوا نوعًا من النظام إلى عالم الماضى.

وهكذا يجب على فلسفتنا للتاريخ، أن ترضى نفسها بقدر من عدم اليقين. ويمكن قبول النماذج ولكن ليس الكمال، أو أية فلسفة تصر على كل حدث وحركة تناسب بشكل مضبوط مع الكوة المخصصة لها. و لأننا على ثقة من أن كلماتنا تعكس بالفعل حقيقة ما، كما أكدت أننا يمكن أن نجد نماذج في الماضى، لقد كدنا أن ننتهى من جهود بناء جسرنا.

المؤرخون يواجهون مشكلة الشر

إن أخلاقياتنا... وآراءنا... غير متسقة مع استفسار تطبيقى جاد ومنظم عمًا حدث بالفعل. إنهم سوف بجعاون منه خادمة لفلسفة أخلاقية.

دافید هاکرت فیشر (۱۹۷۰م)

يعرف المؤرخون كل شيء عن الشر. ذلك أن موضوعنا مفجر له. إن الشر الذي يمارسه الأفراد، والمجموعات، والأمم ضد إحداها الأخرى، وضد أنفسهم، والشر الوقتى المتمثل في الإهمال، والشر الوحسشي الناجم عن التفرقة، وشر الإبادة الجماعية الذي لا يكاد يصدق، هو مادة التاريخ، وقد حذر فيشر من أن كتابة آرائنا الأخلاقية في تواريخنا تخلط الماضي بالحاضر على نحو لا يمكن السماح به. إن مثل هذه الأحداث تفرض متغير مسكلة الشر القديمة. فإذا كانت الأسباب كلها مشيئة الرب، وإذا كانت عنايته توجه مسار الأحداث، فكيف يمكن للرب الخير الذي تشملنا رعايته أن يترك الشر يحدث للأبرياء؟

ولندع جانبا للحظة من الزمان المجادلات من أجل تاريخ العناية الربانية وضدها، فإن خيارات الشر اللا أخلاقي إن هي إلا أفعال أناس

حقيقيين في زمن حقيقى. ومهما كانت المعتقدات الدينية للمؤرخ، فإن الـشر ليس مجرد مشكلة للمؤرخ المتدين. وينبغى التعامل معه في أية فلسفة تاريخ حديثة، لأن هناك الكثير جدا على المحك اليوم في الطريقة التـي يـتم بهـا استخدام التاريخ لصنع السياسات بعيدة المدى والدفاع عنها بحيث لا يمكسن لأي منها تجاهل مشكلة الشر.

ألا ترى هناك شرًا؟

غالبًا ما نختار جوانب عندما نكتب التاريخ، بحثًا عن أصدقائنا في الماضى. ونحن نلقى بسرينا في الأضواء والظلال، لنكشف عن حساسيتنا الأخلاقية ونحن ندين الشر. ويصير التاريخ منصنتا التي تمتدح من فوقها المستحق وندين من لا يستحق في أماكنهم في دوائر الجحيم. وبالنسبة لجور ج فيشر، رئيس الجمعية التاريخية الأمريكية في سنة ١٨٩٨م، لا ضرورة لتكرار القول بأن «إن إحدى وظائف المؤرخ أن يزن بمو ازين العدالة مدى جدارة الشخصيات التاريخية. وإليه يعود قياس سجايا الرجال والنساء اللذين يؤدون أدوارهم على المسرح العام». كان جون ايمريسن لورد أكتون، أستاذ التاريخ الحديث في كامبردج في سنة ١٨٩٥م، بحث تلاميذه على أن «لاتبخسوا أبدا القيمة الأخلاقية أو تخفضوا من معيار الطهارة الأخلاقية، ولكن حاكموا الآخرين بالمبادئ الأخلاقية التي تحكم حياتكم أنتم، واعملوا على ألا يهرب رجل أو سبب من الجزاء الذي لا يموت والذي يملك التاريخ قوة توقيعه على الخطأ». باختصار، على المؤرخ أن يكون قاضى الأخلاقيات في الماضي. ولم يكن فيسشر أو آكتون يعتقدان أن المبادئ الأخلاقية اختلفت باختلاف الزمان والمكان. وبدلاً من ذلك، كان الخبر الأسمى هو حماية الحياة البشرية وترقية السعادة الإنسانية، وهو نظام قيم (حسبما اعتقدا) تجاوز الخصائص التاريخية. وآراء فيشر وآكتون حية وحيدة. ففي أعقاب حرب فيتام، عاد المؤرخون إلى موضوع الحكم الأخلاقي في التاريخ. وكان خطاب جوردون رايت بمناسبة رئاسته للجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٧٥م صريحًا عن هذا الموضوع: «إن فكرة إعادة الطرح الواعي للبعد الأخلاقي في التاريخ تسير في عكس اتجاه تعليم معظم المؤرخين، وربما على عكس غريزتهم المهنية كذلك. ذلك أنه لدى كل منا بعض الآراء القوية عن موضوع الأخلاق عامة؛ ويعرف كل منا المخاطر التي ينطوي عليها إطلاق الأحكام الأخلاقية في عملنا، أو حتى الإشارة إلى الحاجة إليها». بيد أن التوقيت كانت خطأ بالنسبة لمثل هذا الخجل «فلا جماهيرنا أو حال العالم الذي نعيش فيه يسمح بعد ذلك لنا برفاهية الهروب إلى برج عاجي بروستي محاط بالفلين خال من التراب، والميكروبات، والقيم ... ولا شك في أن الذين يحترفون منا التاريخ المعاصر قد وجدوا المعضلة الأشد حدة، فإن الذي يجب أن يتعامل مع الجوانب الأكثر وحشية في فترة هثلر أو ستالين، أو التأثير الكلي المحمد عليه أن يكبح بعض التعبير عن ذلك السخط العادل».

ولا نستطيع أن نتنبأ إلى أين سيذهب ذلك السخط التاريخي، على أية حال، ومن الذي سوف يشعر به. وحسبما سلم رايت، فإن ليبر اليته ربما جعلت الأحكام الأخلاقية أكثر صعوبة، ولكن «زملاعنا المحافظين – على الأقل أولئك الذين يعون أنهم محافظون – قد جعلوا الأمر أكثر سهولة؛ وكثير منهم كانوا دائما ملتزمين صراحة بنظام من القيم المطلقة، قائمة على قاعدة دينية أو أخلاقية يمكن بواسطتها الحكم على أحداث الماضى بثقة دونما أدنى حرج»، وفي خطاب افتتاحى، في أول يونيو ٢٠٠٢م، في ويست بوينت، عاد الرئيس جورج بوش إلى الأمثلة التاريخية ليشرح كيف كان الحكم الأخلاقي ينتمي إلى أية رواية عن الماضى:

«يقلق البعض من أنه من غير الدبلوماسية أو من غير الأدب إلى حد ما أن نتحدث لغة الصواب والخطأ. وأنا لا أوافق – إن الظروف المختلفة تتطلب مناهج مختلفة ولكن ليس أخلاقيات مختلفة. إن الحقيقة الأخلاقية هي نفسها في كل حضارة، في كل وقت، وفي كل مكان... لا يمكن أن يكون هناك حياد بين العدالة والقسوة، بين البرىء والمذنب. نحن في صراع بين الخير والشر، وسوف تسمى أمريكا الشر باسمه. وبمواجهة السشر والسنظم اللاقانونية، لا نخلق مشكلة، وإنما نكشف عن مشكلة. وسوف نقود العالم في مواجهتها».

وقد يعترض أحد بأن قصة الكتابة التاريخية تكشف عن حركة بعيدا عن مثل هذا التفكير الأخلاقي في مجال دراسة علمية وغير منحازة للماضي، وقد اعترض مارك بلوش، الذي كان يعرف كتاب آكتون، بقوله: «والآن على مدى زمن طويل، تحول المؤرخون إلى نوع من القضاة في هاديس (*)، متهمين بتوزيع المديح أو اللوم على الأبطال الموتى». وبينما يجب أن يرضي مثل هذا الوضع الأوليمبي «غريزة عميقة الجذور... ومثل هذه اللافتات تصبح إحراجًا. فهل نحن على هذه الدرجة من اليقين من أنفسنا ومن عصرنا بحيث نقسم أسلافنا في الماضي إلى الطيب والملعون؟ يا له من عبث الرتقاء بالمعايير النسبية تمامًا لفرد واحد، أو حزب واحد، أو جيل واحد إلى المطلق». بيد أن الأوقات أو الأحداث تغير عقول الرجال، وكتب بلوش في م يوليو سنة ، ١٩٤ م إلى شريكه في العمل ورفيقه الوطني لوسيان فيبفر: على كل ما نحلم به في أسوأ كوابيسنا».

^(*) هاديس، عالم في الأساطير الإغريقية القديمة. (المترجم)

وهنا، بلا جدال، مؤرخون قد عقدوا العزم على ألا يروا شراً، أو على الأقل، أي شر نراه. وحسيما فكر بلوش، فإن ما قد يبدو شرًا لنا لم يكن يبدو بالضرورة على أنه شر الأسلافنا. وفي سنة ١٨٩٩م، عندما اكتسح الأمريكيون من أصل أوربي الغرب، قام المتحدث باسم الحزب الديموقراطي جون أو سولليفان بتجربة مذهب «المصير الواضح». وقد شرح M.D ودافع عن تجريد السكان الأصليين من أملاكهم مع عدم ذكرهم. كيان الدرس أخلاقيا، وكان التاريخ هو المفجّر: « ما الذي يمكن لصديق للحرية الإنسانية، والحضارة والدماثة أن يلقى نظره على التاريخ الماضي للملكيات والأرستقراطية في العالم القديم، ولا يستهجن أنها كانت موجودة ... وكان قدر أمريكا أن تحظى بأعمال أفضل. إنه مجدنا الذي لا يضاهي أنه ليس لدينا ما يذكرنا بميادين المعارك، سوى الدفاع عن الإنسانية، وعن المقهورين في الأمم جميعا، وعن حقوق الضمير، وحقوق التحرر الشخصي ... لقد كان لنا أبطال وطنيون يدافعون عن منازلنا، وحرياتنا، ولكن لم يكن لدينا من يتطلعون إلى العروش والتيجان، ولم يعان الـشعب الأمريكـي أبـدًا مـن الاستسلام لطموح شرير يقودهم إلى تفريغ الأرض من سكانها، أو نشر الخراب في كل مكان، لكي يجلس كائن بشرى في مقعد التفوق».

لقد علم درس التاريخ الذى ألقاه سوليفان الأمريكان في توجهاتهم المستقبلية: «نعم، نحن أمة التقدم، أمة الحرية الفردية، أمة التحرر العالمى ... ويجب أن نمضى قدما لإنجاز مهمتنا – للتطوير الكلى للمبدأ الذى تقوم عليه منظمتنا – حرية الضمير، حرية الشخص، حرية ممارسة التجارة والعمل، عالمية الحرية والمساواة». كانت السياسة التي تبناها أو سوليفان والحزب الديموقراطى خاصة هى ضم جمهورية تكساس المستقلة حديثا، وكان حكامها السابقون، وجمهورية المكسيك، ومن كانوا يسكنونها آنذاك، أى

السكان الأصليون، كانوا ببساطة يقفون في وجه تلك المهمة. وهكذا لم يكن لهم مكان في درس التاريخ الذي ألقاه أو سولليفان، بل أنهم اعتبروا شراً.

وفى ثمانينيات القرن التاسع عشر، مع حلول الفلاحين، والمرزارعين وعمال المناجم الأوربيين محل الهنود بشكل شبه كامل، كتب الشاب تيودور روزفيلت فى كتابه The Winning of the West أن «انتشار الشعوب الناطقة بالإنجليزية فى أنحاء المناطق الخالية فى العالم (أى أن الأماكن التى كان يعيش فيها الهنود والآسيويون والإفريقيون كانت خرابًا) لم يكن وحده الملمح المذهل فى تاريخ العالم، ولكن أيضًا الحدث الأكثر تأثيرا فى مداه وأهميت سبيد أن هناك الكثير يبقى لكى نعمله قبل أن يصل الغرب إلى حدوده الطبيعية وسوف يمتلئ من الحدود إلى الحدود بجماعات الناس من مواطنيه». ولم يستطع الهنود أن يكونوا مواطنين، ولم يكن بإمكانهم أن يكونوا جزءا من التجمعات. لقد كان حتميًا، والواقع كان أمرًا طيبا، أن الجنس الحاكم من الأوربيين الشماليين هم الذين سيجلبون الديموقر اطية والمذهب البروتستانتى، والمشروع الحر، إلى الغرب ...» ومن ثم لم يكن هناك شر فى الحلول محل البدائيين.

كان فيليبس في السنوات الباكرة من القرن العشرين حجة بارزًا في تاريخ الرق. وعلى الرغم من أنه ولد في جورجيا وتربى فيها، فإن فيليبس حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك ومارس التدريس من سنة ١٩٠٢م إلى سنة ١٩٠٨م في جامعة ويسكنسون ثم في جامعة تولان. وكان كتابه (1918) Amercian Negro Slavery محل احترام واسع من جانب المؤرخين الآخرين عندما ظهر. وفي صفحاته، كان العبيد يشكلون «طبقة منحطة» تسببت «طاعتهم الطبيعية» في استعبادهم. كان اعتدال سادتهم وعدالتهم العامة تقابل بالولاء من جانب العبيد بـل وحـب

مالكيهم، وكانت هناك استثناءات – حالات تمرد وجرائم – بيد أن القليل من هذه نتجت «بصورة مباشرة من ضغط الظروف التي عاش العبيد في ظلها». وعلى العموم، كان العبيد سعداء، مصونين بشكل جيد، آمنين في الرق بالولايات الجنوبية منهم في مواطنهم في إفريقيا – وعلى «ممتلكات سيدهم، حيث كانت الساحة الخلفية تعج بالنسوة اللاتي تغنين بصوت خافت والأطفال متعددي الألوان»، كانت تكشف عن مشهد منزلي بهيج، وكان السيد نفسه ميالاً إلى روح الأبوة (وكيف كان يمكن بغير ذلك أن يكون هناك الكثير من الأطفال متعددي الألوان؟). كانت مصادر فيليبس هي مصادر أستاذ الفصل، وسجلات المحاكم الجنائية، ويوميات المزرعة، والصحف، ولكنه كان واثقًا من أن العبيد كانوا يوافقون على أن الرق كان يمثل شرا صغيرا، أو لم يكن من أن العبيد كانوا يوافقون على أن الرق كان يمثل شرا صغيرا، أو لم يكن شرًا على الإطلاق.

وبينما لن ينازع معظم المؤرخين في الرعب الذي أنزله رعب «الحل النهائي» الذي فرض على اليهود في أوربا على أيدى هتلر وأتباعه، ينشب جدال ساخن حول المسئولية عن الهولوكست^(*). فهل كان هتار ببساطة عبقريًا مجنونًا فرض إرادته السيئة على الشعب الألماني المنوم مغناطيسيًا (تذكر خطبة الرئيس ريجان في بيتبورج)، أم أن الغالبية الكاسحة من الشعب الألماني متورطون عن علم وعن إرادة؟ من المؤكد أن اللسامية كانت موضوعًا بارزًا في الثقافة الألمانية قبل وصول هتلر إلى السلطة وأسهمت في نجاحه، ولكن هل كانت الآراء العنصرية هي التي قادت الألمان إلى

^(*) تبدو مسألة حشر اليهود بلا داع في أي موضوع من شوائب الكتابة الغربية عامة وفي الولايات المتحدة بشكل خاص ؛ ويتم حشر مسألة الهولوكوست المزعوم في أية كتابة تاريخية حديثة في فجاجة مستفزة ؛ وكأن دنيا النشر في الغرب مصابة بفيروس الدعاية الصهيونية صاحبة النفوذ المالي في أوربا وأمريكا (المترجم)

أفعال التطهير العرقى؟ هل يمكن الأمة بأسرها أن توصم بسبب أفعال ارتكبها أفراد منها؟

من المؤكد بالنسبة لأولئك الذين أيدوا «التطهير» النازى فى أوربا فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الثانية، بما فيهم عدد من المؤرخين العنصريين، لم يكن القضاء على اليهود عملاً طيبا فحسب وإنما كان جزءا من خطة أكبر للتاريخ الأوربى، فعل سبيل المثال، جادل آدولف بارتلز، وهو مؤرخ أدبى وأستاذ فى التاريخ، بأن النفوذ اليهودى فى الأدب والفن قد زعزع الآرية الخاصة وكان لابد من استئصاله، فبالنسبة له، لم يكن هناك شر مثل الوجود اليهودى فى وسط الجنس الحاكم.

مثل هذه النسبية حول مشكلة الشر يمكن أن تستميل شكلا من أشكال فقدان الذاكرة التاريخي، أو ما هو أسوأ، أى الخداع. ومن ينكرون الهولوكوست، مثل البريطاني ديفيد إيرفنج، وهو مؤرخ، حذف شرالهولوكوست من تاريخ العالم بضربات قليلة من قلمه، أو حاول أن يفعل هذا، وعندما تحدته ديبورا ليبستاد من جامعة إيموري في كتابها:

Denying the Holocoast: the Growing Assault on Truth and Memory 1994.

قاضاها بتهمة الإساءة إلى سمعته فى إنجلترا. وكان إيرفينج قد كتب، حسب رواية ليبستاد أن "اليهود ليسوا ضحايا ولكنهم هم النين أوقعوا الضحايا" وأنهم "سرقوا" الملايين على سبيل التعويضات، ودمروا اسم ألمانيا الطيب بنشرهم "أسطورة" الهولوكوست، وكسبوا التعاطف العالمي بما زعموا أنه حاق بهم". كان هذا هو الزاد القياسي لقوات الذين ينكرون الهولوكوست. وقد اعتبرت ليبستاد أن إيرفنج وكتبه الكثيرة من الخطورة، أنه بدا، لبعض

ت قرائه على الأقل، مؤرخا ذا شرعية. ومن المؤكد أنه قدم مادة وثائقية ومصادر أولية لكى يدعم مزاعمه، وعندما يتم فحصها عن قرب، تتحول إلى زيف.

كانت قضية إيرفنج ضد ليبستاد، التي نشر كتابها في إنجلترا في بنجوين، قد نظرت في المحكمة في يناير سنة ١٠٠٠م، وبعد ما يزيد على سنة من الاستعدادات والمحاكمة، كسبت ليبستاد، بعد أن أوشكت على الإفلاس بسبب المحاكمة وبعد الإجهاد العاطفي. فقد قام زمرة من المؤرخين الأوربيين البارزين في القرن العشرين بتفنيد استخدام إيرفينج للأدلة، وأوضحوا أن ما كتبه لم يكن تاريخا ومن ثم لم تكن ليبتساد تشهر به عندما قالت إنه كاتب تبريري لهتلر. وأصدر القاضي تشارلز جراي قرارا قوي الكلمات. كان إيرفنج على مدى ثلاثين سنة «ناشطا في إنكار الهولوكوست، معاديًا للسامية، وعنصريا ومرتبطا بالمتطرفين اليمنيين الذين طوروا النازية الجديدة» كما أن إيرفنج «تلاعب عمدا وبشكل مثابر بالأدلة التاريخية» لكي يصور هتلر وحركته في ضوء موات ولإنكار الرعب الذي عرفته معسكرات التجميع، ليبستاد.

كان ما قالته ليبتساد عن إيرفنج صحيحا، دفاعًا عن القضية التي رفعها إيرفنج بالسب العلني، وفي بريطانيا يقع عبء إثبات حقيقة المنشور على عاتق المؤلف، وليس هناك متطلبات للامبالاة المستهترة إزاء الحقيقة ولا استثناء للشخصيات العامة كما هو الحال في الولايان المتحدة، ولكن في بريطانيا، بخلاف الولايات المتحدة أيضا، يجب على الخاسر، وهو في هذه الحالة إيرفنج، يجب أن يدفع الرسوم القضائية لمن كسب القضية. واستأنف إيرفنج الحكم دونما نجاح، وواجه ما يزيد على مليون ونصف مليون جنيه إسترليني في الرسوم القضائية.

كانت ليبستاد مبتهجة، مرهقة، وقد برئت ساحتها، ولكن انتصارها لـم يكن نصر الها وحدها. لقد كان إيرفنج هو الذى بدأها ورفع قضية أنكرت كلاً من عدم أخلاقية التاريخ ولا أخلاقيات بعض المؤرخين. فلماذا كنب بشأن الهولوكوست ولماذا أقام القضية العلم السئلة للمورخين النفسيين. ودوافع ليبستاد أيضا تكمن وراء مجرد الدفاع عن كتابتها. إنها تكمن في الدفاع عن القوة الأخلاقية للتاريخ. كما كتبت في أعقاب المحاكمة «على مدى فترة طويلة بعد معركة المحكمة، شعرت بالألم عندما فكرت في الناس الكثيرين الذين كانوا يشاهدون إيرفنج ينتهك ذكرياتهم... لـم أشعر بالألم فحسب، ولكني شعرت أيضا بشعور معين من الامتياز، فقد ذكرت بحقيقة أن القيم العليا في التراث اليهودي تعمل من الرقة المحبة... إن الاهتمام بالموتي يسمى «الرحمة والحقيقة»، وهو القعل الأكثر أصولية في الرقة المحبة». إنه فعل يقوم به جميع الناس حين يتنكرون الوالدين، والأطفال، والأحباب، فعل يقوم به جميع الناس حين يتنكرون الوالدين، والأطفال، والأحباب،

بيد أنه لا يمكن للفوز بقضية واحدة في ساحة القضاء أن تغير من المكاسب التي يفوز بها بعض الناس من انعدام الشر. فقد محت كتب التاريخ الدراسية الحديثة في اليابان كل ما يتعلق بسوء معاملة اليابانيين لأسرى الحرب واستخدام النساء من الأهالي في البلاد المحتلة عاهرات لخدمة القوات اليابانية، ونهب المراكز المدنية مثلما حدث في نانجينج. كما انمحت بالمثل التجارب التي قام بها اليابانيون في حرب الجراثيم والحرب الكيماوية في أثناء الحرب من «الطبعة النموذجية لإصلاح كتاب التاريخ المدرسي» وأحد الموضوعات الرئيسية في كتب التاريخ اليابانية الحديثة هو توجيه اللوم إلى الصين بسبب الغزو الياباني للصين. فليست هناك ضرورة للاعتذار لأولئك الذين لم يرتكب ضدهم أي شر، ولكي تبرهن على أن تغير الوجهة ليس لعبًا الذين لم يرتكب ضدهم أي شر، ولكي تبرهن على أن تغير الوجهة ليس لعبًا

نزيها ولا هو تاريخ جيد، فإن كتب التاريخ الدراسية الصينية الجديدة قد سمحت كل أهوال الثورة الثقافة، ومعها كل شيء باستثناء ذكر موجز لاسم «ماو زيدونج» (ما وتسى تونج)، في محاولة لتلميع شهرة الصين الشيوعية في العالم. ذلك أن اسمه، مع الثورة الشيوعية، وحروب التوسع الإمبراطوري، وغيرها من الحوادث المزعجة قبل سنة ١٩٧٩م، كانت قد استبعدت، وحل محلها إشادات متوهجة بالعولمة والتجارة العالمية.

وثمة نسخة مخادعة أخرى لعدم رؤية الشر في العثور على بطانة من الفضة. فقد فتحت مجازر الحروب الصليبية سبيل التجارة في عالم البحر المتوسط، مما جلب معه ارتفاع مستويات المعيشة، وطرح الأفكار الحديثة عن التجارة والمشاركة في المعرفة العلمية والرياضية بين المسلمين والمسيحيين. وقد تبعت أهوال الوباء فترة من النمو والرخاء النسبي، وإبادة الأهالي الأصليين في أمريكا على أيدى الأوربيين (والأمراض الأوربية) ساعدت الحضارة الغربية على أن تزدهر في العالم الجديد. إن إعادة النظر إلى الأحداث بهذه الطريقة، والقفز بالأطر الزمنية، وتجاهل التكاليف البشرية التي تتخلل ذلك، وتحاشى «ما قد يكون قد حدث» يجعل من الأسهل أن نبتلع القرص المر في لا إنسانيتنا واحدًا بعد الآخر.

معالجة الشر

إن المفكر التاريخى الذى يعتنق عقيدة دينية أو يعتقد فى شكل ما من الشرارة المقدسة فى الجنس البشرى يجد مشكلة الشر مشكلة تثير الغضب على نحو خاص. فعلى مدار التاريخ ربط المفكرون الدينيون بين التاريخ واللاهوت لكى يعالجوا المشكلة. والتراث اليهودى المسيحى تراث تاريخى بقدر كونه تراثا لاهوتيًا، وفيه يمضى تاريخ طولى ممتد من الخليقة إلى يوم الدينونة

الأخير. وفى داخل هذه الرواية التاريخية، لا يؤمن اليهود والمسيحيون، ومعهم آخرون، بأن الشر طبيعى و لا يمكن تجنبه لأن الآلهة أو القوى الطبيعية محايدة أخلاقيًا. ويعتقد اليهود والمسيحيون أن الرب هو مصدر القانون الأخلاقى كله، والرب قادر على كل شىء (وله القوة كلها) والرب يحبنا وقد خلقنا على صورته، ومن ثم فإن الرب لابد أنه منع فى الوقت نفسه فعل الشر وله القدرة على إقصاء الشر. ذلك هو التناقض المنطقى الدنى يجعل مشكلة السشر الموضوع الافتتاحى فى التاريخ الدينى الغربى.

وعدد متناقص من المؤرخين المتدينين أصلاً كان عليهم أن يتصارعوا مع الصياغة التقليدية لهذه المشكلة: بما أن الرب خلق العالم، فلابد أنه خلق الشر. وإذا كان الرب عليما بكل شيء، فلابد أنه يعرف أن أمور الشريرة سوف تقع، وأننا سوف نرتكب الشر تجاه كل منا الآخر، بل ويعرف أن مشكلة الشر سوف تصيبنا بالحيرة. ولكن إذا كان الرب يحبنا، ويريدنا أن نفعل الخير، فلماذا إذن يوجد مثل هذا القدر الكبير من الشر في العالم؟

استخدم اللاهوتيون التاريخ لكى يتناولوا بالدراسة معضلة تاريخية، ولأن علماء اللاهوت بشر حقيقيون، ويتصرفون ويفكرون فى رحاب زمن تاريخي، فقد صارت إجاباتهم جزءا من تاريخ الدين. وبهذا المعنى، فإن مشكلة الشر تترك المؤرخين ليبحثوا عن فلسفة تاريخ وهم أشبه بمن يطارد ذيله. لأن التاريخ الفكرى للمحاولات الدؤوب للإجابة على المشكلة تؤدى إلى الإيمان بمشيئة الرب، أو العناية الإلهية، ولا تؤدى إلى حل بالمصطلحات البشرية. وباختصار، رفض تام للغز المنطقى وإعادة تأكيد الإيمان. فالرب هو الأقوى، وهو العليم، وهو الخير. فهو يعلم ما يجرى، ويجب على المرء أن يثق به. وما يبدو أنه شر قد لا يكون شرا إطلاقًا ولكنه على أية حال

جزء من خطة الرب. وقد يخدم الشر مقاصده. فإذا اخترنا الشر، نكون قد خالفنا إرادة الرب، ولكنه يترك لنا الحرية في فعل هذا(*).

هذه المجادلة راقت بشكل خاص لسان أو غسطين أسقف هيبو (في تونس الحالية) في القرن الخامس الميلادي. وقد كان قبل اعتناقه المسيحية قد تنقل بين العديد من الديانات والنظم الفلسفية، باحثا على الدوام عن حل لمشكلة الشر. ولأنه كان قارئا نهما، فقد درس تاريخ الإشارات. وكان كتابه لمشكلة الشر. ولأنه كان قارئا نهما، فقد درس تاريخ الإشارات. وكان كتابه «ولكن المدينة الأرضية، التي لن تدوم إلى الأبد... لها خيرها في هذا العالم، والأفراح فيها مفرحة مثلما يمكن لهذه الأشياء أن توفره. ولكن بما أن هذا ليس هو الخير الذي يمكن أن يعفى المخلصين لها من كل الأحزاب، فإن هذه المدينة غالبًا ما تكون منقسمة على نفسها بالتقاضي، والحروب، والمنازعات المدينة غالبًا ما تكون منقسمة على نفسها بالتقاضي، والحروب، والمنازعات العزاد في المسيحية من ناحية لأن المزج بين إله قوى قدير والحرية الإنسانية العزاد في المسيحية من ناحية لأن المزج بين إله قوى قدير والحرية الإنسانية طاعة آدم لأوامر الرب. كما أن الأدلة من التاريخ برهنت على هذا الافتراض، والخير يأتي من خلال, حب الرب لأبنائه المخطئين، والشر يأتي من البشر.

^(*) هذه مناقشة من وجهة نظر التراث الدينى الغربى بتراثه الذى يضرب بجذوره فسى العهد القديم الذى يضم التوراة وتعاليم الدين اليهودى، والعهد الجديد الذى يمثل المسيحية فى أناجيلها الأربعة ورسائل الرسل ؛ فضلاً عن الموروث الثقافى الدينى الذى تمثله اجتهادات اللاهوتيين من مختلف المذاهب المسيحية فى أوربا. ومن ناحية أخرى، فإن تراث المسيحية الشرقية، بمذاهبها المختلفة. ترى مشكلة الشر من منظور مختلف. أما فى الإسلام فالمسألة مختلفة تمامًا، وقد أثار الفقهاء والفلاسفة والمتكلمون المشكلة من منظور «الجبر والاختيار» (المترجم).

لقد تصارع أوغسطين مع المشكلة ولكنه لم يحلها. ذلك أن الخطيئة الأصلية لا تقدم إجابة سهلة لمشكلة الشر. ونحن قد نستحق أى شىء وكل شىء سيئ قد حدث لنا. ومع هذا، فإننا إذا كنا فاسدين فى قلوبنا، ولا ينقذنا من اللعنة الأبدية سوى نعمة الرب وتدخل المسيح، إذن فهناك شيء فينا يستحق الإنقاذ، وتعاود مشكلة الشر الظهور. وعلى أية حال، فاليوم، هناك الكثير جدا من علماء اللاهوت المتحررين، وكثير من الجماعات الدينية يرفضون فكرة أننا خطائين بطبيعتنا.

وفى حركة الإصلاح الدينى، وهي فترة تاريخية كانت تحاسب الأرواح والأجساد باسم الإيمان الحقيقى، عالج المسيحيون مرة أخرى مشكلة السشر. وقد وجد الكالفينيون، وهم من البروتستانت الإصلاحيين المتسددين كانوا يؤمنون بالقدرية (فكرة أن الرب اختار قبل الخلق من الذى سينال الخلل ومن الذى لن يناله)، أن مشكلة الشر لم تكن مشكلة على الإطلاق. فكل شيء بمشيئة الرب. وعلى أية حال، فإن المشكلة قد تحولت حينئذ من مسكلة خلاص (هل نلت الخلاص؟) إلى مشكلة نفسية حلقات لا نهائية من تجريم الذات وانعدام اليقين بأنه ما إذا كان هذا أو ذلك الشخص بين الذين نعموا بالخلاص، وما الإشارات، وما «التأكيد» أو الضمان الذي يمكن للمرء أن يحصل على نعمته؟

على سبيل المثال، عندما حدث فى أوائل ثلاثينيات القرن الرابع السابع عشر، أن قام جزء من الجماعة المسيحية فى بوسطون، تحت قيادة قسيسهم، جون كوتون، وأعضاء بارزين من الكنيسة مثل حاكم خليج ماساشوستس هنرى فين وعائلة هوتشينسون برفض فكرة أن ضمان يمكن أن يكون آمنا بدون تجربة النعمة، وأضرموا النيران فى مستوطنة خليج ماساشوستس. وقد أصر قساوسة آخرون على أن الاستعداد عبر الدراسة والفعل يعطى

موشرات على مشيئة الرب. وقد أجاب حزب «النعمة المجانية» في بوسطون بأن هؤلاء المسيحيين فاترى الهمة ربما يعيشون في «عهد للأعمال» قريب جدا من الأشكال الطقسية الكاثوليكية الرومانية. وقد انتهبت سلسلة من المحاكمات والطرد بانسحاب جون كوتون وتخليه عن آرائه المتطرفة، وعاد فين إلى إنجلترا، وعائلة هو تشينسون تتجه صوب مناطق مناخها أكثر برودة.

وتقدم مجادلة القدرية على الأقل إجابة جزئية على معصضلة السشرور الطبيعية وكذلك الشرور الأخلاقية – لماذا يموت الطفل البرىء من جراء مرض رهيب ولماذا قد يهلك آلاف من الناس الأخيار في زلزال، أو فيضان، أو ثورة بركان، وفقا للإجابة القائمة على القدرية، فإن للرب أسبابه في السماح بالكوارث الطبيعية ولا يمكننا ببساطة أن نعرف ما يخفيه والمحاولات لاستخدام الكتاب المقدس للتفكير في هذا – مثلاً، لإظهار أن هذه الحياة ما هي استعداد للحياة الآخرة (كما في الرسالتين إلى أهل كورنثه وسفر أيوب) – قد تريح المفجوعين، لكنها لا تحل المشكلة.

ولكن المزيد والمزيد من التاريخ الدينى – قصة محاولات الأجيال الماضية لحل مشكلة الشر – كتبه باحثون ليسوا باحثين دينيين بالتخصص. وحسبما قدم إدوارد هويتنبج فوكس سنة ١٩٥٥م مقالة هاريس هاربيسون عن الإصلاح الدينى لسلسلة جديدة عن الفكر الغربى: «لقد وصف هاربيسون فى الحال أزمة الإيمان والضمير التى أغرقت أوربا الغربية فى بداية عصرنا الحديث ووصفها فى ثبات فى سياق النضال السياسى والاجتماعى الذى يشكل تاريخ القرن السادس عشر ... وهى حالة اختبار فى التاريخ الاجتماعى الدعم الحديث فى جهوده لإيضاح أن المثل العليا والمبادئ المرشدة ليست مفهومة

تمامًا بغض النظر عن الرجال الذين تمسكوا بها ولا الرجال الـذين يمكن استيعابهم كليًا باعتبارهم أفرادًا منفصلين عن المجتمع الذى عاشوا فيه». وكان هاربيسون نفسه مثالاً راسخًا لمثل هذا «التاريخ الاجتماعى الحديث» عندما كتب «أحد أصعب الواجبات على المؤرخ أن يكتشف كيف ولماذا يستولى مجموعة مركبة من الأفكار مثل أفكار لوثر على عقول الرجال». ولم يكن فوكس ولا هاربيسون – والواقع أنه لم يكن أيهما مهتما – يعتبران رواية قصة الإصلاح الديني من الداخل نصرا لمشيئة الرب ولا هزيمة للحقيقة المسيحية المتجلية. إذا إن ذلك لن يكون من قبيل البحث التاريخي.

ويقدم كتاب أرنولد توينبى الفذ Study of History بعض الرؤية الداخلية عن تراجع المؤرخين عن أى شيء يشيه التفسير الديني للشر. فقد كتب توينبي وهو يتحدث عن عدم التسامح والعنف الديني «هذه الوصمة الكبيرة على حضارتنا الغربية في بواكير العصر الحديث تمثل ... تناقضنا غير عادى مع التقدم السريع وإن كان راسخ القدم للمجتمع نفسه في اتجاهات أخرى؛ وحقيقة أن عدم التسامح الديني، في هذا الوقت وهذا المكان، لم يكن مجرد شر مطلق في حد ذاته، ولكنه كان أيضًا مفارقة زمنية متوهجة تعد بلا شك للتجاوزات غير المسبوقة التي جرى المجتمع اليها في آخر فصول تاريخها في الغرب». وكان لتوينبي تفسيره الخاص لبنية الشر – كانت الديانة المنظمة نفسها مصدر الشر الأخلاقي، لقد عاد چيبون.

إننى أدرس التاريخ الباكر للمذهب البيوريتانى الإنجليزى ولى بعض المعرفة العابرة بالأدبيات فى هذا المجال، ولا يمكننى التفكير بعيدًا عن أى من المجلدات الفاخرة عن البيوريتان فى إنجلترا أو تاريخ أمريكا الباكر الذى يتبنى آراءهم عن مهمتهم. لقد كانت تلك المهمة بالتأكيد تاريخية؛ والواقع أنها حددت التاريخ المسيحى، كما كتب إدوارد جونسون فى كتابه المعاصر (١٦٥٤م):

قصد أن يبين مكانه الملكى تجاه كنائسه فى صورة أكثر اكتمالا عن ذى قبل قصد أن يبين مكانه الملكى تجاه كنائسه فى صورة أكثر اكتمالا عن ذى قبل إلا أن أبناء الإنسان رأوا ... يبدأ بأمتنا الإنجليزية... ومن ثم فى سنة ١٦٠٨م يوجه خدمه باعتبارهم رسل المسلك لنشر إعلانه طلبا للمتطوعين». لقد كانت هجرة البيوريتان مهمة مقدسة حددها المسيح لإنقاذ العقيدة. وبعدها بنصف قرن من الزمان، قدم كوتون ماثار كتابه: Magnalia Christi Amercana وهو بالإنجليزية The Eclessiastical History of New England « إننى أكتب عن عجائب الديانة المسيحية، هربًا من حرمان أوربا إلى المشاطئ الأمريكي، عجائب الديانة المسيحية، الني أفعل، بكل الوعى بالحقيقة... أكتب عن التجليات العجيبة لقوته اللامتناهية، وحكمته، وخيره، وإخلاصه، حيث تفيض أنوار رعايته المقدسة على البرية الهندية».

وليست هناك مؤرخة واحدة حديثة عن التجربة الدينية البيوريتانية اللافتة، ولا المؤرخون البارزون أنفسهم، وهم جميعا منغمسين بعمق ومتعاطفين في الأدبيات البيوريتانية، من بيرى ميللر في النصف الأول مسن القرن العشرين، مرورا بستيفن فوستر، ودافيد هول، وميشيل وينشيب عند نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، يشارك في تلك الرؤية الألفية أو ذلك الإيمان (والخوف) في قصد الرب الخاص بالبيوريتان. ومسن بين كل هؤلاء الباحثين، يأخذ وينشيب المحادثة اللاهوتية القساوسة البيوريتان بأكبر قر من الجدية، بحسب كلماتها حقًا، بل إنه حتى (أو خاصة) ليس لديه اتصال بشيء يشبه وجهة نظر دينية تجاه الأحداث أو مشكلة الشر. كانت آن هوتشينسون متهمة مثل مضطهديها الكنسيين بأنهم رجال لا يرعون، واتهموها بدورهم بأنها ليست فقط خاطئة في لاهوتها وإنما ملعونة بسبب أكاذيبها. وبالنظر إلى هذا فإن استنتاج وينشيب يطفو فوق الهجاء، بقعة نائية

ليست من الملائكة في الأعالى ولكن صندوق قاض من الباحثين العلمانيين غير المنحازين: «لقد كان النزاع حول التدخل مع الكشف عن أعماق أكبر في الإنجيل ونبوة الرب المرفوعة من أجل قصد عظيم، أو أنها كانت بشأن مضايقة الإخوة والأخوات الذين كانوا ببعض النقاط السخيفة... لقد كان بشأن الحاجة إلى معارضة المذهب البابوى... لقد كان الأمر بشأن القساوسة الذين كبلوا المسيحيين بسلاسل تربطهم بالقانون على حين كان ينبغى لهم أن يجربوا الحربة التى يوفرها لهم الإنجيل». ومن المؤكد أن وينشيب لم يكن يشاطر أيا من الجانبين رأيه في النزاع أو الزعم برؤية داخلية من لدنه عن غرض الرب من اختبار شعبه المختار بهذه الاختبارات.

حتى المؤرخين ذوى القناعات الدينية ينأون بأنفسهم عن الرأى الدينى عن الشر التاريخى. فإذا حشوا رواياتهم برسائل أخلاقية، فإنها تأتى من أفواه رعاياهم وليس من الرب. لقد كان جورج مارسون، الفائز بجائزة بوليتزر وكاتب سيرة المقدس البيورتيانى العظيم جوناثان إدواردز، أشد تعاطفا من وينشيب وغيره من الطلاب البيوريتان فى مشروع «المنحة الدراسية المسبحية» الذي كتب في:

The Outrageous Idea of Christian Scholarship 1997

«إن قلب الخطيئة الإنسانية يكمن في إنجازاتنا، وفي الوهم الذي يقول إننا يمكن أن نكون نحن آلهتنا، وأن نكون قانونا ينطبق علينا، نخلق حقيقتا ونتحكم فيها. مثل هذه المفاهيم كان يجب أن تحول الباحثين الملتزمين دينيا إلى منشقين عن أي نظريات مسلم بها في الأوساط الأكاديمية الحالية؛ إنها يجب أن تجعل منهم ناقدين لوجهات النظر، وأقوياء بصفة خاصة في الفنون والآداب، يؤكدون على الحرية الإنسانية والإبداع باعتبارها القيم الأسمى، وعلى الرغم من الجدارة الهائلة. فإن هذه المواهب الإنسانية سوف تصل

ذروتها في التعبير عندما تمارس داخل شعور بحدود الفرد في علاقت ا بالجماعة، أي النظام المخلوق، وأخيرا في الرب».

ولكنه عندما يأتى إلى تلخيص إسهامه فى الأدب الهائل الذى كتب عن إدوارد، يوفق مارسون كلماته ويوائمها مع القانون العلمانى بدلاً من القانون اللاهوتى: «إن أحد آمالى أن هذا الكتاب قد يساعد على تجسير الفجوة بين طلاب الثقافة الأمريكية وطلاب اللاهوت... وباعتبارى كاتب سيرة يحاول أن يفهم إدواردز أولاً على أنه شخصية من القرن الثامن عشر، فقد كنت أعمل بصورة مباشرة بوصفى مؤرخا ثقافيًا. بيد أننى كنت أفعل هذا دائمنا بعين على السؤال اللاهوتى، آخذًا فكره بجدية على أنه جزء من التراث المسيحى الأكبر» إلا أن هذا التراث عن الإيمان والطاعة يجد نفسها فقط فى هو امش صفحاته «عقيدتى هى أن إحدى فوائد أن تكون مؤرخًا، خاصة إذا كان المرء جزءًا من جماعة إيمان، هى أن تساعد الأشخاص فى مثل هذه الجماعات لكى يفهموا على نحو أفضل ما الذى يمكن لهم ولجماعتهم أن الجماعات لكى يفهموا على نحو أفضل ما الذى يمكن لهم ولجماعتهم أن مرتبط بحدود الزمن». باختصار صل كل شيء يعتمد على الرب؛ واكتب مرتبط بحدود الزمن». باختصار صل كل شيء يعتمد على الرب؛ واكتب التاريخ كما لو كان كل شيء يعتمد على فعل البشر.

وبالنسبة لسيدنى أهلستروم، أشهر مؤرخ للديانة الأمريكية فى زماننا، كان الأمل أقوى من اليأس. ولما كان يكتب فى الأيام الأخيرة من تورط أمريكا فى حرب فيتنام، وهى فترة تسببت فى أن الكثير من الناس النين كانوا يفكرون على نحو سليم أخذوا يتساعلون عما إذا كان تاريخنا قد مضى فى طريق الخطأ. وقد وجد أهلستروم فى تاريخنا الدينى موعظة عن الأمل. وكانت فقراته الأخيرة تحث «القارئ» على أن يتبنى «أسلوب حياة وموقفًا أخلاقيًا» تحمل أفضل ما فى التراث الدينى الأمريكى، كانت تعسول على

العناصر المتعمقة في تراثهم، وإيجاد مصادر جديدة للقوة والثقة، وبهذا تبرهن على المثالية التي كانت أمرًا طيبًا. لقد تمكنت من رفع الروح المعنوية وتقوية الشعور الأخلاقي، ولكن أي تاريخ مشروع للمسيحية الأمريكية كان يتطلب «اهتمامًا مستمرًا بالرجال، والحركات، والأفكار ذات الجذور العميقة جدا في الزمان والمكان»، وحتى التاريخ الديني الذي كان يمتدح الإيمان كان لابد أن يكون قصة الناس وقصة أفكارهم، وليست قصة العناية الإلهية.

و على الرغم من أن إجابة علماء اللاهوت على مشكلة الشر لم تكن في متناولهم، فإن الباحثين مثل مارسدن وأهلستروم يلمحون إلى أن دراسة التاريخ توفر الراحة. إن المؤرخين يواجهون الشرفي أوضح صوره. ولكن أخذ العناية الإلهية خارج قصة ماضينا ينزل بالشر إلى أبعاد يمكن التعرف عليها على نحو أفضل، إنه نحن. إن التاريخ، متحررًا من حضن الحضور الطاغي للشر الأعلى الذي يمارسه البشر، يظهر أن الشر من فعلنا ندن. ويوضح التاريخ أيضا أننا قادرون على السيطرة والتحكم في حوافز العدوان والإيذاء لدينا. والوقوف عرايا على هذا النحو مثل هذا، بدون الملابس التي تتمثل في الأصل المقدس ووعد الحياة الآخرة السماوية، يكون التاريخ البشرى موضوعًا أكبر - وتاريخًا يبعث على الخوف بدرجة أكبر بالنسبة لكثيرين. والعودة إلى الراحة التي يوفرها الدين قد تخفف الصدمة التي تنتج عن مثل هذا الإدراك. وقد كتب بعض المؤرخين ذوو المشعبية في ذلك المسار. وقد اكتشفوا في الآباء المؤسسين، في لنكولن وغيره من الزعماء الوطنيين، وفي الحرب الأهلية وجنود الحرب العالمية الثانية، إيمانا بالرب المحسن والراعي، والذي يصبح حينذاك برهانًا على أن مشكلة الشر لا توجد سوى في أذهاننا فقط. إذا لم يكن ممكنا بعد الآن الاعتماد على العنايــة الربانيــة بوصــفها التفسير النهائى للشر، فما الذى يحل محلها؟ إننى اقترح أن نتقبل فى تواضع الدور الذى تلعبه السخرية فى التاريخ. وفى المشهد قبل الأخيــر فــى فــيلم مونتى بيثون «The Meaning of Life»، يقطع حفل عشاء زائــر مفــاجئ، ويصبح واضحا أنه جزء من تاريخنا كله.

جريم ريبر: أنا جريم ريبر (الحاصد الرهيب - ملك الموت)

جيوفرى: ماذا؟

جریم ریبر: جریم ریبر

جيوفرى: نعم، أرى ذلك

جريم ريبر: أنا الموت...

أجيلا: من هذا يا عزيزى؟

جيوفرى: إنه «السيد الموت» أو شىء ما. لقد جاء بـــشأن الحــصاد؟ إننى لا أظن أحدا فى هذه اللحظة.

أنجيلا: هاللو، حسنًا، لا تدعه يتسكع في الخارج، يا عزيزي، ادعه إلى الدخول ...

ديبى: حسنا، أليس ذلك غير عادى؟ لقد كنا لتونا نتحدث عن الموت منذ خمس دقائق فقط.

جريم ريبر: اهدأوا ... لقد جئت من أجلكم.

أنجيلا: أنت تعنى ... لكي

جريم ريبر: آخذك بعيدا. هذ غرضى. أنا الموت.

جودفرى: حسنا هذا يلقى بالكآبة على الأمسية، أليس كذلك؟

جيوفرى: والآن انظر هنا. أنت اقتحمت علينا مكاننا، ولم يدعك أحد، تكسر الأكواب ثم تعلن، وبشكل عارض تمامًا، أننا جميعا موتى. حسنا؟ إننى لابد أن أذكرك بأنك ضيف في هذا المنزل، و –

جريم ريبر: إهدأوا

ديلبى: هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟

جريم ريبر: ماذا؟

ديبي: كيف متنا جميعا في الوقت نفسه؟

جريم ريبر: حلوى السلمون

جيودفرى: يا عزيزى، أنت لا تستخدم السلمون المعلب، هل استخدمته؟

أنجيلا: إنني محرج بطريقة غاية في الرعب

جريم ريبر: لقد حان الوقت. اتبعوني. اتبعوني...

ديبي: إيه، إنني لم آكل الحلوى حتى.

وكما اكتشفت ديبى، هناك عنصر ضدفة فى كل الأحداث البشرية، لا يمكن التنبؤ بها، ومن المؤكد أنه غير أخلاقى، ليس له علاقة بالجدارة الأخلاقية، أو نقائص الأفراد أو المجموعات. إنها فى صحبة جيدة. فهل خسر الهنود أمام الأوربيين لأن الأوربيين كانوا شعب الله المختار ولأن الهنود هم

الشياطين الحمر؟ هذا خطأ. لقد خسر الهنود لأن الأوربيين جلبوا معهم صدر رجل ميت ملىء بالجرائيم – الحصبة، والغدة النكافية، والجديرى، والجدرى – التى لم يكن للهنود حصانة طبيعية ضدها. أما الأوربيون فكانست عندهم حصانة – التى توارثوها بفضل مئات الأجيال التى كانت تعيش مع الخنازير، والأغنام وغيرها من الحيوانات الأليفة التى كانت تحمل هذه الجراثيم، والأسوأ من هذا أنه عندما وصل الأوربيون ومعهم أغنامهم، وماشيتهم، وخيولهم، والفئران، والصراصير والبكتريا والفيروسات الغريبة عن العالم الجديد، استوطنت هذه الأنواع الأرض بأسرع من المهاجرين.

فهل اكتسب ملايين الإفريقيين أو استحقوا القسوة من الرق المنقول في الأمريكتين؟ لم يحدث، لم يكونوا مناسبين بصفة خاصة بواسطة الطبيعة أو رب الطبيعة لأن يكدحوا من أجل أن يكسب الآخرون، بل على العكس، كانت زراعات قصب السكر البرتغالية والإسبانية الوفيرة بحاجة ماسة إلى الأيدى العاملة، وكانت تجارة الرقيق الإفريقية الموجودة لديها الوسائل لتلبية هذه الحاجة. ولو لم يكن هناك قصب السكر لما كان هناك عبيد فى العالم الجديد. وعندما يتعرف المؤرخون على ذلك العنصر من عناصر غير المنوقع، يكونون قادرين على رؤية كيف يصبح الحكم الأخلاقي إدراكا بعد فوات الأوان، ويمكن للمأساة أن تقود إلى الخطب الدينية.

إن الحاصد الرهيب (ملك الموت) يأخذهم جميعًا، حتى ديبى التى لـم تأكل حلوى موس السالمون. والدرس واضح لـيس كـل شـىء سيكون مشروحًا ومفسرًا. إنه فى تلك الفجوة الكامنة بين معرفتنا الجزئية، ولا يهم كيف نتابع أبحاثنا بدأب، والتفصيل الشاسع للماضى التاريخي، الفجوة التـى يقع فيها موت ديبى، بحيث نجد مشكلة الشر. وإذا كنا نعرف المزيد، فربما سنفهم السبب الذى يقدم أناسًا بعينهم ومجموعات بعينها ليقرروا فعل الـشر.

مثل هذه المعرفة، لن تداوى الأذى الماضى وربما حتى لا تخفف من وطأته، ولكنها سوف تفسر. وسيكون ذلك كافيًا بالنسبة لنا.

مثل هذه المعرفة العالمية والتفصيلية تتعدى قدرة المؤرخ، وربما تكون في حكم الرب، ولكنها لن تكون أبدًا في عقولنا نحن. ويجب أن نقتت بالاعتراف بأننا قد اخترنا مجالاً للدراسة سوف يجعلنا أحيانا غاية في الحزن، وأحيانا أخرى نرتعش بالغضب، إن الاعتراف بسخرية التاريخ سوف تذكرنا بجوانب القصور فينا وسوف تجعلنا متواضعين. سوف نحتفل بالعدالة عندما نراها في أبحاثنا ونرحب بأعمال الإحسان عندما نستطيع أن ندونها في مؤرخاتنا.

خاتمة

جسر إلى الماضي

«الماضى بلد أجنبى ... غير مرئى ويستعصى على الغزو ... والتجربة التاريخية ليست هى الاقتتاع المتغطرس ببهجة الوهم بأننا قد جربنا الماضى مثلما عاشه الناس فى الماضى ... وإنما هى تجربة صدع، أو شق بين ما نحن فيه الآن وما كان عليه الآخرون آنذاك»

آلان ميجيل (۲۰۰۷م)

التاريخ مستحيل. ولا شيء كتبته أو يمكن أن أكتبه يغير من هذه الحقيقة القاسية، فنحن لا يمكن أن نعود القهقرى في رحاب الرمن. ولكن كتابة التاريخ، ودراسة الماضي، ليست مستحيلة. وإذا استكملنا الجسر ما بين الحاضر والماضي، فيجب علينا مواجهة ذلك التحدى النهائي الذي يضعه ميجيل. هناك مشهد مذهل قرب نهاية فيلم:

Indiana Jones and the Last Crusade الذي يجب فيه أن يعبر إنديانا جونز هاوية سحيقة للوصول إلى الكهف الذي يضم الكأس المقدسة. فلابد أن يكون مؤمنا بما يسعى إليه، ويتطلب ذلك الإيمان منه أن يتخذ خطوة فيما يبدو أنه فضاء فارغ وهو يفعل هذا، ويجد أرضاً صلبة - جسرا إلى الجانب

الآخر. وما نحتاج إليه لكى نستكمل فلسفتنا خطوة إيمانية على الجسر الذي شيدناه.

أين يظهر مثل هذا الإيمان؟ من المؤكد بعد كل ما قلناه هنا، أنه لا يظهر في رطانة المناهج الأكاديمية غير المفهومة. فعندما كرس إراسموس كتابه Praise of Folly المضيفه الإنجليزي توماس مور، كان كلا الرجلين يعرفان أن الغرض الحقيقي من المقالة هو جعل قرائها يفكرون بشأن الحماقة بأن معرفة الفلسفة أو البلاغة يمكن أن تتقذ رجلاً حينما لا يمكن للإيمان أن ينقذه. يقول إراسموس: «الفلسفة المسيحية كلها تبدو وكأن لديها نوعا من التحالف مع الحكمة. وإذا ما توقعت أدلة عليها، فلتفكر أو لا في أن الأو لاد، والرجال المسنين، والنساء، والحمقي أكثر ابتهاجا بالأشياء الدينية والمقدسة من غيرهم، وأنهم دائما عند مذابح الكنائس لهذا الغرض ؛ وأنهم يفعلون هذا بدافع من الطبيعة أكثر من أي شيء آخر. وثانيا، يمكنك أن ترى أن أولئك المؤسسين الأوائل كانوا أشخاصنا بسطاء واضحين ومن أشد أعداء التعليم مرارة».

ولن يقوم أى مؤرخ بإرساء فلسفة صالحة على الإيمان الخالص وحده، ومن المؤكد أنه ليس إيمان الحمقى المقدسين، بيد أنه لا يجب لتلك الفلسفة أن تستقر في الغطرسة القائلة بأن التاريخ قرين الحمقى الخالص. في أكتوبر سنة ٢٠٠٦م، قالت لجنة من أصحاب الوشاح الأزرق من أساتذة هارفارد الذين يدرسون برامج ما قبل التخرج بالدعوة إلى متطلب دراسي على اتساع الكلية بعنوان «العقل والإيمان». ثم تراجعوا في ديسمبر. إذ إن زميلهم ستيفن بينكر، كان قد وضع إصبعه على النقطة الموجعة في اقتراحهم «إن تجاور الكلمتين يجعل الأمر يبدو وكأن «الإيمان» و «العقل» طريقتان متوازيتان

متساويتان للمعرفة، وعلينا أن نساعد الطلاب على الإبحار فيما بينهما. ولكن الجامعات تبحث وراء العقل، خالصًا وبسيطًا، أما الإيمان – أى الاعتقاد في شيء ما دونما أسباب جيدة لفعل ذلك – ليس له مكان في أى شيء سيوى المؤسسات الدينية. ولا يعانى مجتمعنا قصورًا أو نقصا في هذه المؤسسات».

هذه مخاكمة قوية، وإن كانت فضفاضة إلى حد ما. ذلك أن هارفارد نفسها تقود طلابها إلى مناطق الخيال حيث يكون العقل محدود الدور، فنحن نصدق الكثير من الأشياء الطيبة «دونما أسباب جيدة لفعل هذا»: كأن نتوقع من شخص آخر أن يحبنا على مدى الحياة؛ أو أن نقضى هذه الحياة نكتب الشعر؛ أو نندفع داخل المبانى المحترقة لإنقاذ أناس غرباء تمامًا؛ أو أن نعتقد بأن السلام ممكن، والمجادلة بأن المعرفة «تتعلق بالعقل، بسيطًا وخالصًا» يعنى أن ننسى أن التاريخ بعيد قليلاً عن هذه الحقيقة «الخالصة والبسيطة». وكما يذكرنا عالم الطبيعة المتمايز لورنس كراوس «لا شك في أن هناك حاجة عميقة في طبيعتنا الفيزيائية إلى أن نصدق وجود مناطق جديدة يمكن لأمالنا وأحلامنا أن تتحقق فيها، وندفن فيها أسوأ كوابيسسنا». التاريخ هو إحدى هذه المناطق، ملىء بأمال البشر وأحلامهم، وكوابيسهم أيضا.

هل إيماننا بإمكانية التاريخ مجرد حلم إذن؟ هل عدنا إلى وادى أوسكار هاندلين، الذى تحيط به قمم لا يمكن الوصول إليها؟ كان ستيفن جولد واحدًا من أكثر كاتبى السيرة شعبية لدى الجماهير وأكثرهم انتشارًا في النصف الثانى من القرن العشرين، لقد قدم لنا مفهوم تطور الأنواع بوصفه سلسلة من التوازنات المرقمة، وطفرات مفاجئة في الاختلاف الجيني يحدث غالبا في خلفيات الطبيعة، بديلا عن فكرة تشارلز داروين عن التطور بوصفه عملية

طويلة المدى تحدد فقط الظهور التدريجي ونجاح الخصائص الجديدة. وقد اعتقد جولد أيضا أن أقوى دفاع علمي عن التطور لم يحكم عن إيمان بأننا يمكن أن نتوغل وراء اليقين العلمي لنعرف أكثر مما تقابله العين. وفي عمل قضية الدين الذي يكشف عنه الوحى في مقالة بعنوان:

«Nonoverlapping Magisteria» في سنة ١٩٩٧م تعليقا على إيمان البابا بول الثانى بأن الكاثوليكية والتطور لم تستبعد كل منهما الأخرى، كتب جولد «إن لدى بعض الزملاء العلميين، بما فيهم عدد قليل من البارزين الذين لهم تأثير من خلال كتاباتهم، الذين ينظرون إلى هذا التقارب بين المجالين المنفصلين في فزع».

وإذا ما كان لى أقوم بمجادلة مماثلة عن عقيدة التاريخ، أظن أنسى سوف أجد نقدا متصاعدًا مماثلاً. ولكن تأمل أن الإيمان نفسه لا يحتاج إلى أن يكون موضوعًا قانونيا. فنحن يمكن أن يكون لدينا إيمان بقدرتنا على أن نعرف عالمًا يختلف عن عالمنا بدون أن نحضره في ألوهية جوهرية. وإذا لم تكن الديانة المنظمة طريقا لأن «تعرف» أي شيء عن التاريخ والعقل والعلم بدون قيم إنسانية أساسية فيمكن أن تؤدي بالقدر نفسه من السهولة إلى أفعال من القسوة وعدم التسامح يمكن للتعصب غير المعقول أن يؤدي إليه أيضنًا. إن مثل هذه القيم في التحليل الأخير تقوم على أساس ما هو أكثر قليلاً من الإيمان في طيبتنا المشتركة، مع الإيمان بأنفسنا. إن مثل هذا الإيمان يمكن أن يقودنا إلى الحب، والأمل والتضحية.

إن بنية الجسر بين الحاضر والماضى، بما فى ذلك المقاطع التى . تغطى المسافة والتى توفرها المجادلة العقلانية، وشبه المغالطة المنطقية، واستخدام الأسئلة الافتراضية وغيرها من الأسئلة المحشوة، والحيلة الأدبية،

وإحساس بالسياق السياسى والرغبة فى التعاون، وقبول نفعى الفئات المفيدة والتشكيلات لمواءمة اللايقين، تكاد تكتمل بالاعتراف بأن عمل التاريخ يقدم لنا التناقض المنطقى فى شوقنا إلى اليقينيات فى عالم غير أكيد. هناك شرر وهناك خير. وحصاد الصراع بينهما وهو صراع يمكن للمؤرخ أن يسجله ولكن لا يمكن أن يحكمه محكوم بالصدفة والظروف. ومشكلة الشر هى فقط آخر نتائج هذ التناقض. إنه تناقض يمكننا أن نتعاب عليه بالثقة الواجبة فى قدراتنا الخاصة والاعتراف بجوانب القصور فينا. إذن فإن الجسر إلى الماضى الذى نقترب منه بالعقل، والذى يتشح بالمهارة الأدبية، مع الوعى بالأمور السياسية فى رصيفيه اللذين يقوم عليهما الأساس، تغطى مسافته فئات تضرب بجذورها فى الحياة الحقيقية، يرفعه الموعى الأخلاقي، وقد مهدته العقيدة والإيمان الإيمان بأننا يمكن أن نعرف ما فيه الكفاية؛ والإيمان بأن الجهود جديرة بنا وبأولئك الدذين يقرأون ما نكتبه.

ما فلسفة التاريخ لزماننا؟ إنها فكرة أنه من الأسلم أن نعود إلى دور الوثائق والسجلات، من الأسلم أن نعود إلى فصل الدراسة وقاعة المحاضرات، من الأسلم أن نجلس لنكتب أو نرفع القلم، من الأسلم أن نذهب إلى المكتبة ونأخذ كتاب تاريخ أو نشتري واحدًا من موقع أمازون (على الإنترنت). إنه من الأسلم أن نعلم ونكتب ونقرأ وننصت إلى التاريخ. لقد حدث شيء ما هناك، منذ زمن طويل، ولدينا القدرة، إذا ما كان لدينا الإيمان، على أن نعرف ماهية هذا الشيء.

إن ديبورا جيرشينوفيتز، محررة كتابى، وهى نفسها من طلاب التاريخ، سألت في مرحلة مبكرة من مراحل إنتاج هذا الكتاب «ما فلسفتك

الشخصية للتاريخ»؟ سؤال محق، ولكنه سؤال أجده، حتى بعد كل ما كتبته، لا تسهل الإجابة عليه.

إن كلمات القصة الشعرية الغنائية الجميلة «كيف تتعامل مع امرأة» من Camelot طرأت على بالى. إن الطريقة التى تتعامل بها مع التاريخ هلى بساطة، أن تحبه. وهذا ليس صعبا. ولكى نتمثل عبارة هنرى دافيد شورو، التاريخ هو النهر الذى نذهب إليه جميعا لصيد السمك. نحن نتاج التاريخ ونحن نصنع التاريخ. وعلى الرغم من أن معظمنا يشغلون فقط جزءا صغيرا للغاية فيه، ونترك وراءنا سجلاً ضئيلاً من السجل الوثائقي عن تطلعاتنا وإنجازاتنا، (وإخفاقاتنا أيضا) فإننا مادة التاريخ، إنها تلك الحقيقة المفردة الضرورية التى تساعدنا على معرفة الماضلي وتتطلب أن نبحث فيه عن الحقائق.

وإذا كان هذا الكتاب يقدم بعض المساعدة في فهم هذا السدرس، فإنسه يكون قد حقق غرضه، وأكون أنا قد حققت قصدى، على الرغم من أنه فسى خطاب بداية رئاسية ألقى سنة ١٨٣٧م فإن «الباحث الأمريكى» راعى تورو ورفيقه رالف والدو إيمرسون، حذرنا من الاعتماد على الثقات لاسيما أولئك الذين طلبوا منا قراءة كتبهم وكل شيء سيكون على ما يرام!! « لقد كان الكاتب روحًا عادله وحكيمة: ومن الآن فصاعدًا تم الإقرار بذلك، الكتاب كامل؛ وكما يفسد حب البطل الأمر بحيث يصل إلى عبادة تمثاله. وفي الحال يصير الكتاب مؤذيا وضارًا: إن المرشد طاغية». لأن هذا الكتاب ليس سوى نقطة بداية. والباقي يرجع لك أيها القارئ.

مسرد المصطلحات الصعبة

ملاحظة للقارئ: تشير التعريفات التالية إلى استخدام المصطلحات الواردة في الكتاب، وكثير من الكلمات لها تعريفات مختلفة، ولكنها حذفت هنا: AD Hominen:

معناها الحرفى «ضد الإنسان»، هجوم شخصى .

Affirming the Consequence, Fallacy of:

التعليل بأن المقدمة المنطقية صحيحة لأن النتيجة كذلك

All- or - nothing (black-and - white, either - or), Fallacy:

مجادلة بدون أرضية وسطى.

Analogy:

B مقارنة لها شكل « إذا كانت A مثل B، إذن فإن A لها خاصية معينة في A مقارنة لها شكل « إذا كانت A مثل عند الله المتابعة ا

دعنا نفض هذا النزاع بأن نسأل من يعرف .

A rgument:

فى المنطق، بيان أو سلسلة من البيانات يفهم منها أنها كذلك. ليست منافساً صارخًا .

Argument from authority:

إنها حقيقية لأن شخصا ذا مرجعية يقول هذا

Atlantic env (gamblés hope) Fallacy:

إننى أخسر، ولهذا تقول الأرجحية إننى سوف أربح فى رميتى الثانية. سوف أستمر في المراهنة.

Axiom:

قاعدة في نظام منطقى مغلق: مثلاً، في الهندسة «الكل أكبر من الجزء».

Begging the question:

افتراض حقيقة ما يفترض أنك تبرهن عليها؛ التعليل الدائري.

Big Lie:

كذبة وقحة، تروى بقصد خداع الكثير من الناس.

Category mistake:

خطأ افتراض أن اسم مجموعة من الأشياء هو الشيء نفسه.

Chaos theory (Butterfly effect):

اكتشاف أن التغيرات الدقيقة في الأحوال الأولية قد تؤدى بالحوادث المشابهة الى الانتهاء بنتائج مختلفة تمامًا .

Circular reasoning:

بيان يطارد ذيله، يبرهن على حقيقته بإعادة التأكيد على مقدمته المنطقية.

Clustering illusion:

المغالطة المنطقية بالتفكير في أن عقودًا من الأحداث يجب أن تكون لها علاقة بيعضها البعض، حوادث متجاورة.

Concomitance, fallacy of:

الخلط بين القرب في الزمان أو في المكان وبين السبب.

Contrapositive:

في المنطق الصورى، «إذا كانت p ثم q، وإذا لم يكن q فلا تكون q»

Converse:

في المنطق الصورى: «إذا p ثم p، إذن إذا p ثم q»

Deconstructionists:

مجموعة من نقاد الأدب والفلاسفة الذين يتجاهلون سياق النصوص تحبيدًا لتجريد النصوص من موقعها الزمني.

Deduction:

فى المنطق، التعليل من تعريف أو من قاعدة لا تخطئ لحالة خاصة Denying the antecedent, fallacy of:

في المنطق «إذا p ثم p، وليس p، فمن ثم ليس p»

Dogma, Dogmatism:

الزعم بأن سلطة ما على صواب دائمًا ويجب قبولها كذلك. وتساعد على أن تكون معصومة من الخطأ في الموضوع. Double Standard:

أفعل كما أقول، وليس كما أفعل.

Empiricist:

شخص يعلل من الاستدلال، عكس ممن يأخذ بما وراء الطبيعة

Entropy:

القانون الثاني من ثلاثة قوانين كلاسيكية عن الحركة الحرارية (الثيرموديناميكس). الطاقة في الكون ليست محفوظة، بل إنها في عملية مستمرة للتشتيت. وبعبارة أخرى، لا تضيع طاقتك، فلن تكون بحوزتك غذا.

Experiment:

اختبار فرض من خلال استخدام التحكم والتكرار.

Evil, Problem of:

لماذا، إذا كان الرب يحبنا وهو خير، يكون هناك شر؛ لماذا يعانى hgBfndhV

Fallacy:

خطأ في المنطق، أو في استخدام الكلمة، أو في التعليل.

False cause:

الخلط بين الدوافع أو الأعذار والأسباب.

False Concreteness, fallacy of:

التمنى لا يمكن أن يجعله كذلك، كما أن صك مصطلح لا يفعل ذلك.

False identification falacy:

مجادلة قائمة على أساس الربط المضلل بين A و B.

False qustion fallacy of:

افتراض تحقيري على شكل سؤال.

Formal logical fallacy:

غلطة في المنطق الصورى؛ كل من البيان ينتهك قواعد التعليل الافتراضي.

Formal (proposiational) logic:

حساب صلاحية الجملة على أساس مجموعة من القواعد.

Fractal theory:

نظرية تصف كيف أن بناءات مادية معينة في الطبيعة تكرر نفسها في أشكال صغيرة.

Game theory:

سلسلة من الاستراتيجيات لاتخاذ قرارات تحسبًا لقرارات اللاعبين الآخرين كذلك.

Godel,s Paradox:

هناك بعض النظم الرياضية البديهية لا يمكن جسم حقائقها البديهية داخل النظام نفسه؛ نظر عن عدم الحسم الداخلي.

Greatest good for the greatest number:

موجز فلسفة النفعية لجون ستيورات ميل في القرن التاسع عشر.

Guilt by association:

الاتهام الذي يكيله خصم المرء مع الحشد الخاطئ.

Hasty generalization:

بيان عن فرد ما أو جماعة مبنى على معلومات غير كافية، غالبًا ما يكشف عن التنميط.

Hindsght, fallacy of:

تفسير الأحداث قائم على نتائجها:

Hypothetical:

معلوم ببيان عكس الحقيقة، غالبًا ما يستخدم باعتباره وسيلة تعليمية. لا يجب الخلط مع hypothesis، الذي يحتمل الصدق الذي يختبره أحد الباحثين.

If - then argument:

إذا p فليس p .

الوصول إلى استنتاج قائم على جمع الأنلة، والاختبارات المعملية، أو أى

Informal logical fallacy:

خطأ في التعليل قائم على أساس شيء غير قواعد المنطق الصورى.

Inverse:

في المنطق الصورى «إذا لم تكن p فلا تكون p».

Johnny - one- notel (One- Sidedness):

العزف بقسوة على جانب واحد من موضوع معقد؛ أحادية الذهن.

Law of Contradiction:

في المنطق الأرسطى، « A لا يمكن أن تكون ليست A».

Law of Idntity:

في المنطق الأرسطى «A هي A، وأي شيء زيادة سيكون كذلك».

Loaded question:

السؤال الذي يقول إنك لا يمكن أن تكسب مهما كان سؤالك

Logic:

ليس من السهل تعريفه. وأميل إلى القول إننا نعرفه عندما نقرأه أو نسمعه، بسبب نغمته المتعقلة، حركته الحذرة من المقدمة المنطقية إلى النتيجة، واهتمامها بالعلاقات الواضحة والمقنعة بين أجزاء المجادلة.

Logic chopping:

استخدام حيل منطقية لهزيمة الخصم

Logical positivists:

أعضاء مدرسة من فلسفة القرن العشرين تستخدم تحليل اللغة لتحدى الميتافيزيقا.

Magic:

السيطرة على الطبيعة بواسطة السحر، والتعاويذ وغير ها من الوسائل اللامرئية: شكل من الممارسة الشعبية يستخدم آليات مخبأة وخفة اليد.

:Near Fallacy

مجادلة أو منهج مجادلة يقترب من المغالطة المنطقية، ويمكن استخدامها بسهولة للمجادلة بطريقة خاطئة، ولكنها أيضا قد تكون صحيحة.

Non sequitur:

التأكيد على أن A تتبع B على حين تكون B فى الحقيقة ليس لها علاقة حقيقية ب A .

Objective (Objectivity)

حكم قائم، نظريًا، على أساس الاستنباط من مبادئ مقبولة عموما؛ وفى القانون معيار «الرجل العقلاني». وفي التاريخ، الذهنية التاريخية المثالية، أو رؤية العالم من خلال عين موضوعنا.

Paradox:

بشكله الظاهرى، أو معضلة، أو تتاقض.

Philosophy of history:

مصطلح خلافى إلى حد كبير، لا يجب الخلط بينه وبين المنهج التاريخى. وفلسفة التاريخ، استكشاف لكيفية معرفتنا عن الماضى. والمصطلح الجمعى يشير إلى دراسة النظريات الموجودة بدلاً من تقديم نظرية المرء الخاصة.

Plagiarism:

ممارسة الزعم بأن كلمات شخص آخر هي من إبداعه هو أو تعبير أصلى.

Piosoning the well:

التأسيس، قبل أن يكون الجدل قد بدأ، أن مجادلة معارضة أو مجادلاً غير مناسب.

Pragmatism:

فلسفة أمربكية تؤكد أن المعنى يمكن أن يقوم فقط على التحقيق الإمبريقي وفي بعض الأحيان يتم الخلط بينه وبين الفكر العملي.

Precedent:

أى ما حدث من قبل ؛ فى نظامنا القانونى، القاعدة أو المعيار الذى تم إرساؤه من قبل بقرارات محكمة يمكن أن تطبق فى قضايا لاحقة.

Predeterminism:

النظرية السببية القائلة بأن كل شيء يحدث يغطيه قانون عام أو أكثر.

Prenise:

بيان بالحقيقة أو الرأى يمكن أن يكون أو لا يكون حقيقيًا.

Presentism (Present- mindedness), fallacy of:

رؤية الماضى فى ضوء قيم الحاضر أو حاجاته، مع المبالغة فى التأكيد على ما بقى من الماضى فى الحاضر.

Prisoner's dilemma:

الاسم الشائع لأحد تنويعات نظرية اللعبة.

Proposition:

في المنطق الصوري، بيان.

quoting out of context:

تجريد شطر من نص ما من الكل بطريقة تجعل المجادلة في النص الأصلي تكون مغلوطة.

Rationality:

التصرف بأسلوب معقول، وملاءمة سلوك المرء وتفكيره مع أفضل مصالح المرء أو الآخرين

Rationalization:

فى علم النفس، آلية دفاعية لإخفاء الأساس الفعلى لتصرفات المرء. أيضا شكل من الكذب.

Reductionist:

توظيف استراتيجية للتفسير تناسب جميع الحالات في فئة واحدة وتقدم لكل الأحداث خطا وإحدا للقصة.

Regression (statistical) fallacy:

افتراض أن أي حالة سوف تتشابه مع معظم الحالات.

Relativist:

فى الدراسة التاريخية، المجادلة بأن كل منظور فى الدراسات التاريخية وكل انحياز ينشأ من الزمان والمكان الذى كتبت فيه ؛ وفى الأخلاق، الجدل بأن الأحكام الأخلاقية تتحدد أيضا بالزمان والمكان.

Rhetorical question:

سؤال يعرف المرء إجابته بالفعل، أو إجابته واضحة من السؤال.

Rule of thumb (Reasoning by default):

وضع التصرف أو الاعتقاد على أساس تعميم أو تجربة سابقة.

Sample:

قضية مفردة أو مختارات من مجموعة أكبر من القضايا.

Sampling fallacy:

التوصل إلى استنتاج عن جمهرة السكان كلها أو الأشياء كلها على أساس شطر غير نمطى من الكل.

Sientific method:

أن يفعله العلماء لاختبار نظرياتهم، مستخدمين الفروض والتجارب له الآن مكانة تنافس المذهب الديني.

Self-fulfilling prophecey:

بعد سماع حديث النبوءة، تجعل تصرفات ذلك التنبؤ بحدث.

Semantic error:

خطأ أو غموض في استخدام اللغة – مثلا، التورية.

Skeptics fallacy:

في المنطق: "إذا لم تكن p صحيحة، فإن q لا يمكن أن تكون صحيحة».

Slipper Slope:

مجادلة تتحرك إلى خاتمتها من خلال سلسلة من الفروض المرتبطة ببعضها.

Special Pleading:

المجادلة من أجل الاستثناء من قاعدة عامة.

Statutes:

تصرفات الهيئات القضائية، غالبا ما تكتب خطأ لأسباب غامضة.

Stereotyping, stereotypical thinking:

تعميم متسرع يخل بالمعنى ويؤدى إلى التضليل حول مجموعة ما أو خصائصها.

Straw man:

موقف زائف خلق لغرض وحيد هو إزالته .

Subjective (Subjectivity):

قاعدة للحكم قائمة على أساس التفصيلات أو القيم الفردية.

Sweeping generlization (Dicto simpliciter):

الإفراط في التعميم، للوصول إلى قاعدة عامة من عدد قليل جدا من الحالات. Syllogism:

فى المنطق الصورى «إذا كانت A هى B و B هى C، إذن A هى C». Turth:

حقيقة أو خاتمة يمكن البرهنة عليها في العالم الحقيقي أو تأكيدها دونما دليل. Unrepresentative:

انظر Sampling fallacy

Valid (validity):

علاقة منطقية

Verification test:

النسخة الفلسفية للشعر سيئ المسمعة « إذا لم تكن مناسبة، فعليك أن تتبرأ منها». ولكى يكون هناك معنى لكلمة ما، يجب اختيار معناها في العالم الحقيقي.

What if:

سؤال يضع مقدمة منطقية معاكسة للحقيقة، تسمح لنا أن نستكشف التنويعات للتفسيرات لما حدث بالفعل.

Zealots, Zealotry:

منتهى المذهب أو حده الأقصى وضع فى تصرف. ليس هناك ما يضطرك أبداً للقول بأنك آسف، اقطع واجر، أو اعترف بالخطأ وأنت تذبح عدوك، أو هو يذبحك.

مقالة ببليوجرافية مختصرة جدا

Even novelists are including bibliographies in their work these days, so while this book is meant for general readers and does not have those troublesome and odd-looking little numbers in the text or the crabbed and overstuffed pages of endnotes, a very brief bibliography is certainly in order. It is part tribute to the works that have inspired the essay above and part guide to the materials I have used. Some of the material comes from thirty-odd years of teaching notes, the time I have been in harness teaching history to college students. I have included passages from other books of mine, including Past Imperfect: Facts, Fictions, and Fraud in American History (New York: PublicAffairs, 2004), Sensory Worlds in Early America (Baltimore: Johns Hopkins University, 2003), and Seven Fires: The Urban Infernos That Reshaped America (New York: PublicAffairs, 2006). Other bits and pieces came from conversations with friends and colleagues.

I have given references in the text to sources quoted but have omitted page numbers when the text is available on the Web. The bibliography indicates the version or translation of the text I used. Readers of Erasmus's In Praise of Folly (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1958), quotations on pp. 4 and 143, and Edward Hallett Carr's What Is History? (New York: Knopf, 1962) will see my debt to their erudition. When I went to graduate school, Carr was the standard short work on historical method. I found it fascinating and still do. Quotations from it come from pp. 33. 35, and 133. Jacques Barzun and Henry F. Graff's The Modern Researcher (New York: Harcourt Brace, 1957) was a little dry, but it has gone through multiple editions, so someone out there must be assigning it to classes. Like Barzun and Graff, most of the books students are assigned these days focus solely on methods—how to research a topic, how to prepare a paper, and the like. These come in little sealed packages, "shrink wrapped" with huge and expensive textbooks in history. I've even coauthored one myself, Reading and Writing American History, 3rd ed., 2 vols. (2003). A nice, earnest, but not entirely convincing attempt to go beyond deconstruction

is Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob's Telling the Truth about History (New York: Norton, 1994). I have in the past asked my graduate students to read portions of Peter Novick's spicy yet morally profound That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession (New York: Cambridge University Press, 1988). The quotation came from p. 17.

Finally, those of us who remember Richard Armour's It All Started with Columbus and It Would Have Startled Columbus (New York: McGraw Hill, 1953) (quotations from pp. 6, 7, 8, and 9.of the former) and Dave Barry's Dave Barry Slept Here: A Sort of History of the United States (New York: Random House, 1989) will recognize the tone of respectful irreverence in the pages above.

Legal references are courtesy of Lexis.com, combined federal and state cases. The *New York Times* articles can be found online at www.nytimes.com. The AHA presidential addresses all are online at www.historians.org, the AHA Web site.

The chapter epigraphs come from Carl Becker, Detachment and the Writing of History; ed. Phil L. Snyder (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1958), pp. 65, 44, and 157; David Hackett Fischer, Historians' Fallacies: Toward a Logic of Historical Thought (New York: Harper, 1970), pp. 200, 78 (and on Nevins, pp. 46-47); Allan Nevins, The Gateway to History, rev. ed. (New York: D. C. Heath, 1962), p. 238; Frederick Jackson Turner, The Frontier in American History (New York: Holt, 1935), p. 3; Bernard Bailyn, the Intellectual Origins of the American Revolution (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967), pp. 9, 20-21; Gertrude Himmelfarb, "Postmodernist History" [1994], reprinted in Reconstructing History: The Emergence of a New Historical Society, ed. Elizabeth Fox Genovese and Elisabeth Lasch Quinn (New York: Routledge, 1999), p. 80; Stephen Ambrose quoted in Susan Larson, "Undaunted Courage," New Orleans Times-Picayune, October 6, 2002, Living section, p. 1.

Wilhelm Dilthey, Pattern and Meaning in History, ed. H. P. Rickman and translated by B. G. Teubner (1911; repr., New York: Harper, 1962), p. 140, opens the preface, and rightly so, for Dilthey was one of the most profound premodern thinkers about historical method. 1 am grateful to Monty Python Ltd. for allowing their material to become public and fair use exception in our copyright laws for allowing me to quote snippets.

For Handlin's revealing personal reminiscence in the Introduction, see Oscar Handlin, Truth in History (Cambridge: Harvard University Press, 1979), pp. 38-39. Allan Megill's collection of earlier critical pieces, Historical Knowledge, Historical Error: A Contemporary Guide to Practice (Chicago: University of Chicago, 2007), quotations on pp. x, 13, and 213, came to hand as I was near the end of this essay, but I have read it with awe and some dread. I am not sure that I qualify as one of Megill's "true historians" (something like Molester Mole's secret list in Walt Kelly's Pogo strip, to be feared but not revealed), but I hope so. At any rate, I think I fit the description he gives of the "dinosaurs" who learned method before the "cultural turn" revealed that Foucault and his comrades were models to be copied. Hayden White, The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1990), pp. 1, 49, buries its pessimism about knowing the past under layers of philosophical debris—hard going, but the message comes clear: history is just a form of rhetoric.

Daniel Little, "Philosophy of History," Stanford Encyclopedia of Philosophy, http://plato.stanford.edu/entries/history/, posted February 18, 2007, is the source of the introduction's quotation on the philosophy of history. Bury, Fustel de Coulanges, and von Ranke appeared in my dog-eared copy of Fritz Stern, ed., The Varieties of History (New York: Meridian, 1956), on pp. 208, 178, and 55. G. R. Elton, The Practice of History (New York: Crowell, 1967), tells us not to worry about historical truth. The quotations are from pp. 17 and 46.

Marc Bloch, The Historian's Craft, trans. Peter Putnam (New York: Vintage, 1953), pp. 22 and 47 and, on moral judgments (discussed in Chapter 9), 139 and 140, is a book of luminous wisdom and is still inspiring after all these years. Carole Fink's Marc Bloch: A Life in History (Cambridge: Cambridge University Press, 1989) is excellent and admiring. In Chapter 9, the quotation on Bloch's view of history as politics appears on p. 249, and Bloch's letter to Febvre on evil is reproduced in part on p. 205.

Jacques Barzun's lament in the Introduction appeared in Clio and the Doctors: Psycho-History and Quanto-History (Chicago: University of Chicago Press, 1974), p. 3. John Tosh's The Pursuit of History, rev. 3rd ed. (New York: Longman, 2002), finds the comparison between history and the sciences "perhaps somewhat contrived" (p. 178). Quite right. The philosopher Morris R. Cohen had the last word, though he published sixty years ago and is rarely read today. He concluded that history was simply a distinctive way of "organizing human knowledge." Cohen, The Meaning of Human History (LaSalle, IL: Open Court, 1947), p. 41.

Barbara J. Shapiro's A Culture of Fact: England, 1550-1720 (Ithaca: Cornell University Press, 2003), mentioned in chapter 1, discusses the rise of the profession of history and its "facts" on pp. 34-62, with quotation on p. 34. George Creel recalls his motives in World War, 1914-1918 (New York: Harper, 1920), p. 5.

Socrates extols reason in Plato, The Republic, 4rans. Benjamin Jowett (Oxford: Clarendon Press, 1888), p. 327. The standard scholarly edition of the three volumes of Aristotle's Organon is Harvard University Press's (1938-52). For Aquinas, see Anton Charles Pegis, ed., Basic Writing of Saint Thomas Aquinas (New York: Random House, 1945), p. 23. Thomas Paine's Age of Reason [1795] is in The Complete Writings of Thomas Paine (New York: Citadel, 1945); the quotation is from p. 596. The Philosophical Writings of Descartes, trans. Anthony Kenny (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), vol. 1, p. 120, supplies Descartes's method, and p. 200 connects our powers of knowing to a good God. John Locke, in Essay Concerning Human Understanding, ed. Kenneth P. Winkler (Indianapolis: Hackett, 1995), p. 313, supplies another way of knowing.

Edward Gibbon's Decline and Fall of the Roman Empire (Whitefish, MT: Kessinger, 2004), vol. 3, p. 548, summarizes the case for religion as a (malevolent) cause. John Marshall, The Life of George Washington (Philadelphia: Crissy, 1836), vol. 1, p. 108, is the source of the quote from Washington. Peter Oliver, Origin and Progress of the American Rebellion, ed. Douglas Adair and John A. Schutz (1781; repr., Stanford University Press, 1961), 148-49, offers the loyalist counterargument. Hegel can be found in Hegel's Science of Logic, trans. A. V. Miller (London: Routledge, 2002), p. 82. Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man (New York: Harper, 1992), p. 215, notes the contradiction in national history based on universal principles.

On atrocities (there were more than we once thought) in the English Civil Wars, see Barbara Donagan, "Atrocity, War Crimes and Treason in the English Civil War," American Historical Review 99 (October 1994): 1137-66. Thomas Hobbes reveals the secrets of Leviathan, or, The Matter, Form, and Power of a Common-wealth Ecclesiastical and Civil (London: Routledge, 1885), on p. 85. John Aubrey told the story about Hobbes. See Brief Lives, ed. Anthony Powell (New York: Scribners, 1949), p. 150.

Like Cohen, Karl Popper was not a historian, but *The Poverty of Historicism* (1957; repr., London: Routledge, 2002) is a classic statement of the humane limitations of historical inquiry. The quotations are from pp. 46 and 81. John Hobson, *Imperialism: A Study* (London: Nisbet, 1902), 241.

explains why imperialism was a necessary good. I used Laurence Sterne, The Life and Opinions of Tristram Shandy, Gentleman (Ware: Wordsworth, 1996); quotations in Chapters 1 and 6 are on pp. 8 and 236 respectively.

The reference to "institutes" in Chapter 1 can be explored more fully in Robin Wilson, "New Centers Bring Tradition to a Study of U.S. History," Chronicle of Higher Education, March 16, 2007, p. A10. The quotation from Festinger appears in Leon Festinger, A Theory of Cognitive Dissonance (Evanston, IL: Row, Peterson, 1957), p. 18.

Most textbooks and treatises on formal logic are above my head. For the basics provided in Chapter 1, I have relied on Thomas Gilovich, How We Know It Isn't So: The Fallibility of Reason in Everyday Life (New York: Free Press, 1993); Robert Todd Carroll, The Skeptic's Dictionary (New York: Wiley, 2003); and Howard T. Kahane and Nancy Cavender, Logic and Contemporary Rietoric, 10th ed. (Belmont, CA: Wadsworth, 2006).

I read Fischer's Historians' Fallacies, discussed in Chapter 2, when I was just starting my teaching career, and its lessons remain with me. Three years later, I came upon Ernest R. May's "Lessons" of the Past: The Use and Misuse of History in American Foreign Policy (New York: Oxford University Press, 1973), a reminder that readers of history can mistake its teachings.

Daniel Boorstin's The Americans: The National Experience (New York: Random House, 1965), pp. 55, 183, 191, makes hasty generalizations about slaves. David M. Kennedy's Freedom from Fear (New York: Oxford University Press, 1999), p. 380, makes a hasty generalization about FDR, but it is a reasonable one. Justice Hugo Black's words are repeated in Peter Irons, Justice at War: The Story of the Japanese American Internment Cases (Berkeley: University of California Press, 1983), p. 357.

Francis Parkman generalized about northeastern Indians partly on the basis of his experiences with the Plains Indians he met as a Harvard undergraduate years before he began writing his magisterial France and England in America. He was also, as a Boston Brahmin, a tried and true Anglophile. The quotation can be found in Parkman, a collection of portions of his books from the Library of America (New York: Library of America, 1983), p. 369. Henry Cabot Lodge published his speech, with its view of race, in Speeches and Addresses of Henry Cahot Lodge, 1884–1909 (Boston: Houghton Mifflin, 1909), p. 262. David Landes's far more sophisticated stereotyping appears in his The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor (New York: Norton, 1998), pp. 512–13.

The story of the National History Standards presented in Chapter 2 comes from my Past Imperfect, pp. 98-114, but students of this episode

should consult Gary B. Nash, Charlotte Crabtree, and Ross E. Dunn, History on Trial: Culture Wars and the Teaching of the Past (New York: Vintage, 2000). Newt Gingrich speaks to us in "Why Pearl Harbor Is Still Relevant—Now More Than Ever," May 14, 2007, www.humanevents.com/article.php?id=20715.

On abortion proponents, I used David Garrow, Liberty and Sexuality: The Right to Privacy and the Making of Roe v. Wade (New York: Macmillan, 1994); James Risen and Judy L. Thomas, Wrath of Angels: The American Abortion War (New York: Basic Books, 1998); and my own Roe v. Wade: The Abortion Rights Controversy in American History, coauthored with N. E. H. Hull (Lawrence: University Press of Kansas, 2001).

The highly charged exchange about book reviews and reviewers mentioned in Chapter 2 comes from the "Communications" pages of the American Historical Review 105 (2000): 1871–72. The dueling professors X and Y are, respectively, Alan M. Dershowitz (www.alandershowitz.com) and Norman Finkelstein (www.normanfinkelstein.com). Though their Web sites are not recommended for the faint-hearted, the reader may search them, as I did, for the comments quoted above and many more like them. The tenure battle story appears in Jennifer Howard, "DePaul U. Turns Norman Finkelstein Down for Tenure," Chronicle of Higher Education, June 11, 2007, p. A5.

My source for Chapter 2's story behind the brief in Webster was a conversation with James C. Mohr, the lead author. For the Robert Caro quotations, see The Power Broker: Robert Moses and the Fall of New York (New York: Knopf, 1974), pp. 1161-62. Paul Johnson, Modern Times: The World from the Twenties to the Eighties (New York: Harper and Row, 1983), p. 659, describes war and economics; David Halberstam, The Fifties (New York: Fawcett, 1993), p. 144, is the source of the quotation on suburbia. Bernard Bailyn's call for the narrative synthesis came at the 1981 AHA meeting and was published as "The Challenge of Modern Historiography," American Historical Review 87 (1982): 1-24. The quotation is from p. 12.

In 1963, at the University of Rochester, Willson H. Coates told the students in his historical methods course about his rule of thumb. I was impressed then and remain so now. Coates was a historian's historian—kindly, precise, and above all wise. James McPherson, ed., The Atlas of the Civil War (Philadelphia: Running Press, 2005), p. 142, reports the figure of seven thousand. Gordon Rhea, Cold Harbor: Grant and Lee, May 26-June 3, 1864 (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 2002), p. 386, estimates three thousand casualties. For Westmoreland, see Patricia Sullivan, "General

Commanded Troops in Vietnam," Washington Post, July 19, 2005, p. A1. Renata Adler's Reckless Disregard (New York: Knopf, 1988) is a classic.

Paul Cameron is the subject (and author) in many blog sites. For the quotation in Chapter 2, see www.splcenter.org/intel/intelreport/article.jsp?aid=587. R. R. Palmer speaks of comparisons and changes in word usage in *The Age of Democratic Revolution: The Challenge* (Princeton: Princeton University Press, 1959). The quotations are from pp. 13 and 21.

The Gary Becker/Richard Posner blog, January 23, 2005, featured Judge Richard Posner's comments on profiling Hispanics. See www.becker-posner-blog.com/archives/2005/01/comment_on_prof.html.

For Chapter 3's quote on the blundering generation, see James G. Randall, "The Blundering Generation," Mississippi Valley Historical Review 27 (1940): 7, 8. Not by accident, the piece appeared as the United States tectered on the brink of entering World War II. Randall concluded that "in the present troubled age" policy makers ought to pay more attention to the horrible realities of war than its heroic romances (pp. 27-28). The presidential debate in which Michael Dukakis expressed his opposition to the death penalty can be found at www.debates.org/pages/trans88a.htm.

Malkin and Coulter quotes in Chapter 3 appear in Web sites plugging their books as well as Ann Coulter's Slander: Liberal Lies about the American Right (New York: Crown, 2002), p. 6, and Michelle Malkin at www. jewishworldreview.com/michelle/malkin100401.asp. Philip Roth bares his soul in Operation Shylock: A Confession (New York: Simon and Schuster, 1993). The quotation is from p. 397. David Horowitz quotations come from his Web site, frontpagemag.com. See David Horowitz on Marable at www.frontpagemag.com/Articles/Read.aspx?GUID'66E73ED7-4575-49E4-AE9B-17F7B5A57F51. The original blurb for the book by Horowitz on his frontpagemagazine.com has disappeared from the Web, confusing observers who are trying to figure out what the critics of the book are saying. The disappearance of the original blurb is also an object lesson in the dangers of using Web sites as sources!

Boethius consoles us in *The Consolation of Philosophy*, trans. Joel Relihan (Indianapolis: Hackett, 2000), pp. 7-8. *The Apologia and Other Works of Socrates* is the reprint of the superb Benjamin Jowett translation (repr., Whitefish, MT: Kessinger, 2004); the quotation is from p. 14.

Jefferson included Logan's oration in his Notes on the State of Virginia, ed. William Peden (1785; repr., Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1955), p. 229. The reply to Governor John Henry of Maryland, dated December 31, 1797, appears as Appendix III in the J. W. Randolph edition

(Richmond, 1853), p. 243. Jefferson's concern for "past revolutionary history" was somewhat self-serving. After all, it was his life story. The quotation comes from a letter from Jefferson to Joel Barlow, April 16, 1811, reprinted in Albert E. Bergh and Andrew Lipscomb, eds., The Writings of Thomas Jefferson (Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1903), vol. 13, p. 44. For more on the framers' views of history, see my Revolution and Regeneration: Life Cycle and the Historical Vision of the Generation of 1776 (Athens: University of Georgia Press, 1983).

Richard Dawkins shared his views on religion, in response to 9/11, in A Devil's Chaplain (New York: Houghton Mifflin, 2003), p. 157.

On population increases in early modern cities (discussed in Chapter 3), see Allan Sharlin, "Natural Decrease in Early Modern Cities: A Reconsideration," Past and Present 79 (1978): 127, 128. Robert Cowley, What Ifs? of American History: Eminent Historians Imagine What Might Have Been (New York: Putnam, 2003), p. xiii.

On "Murphy's Law," see Arthur Bloch, Murphy's Law, 26th ed. (New York: Penguin, 2003); on "the Peter Principle," see Laurence J. Peter and Raymond Hull, The Peter Principle (New York: Morrow, 1969); on "Parkinson's Law," see C. Northcote Parkinson, Parkinson's Law (Boston: Houghton, 1957)—all classics. On Cleo's snout, see Daniel Boorstin, Cleopatra's Nose: Essays on the Unexpected in History (New York: Random House, 1994), p. ix. Edward Ayer's In the Presence of Mine Enemies: War in the Heart of America (New York: Norton, 2003), p. 148, explores but one of the many ironies in the coming of the Civil War.

Chapter 4's discussion of the collapse of the Twin Towers draws on The 9/11 Commission Report: Authorized Edition (New York: Norton, 2004), p. 339. The paraphrase from my Seven Fires: The Urban Infernos That Reshaped America (New York: PublicAssairs, 2006), pp. 366-68, is still chilling reading to me. On Hume's idea of causation, see Treatise of Human Understanding, bk. 1, p. 171. Steven Pinker, The Stuff of Thought: Language as a Window into Human Nature (New York: Viking, 2007), pp. 189, 190, is the source of the quotations on time, cause, and space.

Karl Marx's Poverty of Philosophy [1847] quotation in Chapter 4 comes from Howard Selsam and Harry Martel, eds., Reader in Marxist Philosophy (New York: International, 1963), p. 188. For Hitler's views on history, even more chilling than the design failures of the Twin Towers, see Adolph Hitler, Mein Kampf, trans. Ralph Manheim (New York: Reynal, 1939), p. 390. Fukuyama's riff on his own work appears at www.marxists.org/reference/subject/philosophy/works/us/fukuyama.htm. See Niall Ferguson,

"Empires with Expiration Dates," Foreign Policy, September 1, 2006, p. 47, for the quote in the text.

Paul Boyer and Stephen Nissenbaum, Salem Possessed: The Social Origins of Witchcraft (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1974), pp. 212, 150, 139. An informal survey of American history survey textbooks shows that the Putnam-Porter quarrel, with reference to Salem Possessed, is the gold standard for explanations of the Salem witchcraft crisis. Malcolm Gladwell's introduction to The Tipping Point: How Little Things Can Make a Big Difference (Boston: Little, Brown, 2000), is one of the most quoted modern discussions of historical causation. Gladwell's own Web page (www.gladwell.com/tippingpoint/index.html) repeats the key themes of the book and is the source of the quotations in the text. Thomas Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions (Chicago: University of Chicago Press, 1962), pp. 182-91, explains paradigm shifting. I heard Thomas Kuhn talk about Copernicus and scientific revolutions when I was an undergraduate at the University of Rochester in 1962. The theory, now much criticized, remains a classic in many more fields than history of science.

Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure (New York: Free Press, 1949), included the new term self-fulfilling prophecy. Merton was one of the most fruitful and frequently quoted thinkers of the mid-twentieth century, and his many contributions to our language—for example, role expectation, insider, and focus group—are still in use. See David Hume's Treatise of Human Nature (London: Noon, 1739), p. xiii, for his most commonly quoted explanation of the early application of scientific method.

For the quotations in Chapter 4 on the controversy over Time on the Cross, see Robert William Fogel and Stanley L. Engerman, Time on the Cross: Evidence and Methods, A Supplement (Boston: Little, Brown, 1974), p. 4; Herbert G. Gutman and Richard Sutch, "The Slave Family: Protected Agent of Capitalist Masters or Victim of the Slave Trade?" ch. 3 of Reckoning with Slavery, by Paul A. David et al. (New York: Oxford University Press, 1976), p. 96; Herbert G. Gutman, Slavery and the Numbers Game, rev. ed. (Urbana: University of Illinois Press, 2003), p. 38; Robert William Fogel and Stanley L. Engerman, "Explaining the Relative Efficiency of Slave Agriculture in the Antebellum South," American Economic Review 70 (1980): 672; and Robert William Fogel, Without Consent or Contract: The Rise and Fall of American Slavery (New York: Norton, 1989), p. 9.

The Rosenberg-Kessler Harris battle discussed in Chapter 4 played out in EEOC v. Sears Roebuck Company, U.S. District Court for the Northern

District of Illinois 628 F. Supp. 1264 (1986). Quotations are from the opinion of the court and from Thomas Haskell and Sanford Levinson's "Symposium on Academic Freedom: Academic Freedom and Expert Witnessing: Historians and the Sears Case" Texas Law Review 66 (1988): 1630, 1650. Kessler-Harris's reply appeared as "Academic Freedom and Expert Witnessing: A Response to Haskell and Levinson," Texas Law Review 67 (1988): 432. Haskell and Levinson's rejoinder is "On Academic Freedom and Hypothetical Pools: A Reply to Alice Kessler-Harris," Texas Law Review 67 (1989): 1594.

The standard work on Kinsey is James H. Jones, Alfred Kinsey: A Public/ Private Life (New York: Norton, 1998). George Fitzhugh's comments, from Cannibals All!, were excerpted in Eric L. McKitrick, ed. Slavery Defended (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1963), p. 44.

Hitler's Mein Kampf, p. 212, introduced the "big lie," which I discuss in Chapter 5. Peter Sagal's delightful romp through "very naughty things and how to do them," The Book of Vice (New York: HarperCollins, 2007), p. 113, discusses the swiftboat episode. I discussed Michael Bellesiles's Journal of American History article in Past Imperfect, with quotations on pp. 145-51. For Woodrow Wilson's misrepresentations, see A History of the American People, Documentary Edition (New York: Harper, 1901) vol. 1, pp. 13, 28, 64, and vol. 10, pp. 17-18; Claude G. Bowers, The Tragic Era, The Revolution after Lincoln (New York: Literary Guild, 1929), p. 216; Allan Nevins and Henry Steele Commager, A Pocket History of the United States (New York: Harper, 1942), pp. 4, 5, 24, 53, 94, 248, and 249; Paul H. Buck, The Road to Reunion, 1865-1900 (New York: Knopf, 1937), pp. 25-26, 33, 35, 294, 295, 309. E. Merton Coulter, The South during Reconstruction, 1865-1877 (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1947), used Buck.

Full disclosure: I met both Buck and Coulter, the first at Harvard, in the 1960s, the second when I went to teach at Georgia, in 1978. Both small gentlemen, bowed with age, they were courteous and showed no awareness that what they had written could be seen as racist or biased in any way.

Scott Adams describes the weasel-zone in Dilbert and the Way of the Weasel (New York: Harper Business, 2002), p. 5. Albert Bandura, Social Learning Theory (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1977), explains how criminals learn to rationalize their conduct. "Bullshit" may involve lying, as Harry G. Frankfurt tells us in On Bullshit (Princeton: Princeton University Press, 2005), p. 9.

Arthur M. Schlesinger Jr., in Journals, 1952-2000, ed. Andrew Schlesinger and Stephen Schlesinger (New York: Penguin, 2007), pp. 838, 840,

tells us about lying. The comments on Truman and Kennedy quoted in Chapter 6 appear on pp. 22, 57, and 334.

The quotation in Chapter 5 from John Demos, The Unredeemed Captive: A Family Story from Early America (New York: Knopf, 1994), is from pp. 189-90; Demos, "In Search of Reasons for Historians to Read Novels," American Historical Review 103 (December 1998): 1527, poses the novelistic alternative. T. H. Breen, Imagining the Past: East Hampton Histories (Athens: University of Georgia Press, 1996), pp. 14, 15, and Daniel K. Richter, Facing East from Indian Country: A Native History of Early America (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2001), pp. 9, 13, explore the possibilities that a more open conversation between reader and author can dispel the anxiety about the uncertainties of history.

Regarding the discussion of experimental history in Chapter 5, see Laurel Thatcher Ulrich, A Midwife's Tale, The Life of Martha Ballard, Based on her Diary, 1785-1812 (New York: Knopf, 1991), p. 33, and Martha Hodes, "Experimental History in the Classroom," AHA Perspectives 45 (May 2007): 38. Neither Ulrich nor Hodes would agree that they were advocating "lying," but calling invention "experimental" or doing what Ulrich does to fill in the gaps is artifice, surely. Rhys Isaac's "Discourse on Method" at the end of his The Transformation of Virginia, 1740-1790 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1982), is a model of its kind. The quotation in the text is from p. 325.

Dan Brown's revelations were reported in Dan Brown, "Witness Statement," London Times, Law News, March 14, 2006. For Frey, see thesmokinggun.com/archive/0104061jamesfrey1.html. Haley's Roots was outed in Philip Nobile's "Uncovering Roots," Village Voice, February 23, 1993. The true story of Rigoberta Menchú appears in Ron Robin's Scandals and Scoundrels: Seven Cases That Shook the Academy (Berkeley: University of California Press, 2004), pp. 166–92. See also Nancy Milford, "The False Memoir: All the Shouting about A Million Little Pieces Is Part of a Long Debate That Dates to the Origins of Writing," Washington Post, February 5, 2006, p. BW10, and Marie Arana, "The Way I Saw It: Chronicling a Life Requires the Imagination of a Storyteller," Washington Post, February 5, 2006, p. Bo3.

On puns in law reviews, see Thomas E. Baker's bibliography of law school humor in the *Drake Law Review* 51 (2002): 105-49, entitled "A Compendium of Clever and Atnusing Law Review Writings," which includes a section on the punning titles. James Axtell's talk about teaching history is "The Pleasures of Teaching History," *History Teacher* 34 (2001), www.historycooperative.org/journals/ht/34.4/axtell.html.

H. Stuart Hughes was either a demigod or a demon, depending on one's politics, when I was a graduate student at Harvard. A superb slightly left-of-center European intellectual historian, he wore red ties to department meetings to infuriate his more conservative colleagues (so I was told). His comment on history, art, and science appears in H. Stuart Hughes, History as Art and as Science: Twin Vistas on the Past (Chicago: University of Chicago Press, 1975), p. 3.

Most of the quotations in Chapter 6 that do not have citations in the text come from my Past Imperfect, pp. 60-72, 115-21. The quotes from Harry Elmer Barnes's The New History and the Social Sciences (New York: Century, 1922), are on p. 13 (concessions to the first of many new histories) and p. 6 (on history and politics). David Donald, "Review Note," American Historical Review 74 (December 1968): 532, 533, fits into the long history of historical writing and criticism, inelegantly termed "historiography." Arthur Schlesinger, The Vital Center (Boston: Houghton Mifflin, 1949), pp. 1, 10, 249, 251, stirred great controversy at the time. His 1996 comment appears in Past Imperfect, p. 114. Dated but still the best survey of American historical writing and thought up to the 1960s is John Higham, History: Professional Scholarship in America, rev. ed. (Baltimore: Johns Hopkins, 1989).

Alan B. Spitzer, Historical Truth and Lies about the Past (Chapel Hill: University of North Carolina, 1989), pp. 97-115, deconstructs the Bitburg episode brilliantly. Quotations from Reagan appear on pp. 98 and 99. The newspaper smear of Burr first appeared in the Gazette of the United States on August 2, 1805, and the "Queries" were widely reprinted. John C. Calhoun's March 16, 1836, speech was reprinted in The Works of John C. Calhoun (New York: Appleton, 1851), vol. 2, pp. 626, 627. On Sheehy's mistake, see www.dailyhowler.com/ hog1598_2.shtml. Clarke's goof is lambasted in www.danieldrezner.com/ archives/001188.html. For the (only, I'm happy to report) negative review of my Great New York Conspiracy of 1741, see Winthrop Jordan. "Review," Law and History Review 23 (2005): 212-13, "While this study gives a separate, helpful 'chronology' of events, the index is so incomplete as to be dangerous, especially for student use." Full disclosure: Winthrop Jordan was a superb historian of slavery, but we disagreed about the economic (me) versus the racial and sexual (him) origins and deployment of the institution. The full text of the Lincoln-Douglas debates of 1858 is at lincoln.lib.niu.edu/debates.html. The two speeches by President George W. Bush, in 2004 and 2006, are available at transcripts.cnn.com/TRANSCRIPTS/0405/21/se.01.html, and www. whitehouse.gov/news/releases/2006/01/2006013110.html.

The Donald Rumsfeld interview discussed in Chapter 6 is reported in David von Drehle, "Wrestling with History," Washington Post November 13, 2005, p. W12. The South Carolina abortion case is The State, Respondent v. Regina D. McKnight, 352 S.C. 635 (2003). Supreme Court opinions in the other cases can be found at lexis.com. The "Southern Manifesto" appears in Congressional Record, 84th Cong., 2nd sess., vol. 102, pt. 4 (March 12, 1956): 4459-60. I have taken the Southern Manifesto and the response of the southern newspapers to Brown from Waldo E. Martin Jr., Brown v. Board of Education: A Brief History with Documents (Boston: Bedford, 1998), pp. 204, 220-21.

The story of Sean Wilentz's part in the Clinton impeachment hearings is told in my *Past Imperfect*, pp. 122–27. John Kerry's hometown newspaper reference became the Web version of an urban rumor. See www. truthorfiction.com/rumors/e/endorsements.htm. Howard Dean was interviewed on December 6, 2005, on WOAI in San Antonio. The widely reported remarks appeared at www.cnn.com/2005/POLITICS/12/06/dean. iraq.1935. President Bush channeled President Truman on more than one occasion. For the West Point commencement address in 2006, see www. whitehouse.gov/news/releases/2006/05/20060527-1.html. For the 2002 speech, see www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/20020601-3.html. William Henry Seward warned about the irrepressible conflict in 1858; see www.nyhistory.com/central/conflict.htm.

Stephen Breyer's Active Liberty: Interpreting Our Democratic Constitution (New York: Knopf, 2005) is one of the most literate and persuasive essays on our law by anyone charged with interpreting it. This may be because Breyer has spent his entire career in academe and on the bench, and not in politics. For Haskell and Levinson's final remarks on the Sears case, see Haskell and Levinson, "On Academic Freedom and Hypothetical Pools," p. 1594. The AHA Statement on Standards as revised in 2004 and approved in 2005, is online at www.historians.org/pubs/Free/ProfessionalStandards.cfm.

On Ambrose, discussed in Chapter 7, see my Past Imperfect, pp. 180-89. In an interview on popular history, Laurel Thatcher Ulrich was quoted in Matthew Price, "Hollow History," Boston Globe, October 24, 2004, p. E1. For Herbert Spencer's "first principle," see his Social Statics (1855; repr., New York: Appleton, 1913), p. 55. For more on the National History Standards, including the quotes from Gary Nash, see my Past Imperfect, pp. 105-6.

James Kirkpatrick's less-than-epic poesy appeared in The Sea-Piece: A Narrative, Philosophical, and Descriptive Poem in Five Cantos (London: Cooper, 1750). The quotations come from pp. xxii, xxiii, xxiv. Stephen Oates described his travail in "I Stood Accused of Plagiarism," History News Network, April 15, 2002, hnn.us/articles/658.html. One of his accusers, Michael Burlingame, replied with line and verse quoted here; see "Michael Burlingame's Response to Stephen Oates," http://historynews-network.org/articles/article.html?id=648. The quotation from Oates's Biography as High Adventure (Amherst: University of Massachusetts Press, 1986), appears on p. 137. Posner's views are expressed in "Plagiarism—Posner Post" April 24, 2005, www.becker-posner-blog.com/archives/2005/04/ plagiarismposne.html, and in Posner's Little Book of Plagiarism (New York: Pantheon, 2007).

The bible of game theory is Contributions to the Theory of Games, 4 vols., eds. H. W. Kuhn and A. W. Tucker (Princeton: Princeton University Press, 1950-59). I have used with profit Shaun P. H. Heap and Yanis Varoufakis's Game Theory: A Critical Text, 2nd ed. (London: Routledge, 2004), and Peter C. Ordeshook's Game Theory and Political Theory: An Introduction (New York: Cambridge University Press, 1986). Sylvia Nasar's A Beautiful Mind: a Biography of John Forbes Nash, Jr., Winner of the Nobel Prize in Economics, 1994 (New York: Simon and Schuster, 1998) is an admiring biography.

The Micmac and the French offer their conflicting accounts of the encounter described in Chapter 8 in my Sensory Worlds in Early America (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2003), p. 4. My treatment of the philosophers in chapter 8 is confessedly episodic and anecdotal. I admit to source mining. See George Berkeley's Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge (1734; repr., New York: Penguin, 1988), pp. 12, 49, 79, 89.

Derrida quotations come from Speech and Phenomena, trans. David B. Allison (Evanston: Northwestern University Press), p. 68; Of Grammatology, trans. G. C. Spivak (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1974), p. 158, and "As If It Were Possible" in Michel Meyer's Questioning Derrida (Aldershot: Ashgate, 2001), p. 105. On Derrida, I consulted John D. Caputo, The Prayers and Tears of Jacques Derrida (Bloomington: Indiana University Press, 1997); Peter Fenves, "Derrida and History," in Derrida and the Humanities, ed. Tom Cohen (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), pp. 271–92; Christopher Norris, Deconstruction: Theory and Practice (London: Routledge, 2002); Barry Stocker, Routledge Philosophy

Guidebook to Derrida on Deconstruction (London: Routledge, 2006), and the essays in Jack Reynolds and Jonathan Roffe, eds., Understanding Derrida (New York: Continuum, 2004).

Richard J. Evans's take on the deconstructionists is far easier to read. In other words, good philosophy of history is argument that can be shared with non-experts. See In Defense of History (New York: Norton, 1999), p. 83. His lamentation on the philosophy of history appears on p. 9. But he agrees that "the theory of history is too important to be left to the theoreticians" (p. 12). This formulation of the duty of historians to examine their own discipline (arrived at independently by both him and me) originates from Georges Clemenceau's famous epigram, "La guerre! C'est une chose trop grave pour la confier à des militaires" (War is too important to be left to the generals). David D. Roberts's comment on deconstruction appears in his Nothing but History: Reconstruction and Extremity after Metaphysics (Berkeley: University of California Press, 1995), pp. 180, 181.

John Tosh's plea for historical awareness appears in The Pursuit of History, p. 22. "Wuz you dere?" was the communist refutation of scholarship contrary to the teachings of Marx and Lenin, according to the official party line. My parents, good socialists, hated it.

Gilbert Ryle, The Concept of Mind (London: Hutchinson, 1949), p. 16, offers the now-classic query "But where is the university?" A. J. Ayer's classic work Language, Truth, and Logic first appeared in 1936. I have used the later edition (London: Gollancz, 1946), pp. 100, 101, 102.

The definition of pragmatism from its founder, Charles Sanders Peirce, appears in Philip P. Wiener, ed., Charles Sanders Peirce: Selected Writings (New York: Dover, 1966), p. 183. William James's lectures on pragmatism, in the 1906-7 academic year, became the classic Pragmatism. The quotation is from Giles Gunn, ed., William James: Pragmatism and Other Writings (New York: Penguin, 2000), p. 113. Not only is John Dewey's Democracy and Education: An Introduction to the Philosophy of Education (New York: Macmillan, 1916) a classic, but it influenced the physical and psychological shape of education in New York City. Desks and chairs once bolted to the floor became movable as teachers turned classrooms into miniature democratic committees and students learned to work in teams. The quotation appears on p. 94. Dewey's presentism blossoms in his essay "Historical Judgments" in Logic: The Theory of Inquiry (New York: Holt, 1938), 235. A close and persuasive reading of Dewey's presentism is William H. Dray, On History and Philosophers of History (Leiden: E. J. Brill, 1989), 164-83.

Kurt Gödel is so difficult to follow that only a few brave souls (outside the community of mathematicians) have ventured to follow his tracks. See Rebecca Goldstein, Incompleteness: The Proof and Paradox of Kurt Gödel (New York: Norton, 2005). The Gödel quotation is from the book's frontispiece. David Horowitz weighs in on the majority-minority question in his Unholy Alliance: Radical Islam and the American Left (New York: Regnery, 2006). The quotation comes from the blurb for the book at the frontpagemagazine.com bookstore page, www.donationreport.com/init/controller/ProcessEntryCmd?key'D8QoU3WoR8. Richard Dawkins, "God's Utility Function," Scientific American, November 1995, p. 85, is the source for the lack of pattern in genetic activity.

Benoit B. Mandelbrot explains himself and his theory in *The Fractal Geometry of Nature* (San Francisco: W. H. Freeman, 1982). A popular version appears in James Gleick, *Chaos: Making a New Science* (New York: Viking, 1987). Georges Santayana, *The Life of Reason* (New York: Scribners, 1906), vol. 1, pp. 1–2, asks the question that will drive the five-volume survey and, on p. 2, admits that the philosopher's ambition is to speak for the entire race.

The quotation from Lord Acton in Chapter 9 is from Lectures on Modcrn History (New York: Macmillan, 1952), p. 24. O'Sullivan's Manifest Destiny can be found at www.mtholyoke.edu/acad/intrel/osulliva.htm. Theodore Roosevelt speaks in The Man in the Arena: Selected Writings of Theodore Roosevelt (Ferndale, Penn.: Forge, 2004), p. 20. U. B. Phillips's American Negro Slavery (1918; repr., New York: Appleton, 1929), pp. 454, 455, espoused the racialist view of slave character.

The discussion of the Lipstadt-Irving case appears in Jamil Zinaldin, "The Price of Truth," AHA Perspectives, January 2002, and Deborah Lipstadt, History on Trial: My Day in Court with David Irving (New York: Harper Collins, 2005), with the quotations from pp. 289-90. The judicial ruling was widely reported in the British press. See, e.g., David Pallister, "The Judgment: Judge Condemns Deliberate Falsification of Historical Record," Guardian (London), April 12, 2000, p. 6.

Augustine's City of God is grim reading for the sinner. The quotation is from Augustine, On the Two Cities (New York: Ungar, 1957), p. 66. For the historians of religion, see Edward Whiting Fox, "Editor's Introduction" to E. Harris Harbison, 'The Age of Reformation (Ithaca: Cornell University Press, 1955), pp. viii, ix; Harbison, Age of Reformation, p. 55; Arnold J. Toynbee, A Study of History, vol. 4, The Breakdown of Civilizations (1939; repr., New York: Oxford University Press, 1962), p. 227, which casts a skeptical eye on all religion.

Excerpts from Johnson and Mather texts are reproduced in Perry Miller and Thomas H. Johnson, eds., The Puritans: A Source Book of Their Writings (New York: Harper, 1938), pp. 144, 163; Michael P. Winship, Making Heretics: Militant Protestantism and Free Grace in Massachusetts, 1636–1641 (Princeton: Princeton University Press, 2002), p. 230. To be fair and forthcoming, I should admit that Michael Winship is my colleague and I have spent much time with him listening and learning. Winship's take on theology is the opposite of George M. Marsden's, but when they set about their scholarly labors they converge. See Marsden, Jonathan Edwards: A Life (New Haven: Yale University Press, 2003), p. 502. The other quotations are from Sidney E. Ahlstrom, A Religious History of the American People (New Haven: Yale University Press, 1972), 1096, 13.

Steven Pinker's essay on the short-lived Harvard College curriculum requirements that I discuss in the Conclusion is "Less Faith and More Reason," Harvard Crimson October 27, 2006. Lawrence M. Krauss added his "amen" to Pinker in "Reason, Unfettered by Faith," Chronicle of Higher Education, January 12, 2007, p. B20. The last Krauss quotation comes from his Hiding in the Mirror: The Mysterious Allure of Extra Dimensions, From Plato to String Theory and Beyond (New York: Viking, 2005), p. 12. Stephen J. Gould's views appear in Gould, "Nonoverlapping Magisteria," Natural History 106 (March 1997): 16–22. Ralph Waldo Emerson, "The American Scholar," address to the Phi Beta Kappa Society of Harvard College [1837], reprinted as The American Scholar (New York: New York Public Library, 1901), p. 14.

A friend, reading this essay, was shocked that it made no mention of Michel Foucault. Foucault references are a staple of history dissertations these days, and I decided that I did not want to be left out of the mob, as it were. Roberts's Nothing but History, p. 184, offers a most succinct and sympathetic summary of Foucault: "Foucault has been a major source of the postmodern notion that 'man,' which once seemed the transcendent and enduring subject, dissolves into impersonal systems that are historically specific." Foucault himself taught us to look for the discontinuities, the interruptions that are the stuff of real lives. Instead of movements and progress, we need to probe how our own ruling assumptions govern not only our view of the past but how we constructed that past. But there is a little too much self-reflection in this for me. A sample, an apology of sorts, appears in Foucault's Archaeology of Knowledge (London: Routledge Classics, 2002), p. 18: "I console myself with the thought that . . . in order to carry out its task (this work) had first to free itself from these various

methods and forms of history. . . . Hence the cautious stumbling manner of this text: at every turn, it stands back, measures up what is before it, gropes towards its limits, stumbles against what it does not mean, and digs pits to mark out its own path. At every turn, it denounces any possible confusion. It rejects its identity, without previously stating: I am neither this nor that." Fair enough.

المؤلف في سطور:

بيتر تشارلز هوفر Reter C. hoffer

أستاذ وباحث بارز فى قسم التاريخ بـــ the university of georgia متخصص فى التاريخ الأمريكى المبكر وتاريخ القانون، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد عام ١٩٧٠، وله عدد من المؤلفات منها:

- past Imperfect: facts. Fiction. And Fraud in the Weiting of a' erican History (Public Affaris., 2004).
- Server fires: the urban infernos that reshaped American History (Public Affaris., 2006).
- The Brave new world: a history of early American (Johns Hopkins. 2007).
- The supreme court: an essential history (Kansas. 2007).
- The Treason Trials of Aron Burr (Kansas. 2007).

المترجم في سطور:

قاسم عبده قاسم

- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق.
- له عدة مؤلفات في تاريخ عصر سلاطين المماليك، والحروب الصليبية والفكر التاريخي، ومنهج البحث، والعلاقة بين الأدب والتاريخ.
 - ترجم عددًا مهمًا من الكتب منها:
 - ما التاريخ الآن؟
 - تاريخ الحروب الصليبية.
 - الفتوح العربية الكبرى.
 - التاريخ الوسيط.
 - التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية.

• حصل على:

- جائزة الدولة التشجيعية ٩٨٣ ام.
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٨٣م.
 - جائزة الدولة التفوق سنة ٢٠٠٠م.
 - جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٨م.

التصحيح اللغوى: محمد المصرى

الإشراف الفنى: حسن كامل